
مید نیکوف
دفتر
برلین





ميدنيكوف

دفتر برلين

دار التقدم
موسكو

هذا الكتاب عن الايام الاخيرة من الحرب الوطنية. يبرز فيه المؤلف السمات الفريدة لربيع ١٩٤٥ البطولي، ويرسم صورة المحاربين السوفييتيين الذين شنوا هجومهم الكاسح، فحملوا الوية النصر من الاودر الى شبري، ونصبوها فوق قبة الريخستاغ.

يروي المؤلف، وقد كان وقتئذ مراسلا اذاعيا عسكريا كيف استسلم المدافعون عن «الريخ الثالث» المقضي عليهم، وكيف تم التوقيع على وثيقة الاستسلام في كارلخورست، وكيف كان يحتضر في الاقبية المظلمة لدار المستشارية أولئك الذين كانوا فيما مضى يحلمون بالسيطرة على العالم: هتلر وغوبلز والمنتحرون الآخرون من قادة الدولة النازية.

ان فصل «دار هملر» – عن أقبية الغستابو للتعذيب – ينتهي منطقياً بالحديث عن الكيفية التي تم بها بعد النصر اعتقال مجرمي الحرب الرئيسيين غورنغ، وهملر وشترايخر، وريبنتروب، الذين حاولوا الاختفاء.

وثمة بضع قصص مكرسة لانبعاث الحياة في برلين.

كان شهر نيسان (أبريل) هذا في ألمانيا دافئاً ومشرقاً. والربيع الذي بدأ مبكراً في أوروبا، نادر الاشراق والسخاء، سرعان ما زيّن الارض بمروج يانعة الخضرة وأشجار زاخرة بالازهار. وأشجار البتولا ذات الجذوع البيضاء، التي تذكر بروسيا تذكيراً يؤلم القلوب، كانت منتصبة كأنما يحيط بها ضباب ليلكي لطيف. كانت الامطار تكاد لا تهطل، والسماء تبعث البهجة بزرقتها الصافية.

وعند غروب الشمس، حين كان يتكاثف الغسق، كان يمكن رؤية القرى والضياع تشتعل على امتداد تلك السهول المنبسطة. وكانت انعكاسات المواقد الهائلة تعلي بقبة السماء المرصعة بالنجوم، ولدى الافق كان يصعب على المرء أن يتبين أين هي الارض وأين هي السماء وقد شملتها نيران الحرائق. وكلما أوغل المرء غرباً، أصبح الجو أكثر دفئاً. في مستهل نيسان (أبريل) تعاقبت أيام حارة، مع أنه كانت تهب أحياناً نسمات منعشة تحمل معها رائحة الارض الندية.

وفي المنطقة المسماة ببرلين الكبرى، انبعثت أيضاً الخضرة وازدهرت الاشجار، حتى تلك التي كانت أغصانها متصدعة ومتقصفة بشظايا القذائف والالغام. ولكن غابات الصنوبر لم تعد مرئية، فقد أزاحتها المعامل والضواحي والسكك الحديدية. وفي أطراف المدينة كان تسود روائح الباطون المحطم، والزيت المسفوح، ورائحة الغبار والحجارة والحديد.

وذات يوم من نيسان (أبريل) ، بعد الظهر ، كانت تجري، وسط سيل من الدبابات والمدافع السيارة والشاحنات، المتدفقة الى المدينة من الشرق عن طريق جادة فرانكفورت العريضة المعبدة، سيارة شحن، خضراء اللون مما هو مألوف في الجبهة، ذات غطاء من الخيش مشدود شداً وثيقاً على الصندوق.

وعلى أرضها المهتزة، حيث كانت تنفذ خيوط رفيعة من نور الشمس عبر ثقوب صغيرة في الخيش، كانت موضوعة بضعة صناديق ضخمة. ولكن الشاحنة الخضراء ما كانت تنقل الى خط القتال الامامي لا قذائف ولا مواد تموينية، لا رسائل ولا صحف.

كانت تلك سيارة تحمل أجهزة تسجيل، وقد أصبحت بالنسبة لنا، نحن فريق مراسلي راديو موسكو، في أيام الاستيلاء على برلين تلك، بيتنا المتنقل ومختبرنا الذي كنا نسمع فيه التسجيلات الجاهزة، و«دبابتنا ــ الراديو» الواغلة في احياء ما تزال متلهبة، توقفت فيها رحى القتال منذ وقت جد قصير.

وخلال تلك الشهور التي قضيناها في ألمانيا، اجتازت سيارتنا مئات الكيلومترات في دروب الحرب.

كنا نقترب بالميكروفون من محاربين مهاجمين البيوت التي حاول الهتلريون عبثاً تحويلها الى حصون أخيرة لهم، ومن السواقين الناقلين الذخائر الى خط القتال الامامي، المتوقفين في مكان ما على طرف الطريق لدقيقة واحدة فقط.

كنا نسجل حكايات رجال الدبابات وسواقي العربات، وحكايات اللاجئين. .

وكنا نعطي الميكروفون للالمان أيضاً، الذين يصبون اللعنات

على هتلر ودولته النازية التي حملت الى الشعب الالماني مثل هذه المصائب والآلام.

واذ ذاك كنا نفكر بأن ستمضي سنوات، ويترعرع جيل تبدو له معركة برلين تاريخاً قديماً. وفي مكان ما، في أمسية تذكارية، سترن أصوات المحاربين الذين خاضوا معركة برلين. واذ ذاك سيذكر عملنا أيضاً بكلمة طيبة.

ان هذا الكتاب المتضمن حكايات قصيرة عن المعارك في برلين لا يدعي تقديم صورة كاملة وعرض جميع الاحداث حسب ترتيبها الزمني.

ولست أصور من الذاكرة الا ما شهدته بنفسي. واني لاقوم بهذا وأنا على ثقة من أن فصول أيام الحرب تلك، والصور والمشاهد الحية، المعبرة عن مختلف نواحي الحياة، تعطي الى حد ما ملامح منقطعة النظير للايام البطولية، وتظهر الايام الاخيرة للنظام الفاشستي، وترسم صورة المحاربين السوفييتيين الذين أنهوا معركة برلين في ربيع ١٩٤٥.

الذكرى الخالدة

ما سيروى الآن قد حدث قبيل الاستيلاء على العاصمة الالمانية، على مشارفها البعيدة، في تلك الايام التي كانت فيها القوات السوفييتية تتأهب، في آذار ونيسان (مارس وأبريل) ١٩٥٤، ١٩٤٥ للانقضاض الاخير في اتجاه برلين.

كنا قد بدأنا طريقنا الطويلة في دروب ألمانيا من بولونيا، اذ ركبنا الطائرة الى بوزنان لكي نوا صل السير الى الجبهة بما نصادف من سيارات في الطريق.

ان بوزنان — المدينة البولونية الكبيرة الجميلة، مدينة الساحات الرحبة بما فيها من قباب حجرية حادة الرؤوس من الكاتدرائيات المبنية على الطراز الغوطي، مدينة الدور العالية، والشوارع الضيقة والجسورالمحدودبة القائمة على نهر فارتا الزاخر بالمياه، المدينة التي أحرقتها موجة الحرب الزاحفة غرباً، — اتذكرها في تلك الايام بالجنازة المؤثرة المهيبة التي ووَرَى أثناءها الثرى داخل ضريح مشترك رجال الدبابات السوفييتيون والوطنيون البولونيون.

ولكني كنت قبل كل شيء قد رأيت حصن بوزنان الحجري، ومتراس الحصن القديم والسور الجبار المرتفع فوق المدينة.

دخلنا من البوابة نصف المتهدمة الى فناء قلعة بوزنان، وهو أشبه بساحة رحبة مبلطة بالحجارة. وكان المرء يرى هنا في كل مكان حفرا أحدثتها القذائف وثقوباً متشققة على الجدران الرمادية، كأنما تفسخت بيد الهرم.

جميع الحصون القديمة متماثلة بشيء ما. انها في كل مكان حصون رمزية فقط، وتمثل من الناحية الاساسية آثاراً معمارية قديمة. ولكن الالمان حصنوا قلعة بوزنان من أجل الدفاع. فقد قبعوا وراء متراسها وأسوارها، وحاربوا بضراوة حتى بعد أن تم تحرير المدينة ذاتها بضربة جبارة من القوات السوفييتية.

كان قد بقي في هذه القلعة قرابة عشرة آلاف محارب، هم البقية من مجموعة بوزنان المحطمة. وكان جنود الهتلريون يتسربون من القلعة الى شوارع المدينة الرئيسية، عبر ممرات تحت الارض، فيقتلون جنوداً سوفييتيين ووطنيين بولونيين، ثم يحاولون الاختفاء مرتدين اللباس المدني.

أول الامر، لم تقم القيادة السوفييتية بهجمات صارمة على القلعة، إذ أن القوات كانت، بعد الاستيلاء على المدينة، مندفعة بصورة كاسحة نحو حدود ألمانيا ذاتها. ولكن جاء بعد ذلك دور القضاء على حامية القلعة أيضاً، هذه الحامية التي كانت، مع أنها مطوقة، تعيق سير الحياة الطبيعية في المدينة.

وبعد جملة من الهجمات، استسلمت قلعة بوزنان، أما قائد هذه المجموعة الجنرال ــ الليوتنان غونيل، فقد أطلق على رأسه الرصاص بعد أن وقع على أمر الاستسلام. وراحت تمر من القلعة الى مركز المدينة مواكب كئيبة من الجنود والضباط الوسخين المنهكين الجياع.

بيد أن كثيراً من المدافعين المخزين عن هذه القلعة ظلوا منطرحين فيها، جثثاً في الاقبية، وجرحى على الارض في الغرف الكبيرة ذات السقوف المقببة. ثم جيء الى هنا بالجرحى الهتلريين

من جميع أنحاء المدينة، وسرعان ما تحولت القلعة «المنيعة» الى مستشفى، الامر الذى كان بحد ذاته رمزاً له دلالته.

وحين جئنا الى القلعة، كان المستشفى ما يزال قائماً موقتاً فيها، وكثير من أبوابه مخلوعا بقذائف المدفعية، وأما الجدران، حتى الداخلية منها، فكانت تحمل آثار رشات من البنادق الاوتوماتيكية.

كانت تقوم في «غرف المستشفى» من نوع غير مألوف، صفوف من السرر الحديدية على طول الفتحات الضيقة للرمي في الجدران. وعلى هذه السرر كان يستلقي الجرحى، وقد غسلت وجوههم وضمدت جروحهم، يلتحفون باغطية رمادية. وفي الحق، ان الاسرة كانت غير كافية هنا وهناك، فأستعيض عنها برفوف للمنامة جمعت على عجل من صفائح الخشب.

ولكن ممرضاتنا كن يعنين بالجرحى في كل مكان. وفي غرفة العمليات التي جهزت في احدى حجرات القلعة كان أطباء الكتيبة الطبية يعملون بكل معنى الكلمة ليلا ونهاراً. وكان الاسعاف الطبي يقدم للجنود والضباط الهتلريين على قدم المساواة، وكان الاطباء السوفييتيون يبدون نحوهم العناية ذاتها التي كان من شأنهم أن يبدوها نحو جماعتهم لو أنهم كانوا هم، لا الالمان، طريحي الفراش اذ ذاك في قلعة بوزنان.

ولأكون قد جانبت الحقيقة اذا أنا أكدت أن الجرحى الهتلريين كانوا يبدون مثل جنودنا. كلا، انما كانوا بأكثريتهم أناساً مهزولين، لم يحلقوا منذ وقت بعيد، والهلع يملأ عيونهم حتى في ذلك الحين وقد اقتنعوا بأن الاطباء يعنون بهم، ولا يقتلونهم ولا

يعذبونهم، مثلما كانوا هم يعذبون ويقتلون الجرحى والاسرى السوفييتيين.

حتى حين كنا اذ ذاك نقترب من هذا السرير حيناً ومن ذلك حيناً آخر، كان الجرحى يرفعون رؤوسهم، ونظرات عيونهم العصبية، وتعابير المتزلفة المتملقة التي يختلط فيها الامل بالاستعطاف الاخرس، تبعث في النفس شعوراً كريهاً.

جلت في القلعة كلها تقريباً. ولست أذكر كم كان عدد الجرحى الهتلريين فيها. ألف؟ ألفان؟ أنّات، تنهدات، صرخات، روائح صبغة اليود، والادوية، والدماء، — انه لمشهد فظيع على العموم، حتى بالنسبة لنا نحن الناس الذين جعلتنا الحرب نألف كل شيء.

خرجنا من بوابة القلعة ونحن نتنفس الصعداء عفوياً. وسرعان ما بلغت سيارتنا احدى ساحات المدينة. فتوقفنا هنا، وقد استلفت أنظارنا مشهد غير مألوف.

كانت قد أقيمت في قلب الساحة المحاطة ببيوت مدمرة، حديقة صغيرة مدورة، فيها ندرة من الاشجار وكثرة من أحواض الزهور. وفي وسط الحديقة، على الارض الصفراوية، قرب أضرحة كان قد تم اعدادها، كانت تقوم أربعة عشر تابوتاً. فقد كانوا يشيعون الى مقرهم الاخير محاربين من فصائل المقاومة البولونية، استشهدوا في الايام الاخيرة بأيدي قطاع الطرق الهتلريين، الذين كانت عصاباتهم ما تزال ترود حول المدينة.

كان عدد قليل نسبياً من الناس يقف في الحديقة حول التوابيت الرمادية المعتمة. انهم أصدقاء وأقرباء جاؤوا يشيعون الوطنيين

الامجاد الى مقرهم الاخير. كان ثمة نسوة يكاد يقتلهن الحزن والاسى في حلة من السواد، يبكين حول الاضرحة.

وطال أمد مراسم الدفن. وبدا أنهم ينتظرون سيارة من الجبهة. كان ينبغي أن تحمل جثمان بطل الاتحاد السوفييتي مكسيم بتروف الملازم الاوّل من رجال الدبابات، وقد استشهد في المعارك.

وسرعان ما أقبلت على الحديقة سيارة «ستوديبيكر» ملطخة بالوحول، عليها غطاء من الخيش، مشدود شداً محكماً على الصندوق. وكان في السيارة رجال الدبابات من وحدة العقيد بافل ماركوفيتش شارغورودسكي. وقد حملوا التابوت على أكتافهم ووضعوه بعناية في قلب الحديقة.

ان قائد الدبابة «ت ــ ٣٤» قد استشهد استشهاد الابطال على الارض الالمانية. ولكن رفاقه قرروا أن يواروا البطل الثرى في بولونيا.

لست أدري أكانت هذه ارادة بتروف نفسه، فمن المشكوك فيه أن يفكر رجل الدبابات بالموت وهو يواجه المعركة. لقد قرر هذا، على ما يبدو، رفاقه في السلاح. وقد مشت السيارة بالتابوت قرابة مئتي كيلومتر من خط الجبهة الى بوزنان.

ــ فليرقد بطلنا في الارض الشقيقة الدافئة، أرض بولونيا ــ هذا ما قاله اذ ذاك شارغورودسكي.

كان الضريح فاغراً فاه، عميق الحفرة، أسود الاطراف من جراء حفر الارض حديثاً. واصطف رجال الدبابات في حلقة، وشقت الصمت طلقات نار حادة. لقد ودعوا صديقهم الوداع الاخير بطلقات الحداد من البنادق الاوتوماتيكية المرفوعة الى السماء.

كانت تلك طلقات الصداقة، التي وطدها الدم، دم المحاربين المسفوح على الاراضي الروسية، والبولونية، والالمانية.

وسرعان ما قامت في جميع أنحاء الحديقة تلال صغيرة من الارض تغمرها الزهور. وترا مت النسوة البولونيات على الاضرحة الندية. فسندهن رجال الدبابات بعناية وقد جثا كل منهم على ركبة واحدة. وراح الموسيقيون البولونيون يعزفون اللحن المأتمي لشوبان.

وقال شارغورودسكي:

– لتكن ذكراك خالدة مشرقة، أيها البطل مكسيم بتروف، ولتغد الارض البولونية دثاراً لك يا ابن سمولنسك، ولتنبت على ضريحك الازاهير. ولسوف نثأر بك!

... بعد ساعة، غادرنا بوزنان بسيارة رجال الدبابات، وقد كانوا يستعجلون العودة الى الجبهة. وفيما كنت جالساً على المقعد الممدود على طول صندوق «الستوديبيكر»، قرب رجال الدبابات الغارقين في غمرة الحزن والاسى، ظللت وقتاً طويلاً أسير ذكريات المأتم وذلك الشعور العميق القوي الذي لا يمكن لاية كلمات أن تعبر عنه، والذي استولى عليّ في تلك الحديقة الصغيرة من حدائق بوزنان.

جثث الهتلريين في قلعة بوزنان! وقبر مشترك في قلب المدينة! موت وموت! ولكن أحدهما موت مجيد، والآخر موت خزي وعار، موت أخرق بلا هدف!

كنا ذاهبين الى الجبهة بسيارة كان فيها تابوت، منذ وقت جد قريب. ولقد كان في هذا أيضاً شيء ما عميق في اثارته للنفس وفي رمزيته. فالحرب كانت تقترب من نهايتها، ولكن رجالنا

كانوا ما يزالون يستشهدون في سبيل السلام، في سبيل حرية روسيا، وبولونيا، والمانيا.

ظل الجميع صامتين في صندوق السيارة وقتاً طويلاً. وكنت جالساً قرب الرقيب الاول من رجال الدبابات بافل سينيتشكين. كان رامي برج في طقم بتروف.

وكان ثمة جنود آخرون، وهم يتشاغلون بانطباعات الدرب الجديدة، قد أخذوا يتحادثون فيما بينهم عن هذا وذلك، بل لقد ضحك بعضهم بصوت خافت، متذكراً ما يضحك. اما سينيتشكين، بوجهه الذي ما يزال متجمداً من الحزن، فقد كان جالساً قرب الحاجز الخلفي من الصندوق ينظر الى الطريق باستمرار رافعاً الجانب المرخي من غطاء السيارة.

لقد حارب مع البطل الشهيد قرابة عامين في دبابة واحدة، وكان يحب قائده محبته لاخيه. ورغم كتافيات الرقيب الاول، ووسامي النجمة الحمراء على صدره، كان ابن الفولغا هذا، ذو الرقبة النحيلة كرقبة الطفل، والنمش المنتشر على وجهه، والحاجبين المقطبين المبيضّين، يبدو فتياً، وحركاته ما تزال متوترة حادة.

— مؤلم أن يموت البطل قيد خطوات أربع من النصر!

هكذا قال أخيراً وقد التفت اليّ للمرة الاولى.

— نعم، بالطبع.

وفي تلك اللحظة ربط بيننا، بخيوط غير مرئية، الاسى العميق وتلك الحال من التهيج العفوي الذي يستولي على كل جندي وهو يدنو من خط الجبهة.

ورفع اليّ سينيتشكين بصره. ان كلمة «طبعاً» هذة قد عبرت

قليلاً عن تأثري، ولكن من الراجح أن أهم شيء بالنسبة لرجل الدبابات في تلك الساعة انما كان صدق لهجتي والحرارة الانسانية. وفي اعتقادي أنه قد قدر اهتمامي بالالم الذي يعتصر قلبه.وقد قال:

ـ عما قريب سنخترق حدود ألمانيا.

فهززت رأسي موافقاً دون أن أتكلم.

ـ واما هناك فالحرب تنتشر رائحتها من جديد.

ولبثنا صامتين قرابة دقيقة.

ومن جديد قال رجل الدبابات وهو يتنهد:

ـ وأي رجل كان قائدنا!

ـ أجل، لقد سمعت ـ انه طيب.

ـ ممتاز! وحقا ما يقال عن رجال الدبابات: «هؤلاء الناس لا يعمّرون طويلاً، ولكن العالم يرتكز عليهم الى الابد!».

ـ انه لقول حسن.

ـ بالضبط!

وحل الصمت من جديد. وكأنما أفسح لي سينيتشكين مجالاً من الوقت لاستذكار كلماته على نحو أحسن.

ـ ايه ألمانيا، ألمانيا، يا لك من بلد غريب!

بدا لي أن رجل الدبابات ما يزال يفكر بمقتل قائده. كان يفكر به وبالمعارك على الارض الالمانية، جامعاً بين هذا وذلك في ذكرى واحدة، مثلما نتذكر كلمات أغنية مع موسيقاها، غير المنفصلتين احداهما عن الاخرى.

ولقد كانت تلك الموسيقى ترن في قلبه رنيناً صاخباً وتضغط على صدره في الراجح، ضغطاً جعل سينيتشكين يضرب اذ

ذاك بقبضته صامتاً على طرف غطاء السيارة المسدل من سقف صندوقها...

وفي ذلك الحين كانت سيارتنا تجري على الارض البولونية. وشيئاً فشيئاً حل الغسق. وكنا نقترب من ألمانيا. فهل ترى لزام عليّ أن أكتب أن ادراكنا لهذا وحده قد جعلنا، ونحن لم نخترق الحدود الالمانية ولا مرة، في حال من التوتر العصبي غير المألوف ولا يمكن أن يوصف.

وواتانا الحظ. فقد أقبلت سيارة رجال الدبابات على الكيلومتر الاوّل من الارض الالمانية والليل لم يحل بعد ولن أنسى أبدا تلك اللحظة.

كانت «الستوديبيكر» تقترب من مفترق طريق عادي تسير بعده الطريق في اتجاهين. الى اليسار كانت تبدو غابة صنوبر صغيرة قليلة الاشجار تضيئها الشمس قبيل الغروب. والصنوبرات العالية كأنما كانت تسبح في ضباب صفراوي — كهرباوي.

كان رتل من سيارات الشحن واقفاً على حافة الطريق، لصق طرف الشريط الاسفلتي. وكان السواقون وعليهم معاطف شتوية قصيرة، كانت فيما مضى بيضاء، أما الآن فقد باتت رمادية، ملطخة بالشحم والحروق، متجمعين عند السيارة الاولى يبحثون شيئاً ما.

وقرب نقطة تقاطع الطرق، كانت تقف في منتصف الطريق فتاة منظمة للسير مديدة القامة، تحمل كتافيتي رقيب على معطف جديد متناسب وقامتها. وكانت تؤدي الاشارات بعلمين صغيرين.

كانت تتميز بشيء خاص. ربما كان ذلك النشاط بل تلك الحماسة التي كانت تحرك بها العلمين الصغيرين، أو ذلك الادراك

الجلي جداً في كل حركة تقوم بها لمسؤوليتها وسلطتها كسيدة على الطريق الحربية.

وبالكيفية التي كانت تلتفت بها التفاتة صارمة بكل جذعها على كعبيها المطقطقين، وبالكيفية التي كانت تنظر بها الى السواقين — بكل هذا كان يقال حتما لمن كان يرى منظمة السير: «أنظر! ليست هذه نقطة تقاطع دروب عادية، انما هذه هي الحدود بين بولونيا وألمانيا!»

ولقد تذكرت أيضاً دبابتنا الوا قفة على بعد قليل من الطريق. لقد تعطل شيء ما في المحرك، ويجري الآن اصلاحها على عجل. من تحت قسمها الامامي، كانت تبرز قدمان تحتذيان جزمة الجنود المتسخة ذات رقبة طويلة من القماش السميك. وكان رجل الدبابات نفسه مستلقياً على غطاء من خيش مفروش، وجسمه يتحدب في توتر، وجزمته السميكة تكاد تمس الخط الابيض القائم عبر الاسفلت— خط الحدود.

مثل هذا ما كان يمكن رؤيته الا في ذلك الحين، والا هناك، في نقطة تقاطع الطرق تلك. ولعل جزمة الجندى، اذ تلامس الحدود، كأنما هي تدوسها رمزياً، انما كانت تتحدث بشكل ابلغ من جميع الكلمات عن هذا العمل العظيم الذي تم انجازه، والذي تجلى في كلمتين اثنتين: «نحن في ألمانيا!».

ولكن هذا كله قد تميزته وتذكرته فيما بعد. ففي اللحظة الاولى، واني لاعترف بهذا، كنت أنظر الى نقطة تقاطع الطرق ولا ألاحظ فيها شيئاً خاصاً، غير عارف بأننا قد بلغنا الحدود.

ـ انها هي! ـ قال لي سينيتشكين ودفعني في خاصرتي، حين توقفت السيارة في ذيل صف انتظار طويل.

وهنا أشار رجل الدبابات الى شجرة صنوبر طالعة خلف قناة الطريق. وعلى الصنوبرة سمرت لوحة صغيرة كتب عليها: «ألمانيا».

وكان يمكن أن لا يلاحظ المرء هذه اللوحة. ولذلك فقد رفعت لوحة أخرى من خشب معاكس مسمرة على عمود، برزت عليها هذه العبارة بأحرف سود ضخمة:

«هي ذي ألمانيا!».

وأقيمت لافتة أخرى قرب الطريق، كتب عليها:

«أيها الرفيق! انك تدخل وجار الوحش الفاشستى».

ألمانيا! اننا في ألمانيا!

يصعب التعبير عن الشعور الذي قرأت به هذه اللافتات على الخط الاول من الارض الالمانية!

ومع أني كنت متأهباً لمواجهة الحدود، فقد شعرت في تلك اللحظة مع ذلك أن أنفاسي منحبسة من الانفعال. وشعرت بالحرارة، فأشرعت معطفي.

واغتنم رجال الدبابات فرصة التوقف، فنزلوا من صندوق السيارة لكي يبسطوا أرجلهم قليلاً. وقد راحوا يتفحصون المكان بأبصارهم، فبدا لي أن معظم نظراتهم لم يكن موجهاً الى الطريق ذاتها، ولا الى السيارات والى الدبابة التي يجري اصلاحها، بل الى الغابة الصغيرة، القريبة من طرف الطريق، والشبيهة الى ذلك الحد بالغابات الروسية.

كنا جميعاً اذ ذاك، في نقطة تقاطع الطرقات تلك، نبحث فيما حولنا عن أدلة ما ساطعة على الجانب الغريب، ولما لم نجدها دهشنا لكون الغابة والطريق عاديتين كجميع الغابات والطرق.

ـ اذن ها هي ذي؟ ـ سألت رجل الدبابات.

ـ أجل، ألمانيا! ـ قال سينيتشكين وهو يقر برأسه.

يحدث أن يكون الانسان شحيح الكلام ساعة الحزن الشديد، وساعة الفرح الشديد، وحين تكون المشاعر ضئيلة، وحين تطفح بها نفسه.

لست أدري كيف حال الآخرين. ماذا كانوا يقولون للاصدقاء، رفاق الطريق في تلك اللحظة الاولى، وقد رأوا أنفسهم على الارض الالمانية. أما نحن... فقد كنا صامتين في الاكثر.

ومضت قرابة خمس دقائق، لا أكثر. وبفضل عمل منظمة السير النشيط سرعان ما انحلت «عقد الزحام» التي نشأت على نقطة تقاطع الطرقات. وكان قد بات ممكنا المضي في المسير الى أمام، فولجنا من جديد تحت غطاء صندوق سيارتنا «ستوديبيكر».

وحين راح شريط الطريق المعتم ينكفئ الى وراء وتتقهقر الغابة الصغيرة غير الكثيفة، وباتت نقطة تقاطع الطرق نفسها على وشك أن تغيب عن الانظار، نهض سينيتشكين عن المقعد وألقى النظرة الاخيرة على الحدود ولوح بيده صوب رقعة الارض البولونية التي تضم جثمان قائد الدبابة وقد باتت بالكاد ترى، وقال:

ـ وداعا يا مكسيم! لتكن ذكراك خالدة!

وظل وقتا طويلا لا يجلس على المقعد، واقفاً قرب الحاجز الخلفي المهتز من السيارة، متشبثا بطرف الغطاء.

وهكذا دخلنا ألمانيا. وفي تلك اللحظة كان كل شيء يبدو لي خارقاً للعادة زاخراً بالمعاني العميقة. هذه السيارة التي كان ممدداً فيها تابوت البطل، وتشييع جثمانه في بوزنان، والسير الكاسح نحو الحدود، ونقطة تقاطع الطرقات حيث تقف منظمة السير الصارمة الملوحة بالعلمين اليدويين ، والغسق فوق الغابة الصغيرة، والدبابة عند خط الحدود...

انطباعات عفوية، قد يبدو أنها قليلة الترابط فيما بينها، التحمت في النفس في مزاج واحد من الفرح المهيب العميق، والاسى، والحزن، والسعادة معاً.

وسرعان ما غابت الشمس. وكانت «الستوديبيكر» تجري اذ ذاك مسرعة بمحاذاة جدار قاتم من الغابات.

وما الذي يرى المرء ليلاً في الطريق الحربية؟ ليس غير نور مصابيح الاشارة في أيدي منظمات السير، وأشباح معتمة للدبابات والمدافع المقعقعة على الاسفلت، وسلاسل من الانوار الكامدة على الجانبين، في مساكن لا نعرفها.

ومن حولنا كان يخيم السكون. فلا انفجار، ولا طلقات رصاص. ليس سوى هدير سيارتنا ورجع صداه. ولقد بدا لي أن هذه الغابة تصخب كبحيرة كبرى تعصف فوقها الرياح. تصخب وتنشر روائح أرض رطبة، وصنوبر، واوراق عتيقة بالية.

كان سائق سيارة رجال الدبابات غالباً ما يطلق نور مصباحي السيارة الشديد، منتزعاً من العتمة تارة قطعة من الطريق، وتارة قطعة من الغابة، وتارة طرفاً من صندوق سيارة قادمة مارة بالقرب منا.

ولقد كان في استهانة السائق هذه بقواعد التعتيم الصارمة، وفي هذا الاستهتار بالطيران المعادي علامة جديدة صادقة على «السماء الآمنة» وعلى قرب نهاية الحرب.

رأس جسر على الاودر

على معلم الطريق لوحة صغيرة: «الى برلين — ٦١ كيلومترا». مثل المسافة بين ضواحي موسكو وموسكو نفسها. وهذه المقارنة وحدها تشعر المرء على الفور بقرب برلين.

ولقد كان سواقو السيارات التي نلتقي بها يؤكدون أنه قد بات مرئياً من هنا في الليل كيف يقوم طيراننا وطيران الحلفاء بقصف المدينة.

صباح اليوم، العشرين من آذار (مارس) رأينا للمرة الاولى نهر الاودر، وقد تضخم بمياه الفيضان الربيعية. وكان النهر يدفع بمياهه الكامدة الشبيهة بالرصاص المصهور. توقفت سيارتنا لدى الشاطئ المقفر، وغير بعيد منا كان يبرز جسر خشبي أبيض منصوب على النهر، أقامه المهندسون العسكريون منذ وقت غير بعيد، وفي وسعه أن يحمل حتى قافلة من الدبابات.

وفي الحال برزت للعيان «رقع» بيض كثيرة العدد من الصفائح الخشبية الجديدة والعوارض. ذلك لأن القاذفات الالمانية كانت تظهر فوق هذا الجسر الوحيد هنا كل ساعتين أو ثلاث ساعات.

كان المهندسون العسكريون يقومون باصلاح الجسر تحت نارين: من السماء ومن الارض. فقد كانت مدفعية العدو تطلق

نيرانها من ضفة النهر المقابلة على رأس الجسر الذي أقامته قواتنا على الاودر. وما كانت هذه النيران تهدأ لا نهاراً ولا ليلاً.

توقفت السيارة قرب الجسر، ثم اذا بنا نقرر الوثوب الى الضفة المقابلة. فاذا نحن على الجسر وقت غارة الطيران الدورية بالضبط. وسمع زعيق صفارة الانذار الكئيب. وراحت الفتاة منظمة السير، وعليها معطف ملطخ بالاوساخ، أما البيريه على رأسها فخضراء نظيفة تتناقض تناقضاً حاداً مع كل لباسها الذي عارك الايام وعاركته، — راحت الفتاة تصيح بسائقنا موجهة اليه كلمات استنكار.

وتنحت جانباً السيارات التي كانت لم تدخل الجسر بعد. وراحت منظمة السير تنذرنا بقبضتيها الصغيرتين وتقرع الارض بقدميها بفراغ صبر طفولي صرف الى حد ما:

— لا تتوقف! الى امام!

وتحول صوتها العالي الى صراخ.

فكانما كان يشق طريقه بصعوبة عبر هدير المحركات المتزايد. واقتربت القاذفات الالمانية.

وقامت سيارتنا بقفزة خاطفة الى أمام، وانطلقنا الى الضفة الغربية. وفي ذلك الوقت كانت قد أخذت ترتفع الى السماء قرب الجسر أعمدة عالية من الماء، وانتشرت رائحة حادة من المعدن المتوهج. ذلك هو رأس الجسر! أوصلنا السيارة الى مكان ساتر ورحنا نخطو في قطعة من الارض حرجية — مستنقعية عرضها ثلاثة كيلومترات وطولها قرابة خمسة.

تسلقنا متراسا عاليا مزروعاً كلها بالملاجئ. وعلى سفحه الخلفي اسطبلات ترابية للخيول.

الاحصنة الكئيبة المستخدمة في جر المدفعية تأكل الشوفان على وتيرة موزونة، وعيونها ترمق الماء الذي تنهال عليه طلقات الرصاص، وتثير شظايا القذائف نوا فير من الماء. انها مطمئنة كما لو كانت واقفة في اسطبلات عادية في مكان ما في أعماق المؤخرة. والواقع أن ليس بين هذا المتراس وخنادق الالمان غير كيلومتر ونيف.

ذهبنا سيراً على الاقدام من قمة المتراس الى بيت صغير أبيض الجدران، يكاد يكون الوحيد في رأس الجسر. وقد بقي سليماً بمعجزة في مكان مكشوف معرض لنيران المدفعية والهاون. وكان قد أقيم في البيت مركز الاشارة. فتلفنت من هناك الى قائد الوحدة الكبرى بهاتف الميدان.

ـ مرحباً. نريد أن نسجل على شريط أحاديث أبطال القتال في سبيل رأس الجسر. فاعطنا مثل هؤلاء الرجال.

ـ كم؟

ـ حوالى خمسة ستة رجال.

ـ كم؟ ـ سأل العقيد مندهشاً ـ أتعرفون حقاً، أيها الرفاق الاعزاء، الى أية فرقة أنتم قادمون؟ انها فرقة الحرس الستالينغرادية، التشرنيغو فية، الفارصوفية، حاملة أوسمة لينين، وسوفوروف!..

ـ أعرف، أعرف. ولكن لدينا القليل من الوقت. وفي الحق اني غير راغب بأن أقطع عن العمل دفعة واحدة كثيراً من الرجال.

ـ لا بأس ـ قال العقيد متلطفاً ـ الله معكم! سابعث بخمسة، هم الاكثر بسالة.

وخلال نصف ساعة، جاء الى البيت الصغير الابيض لا خمسة بل خمسة عشر جنديا وضابطاً، جميعهم بالسلاح، من «خط النار الامامي» مباشرة.

وهنا، على قطعة ضيقة من الارض، في بقعتنا الصغيرة المحاطة من جميع الجهات بخنادق العدو، غريب على المرء أن يسمع أن ثمة في مكان ما خطا أمامياً، وله بالتالي مؤخرته، وان تكن صغيرة.

ولكن تلك هي نفسية الناس في الحرب: فالجندي الجالس في خنادق سريته يعتبر ملجأ قائد الكتيبة «مؤخرة» وان تكن المسافة اليه لا تزيد أحياناً عن مئة متر. وأركان حرب الفوج، التي تبعد كيلومترا عن الخط الامامي، هي أيضاً «مؤخرة» بالنسبة لقائد الكتيبة. وذلك حتى في حال ما اذا كان العدو يطلق على أركان حرب الفوج نيراناً أشد مما يطلق على الكتيبة. وأركان حرب الفرقة مؤخرة عميقة بالنسبة للافواج، حتى وان تكن قائمة على مقربة، كما هي الحال هنا، في رأس الجسر.

ووضعنا الجهاز. ولكن الكلمات الاولى التي قيلت أمام الميكروفون قطعها قصف مدافع القوس الصديقة وراحت جدران البيت الصغير تهتز، وانتفض جهاز تسجيل الصوت.

– كلا، لا يمكن العمل هنا. – اعلن العامل الفني الاذاعي أليكسي سباسكي مكتئب الوجه.

فأجابه أحد الضباط، وهو كبير الفريق، قائلاً على نحو معقول:

– ولا مكان لابعاد المدافع. فالالمان أمامنا، والنهر من ورائنا.

ولقد تم ايجاد المخرج. أجلسنا جميع أبطال القتال في سيارتنا وانطلقنا من جديد عبر الجسر الى الدسكرة على الضفة الشرقية. كانت قد بقيت هناك، على بعد كيلومتر من الاودر، بضعة بيوت حجرية صغيرة.



الطريق الى برلين.

خصصوا لنا غرفة فيها طاولات وضعت عليها خرائط ومحافظ رجال القسم السياسي للتشكيلة، الذين يسكنون هنا.

وبدأ التسجيل. وأكب الجنود على صفحات بيض من الورق، بقمصانهم الكامدة المزدانة بصفوف من المداليات والاوسمة، يجمعون افكارهم، وفي أيديهم أقلام رصاص وريش حبر. انهم جميعاً ينتقون، بصعوبة، العبارات لاحاديثهم عن المآثر.

فليس يسيراً على المرء التحدث عن مأثرته، وان هذا لاصعب على بعض الناس من القيام بالمأثرة ذاتها.

وطبيعي أن المرء لا يدرك على الفور أن الكلمات التي تقال في أنبوب سميك قصير، ذي شبكة معدنية مقببة هنا، في هذه القرية

الصغيرة القائمة على ضفة الاودر، ستسمع فيما بعد في جميع أنحاء البلاد، في أبعد زوايا الوطن. ولكن يا لغرابة الامر: لقد كان الجميع ـ الجنود والضباط، هؤلاء الناس الذين أبدوا المعجزات في ضبط النفس أثناء القتال ـ كان الجميع الآن منفعلين يدعكون بأصابعهم المتصلبة صفحات الورق التي تحمل نصوص كلماتهم.

كان أول المتكلمين المقدم أندري سميرنوف ـ قائد الفوج الذي كان أول من اجتاز الاودر. انه ضابط طويل القامة، نحيل، ذو جبين عريض منفسح، وعينين عميقتين ذكيتين. أصيب في المعارك الاخيرة برضوض خفيفة، الا انه لم يذهب الى المستشفى، وعولج في مؤخرات وحدته. وقد كان انتباهي طول الوقت ـ ربما لأني كنت عارفاً بهذا ـ مأخوذاً بابتسامته، تلك الابتسامة الناعمة الحالمة، ابتسامة الرجل المطمئن المسيطر على نفسه سيطرة تامة.

كان جالساً أمام الميكروفون في وضع عسكري، منتصب القامة، وسترته المكوية حديثاً هنا، على رأس الجسر، كانت تشهد على الدقة العسكرية الخاصة واعتياد الاعتناء بمظهره في اية ظروف واصعبها، اللذين يطيب للمرء أن يلاحظهما على الجبهة.

وبصوت غير مرتفع، ولكنه واضح كافي الوضوح، راح سميرنوف، وهو لا يكاد ينظر الى الموجز الذي كتبه، يروي لنا حوادث المعركة التي جرت منذ قت قريب. وحتى في تلك الايام بدت هذه الاحداث أسطورية بالنسبة لنا نحن الذين رأينا الكثير في دروب الحرب.

واليكم حديث سميرنوف:

«كان فوجنا يسير في مقدمة الفرقة، الزاحفة من صوب نهر الفستول. وخلال الاسابيع الثلاثة الاخيرة قطع قرابة ثلاثمئة كيلومتر خائضاً فيها المعارك، واصلاً النهار بالليل، غير ذائق طعم الراحة في زحفه غرباً.

وفي مكان ما على بعد مئة كيلومتر تأخرت قطعات المؤخرة تأخراً لا يمكن تداركه، واما الجبهة فقد استمرت تستقيم كالنابض، تزحف وتواصل الزحف. وكانت الفرقة تلتف حول المدن الكبيرة، وتسير عبر الغابات ودروب الحقول، قاطعة في طريقها المواصلات الالمانية محطمة قطعات العدو المنعزلة التي كانت تتخبط داخل الحزام الدفاعي الالماني الغارق في الفوضى، كأنه عش من أعشاش النمل.

«الى أمام، الى الاودر!» ـ ما كان فوجنا يعرف غير هذا الايعاز.

كنا نسير ونركب السيارات، والعربات، والدراجات. وما كنا نتوقف في القرى أكثر من ساعة. وحدث أن كان الفوج يزحف سابقاً حتى القطعات الالمانية المتقهقرة وعلى الجناحين أيضاً كان الهتلريون يهربون، وكانت أمامنا قطعات معادية.

ألقى الفوج بجيران السوء جانباً، واندفع الى أمام. فكأنما كنا نتبارى مع الهتلريين في الركض الى الاودر. ولقد كنا السابقين في بلوغه.

وبلغت الكتائب النهر عند الفجر. وكان جليد الاودر الذى بدأ بالذوبان يبرق بلون شاحب تحت ضباب زرقاوى. وعلى الضفة الغربية كان يسود السكون: لا طلقات نارية، ولا حفيف.

وارهفت أذنيّ: من بعيد فقط كانت تسمع طلقات مدفعية جد خافتة. فمن الشرق، لا من الغرب كانت تأتي صوب النهر القطعات الالمانية المتقهقرة.

واذ ذاك قررت عدم الانتظار الى أن تجيء القوات الاساسية. فعلى بعد خمسين كيلومترا كانت الفرقة تندفع الى أمام، وأما فوجنا فابعد أيضاً. وما رحت أيضاً أنتظر أن يذوب الجليد أو **أن** يجتاز الالمان النهر الى الضفة الغربية ويستنفروا قطعات الحراسة الموجودة هناك.

وأصدرت أمري: ـ فلنقطع الاودر هنا!

وراحت الكتائب تنبثق من الغابة منقضة على الجليد الرقيق المتهلهل. كان الجنود يركضون بلا توقف ولا التفات الى وراء. وقد تمكنوا من نقل الرشاشات والمدافع الخفيفة المضادة للدبابات. وقد جروا المدافع من عيار ٧٦ ملمترا التابعة لقيادة الفوج، وراح الجليد يتقصف. وغرق أحد المدافع، وتكونت في ذلك المكان فرجة سوداء.

وحين تلقوا في أركان حرب الجيش تقريري عن أن الفوج قد اخترق الاودر، لم يصدقوا أول الامر فقد كانت قوات الجيش الاساسية ما تزال تقاتل على بعد ثمانين الى مئة كيلومتر من ضفة النهر.

ثم تلقوا بلاغنا الثاني المتضمن طلب العون من الطيران. فقد كان الالمان يهاجموننا في رأس الجسر. واذ ذاك صدقوا. الا أنهم ما استطاعوا ارسال الطائرات على الفور، لأن طائرات الجبهة كانت في ذلك الحين موجودة في مطارات معطلة من جراء مياه فيضان الربيع، وقد شلت جزئياً. ومر وقت الى أن اتخذ الطيارون طرق الاسفلت العريضة مهابط موقتة.

وفي رأس الجسر كانت الاحداث تتطور بكثير من السرعة. فما كانت تمر ساعة الا وتظهر سحائب سود من طائرات «ميسيرشميت» و«هاينكل» فوق الفوج الذي تمكن بالكاد من التشبث بقطعة صغيرة من الارض قرب ضفة النهر. واستمر هذا «الكي» الاول غير المنقطع تقريباً من الجو أربعاً وسبعين ساعة.

وسريعاً ما أقبلت الدبابات والمدافع السيارة المعادية. ثلاثة أيام بلياليها استمرت هجمات الدبابات. ثلاثة أيام بلياليها ظل الالمان يشنون الهجمات المعاكسة على الفوج بدون توقف تقريباً، محاولين الالقاء به الى الماء، وسحقه، وتحطيم كتائبنا، الباقية بدون سلاح ثقيل، بذخيرة محدودة، ويكاد يكون بدون مدفعية. وقد فقدنا أكثر من نصف الرجال، وكان الفوج يتراجع صوب النهر. كانت الوهدة المستنقعية كلها مغطاة باكوام من المعدن المتمزق — انها الدبابات المحطمة المطروحة في كل مكان. ولكننا حين رأينا من ورائنا مياه الاودر العكرة على بعد لعله لا يزيد عن أربعين مترا، فقد تشبثنا بالارض كاننا مسمّرون عليها. ولا خطوة الى وراء! ووقفنا حتى الموت! وصمدنا!».

هكذا تحدث المقدم. وقد لاحظت أنه كان طول الوقت يتطلع الى النافذة، صوب شريط الاودر المرئي بعيدا، ومن ورائه الى خط الضفة القاتم، الى رأس الجسر.

وقد أكملت أحاديث الجنود والضباط الآخرين صورة المعارك الضارية حقاً في سبيل هذا الشبر من الارض. لقد دفع ثمن باهظ من أجل أن تحط قدما الجندي السوفييتي على الضفة الغربية من الاودر في آذار (مارس) ١٩٤٥.

وبعد أن انتهينا من التسجيلات ، ذهبنا من جديد الى رأس الجسر. كانت قمة هذا المتراس تجتذبنا اليها. وكان سميرنوف يتقدمنا ، فيما كنا نسير على المتراس من أوله الى آخره .

كان قد مضى أسبوعان على انتهاء المعارك. وقد تخندق الفوج في الارض الى مدى عميق وعلى نحو راسخ وطيد. ووصلت المؤخرات، وبدأت الحياة المألوفة في ظروف الدفاع .

ولكن ذاكرة الجنود ما تزال تحتفظ على نحو راسخ بجميع تفاصيل وعلائم المعركة غير البعيدة الامد. ولقد اعترف لي المقدم هامساً في أذني، أنه، في كل صباح، حين يذوب الجليد عن الارض بعد صقيع الليل، كان يبدو له وما يزال حتى الآن: ان هذه القطعة الصغيرة من الارض المستنقعية التي يشغلها رأس الجسر وراء الاودر تعبق برائحة الدم الى درجة ملحوظة بعض الشيء...

* * *

قضينا بضعة أيام على مقربة من كيوسترين. وفي كل ليلة كنت أراقب كيف كانت أفواج جديدة تمر الى الضفة الغربية، عبر الجسر، محاولة عدم احداث ضجة، وكيف كانت تزحف أرتال المدفعية وتتجمع الدبابات في الغابات.

... حدث ذلك في احدى الليالي المظلمة غير المقمرة. كنت واقفاً على غير مبعدة من الجسر، حين دنا منه رتل من الدبابات. فانطلق فوق الضفة الغربية صاروخ إضاءة اندفع الى السماء سهماً من نار، وانفجر فأمطر الارض بوابل من القطرات الوهاجة.

كنت واقفاً على مقربة من الطريق، واذا بي ارى فجأة في باب برج احدى الدبابات المفتوح محارباً ذكرني وجهه بسينيتشكين، رجل الدبابات من طقم بطل الاتحاد السوفييتي الشهيد بتروف.

فهتفت به. كان سينيتشكين بالفعل. وعرفني هو أيضاً، على ما يبدو. وفي تلك اللحظات القلائل، اذ كان الصاروخ الهابط يضيء المكان نظر اليّ سينيتشكين بامعان ثم وضع يده على خوذته السوداء المضلعة.

ـ الى هناك؟ ـ سألته مشيراً بيدي جهة الجسر.

فأشار سينيتشكين برأسه أن نعم. وما كان ثمة مجال قط للكلام. وحين زحفت الدبابة ببطء وحذر من المتراس الى الجسر، قفز الرقيب الاول نفسه الى المعبر. كان يخبئ في كم معطفه مصباح جيب صغيرا. فسحبه وأشعله لحظات قصار، لكي يدل سائق الدبابة بنقطة مضيئة على الطريق التي ينبغي له أن يسلكها بها على المعبر.

كان سينيتشكين يمشي القهقرى موجهاً وجهه طول الوقت الى دبابته. فكأنما كان يغريها بالنور على السير. وكانت هي على ضخامتها وجسامتها، وهدير محركها الجبار الخافت، تجري طيّعة، كالكائن الحي، وراء مصباح سينيتشكين.

وخلف الدبابة الاولى صعدت المعبر دبابات أخرى، كأنها قطيع من الفيلة السود، ولقد كان مسموعاً، حتى من خلال هدير المحركات، كيف كانت تصر الاخشاب ويتوتر كل شيء على الجسر من الثقل الهائل.

حتى عشية الهجوم ذاتها، كانت القوات ما تزال تحتشد في ذلك المكان، وما كان يمكن للمرء الا أن يعجب كيف «ارتسمت»

في هندسة رأس الجسر على نحو راسخ، وأية كثرة من الافواج والمدفعية والدبابات استطاعت أن تستقر على هذه القطعة الصغيرة من الارض وراء الاودر، المنتزعة بالدم.

* * *

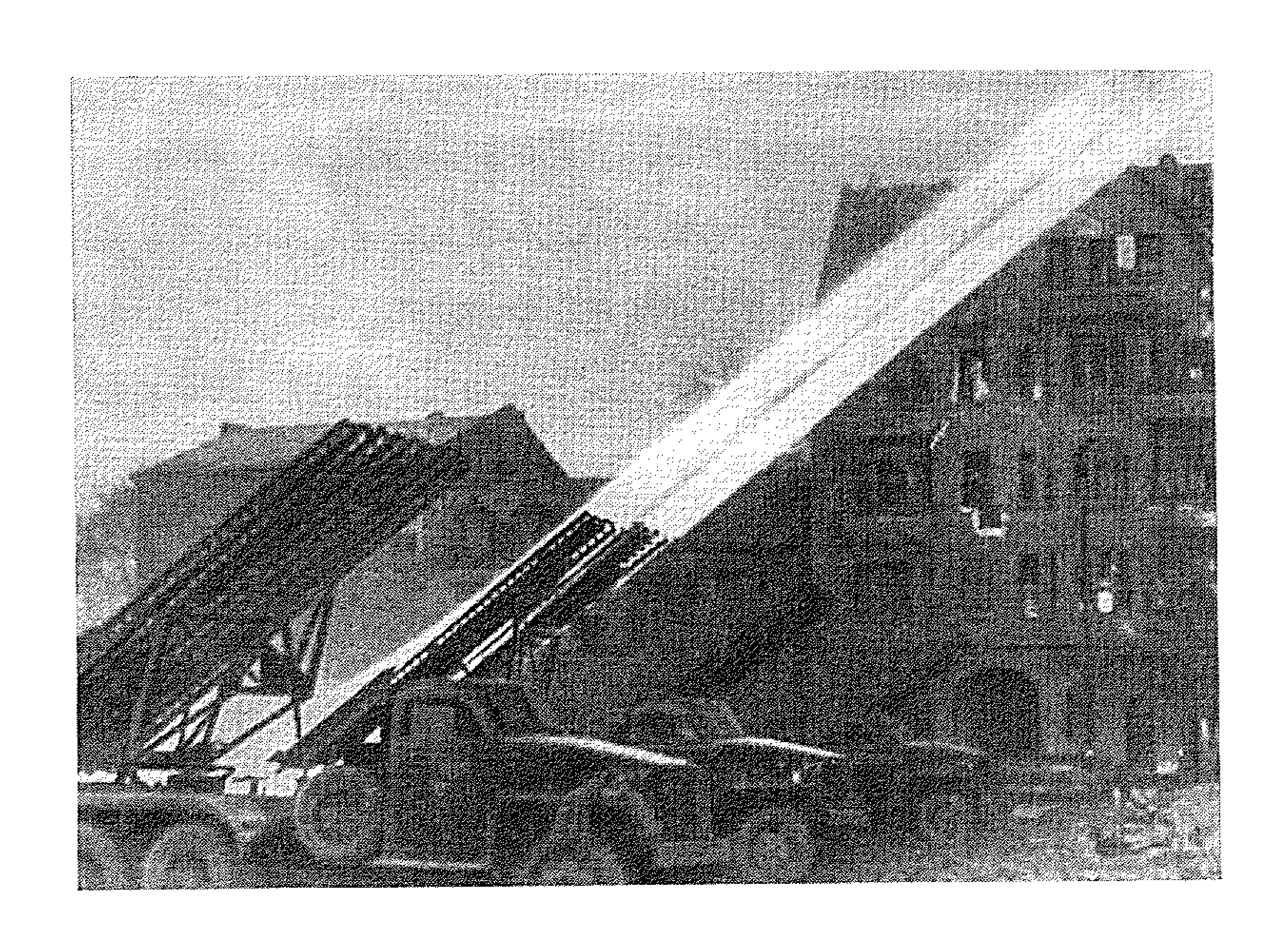
... بدأ ذلك فجر السادس عشر من نيسان (أبريل). وقبل بدء الانقضاض بساعة كان قد تلي في جميع الفرق والافواج أمر قائد الجبهة. وكانت المهمة الموضوعة فيه: «... تحطيم العدو على المشارف القريبة من برلين، والاستيلاء على عاصمة المانيا الفاشستية — برلين، ورفع راية النصر فوقها!».

كانت الليلة مظلمة، بلا قمر، ساطعة النجوم. وحوالى الساعة الرابعة، قبيل الفجر، مزقت ستار الصمت في لحظة واحدة صلية اثنين وعشرين ألف مدفع. وبدأ قصف تمهيدي بالمدفعية لعله أعنف قصف بين جميع ما قامت بها قواتنا قبل تحطيم دفاع العدو.

كان القصف الاول أشبه بزلزال أرضي. وما عاد السمع يميز الفروق في الهزيم المتواصل والجو المرتعد. وكان من المستحيل على الاطلاق القيام باية تسجيلات على الشريط. فالميكروفونات «ما كانت تحتمل» الضجة، وكانت ابرة جهاز تسجيل الصوت تقفز على الشريط.

استخدمت في هذا الهجوم الانارة الليلية بالبروجيكتورات. وقد كانت موضوعة في كل مئتي متر على طول خط الجبهة.

اشتعلت البروجيكتورات، فرأى المحاربون في ضوء أزرق راجف ماذا حل بالدفاع الالماني: أكوام من التراب المبعثر،



على برلين – اطلقوا النار !

وأطراف من الاسلاك الشائكة المقطعة، وأنقاض من الاستحكامات المحطمة، وأخشاب مكسرة!

كانت أحزمة النور المنبعثة من خنادقنا تنصب على التحصينات الالمانية كأنما هي تنقب فيها.

وسرعان ما انضم الطيران الى الانقضاض فكانت تنزل الضربات من الجو أربعة آلاف طائرة، تأتي على موجات متعاقبة.

وباشرت العمل هاونات «الكاتيوشا» الصاروخية. فكانت تغطى السماء احزمة كثيفة من النيران، كأنما يداً كانت تشطرها بين قاتم وأحمر.

وكانت السماء تزداد نوراً فوق الاودر كلما اشتد قصف المدفعية.

وراح يزمجر إله العقاب العادل ــ المدفعية السوفييتية. وفراراً من غلالة النار الماحقة، كان جنود العدو يتخندقون في الارض في أغوار ملاجئهم واستحكاماتهم المشابهة للاوجرة العميقة.

ولكن سكان برلين ما كانوا يعرفون، طبعاً، وهم يسمعون هذه الرعود القاصفة، أن الهجوم قد بدأ. ولا بد أن البرلينيين الذين كانوا في الشارع مصادفة، في هذه الساعة المبكرة من الصباح، راحوا يتطلعون بهلع ورهبة الى لهب الحريق الهائل المندلع من الشمس القرمزية الطالعة من الشرق مبكرة ساعة عن موعد طلوعها.

وعبثا طبعت مطابع العدو، التي كانت ما تزال سليمة، نداءات هتلر «الى المحاربين في الشرق»، التي كان الفوهرر المصروع يتنبأ فيها باخفاق هجوم القوات السوفييتية. وعبثاً كان هتلر يعوي على نحو متلاعب بالعواطف بأن الحملة البلشفية ستغرق في بحر من الدم وأن هذا سيؤدي الى انعطاف في الحرب.

وفي نهاية اليوم الثالث للمعارك كانت نتيجة الصراع على الاودر قد تقررت، وانطلقت القوات السوفييتية الى برلين ...

في المطار

لم نتمكن من معرفة شيء عنه غير ما رأيناه بعيوننا في الدقائق العشر تلك، حين كان الطيار على الارض. كان رفاقه بلباس القتال الكامل، بستراتهم الجلدية المبطنة بالفراء، ومظلاتهم على ظهورهم، مستلقين على العشب، يمضغون جذوع الزهور البرية الحامضة المذاق، وينتظرون اشارة الاقلاع.

ظهرت طائرته في السماء على نحو مفاجئ. فهبطت الى الارض بعنف، موجهة اليها الجناح الايسر المائل الى وراء، للانعطاف بسرعة ضد الرياح. وسرعان ما انزلقت طائرة المطاردة في المطار، داعسة العشب، وقطعت، قفزاً قرابة مئة متر على قوائمها القصيرة العقفاء، كقوائم كلب صغير من نوع الدوغ.

كانت تلك طائرة من طراز «لافوتشكين — ٥» *، صغيرة، ذات أنف أفطس وأجنحة قصيرة، كأنما هي مقصوصة، سريعة الحركة رشيقة.

وحين صمت المحرك في الدورات الاخيرة، وأحاط الجميع بالطائرة، خرج الطيار من حجرة القيادة، وقفز الى الارض. ولما رفع الخوذة عن رأسه، كشف عن شعر مبلل، ثم عن جبهته ورقبته الغارقتين في العرق. وهنا خلع عنه سترته الجلدية وألقى بنفسه على العشب باسطاً ذراعيه على رحبهما.

تقلب الطيار على الارض بضع دقائق، مدلكاً صدره وظهره، حاكاً وجهه بالعشب، وراح يتنشق بعمق الهواء المشبع بروائح الارض الرطبة والعشب الكثيفة كرائحة العسل. أما رفاقه فكانوا واقفين حوله صامتين ينتظرون أن يتليّن ظهره ويتمكن من البدء بالكلام.

وجاؤوا للطيار بقارورة ماء تتسع للتر، فشرب نصفها، وسفح ما تبقى على الارض. واذ استعاد أنفاسه، وقف وظهره الى جسم الطائرة الفضي اللون، وبخنصره فقط مس مسيل البنزين السماوي اللون الذى كان ينسكب في خزانات الطائرة.

---

* «لافوتشكين — ٥» — طائرة المطاردة السوفييتية من تصميم لافوتشكين.

ـ عشرين دقيقة في سماء برلين ـ قال أحد الطيارين ـ وخمس دقائق الى هناك، وخمساً في طريق العودة، وعشراً في المطار، ثم الى الهجوم من جديد.

ـ ايوه، وكيف الحال هناك حول برلين؟ ـ سأل عدة أشخاص الطيار دفعة واحدة كأنما بايعاز.

ـ ايه! حول برلين ـ صاح الطيار فجأة، وهدير المحرك المصم للآذان لم يغب عن سمعه بعد. ثم صاح من جديد: يزحفون من جميع الدروب يتدحرجون، ويسيلون! معارك الدبابات في الضواحي الشرقية!

ـ ايوه، وفي الجو؟

وبصوت عال أيضاً اجاب الطيار:

ـ الجو لنا. الارض والجو لنا. قمت بالدورية فوق رتل من الدبابات. ولما كانت الجسور لا تمكن الدبابات من المرور بسرعة، فقد كانت هذه تخترق البيوت وتعبر النهر على عوامات ولكن المهم متابعة الزحف الى امام. والامر لا يقتصر على الدبابات وحدها، بل تنطلق المدفعية، والمشاة أيضا! شيء يأسر النفس، كم من جماعتنا... طوفان!

وبلل شفتيه الجافتين بلسانه، ومسح بكفه العرق عن جبينه، وابتسم فجأة ابتسامة عريضة.

ونزع ملازمان سترتيهما الجلديتين وراحا يلوحان بهما في وجه الطيار للتهوية. أما هو فكان واقفاً يبتسم، ووجهه مايزال أحمر من التوتر، اشبه بوجه عامل منكفئ لتوه من أمام فرن لاهب، فيشعر المرء بانه الآن يستحلى للغاية دقائق الراحة هذه، ومذاق الماء البارد

على شفتيه المشتعلتين حرارة، والنسمات الناعمة من السترتين، ورائحة الارض الممزوجة برطوبة حادة من البنزين.

وهنا اقبل عليه ضابط برتبة مقدم. فقال له بصوت خفيض:

–كنت أنتظرك يا سوخين وقد كنت أعلم انك تعمل فوق برلين، اليك، خذ.

ووضع المقدم في يد الطيار دفتراً صغيرا.

– اسلمك البطاقة الحزبية واهنئك باللقب الرفيع، لقب الشيوعي.

– شكراً – قال الطيار وفك زر جيبه ووضع فيه البطاقة، وفرك جيبه قليلاً، كأنما يريد أن تنزل البطاقة الى أعماقه. ثم قال مرة أخرى:

– شكرا، سوف أبرر جميع الآمال!

وأخذ المقدم بيد الطيار بين راحتيه وقال له:

– أتمنى لك الخير والعافية يا سوخين! اليوم لك يوم خاص!

ثم نظر المقدم وسوخين الى الساعة في وقت واحد. لقد مضت تسع دقائق ونيف على هبوط طائرة المطاردة.

واعتمر سوخين بخوذته، ولبس سترته وقفازيه، وعلق المظلة على ظهره ودخل حجرة قيادة الطائرة. ولكنه حين وضع على المقعد أحد ساقيه التفت كأنما تذكر شيئاً وربت على جسم الطائرة ربتاً رناناً، وصاح من الحجرة:

– مع السلامة!

وجرت «لافوتشكين – ٥» الى ساحة الانطلاق داعسة العشب بصدرها ودواليبها، واستدارت للريح.

واقلعت طائرة المطاردة من الارض بخفة واتزان، كأنما هي في شوق الى المحيط الازرق.

واذ بلغت الارتفاع اللازم، مضت سابحة في خط مستقيم الى برلين حيث كانت ما تزال تتخبط فوق المدينة اللاهبة آخر الطائرات الهتلرية الموسومة بالصليب المعقوف.

محاربون جدد

في غرفة صغيرة، تجلس فتيات على مقاعد متلاصقة. انهن يتحادثن فيما بينهن بصوت خفيض. تسمع مقاطع من عبارات مؤلفة من كلمات روسية وأوكرانية وبيلوروسية، تنطق احياناً بلهجة غريبة شديدة الوقع على السمع. ومن حين لآخر تدخل في الكلام السلافي ذي النغمة الميلودية كلمة ألمانية حادة النبرة.

ستة عشر زوجاً من العيون المتأججة بنار الفضول تتطلع الى جهاز تسجيل الصوت.

وقد قلنا للفتيات:

– جئنا الى هنا لكي نسجل أحاديثكن عن حياة الاشغال الشاقة التي مرت عليكن في ألمانيا، ثم نذيعها بالراديو من موسكو... وسيسمع أقاربكن ومواطنوكن أصواتكن الحية من هنا، من ألمانيا...

وتصغي الفتيات بانتباه. انهن جميعاً من عمر واحد تقريباً، بين الثامنة عشرة والعشرين. ومنذ عامين أو ثلاثة أعوام أخذوهن الى ألمانيا وقد كن تلميذات في طراوة العمر.

منذ أسبوع فقط استولت القوات السوفييتية على هذه القرية الصغيرة. الحرب ما تزال دائرة الرحى، وجميع السبايا اللواتي دعوناهن

للحديث امام الميكروفون، على وشك الالتحاق في كتيبة الجيش للطرقات بصفة المتطوعات. وغدا سيرتدين اللباس العسكري ويستلمن الكتافيات. أما اليوم فانهن ما يزلن جالسات امامنا ببلوزاتهن وفساطينهن ومناديلهن الروسية الملونة. الفتيات جالسات جماعات، كل بنات بلد معاً ـ أوكرانيات، وبيلوروسيات، وبنات المناطق الروسية الوسطى. كان ثمة اللواتى كن يشتغلن فى المعامل الالمانية، واللواتي كن يعشن لدى «ربات البيوت» خادمات... وجوه فتية، وجوه ما تزال في زهرة الفتوة، مصطبغة بالحمرة من الاضطراب والانفعال. والفتيات في الغالب يتضاحكن، ويتهامسن، ويعنين بزينتهن. ولكن في أعماق هذه العيون الضاحكة الآن شيئاً كامناً يبعث الماً حاداً في القلب.

ويقدم عامل التسجيل الميكروفون الى وسط الغرفة.

ـ اى نعم، من التى ستكون البادئة بالكلام؟

فتروح الفتيات تدفع كل منهن الاخرى في صمت، ولكن ما من واحدة تحزم أمرها. انهن في اضطراب وحياء.

فقال عامل التسجيل سباسكي:

ـ في هذه الحال، اليكن ما سنعمل. سنذيع موسيقى وانتن تفكرن. لدينا مجموعة من الاسطوانات الكونسرتية من موسكو. اترغبن؟

ويبحث سباسكي طويلاً في الحقيبة فيقع اختياره أخيراً على اسطوانة يستطيبها. فيضعها على الجهاز، ويفتح مكبراً قوياً، وتمتلئ الغرفة بنغمات أغنية عن فتاة ساقها الالمان للاشغال الشاقة فكأنما الاغنية تلد الآن من جديد في هذه الغرفة. وتحوّم الميلوديا،

متموجة كالبحر، عميقة لا نهاية لها كالحزن... فتجمدت الفتيات على مقاعدهن. وبدا كأنهن الآن يتنفسن جميعاً في وقت واحد، كما يشربن الماء بجرعات كبرى، وما يزال يعوزهن الهواء.

وأرى كيف تدمع عيون الفتيات فجأة، واحدة اثر الاخرى. واجهشت احداهن في الزاوية، فاذا هن جميعاً يبكين. يبكين بلا صوت، وقد وضعن المناديل على ثغورهن.

وفي الغرفة يجمد الجميع في ارتباك كلي. ويسارع عامل التسجيل لرفع الاسطوانة.

— ايه، كان ينبغي أن تفكر بما تضع! — يقول أحدهم من وراء ظهره بما يشبه الصراخ. فيوقف الجهاز كلياً، في اضطراب وارتباك.

وأنظر الى فتاة جميلة ذات شعر أسود تجلس في الصف الاول، لاصقة بصديقتها ومرخية رأسها على كتفها. انها لوحدها تحبس دموعها بكثير من الجهد. بل وليس في عينيها ملامة. فليس يجوز أن تسمى ملامة تلك النظرة اللطيفة الواثقة المنطوية على العرفان بالجميل. ومع ذلك فان هذه النظرة تقول: «ما لكم، أيها الرفاق، ليس ينبغي هكذا».

هذه الاغنية الحلوة عن الحب الصادق والحزن العميق والحقد المقدس تسمعها الفتيات للمرة الاولى. جاءتهن مع الجيش، مع الناس السوفييتيين. وانهن ليدركن هذا فيما بعد. يدركن هذا ويقدرنه. اما الآن فالاغنية تنكأ جراح القلب بذكريات الماضي القريب. والفتيات يبكين.

— كفى يا بنات! صمتاً، اسمعن! بالله عليكن عيب. — تقول هذا الفتاة الجالسة في الصف الاول. وتنهض، وتلتفت الى صديقاتها،

فتهز يدها نحوهن في انزعاج، وتشد قبضتها شداً قوياً جعلها تصطبغ بالزرقة.

وينزلق عن كتفيها المنديل الاحمر العريض فيكشف عن قميص أوكراني مطرز بزهور زاهية الالوان. القميص جديد ومكوّي بعناية. فبأي جهد أمكن حفظه في مكان ما في أعماق حقيبة صغيرة، جاءت الى هنا في أسفار بعيدة من أعماق روسيا.

وأكرر بفكري كلمة «السبايا» الوحشية الرهيبة، المنسية منذ قرون عديدة. ان هذه الكلمة ستموت غداً، بعد غد، ولكن أترى ستنمحي بمثل هذه السرعة الذكرى الرهيبة عنها في قلوب الفتيات؟

ومن جديد تتكلم الفتاة ذات الشعر الاسود:

ـ حبذا لو نسمع اسطوانة أخرى. اسطوانة تبعث المرح وتذكر بشيء عزيز.

ومضت الفتاة نفسها الى عامل التسجيل، فراحا يبحثان معاً في الحقيبة. ويخرجان اسطوانة ويضعانها على قرص الجهاز... فاذا بنغمات الاغنية الجديدة تحوّم في الغرفة على مهل، ثم أسرع فأسرع كأنما هي آتية من مكان ما في الشارع عبر الفرجة المفتوحة في النافذة. واذ ذاك تهدأ الفتيات شيئاً فشيئاً، ويرهفن أسماعهن. وما هي الا بضع دقائق حتى تجف الدموع في العيون الندية. ومن وراء ظهورنا تهب تنهدات الارتياح العميقة. ويمسح سباسكي العرق عن جبينه. ويروح الجنود الواقفون خلف الجهاز يدقون الارض باقدامهم بصوت خافت... والفتيات بتن يتضاحكن.

ثم نضع الاسطوانات الواحدة اثر الاخرى، حاملة أغانْي جديدة غير معروفة لدى الفتيات، وبعد كل واحدة منها يسأل

سباسكي: «حلوة»؟» ويسمع الجواب، مرتاح النفس: «جداً!».

ونباشر أخيراً العمل. وتكون أول المتكلمات فاليا. هكذا تدعى الفتاة ذات القميص الاوكراني. تجلس على طرف الكرسي، ممسكة الميكروفون بيدها، فلا تقرأ كلمتها في الورقة، كما يجري عادة، بل كأنما هي تتحدث مع أناس غير مرئيين، الا أنها تعرفهم حق المعرفة، أناس يستمعون اليها في جميع زوايا البلاد.

كانت فاليا قد أُخذت من الدونباس وبيعت لبيت يملكه صاحب حانوت ألماني. كانوا يحظرون عليها مبارحة البيت ومقابلة صديقاتها. فما كانت فاليا ترى جريدة البتة، ولا كانت تعرف ما يجري في وطنها. كان في البيت الذي عاشت فيه فاليا جهاز راديو، الا أنهم كانوا يحرمون عليها حتى الاقتراب منه.

وذات مرة، في النهار، ولم يكن في البيت أصحابه، أنزلت فاليا الستائر لكي لايراها أحد من الشارع، وجلست قرب الراديو. كانت تسمع أصوات المانية حلقية، ونداءات المحطات الانكليزية، ويخشخش الاثير. وفجأة يقول صوت معروف يهز النفس، كأنما هو صادر عن شخص واقف على مقربة، في الغرفة: «هنا موسكو».

وراحت فاليا تصغي الى المذيع، مغمضة العينين، شادة كفيها على صدغيها شداً قوياً، محاولة أن لا تفوتها كلمة واحدة. كان يتحدث عن الدونباس وكيف تعود الحياة اليها، وقد ذكر المدينة التي هي مسقط رأسها، في عداد المدن الاخرى. ولقد ذكر أسماء عمال مناجم (كانت فاليا تعرف الكثيرين منهم) نزلوا الى اغوار المناجم المدمرة المغرقة بالمياه، وقد أعطوا اول كمية من الفحم.

كانت فاليا تصغي لصوت الوطن بكل وعيها وكل قلبها. ونسيت، في دقائق، كل شيء: نسيت جدران بيتها، سجن الاشغال الشاقة، نسيت أصحاب البيت الذين كان يمكن ان يعودوا في كل لحظة، ويقعوا عليها متلبسة بالجرم المشهود..

... وحين انتهت الاذاعة، لم تعتزم فاليا ازاحة الستائر عن النوافذ. فقد بدا لها أن الالمان سيرون وجهها من الشارع ويحزرون كل شيء.

صبيحة اليوم التالي، رأينا الفتيات مرة أخرى، قبيل السفر. كانت الشمس قد أشرقت، غير دافئة بعد، ولكن كأنما هي مغتسلة بالندى. كانت الفتيات سائرات بصف منتظم في شارع القرية الهادئ المقفر. كن لابسات قمصاناً وتنورات زرقاء مكوية بعناية، تشد خصورهن أحزمة صفراء ذات صرير. وقد كن، وهن ما يزلن يخطئن في المسير المنضّم، يخبطن الدرب بجزماتهن جاهدات، ويلوحن بسواعدهن تلويحاً واسعاً على غير ايقاع.

هكذا كن يسرن في شارع معتقلهن السابق، وقد بلغ من الجمال الذي أسبغته عليهن السعادة، أن أوقفنا سيارتنا، ورحنا نتعقب بانظارنا وقتاً طويلاً هذا الموكب الصغير من المحاربين الجدد في الجيش.

رسالة الى الابن

اني لاراه الآن أيضاً، بكل جلاء، ذاك الشارع الهادئ الضيق من المدينة الالمانية الصغيرة على نهر الاودر، وذلك البيت ذا الطوابق الثلاثة الذى كان يدهش ببياض جدرانه التى لم يمسها وابل من الرصاص ولا شظايا القذائف.

وفوق شرفة الطابق الثالث، كانت تخفق في الهواء راية حمراء تعلن لجميع السكان أن الادارة العسكرية قد استقرت هنا موقتاً. وكان يسكن هذا البيت أيضاً الحاكم العسكري العقيد سفيريدوف، الذي كان قبل ثلاثة أيام النائب السابق لرئيس القسم السياسي للفرقة.

مضت وحدته الكبرى عبر هذه المدينة في هجومها على برلين. كانت مؤخرات القطعات ما تزال متماهلة في مكان ما من الضواحي، أما سفيريدوف، العائد الى الجبهة منذ وقت غير بعيد بعد اصابته بجرح وبرض خفيف، فانه لم يتقدم أبعد من الاودر وأبقي في عمل «أيسر». فقد عين حاكما عسكريا للمدينة، خلافا لارادته ورغبته ـ الا وهي مواصلة القتال حتى النهاية في برلين.

جئنا الى المدينة ليلاً سالكين ذلك الجسر نفسه على رأس الجسر الذي قدم خدمة طيبة لقطعاتنا المهاجمة.

قضينا الليل في مقر الحاكمية العسكرية، واستقبلنا النهار الجديد بعد تناول طعام الفطور في قاعة الحاكم العسكري الكبرى. كانت الساعة العاشرة صباحاً، أما حسب توقيت موسكو فكان الوقت قد بات ظهراً، والشمس الالمانية «المتخلفة» قد بدأت بالكاد تدفئ الهواء.

كانت تجري في الغرفة عبر النوافذ المفتوحة نسمات باردة ومعها نغمات أغنية رتيبة اللحن كئيبة. انهن فتيات روسيات يغنين في البيت المجاور ذي السقف القرميدي الغوطي. كان صعباً تبين الكلمات، ولكن الاغنية الميلودية نفسها، الزاخرة بالحنين المكبوت، كانت تهز القلب بالذكريات عن بيتنا البعيد عن ألمانيا.

كان الحاكم العسكري جالساً قرب النافذة، والتعب باد عليه.

وكانت الهزة العصبية ولون بشرته العليل ينبئان بأن العقيد في حاجة لا الى استراحة قصيرة، بل الى استراحة طويلة ما كان يمكن للحرب ان تتيحها له.

وراح يتحدث:

ـ لقد أمروني قائلين: أذهب الى المصح. ولكن أترى في وسعنا، نحن الجنود القدامى، وقد بدأنا الحرب، ان لا نرى نهايتها؟ اني حين أتذكر الدفاع على الفولغا أحس في فمي طعم الثلج ممزوجاً بالدم، لقد أذبناه وقت الحصار وهل ترى في وسعي أن أقول لنفسي: «أذهب للمعالجة والتداوي!» ومن ترى سيحدث ابني عن برلين؟

كنت أصغى الى الحاكم العسكري وأتطلع عبر النافذة الى الشارع الذي كان يكنسه الاسرى من الجنود الالمان. وقد لاحظت أن الجنود ينظرون أمامهم فقط غير محولين أبصارهم ويديرون رؤوسهم حين يمر في الشارع نسوة أو أطفال أو شيوخ.

وتحت نافذتنا تماماً نسوة ألمانيات يتحادثن فيما بينهن همساً لأمر ما، في صف انتظار طويل أمام حانوت للمواد الغذائية. وما كان الجنود الاسرى يقتربون من ذلك المكان، كأنما كان مؤلماً ومخزياً لهم النظر الى عيون مواطناتهم.

وقال لي الحاكم العسكري، وقد أخرج من جيب بدلته صورة فوتوغرافية لصبي اشقر في حوالى العاشرة من العمر:

ـ هو ذا وريثي جينكا. لقد عرّجت ذات مرة من الجبهة على بيتي في لينينغراد. ظللت بضعة شهور لا أتلقى رسائل من الاهل. فما كنت أعرف بوضوح كيف احتملوا الحصار. كنت منذ وقت

بعيد لم أر ابني ، وكنت، بالطبع ، في اضطراب شديد. ودخلت الشقة. وهل تعلم باية عبارة استقبلني صغيري؟ «مرحبا، بابا! تعرف، عندنا في لينينغراد قتلوا الفيل». وبالفعل، كان القصف الالماني في أيام الحصار قد أدى الى مقتل فيلة في حديقة الحيوانات! فأنظر أي أسى كان لدى ولدي جينكا ــ قال الحاكم العسكري ضاحكاً، وهو يخبئ صورة ابنه. ثم سأل سفيريدوف بعد دقيقة:

ــ أصحيح أن في الوسع تسجيل رسالة صوتية على اسطوانة بواسطتكم؟ فهززت رأسي مؤكداً أن نعم. فقرر قائلاً:

ــ واذن فسأفعل ذلك. سأسجل رسالة صوتية على اسطوانة وأبعث بها عن طريق البريد. وفي لينينغراد، سيدير ابني الحاكي ويسمع صوت ابيه من ألمانيا اتسمع يا ايفان! ــ صاح الحاكم العسكري بجندي الخدمة ــ ابني جينكا سيسمع صوت ابيه. فهات ورقة!

وفيما كان سفيريدوف، الجالس بارتياح قرب النافذة المفتوحة، يكتب رسالة الى لينينغراد لكي يقرأها أمام ميكروفوننا، تذكرت كيف كنا معاً، قبل تناول طعام الفطور، ننظر الى البومات صور الدعاية الهتلرية. لقد كان الدعاة النازيون والاشقياء من الحرس الهتلري الخاص، أثناء تقهقرهم السريع، يلقون بها في الكثير من المنازل، وهم يفرون الى الغرب.

كانت هذه الالبومات تحمل العشرات من صور هتلر الفوتوغرافية في شتى الاوضاع. فما كان يبخل في نشر صوره بملايين النسخ في جميع انحاء البلاد وتعليقها في كل منزل تقريباً وما كنا نحن الناس السوفييتيين وحدنا في تلك الايام، بل كان الالمان أنفسهم

أيضاً في تقزز واشمئزاز من المنظر الوحيد لهذه السحنة، من النظرة الوحيدة الى الوجه المنتفخ المترهل الغاضب، والى شاربيه القاتمين، والى خصلة الشعر اللاصقة على الجبين كأنما هي مبللة.

وكنا قد بتنا في النهاية لا نعير التفاتاً لصور هتلر المبعثرة في الكثير من المنازل، حيث يبدو الفوهرر إما في عرض عسكري، وإما قرب كلبه الضخم من نوع كلاب الرعاة الالمانية، أو قرب هيكل الكرة الارضية، أو مع أطفال في أحضان الطبيعة.

ولكن بعض الصور في الالبوم جلبت انتباهي. انها نسخ من لوحات هتلر — الرسام.

ليس يمكن التأكيد بأن هذا الطاغية لم يكن يحسن الرسم بتاتاً. كان يفتعل رسم ما يشبه مناظر المدن. وما كان يبعث على العجب فيها، ليس انعدام موهبة الرسم، بل شيء آخر. بل العجيب فيها على الاخص الميل الشديد الراسخ لدى هتلر الى مواضيع المدن المخربة المدمرة، والى صور الفوضى والخراب بعد قصف المدفعية والطائرات .

واني لاتذكر نسخة عن لوحة لحي من أحياء باريس، مضاء بنور شمس غاربة أصفر. كان الحيّ قد دمر بقصف المدفعية الالمانية. وهنا أيضا يبدو منظر لفارصوفيا وقد انهارت الالوف من بيوتها كأنها راكعة على ركبتيها.

الدمار، الدمار! بذلك كان يتغذى خيال هذا «الفنان»!

لقد كان شيطان الدمار يعيش في روح الفوهرر الحالم بان يرى المدن والبلدان تدوسها جزمات الجندي الفاشستي لا على اللوحة وحسب، بل على الارض أيضاً.

انه هو- «الفنان هتلر» - الذي أمر بقصف لينينغراد بالمدفعية الثقيلة، انه هو الذي تباهى بمحو روائع الثقافة العالمية: بترودفور يتز، ومدينة بوشكين، والارميتاج، وقصر الشتاء، من على وجه الارض. ولقد رأيت توقيع هتلر على احدى الصور الفوتوغرافية في الالبوم، فصعقت لرؤية الاحرف الاولى وحدها مستقيمة، أما الاخرى فمائلة، منحدرة الى الادنى انحداراً يكاد يكون شاقولياً. وقد كان في هذا التوقيع الهابط شيء من طبيعة لوحات هتلر، من مهادها القاتم ونزواتها الرعناء.

ما كان سفيريدوف قد انتهى بعد من الكتابة حين توقف تحت نافذة الحاكمية العسكرية رجل مكتنز قصير القامة، وهتف بشيء ما، منادياً العقيد.

كان واقفاً مباعداً بين ساقيه رافعا رأسه الى فوق، والهواء يحرك شعره الطويل الاسود الزرقاوي المنسدل على رقبته.

وكان ذلك فناناً في سيرك متجول فاجأته هنا القوات السوفييتية الزاحفة.

كان الفنان يوناني الجنسية، يتكلم ثماني لغات وقليلاً من الروسية. وقد سأل بلغة روسية مكسّرة:

- متى سنستطيع اقامة حفلة؟

ثم قام بيده بحركة مسرحية واسعة كأنما يعبر بها عن استعداده للبدء بالعمل فوراً. فصاح به سفيريدوف:

- قريباً، قريباً!

فقال الفنان:

- عمل حلو، نريد جداً. ومن جديد بسط يديه الى أمام. فبرزت حتى من تحت الثياب عضلات جسمه الرياضي الصلبة المرنة.

وابتسم سفيريدوف. ولكنه لم يتوقف عن كتابة رسالته وصاح بالفنان عبر النافذة قائلاً له أنه سيستطيع البدء بحفلاته متى تم ترتيب المسرح المحلي.

في تلك الايام كان ألوف اللاجئين، من الناس المساقين من جميع البلدان الاوروبية، متعطشين، وقد استعادوا شجاعتهم، للقيام باي عمل، باي نشاط يمكن أن تكون من ورائه المنفعة للحياة الجديدة في ألمانيا.

وبعد أن صرف سفيريدوف الفنان اليوناني، أنهى اخيرا رسالته، وقبل تلاوتها على الاسطوانة قرأها لي بمهابة وانفعال شديد. وقد جاء في رسالة العقيد:

«أكتب اليك، يا جينكا، من ألمانيا، من مدينة صغيرة. وأنا هنا، يا جينكا، اقوم بوظائف الحاكم العسكري. لقد حطمنا العدو على الاودر، والهجوم مستمر، وقد باتت برلين قريبة. سأكون هناك عما قريب. وسيكون ثمة ما أحكيه لك!»

وبعينيه فقط سألني: أحسن هذا؟ فهززت برأسي موافقاً، وتابع سفيريدوف القراءة:

«وهكذا أيها الصديق جينكا! اني جالس وراء الطاولة، وتحت نافذة الحاكمية العسكرية يسير عرق الاسياد سابقاً ولديّ كثير جداً من مختلف الاعمال. وأما أنت فعليك أن تطيع أملك وتحسن الدراسة. وسوف أجيء وأحقق في الامر.

اسمع يا جينكا! لقد ظهر هنا في المدينة بين الغنائم فيل ودب من حديقة الحيوانات المدمرة بالقنابل. الفيل والدب جائعان، لا أحد يطعمهما، فما كان الهتلريون يهتمون بهذا! وقد ظهر أن هذين الوحشين قد

سرقا من روسيا. ونحن الآن سنعيدهما الى الوطن، وربما سيكونان في لينينغراد.

«الى اللقاء، يا ولدي، انتظر قدوم أبيك من برلين...»

وقرأ سفيريدوف هذه الرسالة أمام الميكروفون ووعدت بأن أرسل الاسطوانة لجينكا الى لينينغراد.

وقبل السفر بعشرين دقيقة ذهبنا نتمشى في المدينة. فكان الالمان الذين نلتقي بهم يرفعون قبعاتهم وينحنون للتحية. كانوا يرفعون الانقاض من الشوارع ويرممون خطوط الترا م.

كان حطام الجسر المدمر يتكدس في النهر قرب ضفتيه. وعلى طول الشاطئ كانت تجر بالسلاسل صنادل تحمّل عليها الممتلكات التي نهبها الهتلريون من روسيا.

وفجأة رأينا فيلاً كبيراً. لعله هو نفسه الذي كتب عنه العقيد لابنه.

كان الفيل يركض الى المرسى، مربوط الساق بسلسلة طويلة الى سيارة شحن. وكانت السيارة تجري مسرعة بعض الشيء، ولا بد أن السلسلة الثقيلة كانت تشد على الفيل شداً مؤلماً. كان يهز خرطومه بانزعاج، ومع ذلك فقد كان يجري مسرعاً.

وبعد ذلك مر به المرشدون فوق اللوحات الخشبية السميكة التي انحنت بشدة، وبات الفيل في الصندل. وصاح واحد من جنودنا:

— هيا، الى روسيا!

وسار الصندل. وعدنا الى سيارتنا.

ان هذا لحادث صغير كان يمكن أن يأتي عليه النسيان سريعاً. غير أني في الحق ظللت وقتا طويلاً أتذكر الوجه المتعب، وجه المحارب العقيد سفيريدوف، وتلك الابتسامة السعيدة التي كانت تغمر وجهه وهو يكتب «الرسالة الناطقة» من ألمانيا الى صغيره جينكا في لينينغراد.

«هنا برلين»

تبعد مدينة شتراوسبرغ الصغيرة اربعين كيلومتراً عن برلين. وقد كانت موجة المعارك، الدائرة هنا في اندفاع وسرعة، تخطت هذه المدينة، ولكنها لم تمس تقريبا هذه الجزيرة الصغيرة من المنازل الانيقة والشوارع الضيقة والحدائق الكثيرة الزاخرة بأزهار نيسان.

كانت شتراوسبرغ على ضفة بحيرة تقوم على ضفافها أشجار صنوبر عالية، تنعكس قاماتها الرشيقة في الماء. ونادراً ما فقط كانت تصل ضجة معركة برلين الى شتراوسبرغ دمدمة خفيفة. وكان عجيباً لنا أن المدينة كانت في تلك الايام محافظة على سكون ما قبل الحرب الطيب على السمع.

وهنا كانت تقوم أركان حرب الجبهة البيلوروسية الاولى، شاغلة بضعة أحياء محاطة بحواجز مخططة. أما على شواطئ البحيرة البهيجة فقد أقيمت مستشفيات الجبهة في ظل الحدائق الظليل.

وكان في شترا وسبرغ مركز اتصال هاتفي مع موسكو، يسمى «ف. تش» (عالي التردد) وهو الذي كان يربطنا بهذه المدينة ربطاً دائماً. فقد كنا نجيء اليها بالسيارات فجر كل يوم لكي نبعث

الى موسكو عن طريق الاتصال المباشر بتسجيلاتنا ورسائلنا ومقالاتنا الوجيزة.

وهنا لا بد أن يكون قد حان الوقت للتحدث قليلاً عن فريقنا أيضاً، عن سدنة «الدبابة الراديو». فقد كنت حتى الآن أستعمل، بقصد الايجاز، ضمير «نحن» المجرد، وكنت بذلك وحده كأنما أجمع بيننا جميعاً بحال واحدة من الاحساس، والنظر والانفعال. ولقد كان الامر كذلك من حيث الاساس.

ولكن «نحن» كانت الى جانب ذلك جماعة تألفت في الاشهر الاخيرة من الحرب من أناس مختلفين أعماراً وتجارب حياة.

كانت كلمة «نحن» تعني الكاتب ميخائيل غوس، الذي كان يعمل خلال سنوات الحرب في القسم الالماني والذي أسهم بقسط نشيط في الدعاية الاذاعية الموجهة من موسكو الى المؤخرة الهتلرية. والصحافي ميخائيل شالاشنيكوف، وعامل التسجيل اليكسي سباسكي، وأنا، وسائقنا ميخائيل ايفانوفيتش كوربوسنوف. الجندي من كتيبة السيارات التابعة للجيش، كان قد عين لمرافقتنا طول المدة الكاملة لـ«عملية» تسجيل الضجات والاحداث التاريخية.

كوربوسنوف عامل تعدين من ضواحي موسكو، قضى الحرب كلها «وراء المقود»، وجرت عجلات سيارته ألوف الكيلومترات في دروب الجبهة من موسكو الى برلين. وفي بيته، في مدينة الكتروستال القريبة من موسكو، كان في انتظاره زوجته وطفلاه.

كان انساناً جدياً، قليل الكلام، جريئاً، ذا نفس طيبة رؤوف، وقد كان الاطفال الالمان المتجمعون على الدوام حول سيارته يشعرون بعطفه الابوي. وكان لديه في السيارة «خزانة» للمواد الغذائية هي

عبارة عن صندوق مركب تحت مقعد مؤخرة السيارة. ومن هنا كان يخرج الهدايا للاطفال، من خبز، وسكر، ومعلبات.

وطبيعي أننا ما كنا على الدوام معاً. فما كان نادراً، وقد كنا نذهب الى مختلف قطاعات الجبهة، في مختلف أحياء برلين، ان نظل بضعة أيام لا يرى فيها أحدنا الآخر، ومع ذلك فقد كنا على الدوام نلتقي في مركز المواصلات المباشرة مع موسكو.

منذ خريف سنه ١٩٤١، كنت أحارب كجندي. وبعد اصابتي بجرح خطير في صيف ١٩٤٣، حللت في أحد مستشفيات المؤخرة، ومن هناك ذهبت للعمل في هيئة تحرير «الانباء الاخيرة» في الراديو. وفي ضواحي روسلافل أصابني احد القناصة الالمان برصاصة كسرت يدي اليمنى. ومع أن العظم قد التحم فقد ظلت كفي وقتاً طويلاً لا تتحرك، فاضطرني ذلك للكتابة بيدي اليسرى.

وبالمناسبة، ان هذه الحال تفسر الى درجة ملحوظة واقع أني كنت في تلك الايام أفضل على القلم الميكروفون الذي كان في وسعي أن «أحكي» بواسطته المقالات.

وحين كنت في موسكو أعمل في نوبتي ليلاً في هيئة التحرير واجمع نشرة «الانباء الاخيرة» الصباحية للاثير، ما كان يخطر في بالي، بصريح القول، أني سيتاح لي مرة اخرى الذهاب الى الجبهة، وبخاصة في اتجاه برلين.

ولكن حدث ذات مرة في الليل أن رن جرس الهاتف في بيتي، وكان المتكلم رئيس هيئة التحرير في ذلك الحين، المرحوم ايفغيني ميخايلوفيتش سكليزنيف. استخبر عن أحوالي. فقلت:

ــ لا بأس.

ــ فقال:

ــ ثمة امكانية للذهاب الى الجبهة. ألا تعرقل ذلك يدك العليلة؟

ــ كلا، والى أين الذهاب؟

ــ الى الاتجاه الغربي.

ما كان ايفغيني ميخايلوفيتش يريد تحديد المسار بدقة وتسمية برلين. ربما كان ذلك لأن هذا الحديث كان يجري في كانون الثاني (يناير) ١٩٤٥، وهيئة التحرير قد رتبت سفرتنا آخذة بالحسبان ان العاصمة الالمانية سيتم الاستيلاء عليها بعد بضعة شهور.

ــ ايوه، كيف؟

فأجبت دون استغراق في التفكير:

ــ سأذهب، اني مستعد.

وهل لزام عليّ أن أكتب مبيناً بأي فراغ صبر كان المستمعون في البلاد السوفييتية ينتظرون كل يوم أن ترد اليهم من الجيوش الزاحفة نحو برلين أحاديث شهود عيان عن كيفية جريان الهجوم على القلعة الهتلرية الرئيسية.

فجر يوم الثاني والعشرين من نيسان (أبريل) اجتمع فريقنا لدى هاتف «ف. تش». وكنا عائدين لتونا من منطقة المعارك. وكانت قد نشبت الاشتباكات الاولى في الضواحي الشمالية الشرقية من برلين.

كانت المعركة دائرة الرحى للاستيلاء على الاوتوستراد. فقد كان نطاقه العريض من الباطون يحيط بكل منطقة برلين الكبرى.

كان الهتلريون يتشبثون بالاوتوستراد تشبثا مستميتا: فقد كان يفتح المشارف العريضة للمدينة.

وكان الوضع على الجبهات في تلك الايام على هذه الصورة: الجبهة البيلوروسية الاولى كانت تزحف على برلين من الشرق، وفي الوقت نفسه كانت قوات الجبهة الاوكرانية الاولى قد بدأت الهجوم، مخترقة دفاع العدو في المجرى الادنى لنهر نييسي بين موسكاو وغوبن. وكانت دبابات المارشال كونيف تندفع باستمرار الى الغرب اندفاعاً لا كابح له. وفي الواحد والعشرين من نيسان (أبريل) شرعت في الهجوم الجبهة البيلوروسية الثانية أيضاً. وكانت جيوش المارشال روكوسوفسكي قد التفت على برلين من الشمال.

فقررنا ان نبعث بهذه الانباء السعيدة الى موسكو بالخط المباشر «مدعمين» الرسالة بتسجيل ضجيج المعارك الوثائقي في ضواحي برلين.

ولقد كنا، في العادة، ندخل في انبائنا عن الاحداث ذات الاهمية التاريخية العالمية الضخمة حقاً وقائع ومشاهدات وعلائم اقل اهمية، الا أنها بعيدة الدلالة بالنسبة لتلك الايام.

في الثاني والعشرين من نيسان (أبريل) عرفنا أن هتلر قد «أحيا» قبل يومين عيد ميلاده الاخير. ولقد أدهشنا هذا النبأ، المذاع من الراديو، بما ينطوي عليه من السخف. فقد كانت برلين تحترق من جميع انحائها، والطوق الناري يوشك أن يطبق على المدينة، وأما هتلر فيرى من الضروري أن ينبئ البرلينيين البؤساء عن عيده الذي سبق له أن احتفل به كثيرا من السنين كعيد لـ «امبراطوريته» أيضاً.

ففي سراديب دار المستشارية، كان يجري حقاً «رقص على القبور» اذ أن الالوف من المخدوعين كانوا يواصلون تجرع

كؤوس الردى في محاولة خائبة لوقف اعصار هجوم القوات السوفييتية.

بيد أن هذا لم يمنع غوبلز من الكذب مرة أخرى على الشعب الالماني عن «ايمانه العميق الراسخ» المزعوم بـ«فوهرره» وعن أن «الصمود العام سيحمل النصر».

ومع أن المعارك كانت توغل في المدينة، فقد كان الهتلريون يواصلون الدفاع بضراوة. وكان ما يزال يسري مفعول الامر المذاع بالراديو الى قطعات المدفعية الالمانية بان تطلق النيران على مشاة الالمان المتقهقرين بقذائف الشظايا. وعلى الالتماسات اليائسة الصادرة عن قادة القطعات بالسماح بالانسحاب، كانت القيادة تجيب هذا الجواب القاسي: «أصمدوا مهما كانت الاحوال. ومن سيتراجع سيعدم رميا بالرصاص!»



قوات سوفييتية في برلين.

وفي نشرة حربية، وزعت على جميع القطعات ، كان غوبلز يعلن بصراحة أن «القوات الالمانية على نهر الب قد أدارت ظهرها للقوات الاميركية لمساعدة البرلينيين في معركتهم الهائلة من أجل العاصمة».

وتشجيعاً لبقايا «الحرس الهتلري الشائب»، المؤلف بصورة رئيسية من شيوخ وشبان، مصابين بعدوى الروح الفاشستية، علق غوبلز في المدينة لافتات كتب عليها: «برلين كانت وستبقى ألمانية!»، «القوات الجديدة تقترب، برلين تحارب تحت قيادة الفوهرر!»، «كل ضربة من مجرفتك موت لدبابات سوفييتية!».

وكانت الجرائد الفاشستية القليلة التي ما تزال تصدر تطلق نباحها داعية «الى مقاومة البلشفية». ومع ذلك فقد كانت الاعترافات اليائسة تدوّي احيانا عبر هذه الشعارات والاوامر والشعوذات الهستيرية الصادرة عن زعماء العصابة الفاشستية، وحتى على صفحات الجرائد ومن اذاعة برلين.

فقد اذاعت وكالة ترانتسيان الهتلرية تقول:

«أبواب الجحيم تنفتح على مصاريعها والمسألة القائمة هي مسألة نهاية هذه الحرب!» بلى، ان النهاية التاريخية كانت تقترب!

ففي تلك الايام، كما عرفنا فيما بعد، حين كانت القوات السوفييتية تقترب من الضواحي الشرقية لبرلين، انهارت جميع أوهام هتلر. وفي أوامره كان ينهال على الجيش، وعلى افراد الحرس الهتلري الخاص، وعلى الشعب كله بالاهانات الرهيبة، متهماً اياهم بالخيانة، وبعدم ادراك عظمته وأهدافه.

وكان هملر وغورنغ قد تركا برلين، آملين باجراء مفاوضات مع الدول الغربية. وكان كايتل ويودل يحاولان في ذلك الحين تنظيم هجوم معاكس على برلين، مستخدمين جيشهما التاسع المتقهقر عن الاودر، والجيش الثاني عشر المشهور باخفاقاته، جيش الجنرال فينك، الذي كان هتلر يعلق عليه آماله الاخيرة.

كان هذا الجيش، الواقف الى الغرب من برلين، ما يزال محتفظاً بالخطوط الدفاعية على نهري الب ومولد. وكان على الجيشين معاً ان يلتقيا في الجنوب من برلين. وما كانت بعد قد بارحت رؤوس الجنرالات الفاشست الفكرة السخيفة، فكرة محاولة انقاذ برلين وهتلر من طوق الحصار.

وفي ذلك الحين كان جنودنا قد نفذوا الى «برلينر اليي»، الشارع الاول من برلين القديمة. وكانوا يرون من حولهم ابنية على نسق الفيلات، وحدائق، ومباقل مغطاة بالزجاج. وفيما بينها، داخل استحكامات خاصة، أقام العدو المدافع، بما فيها المضادة للطائرات، وقد حولت الى مدافع مضادة للدبابات، لا يسترها غير شبكات التمويه.

كنت ارى المدافع المغتنمة. وقد كان مكتوباً بالطباشير على أحد دروع المدافع: «محسوب!» وكان ثمة تاريخ الحساب. انه أحد أفراد قسم جمع الغنائم قد تمكن وهو راكض أثناء المعارك من اجراء حساب الغنائم الحربية.

كان القتال جارياً الى ابعد من «برلينر اليي»، وجنود الهندسة يضعون اذ ذاك كلمة «منزوعة الالغام» بالطباشير الى جانب لافتات ألمانية مسمرة على الجدران:

«الحليب المثالي»
«سيارات أوبل»

ولعمرك، لقد كان غير ممكن في تلك الايام، ومنذ وقت بعيد، أن يجد المرء «حليباً مثالياً» بل أي حليب على الاطلاق! فما كان البرلينيون المحشورون في ملاجئ من الباطون يحلمون الا بالمحافظة على حياتهم، والا بكسرة من الخبز.

كان القتال يجري من بيت الى بيت. فاذا ما سأل المرء عن خط الجبهة أين هو، فقد كان يمكن أن يسمع هذا الجواب : «أنه هناك، أيها الرفيق، وراء الزاوية!»

قال الرقيب الاول بافل سيدورنكو، الاسود الشعر، الاوكراني



من هنا كانت تجري قيادة نزع الالغام في برلين.

المديد القامة من منطقة بولتافا، وهو يشير الى بيت كبير كان الهتلريون محاصرين في طوابقه العليا:

– نسف كل شيء، ولجهنم، مسألة بسيطة. ولكن الهتلريين أبناء الكلاب، قد حشروا هناك الرهائن. ولا يسمحون لهم بالخروج. مئتا نفس من جماعتنا الروس والبولونيين. يقصدون اثارة الرحمة والشعورالانساني! أما نحن فاننا نسير قدماً، وندع مثل هذا البيت في المؤخرة. هم أنفسهم سيستسلمون فيما بعد!

في شهر نيسان (أبريل) أطلق سراح المجرمين الجنائيين من جميع سجون برلين، وألبسوا ثياب الجنود، وألقي بهم الى ساحات القتال. صحيح أن المجرمين المكررين المزمنين، والاشقياء، والنشالين، ما كانوا يتحرقون رغبة للموت «في سبيل الفوهرر»، انما كانوا يفضلون النهب السافر للمخازن والبيوت.

وقد اراني سيدورنكو هذا منشوراً للدعاية وجده لدى جريح هتلري. وكان المنشور مطبوعاً، موجهاً الى جميع الالمان من قبل منظمة «الفيرفولف» – «المتذئبين» – التي شكلها الهتلريون مؤخراً.

وقد جاء في المنشور:

«...ما دام القميص الاسمر عليّ، فأنا قناص شرس. أننا جميعاً ملك للفوهرر، نحن أمثال الذئاب. وعملنا هو القنص...». فماذا كان الهتلريون المدمنون دائماً على الالقاب الفخمة، والتسميات المهددة المتنفخة لفرقهم، ماذا كانوا يريدون أن يقولوا هذه المرة باطلاق اسم «المتذئبين» على منظمتهم الجديدة؟ ايريدون أن يقولوا أن الفاشستية سترتدي قناعها الجديد، وستواصل عملها القديم في جلد جديد؟

ان منظمة «الفيرفولف»، من حيث مقصد رؤساء «الامبراطورية الثالثة»، قد انشئت من أجل المقاومة الدائمة السرية للقوات السوفييتية، اعتماداً على الحرب الدنيئة غدراً واغتيالاً في المناطق المحررة من ألمانيا.

ذلك هو المزيج من الوقائع المختلفة، الذي يصور الوضع القتالى المعقد في الايام الاولى بعد العشرين من نيسان (أبريل) والذي كان أساساً للرسالة التي سجلتها ليلاً على الاسطوانة في «دبابتنا — الراديو» مباشرة.

وكنا غالباً ما نلجأ على هذا النحو الى معونة علم الاتصالات اللاسلكية. وكان ذلك ينقذ الوقت من ضرورة الحضور بالذات لدى اذاعة «المادة». فما كانت المسافة بقصيرة الى شتراوسبرغ من منطقة المعارك.

ولكني في ذلك الصباح كنت عند جهاز «ف. تش». واني لاتذكر الغرفة الصغيرة في البيت الصغير ذي الجدران البيض، والجهاز الاسود على الطاولة، ذات الحجم الضئيل والهيئة غير الملفتة للنظر بحيث كان يبدو انه لا يمكن أن يستخدم الا في الاتصال الداخلي بين أقسام اركان حرب الجبهة.

ولكن بعد ثانية واحدة بالضبط من رفعي السماعة عن الحاملة سمعت صوت شخص بعيد عنا عدة ألوف الكيلومترات. فسأل بصوت ناعس:

— آلو، من المتكلم؟

وفي السماعة كان يرتعش شيء ما ارتعاشاً خفيفاً، وكان ثمة أزيز هادئ لا يكاد يلحظ، يذكر بالمسافة التي تفصلنا عن موسكو.

ـ هنا برلين، مرحباً!

ـ أية برلين؟

ـ أية برلين؟!

لقد كان سؤالاً غريباً. كان لا يمكن ان يطرحه الا شخص على غير علم مسبق بحديثنا مع موسكو. وقد اتضح فيما بعد انه لم يكن لدى لجنة الاذاعة جهازها الخاص من نوع «ف. تش»، وقد جرى اتصالنا أولا بمركز الاشارة الخاص، ومن هناك وصلونا بالشبكة العادية للمدينة.

وما عليك الا أن تتصور أنك ترفع سماعة الهاتف العادي في موسكو فيعلن احدهم انه يتكلم من برلين، وذلك في الوقت الذي كانت فيه برلين ما تزال عاصمة ألمانيا الهتلرية.

ولقد قال العامل على الهاتف قولاً لاذعاً:

ـ بلا خلط!

كان الوقت عندنا في برلين في مستهل الفجر، وقد كنت اسمع كيف كان المناوب الغاضب يتثاءب في السماعة ويبدو أنه يتمطى. ولقد كنت أنا أيضاً عند الفجر أحس بقشعريرة من الهواء البارد، لأني كنت غير مستوف قسطي من النوم ومن الراحة. ولكن يحدث أن يبعث المزاح في النفس الدفء والنشاط.

ـ وكم برلين تعرف؟

فاجاب عامل الهاتف متكدراً:

ـ لست في حالة أستطيب معها المزاح.

ـ ونحن أيضاً. فاسمع اذن: هنا برلين فعلاً، برلين ذاتها التي ننهي فيها الحرب. فلك التحية من الجبهة، أيها الرفيق! والآن، تفضل فاربطنا بغرفة اجهزة تسجيل الصوت.

— دقيقة واحدة.

وفيما كان عامل الهاتف ينقر بالازرار، أتيح له أن يستفسر منا عن الطقس في برلين بلهجة أخرى تعبر عن الود والاحترام. وأجبته:

— لا بأس به، وفي موسكو؟

— السماء ممطرة، ولكن الجو دافئ. كيف الامور عندكم؟

— نستولي على برلين!

فقاطعنا هذه المرة مناوب من ستوديونا:

— عظيم. مرحباً، أيها الرفاق الاعزاء! نهنئكم بالنجاحات الحربية. تحية حارة من هيئة التحرير، من أهلكم وأصدقائكم. هل الجميع سالمون معافون؟

— الجميع، الجميع على ما يرام.

— واذن فان اجهزتنا جاهزة، والامور الشخصية والطلبات فيما بعد. الآن نبدأ العمل.

وفتح سباسكي جهازنا «بريستو». وسمعت صفيراً خافتاً صادراً عن آلات تسجيل الصوت في موسكو، وابتدأ العمل الذي يسميه فنيو علم الاتصالات اللاسلكية بالتسجيل على الخط.

آمل باني الآن لم أتعمق كثيراً في سرد التفاصيل الصغيرة وأنا أتحدث عن كيفية نقل تسجيلاتنا الى موسكو. فلست أدري اذا كنت سأستطيع التعبير عن ذلك الانفعال الخاص الذي استولى في تلك اللحظات علينا وعلى أولئك الذين كانوا يسمعوننا في موسكو.

ان هذا قد بات الى حد ما طي النسيان، طي الماضي، ولكن ما كان يمكن، في ذلك الربيع، لاي حديث هاتفي، لاي صوت

من الجبهة، لاي صوت روسي من ضواحي برلين - وهو الشهادة الحية على اننا قد دخلنا الى الاراضي الالمانية - أن يتلقاه أحد ببرودة ولامبالاة.

زد على ذلك أن قد كانت تُسمع اذ ذاك على الخط المباشر أصوات المحاربين، وقصف المدفعية، و صرير جنازير الدبابات، وصرخات الجرحى، وولاويل الالمان - كل ضجة معركة برلين كأنها السمفونية الهائلة كانت في تلك الساعة المبكرة تنصب على موسكو في ذلك الصباح المبكر الهادئ، وقد استيقظت المدينة لتوها.

أذهلت هذه الضجة عاملات الهاتف، وأفزعت المناوبين غير المطلعين، وأفرحت العاملين في هيئة التحرير.

ولقد راحوا «يلتقطون» هذه الضجة حتى النبرة الاخيرة، على اعتبار انها صوت التاريخ نفسه، الصوت الثمين الفريد من نوعه ليخلدوها على الاسطوانات وعلى اشرطة التسجيل أيضاً.

كان من المعتاد أن لا نشتغل بجهاز «ف. تش» مع موسكو أكثر من ساعة، وكان يحدث أن «ندير» اسطواناتنا على عجل، كما يقال. وأحيانا كان لا يستغنى عن الطرائف المسلية أيضاً. وبالاضافة الى آلات تسجيل الصوت كانت كاتبات الاختزال أيضاً تسجل اذاعتنا من أجل الرقابة.

وفي ذلك الصباح لم تدرك كاتبة الاختزال بضع كلمات في اذاعتنا. ولما كانت لاتعرف أن الاسطوانة هي التي تتكلم، فقد التمست التوقف وتكرار قسم من الكلام مرة أخرى ولكن الاسطوانة ظلت تواصل دورانها. فصاحت:

4—202

– آلو، آلو، قفوا، لا أفهم، قفوا!

ولكن صوتي لم يسكت الا حين انتهت الاسطوانة.

– ما لكم، أما تسمعون هناك؟ – سأل العامل الفني المناوب.

– كلا، كل شيء على ما يرام، سأضعه الآن من جديد – قال سباسكي.

– لست أفهم، من ستضع من جديد؟

– الكاتب.

– كيف الكاتب، أين؟

وما أدرك فنيوستوديو موسكو جلية الامر الا حين راحت الرسالة تدوي من بدايتها في السماعة.

كان لنا الحق، عند نهاية الاتصال بالخط، في خمس دقائق للاحاديث الشخصية مع الاهل في موسكو ولينينغراد. وفي بعض الاحيان كانوا يأتون هم أنفسهم الى الستوديو. وفي ذلك الصباح كانوا قد دعوا الى الجهاز، بناء على طلبنا، زوجة ميخائيل ايفانوفيتش كوربوسنوف.

كان كوربوسنوف لم يسمع صوت زوجته منذ ثلاث سنين. وقد حددوا له للمكالمة ثلاث دقائق فقط.

وكان خائفا، بالطبع، ان لا يتيح له ضيق الوقت قول أهم شيء. وقد راحت زوجته، وهي لا تكاد تفسح له مجال القول، تسأل بسرعة عن شيء ما وهي تكاد تشرق بالكلمات وقد سمع صوتها يزمجر على غشاء السماعة.

واما كوربوسنوف فكان يجيبها بكلمة واحدة فقط:

«سنلتقي»

ـ سنلتقي سريعا، يا كاتيا! ـ كان يكرر هذه الكلمة بألوان شتى، ناطقاً أياها كل مرة بشكل خاص في حنان تارة، وأمل تارة أخرى، مشجعاً زوجته حينا، وحينا آخر كأنما يوعز لها بشيء ما هام وخطير الشأن.

ولقد قال لها، مسرعاً بابعاد السماعة عن أذنه كأنما يوجعه سماع تنهدات زوجته وتحذيراتها الاخيرة:

ـ اعتني بالاطفال، يا كاتيا، سنلتقي، فالحرب منتهية عما قريب. والآن سأنهي مكالمتي من برلين. فاذهبي الى البيت، يا كاتيا!

ووقف محمر الوجه، فمسح عينيه متأنياً براحة يده الجافة.

وقلت لكوربوسنوف:

ـ ايوه ارأيت، هذا خير من أية برقية ـ أنت نفسك وبصوتك الحي! والآن ستنتظر هي وقلبها مرتاح.

فقال وقد اربكه بعض الشيء انتباهنا له: ـ بلى، بالضبط! وماذا أقول لها في ثلاث دقائق! الامر الرئيسي ـ أني حي، وأما الباقي فيتدبر. على كل حال، لكم أحر الشكر!

وفيما كان مناوب الستوديو في موسكو ما يزال يتحدث معنا في استعجال عن الاذاعة القادمة، مستفيداً من الثواني الاخيرة للاتصال، غير مغلق بعد جهاز «بريستو» لتسجيل الصوت، ونحن نراجع تسجيلنا لنرى ما اذا كنا قد نسينا شيئاً، كان محرك السيارة قد راح يهدر وراء جدار البيت الصغير.

انه كوربوسنوف جالس على مقعد السائق، وهو يضرب بوق السيارة ضربات قصيرة، يستدعينا اليها في فراغ صبر. كان

يدرك أن كل دقيقة كان في وسعنا قضاؤها في برلين في تلك الايام لها اهميتها الخارقة الفريدة.

بالاختصار، كان الوقت قد حان للذهاب الى الخط الامامي، الى برلين، حيث كان الوضع الحربي يتغير كل ساعة.

مجموعة مدفعي

في الساعة التاسعة من مساء الثالث والعشرين من نيسان (أبريل) كانت موسكو تحيي القوات المخترقة الى برلين بعشرين طلقة مدفعية من مئتين واربعة وعشرين مدفعاً! بعيداً الى الشرق، في السماء الهادئة فوق موسكو، كانت طلقات المدفعية تدوي على شرف معركة برلين. أما هنا، عندنا، فكانت المدافع ما تزال تضرب برلين ذاتها.

كانت كتيبة المدفعية تحت قيادة المقدم كليمينكو تحتل مواقع القتال في ضواحي برلين. وكانت المدافع قد ادخلت الى خنادق حفرت في تربة طرية، لا يغطيها غير دثار اخضر رقيق من الاتربة والاعشاب .

ومن جميع النواحي كانت ترى بيوت صغيرة أنيقة بيضاء الجدران تحيط بها حدائق متجعدة. وكان غريباً أن يرى المرء كيف كانت مواسير المدافع تبرز من بين أدغال الحدائق كأنها جذوع قاتمة لاشجار متساقطة ظلت معلقة بمعجزة على شجيرات الكرز وتوت العليق.

وما دامت المدافع لا تطلق النار، فقدكانت الحدائق يسودها الهدوء، كأنك في مصيف أيام السلم. وذلك فقط اذا أنت لم تنتبه

الى لهب الحرائق المتصاعد الى السماء فوق معامل الغاز في فينسينزي، والى ضجة محركات السيارات المنطلقة على أوتوستراد برلين الدائري.

كان قائد الكتيبة، وهو ضابط مديد القامة، أنيق المظهر، على عينيه نظارتان تسبغان على وجهه تعبيراً غاضباً، والملازم الشاب ذو الوجه المدوّر، قائد فصيلة المساحة، جالسين على شرفة احدى الفلات يشربان الشاي.

ومن خلال نوافذ الشرفة ذات الزجاج المتعدد الالوان، كان المرء يرى حديقة، وسياجاً جميلاً من الحديد الصب، وثقب المدخل القاتم الى الملجأ القريب من حوض الزهور. وفوق المدخل كانت ترى أطراف اخشاب السقف، الامر المألوف في بناء أمثاله على مقربة مباشرة من الخط الامامي.

وفي حالة ما اذا حدث قصف شديد من مدفعية العدو، كان على الجميع أن يزحفوا الى هذا الملجأ، ولكن كان اطيب للعقيد، طبعاً، الجلوس اذ ذاك على الشرفة وراء طاولة عريضة تتدلى منها أطراف خريطة منطقة برلين الكبرى.

واقترح عليّ كليمينكو قائلاً:

ــ ما رأيك بتناول قدح من الشاي؟ ان الحرب الآن في فترة توقف.

واصخت بسمعي: لقد كان الالمان بالفعل لا يطلقون النار على مقربة منا.

ــ فترة توقف، هكذا بالضبط، لقد لاحظت ذلك بجلاء، انهم في هذا الوقت يتناولون طعام الفطور ــ أضاف الملازم،

وابتسم منشرحاً بلا شك لكون ملاحظته لم تلق معارضة من أحد.

كان قدح الشاي الثقيل موضوعاً على الخريطة مباشرة. وكان كليمينكو يشرب على غير استعجال، مقرقعاً بالملعقة الصغيرة كامرئ يستطيب هذه الدقائق لان أمامه يوماً زاخراً بالمشاغل المرهقة. على أن شرب الشاي ما كان يعيقه عن أن يخط على الورقة بالقلم الازرق - الاحمر خطوطاً دقيقة واثقة، بغية تشديد الدلالة على الهضاب والمنخفضات بدقة، ويرسم على الخارطة العلامات الارضية الميسرة لاطلاق النار المحكم، وبالاختصار - كما يقول رجال المدفعية - «تظهير الخارطة».

- هل «ضبطت» المقاييس الطبوغرافية لهذه النقطة الآهلة - برلين؟

طرح كليمينكو هذا السؤال على الملازم بدون اية سخرية.

- ضبطت، ايها الرفيق المقدم - أجاب الملازم بسرعة، لأنه كان، بوصفه قائد فصيلة المساحة قد أجرى الاسترشاد المساحي فى البرية كأول عمل في موقع القتال الجديد، وأبلغ العلامات الارضية لقادة البطاريات. كل هذا يسمى «ضبط».

- الامر يسير عليكم هنا، انتم المساحيين. ليس في العلامات الارضية الحسنة نقصان. اليس صحيحاً؟

- هكذا بالضبط - أجاب الملازم بصوت رنان - لقد ضبطت المقاييس الطبوغرافية حسب مدخن المصنع وبرج محطة السكة الحديدية، انهما بارزان جيداً للعيان!

ومن جديد قال كليمينكو بلهجة جدية:

ـ اجل، ان هنا لمكانا آهلا ـ هو برلين. هل ابلغت المعلومات للبطاريات؟

ـ هكذا بالضبط!

وهب الملازم واقفاً عن الكرسي بسرعة متأخرة عن وقتها. فقال له كليمينكو ملوحا بيده:

ـ اجلس، اجلس!

ان قميص الملازم الجديد، وكتافيتيه الذهبيتين اللتين ما كان، على ما يبدو، مستعجلاً لاستبدالهما بكتافيتين خضراوين مما يحمل في الجبهة، وهذه الطريقة في الاجابة كل مرة بالعبارة الرسمية الخاصة «هكذا بالضبط» ـ كل هذا كان يكشف لدى قائد فصيلة المساحة عن طالب المدرسة الحربية بالامس.

ـ وهل اكمل بروزوروفسكي المنظر العام؟

ـ سيكمله عن قريب.

ـ عجله! ولكن بلطف، افهمت؟ قد يكون هذا نتاجه الاخير. فليبذل جهده ـ قال كليمينكو ورفع بصره الى الملازم.

ـ هكذا بالضبط، سنبذل جهدنا، أيها الرفيق المقدم.

وأدى الملازم التحية العسكرية، ودار على كعبيه بشدة، ونزل مسرعاً من سلم الشرفة. ورأيته يغوص في الملجأ.

وسأل كليمينكو:

ـ هل سجلتم صوت «صغيراتنا»؟

ومن وراء زجاج نظارتي قائد الكتيبة تلامعت شرارات ابتسامة مرحة، ورقت تعابير وجهه الصارم. وراق لي ذلك. وفي

الحق، اذا كانت الابتسامة لا تلطف الوجه، فمن العسير على مرؤوسي مثل هذا الضابط أن يخوضوا غمار القتال.

ـ هل سجلتم أم لا؟

وكانت القضية هي أن المقدم كان يلاحظ ما يعانيه سباسكي من عذاب طويل الامد في محاولاته الرامية الى تخليد زمجرة قصف المدفعية لبرلين على اسطوانة. وضعنا جهازنا، أول الامر، قرب مواقع النار. ولكن ما أن جرى القصف الاول حتى قفزت الابرة من ثلمة الاسطوانة، وليس هذا وحسب، بل لقد اوشك الجهاز نفسه أن يقع من مسنده على الارض المهتزة.

واذ ذاك ابتعدنا قرابة مئتي متر. بيد أن الموجة الصوتية بدت هنا أيضاً أقوى كثيراً من أن يكون في المستطاع تسجيل الهدير، على الاسطوانة. فكان سباسكي يغير «موقعه» عدة مرات، متراجعاً أكثر فأكثر، حتى لقد بات أخيراً من البعد بحيث لم يعد يرى البطاريات قط. وكان طبيعياً أن يستدعي هذا كله ابتسامات مكبوتة لدى رجال المدفعية. ومع أنهم جميعاً كانوا يشعرون بمصاعبنا «الفنية»، الا انهم كانوا أكثر اعتزازاً بقوة مدافعهم وصوتها الرنان.

وقلت للمقدم:

ـ بصراحة، لقد تعطلت بضع اسطوانات. ولكن لا بأس. فمقابل ذلك ستسمع «صغيراتكم» جيداً في سراديب دار المستشارية.

ـ كن على يقين من هذا! أما رأيت ما يكتب المحاربون على القذائف: «الى برلين!»، «استلم، يا هتلر، هدية جنود الحرس!»، «فلننقض على الافعى الفاشستية!»... كلها على العموم بهذه الروح. وكلها ستبلغ الهدف.

فسألته:

ـ هل تحارب قطعتكم منذ وقت بعيد؟

ـ منذ البداية. اني شخصياً أحارب في هذا الفوج من موسكو. كنت أخدم هناك كضابط في الملاك.

وفيما كان كليمينكو يتحدث عن الدروب التي اجتازها الفوج، خرج الملازم من الملجأ ومعه جندي كهل يحمل في يده اضبارة جميلة من الجلد. وكانت الاضبارة شبيهة بتلك التي يحملها الرسامون الذاهبون للعمل في مكان ما في احضان الطبيعة.

وجاء الجندي سريعاً الى الشرفة، فاخرج من الاضبارة بحركة مألوفة صفحة كبيرة من الورق السميك، فبسطها بعناية على الطاولة، وركز أطرافها بمسامير صغيرة. وبعد ذلك تنحى الى وراء، وراح يميل برأسه قليلاً الى اليسار وقليلاً الى اليمين، ناظراً من بعيد الى صفحة الورق وهو يوصوص عينيه قليلا. وفي هذه الاثناء تنفس الصعداء، الامر الذي كان يمكن اعتباره علامة على الارتياح أو على قلق المؤلف. وأخبر قائلا:

ـ أيها الرفيق المقدم، لقد تم تنفيذ الامر. فهيا متعوا نظركم بالموقع الامامي الذي قد يكون الاخير بالنسبة لنا في هذه الحرب!

وكان الملازم، الواقف على مقربة منه، يمصمص لسانه ارتياحاً كالطفل. وقال:

ـ أحفظها انت، يا بروزوروفسكي!

كان الملازم يبدو أصغر من بروزوروفسكي بقرابة خمسة عشر عاماً، ولكنه كان يخاطبه مخاطبة الاتراب، غير ملاحظ اختلاف السن، ولعل شأنه في ذلك شأن بروزوروفسكي نفسه.



الرقيب الاول دريابين اجتاز الطريق مع سدنة مدفعه الهاون من الفولغا الى برلين.

ـ هي ذي النقطة الآهلة برلين! ـ كرر قائد الكتيبة عبارته الاليفة بلهجة غير انفعالية ـ اجل، برلين، برلين! ـ ثم قال وقد انحنى على الصفحة: ـ ايوه فلننظر، ماذا رسمت هنا؟

كانت الورقة السميكة، التي جاء بها بروزوروفسكي، تصور المنظر العام للموقع الامامي، مع تعيين أوكار نيران العدو، وقطاعات اطلاق النار ومربعات قصف المدفعية.

لقد كان، بالاختصار، منظراً عاماً عادياً يرسمه رجال المدفعية لانفسهم في كل موقع جديد من مواقع القتال.

ولكن ثمة ميزتين تبرزان للعيان فوراً، وتجعلان هذا المنظر العام غير عادي البتة. الاولى هي أن الصورة هنا لبرلين، والثانية هي أن المنظر العام مرسوم من قبل فنان حقيقي.

أجل، فقد كنت أرى أمامي لا رسماً تقريبياً عادياً يحتوي على علامات اصطلاحية وخطوط عليها أن تمثل القرى و الحقول والغابات. كلا. ان المنظر العام تبرز فيه مدينة كبيرة تشويها النار شياً، وتسربلها الشمس الغاربة بلون أصفر. وبالاصح القسم منها الذي كان في الوسع رؤيته من مرصد رجال المدفعية.

ورحت اذ ذاك اتأمل بروزوروفسكي. كان واقفاً قرب الطاولة مسنداً اليها احدى يديه، وهو يتطلع الى المنظر العام. ابزيم حزامه، غير المشدوث كثيراً، منزاح الى جنبه. فكان يبدو في ارتدائه بزته العسكرية على نحو متهامل شخصاً ذا عادات «مدنية» عميقة الجذور.

بدا لي وجه بروزوروفسكي النحيل، وقد غارت عيناه قليلا، وجهاً متعباً. ومن حين لآخر كانت تنزلق على وجهه ابتسامة حالمة

رقيقة تمحو عن وجهه تعابير القلق والاسى، شيئاً فشيئاً، كما تشتت الريح الخفيفة العابرة السحب.

ولقد عرفت فيما بعد ان بروزوروفسكي قد حلت به مصيبة. اما الآن فهو ينظر الى قائد الكتيبة باطمئنان وترقب، وقد بات موقناً بانه قد أحسن اداء عمله.

فقال له كليمينكو بلطف واحترام:

ـ تفضل، تفضل اجلس، يا بوريس غليبيتش. الحقيقة لا تتجلى على الواقف. أنا أعرف أنك لم تخلد الى الراحة طول الليل. وحتى المساء لن نزعجك، اللهم اذا لم يزعجك الالمان.

ـ لا بأس انك تعلم اني مثقف ضعيف الاعصاب، وفي الجبهة تعلمت النوم تحت قصف المدافع، كما يقولون. نوم القتيل. واني أنا نفسي لاعجب من ذلك ـ قال بروزوروفسكي مبتسماً.

ـ يعني، مرتاح الضمير.

ـ والهموم لا تؤرق، أيها الرفيق المقدم. اني جندي بسيط! أما القيادة فهي، كما يقال عندنا، لا تنام أبداً، أنما ترتاح فقط.

ـ هو ذا بالضبط ـ قال كليمينكو هازاً برأسه ـ في وسعكم الذهاب جميعاً!

وتناول قلم الرصاص، وباشارة من رأسه صرف الملازم وبروزوروفسكي، وادركت من نظرة عابرة ارسلها نحوي رغبة قائد الكتيبة بالبقاء على الشرفة لوحده. فقد كان يريد الانصراف كلياً لدراسة المنظر العام لبرلين.

وعرف بروزوروفسكي أننا أبناء بلد واحد، فدعاني الى الملجأ. فما كان أحلى ان يلتقي المرء على تخوم برلين برجل أنهى معهد

الهندسة المعمارية في موسكو، وعمل سنوات عديدة في مختلف مدن البلاد، واشترك في بناء واحدة من محطات الميترو.

بمحض المصادفة لم يوفق بروزوروفسكي للقيام بالرسميات الضرورية في المفوضية العسكرية والحصول على بطاقة ضابط. كل ما في الامر أنه، قبل الحرب، لم يكن لديه متسع من الوقت للاهتمام بهذا الامر. ولكن المهندس المعماري انضم سنة ١٩٤١ الى صفوف المقاومة الشعبية محاربا عاديا، ومن هناك جاء الى فوج المدفعية جندياً عاديا من جديد.

ولقد حدثني بروزوروفسكي قائلاً أن مسألة ترقيته الى رتبة ضابط قد طرحت هنا، في الفوج، أكثر من مرة. الا أنه من حيث العمر غير مناسب لمدرسة الملازمين الثانين. وعلاوة على ذلك، ما كان بروزوروفسكي يشغل وظيفة قيادية في الفوج من شأنها أن تعطيه الحق في مثل هذه الرتبة. ولنقل عرضاً أن بروزوروفسكي، من حيث مزاجه الناعم الى درجة مدهشة وعجزه التام عن قيادة الناس واصدار الاوامر اليهم، لم يكن ليتلاءم وهذه الوظيفة.

وذات مرة، وهو الجندي العادي في فصيلة المساحة، أدهش رجال المدفعية بمهارته في رسم المناظر العامة، ومنذ ذلك الحين تثبت في الاركان في وظيفة رسام غير مسجل في الملاك.

ومثل كليمينكو، كان بروزوروفسكي يحارب من موسكو حتى الحدود والى أبعد منها، وكانت مدالية «الشجاعة» تتألق على القميص الجديد الذي كان معلقاً في زاوية الملجأ على مشجب خشبي فوق سرير الرسام.

وقال بروزوروفسكي حين ولجنا الملجأ:

ـ اجلس يا صديقي، يا ابن بلدى العزيز، على هذا السرير مباشرة، انه ليحتمل ثلاثة.

وكان الملجأ مضاء بمصباح كاز مصنوع من خرطوشة قذيفة نحاسية فارغة. وكان الضوء كافياً. وعلى الجدران المصنوعة من أخشاب البتولا كانت تنشر بقع حمراوية. وقد حزرت أن رجال المدفعية قد جاؤوا معهم بـ«جدران البتولا» هذه. فقال بروزوروفسكي مفسراً:

انها تذكار لروسيا، وانها لتشع بنور لطيف على ملاجئنا هنا، في ألمانيا. ـ وتذكر فجأة قائلاً: ـ يالله، لقد جئت فيما مضى بمهمة الى برلين! نزلت في فندق قرب أليكسندربلاتز. وكنت أذهب الى الاوبرا في انتردين ليندن. أفكان يمكن أن يخطر لي اذ ذاك اني سانام في ملجأ بضواحي برلين وأرسم منظراً عاماً لاطلاق النار على أليكسندربلاتز؟

وبسط بروزوروفسكي يديه قائلاً:

ـ ان هذا ليعجز عنه خيال الكتاب الكلاسيكيين الجامح!

فقلت له:

ـ الحياة معقدة، يا بوريس غليبيتش. اني لاعرف هذا من تجربتي الضئيلة. ومما يعقدها كونها ملأى بالمفاجآت المذهلة. حتى الحرب ذاتها قد ظهرت بالنسبة للبعض مفاجأة مشؤومة.

ـ لا بالنسبة لي، كلا! فأنا ما كنت أنطوي على أية أوهام وأنا أفكر بالفاشست. كنت في داخل نفسي أرتعد من فكرة أمكانية قيام أي حل وسط معهم وعلى العموم من فكرة وجودهم على الارض.

ـ ولكنك مع ذلك لم تجد متسعاً من الوقت للذهاب الى المفوضية العسكرية للقيام بالرسميات؟

– الى المفوضية العسكرية؟ لقد تشبثت بكلمتي. اني مذنب! ولكن، بالشرف، رب ضارة نافعة. فها أنا أرسم مناظر عامة. وعند الاقتضاء أطلق النار أيضاً. وقد حدث هناك، وراء حدودنا، ان انقضت الاركان بجميع افرادها تهاجم بالبنادق الاوتوماتيكية والقنابل اليدوية. وقد بت أنت على معرفة من ذلك. وما كان محسوبك من الرعاديد.

قال بروزوروفسكي هذا، وانحنى وزحف تحت السرير. فاخرج من هناك حقيبة من الليف وفتحها بعد أن ضغط على قفلها.

كنت على الدوام أرى في الحقيبة على الجبهة شيئاً من حياة أخرى، هي الحياة السلمية. لقد حاربت أنا نفسي كجندي، وخدمت بعض الوقت في فوج المدفعية، فليس لي أن أجهل أن جميع أمتعة الجندي المتواضعة توضع في جراب مريح يحمل على الظهر. ولذلك لم تكن نظرتي الى بروزوروفسكي لتخلو من الدهشة. وقد أوضح بايجاز قائلاً:

– من أجل المناظر العامة.

كان بروزوروفسكي يحفظ في الحقيبة ويجر وراءه، بصعوبة كبرى طبعاً، مجموعة الصور التي رسمها في ضواحي مالوياروسلافيتز، وفيازما، وعلى الدنيستر، وقرب روسلافل، وفي مجرى الدنيبر الاعلى، وفي غابات سمولنسك، وفي بوليزيا، وفي ضواحي فارصوفيا، وعلى الاودر، وفي ضواحي برلين.

وجلست بارتياح على السرير باسطا ساقي على رحبهما، وراح بروزوروفسكي يضع الصفحات على ركبتي، بعد أن يخرجها من الحقيبة بعناية:

– كم لديك منها؟

– كثير، ياصديقي. مما قد يؤلف معرضاً للصور. صحيح أنك هنا لا ترى اشخاصاً. ولكنهم جميعاً مرتبطون في ذاكرتي بهذه المناظر، الاحياء منهم والموتى.

ولقد سألت عما اذا كانت قد بقيت لبروزوروفسكي شقة في موسكو لكي يرتب على الجدران، بعد الحرب، هذه المجموعة غير الاعتيادية من الصور.

– الشقة باقية، الا أنها فارغة. منذ اسبوع تلقيت رسالة من البيت. زوجتي وقعت تحت الترام. وتوفيت. هكذا شاء لها القدر! أنا حي ومنذ أربع سنين احارب. أما هي فهناك، في موسكو...

ونهض بروزوروفسكي واقفاً لكي لا أرى عينيه، وقد امتلأتا بالدمع. وخرج من الملجأ لكي يهدئ من انفعاله، ولكنه عاد بسرعة.

– عفو ا. لقد شاخت الاعصاب، فهي لا تحتمل. لست اتكلم عن أننا عشنا عشرين عاما، متحابين متمازجي الروحين. ولكن أن يقع الانسان تحت الترام في أيام مثل هذه الحرب... يا لهذا من أمر رهيب واخرق، و مرير!

وأعربت لبروزوروفسكي عن أصدق مشاعري. فقال:

– لن نعود الى هذا الحديث. مناظري العامة اعجبتك. فلك الشكر. وقد كانت موضع الاعجاب في الفوج. اني لست ليفيتان، طبعاً. ولكن كن على يقين من أني كنت احاول أن اضع في هذه المناظر كل محبتي لروسيا، كل عاطفتي، كل قوتي الروحية. ويبدولي أن هذه الصور ليست مجرد مناظر عامة حسابية، انها كانت تساعد رجال مدفعيتنا على القتال مساعدة عاطفية...

...وبارحت كتيبة كليمينكو بعد ان فتحت البطاريات النار على برلين. ومن جراء القصف راح يتكسر زجاج الشرفات وتهتز الجدران. وكان لا بد للمرء أن يرفع صوته كثيراً لكي يستطيع رفيقه الواقف جنبه فهم شيء ما. وفي هذه اللحظة بالذات كان بروزوروفسكي المتعب يستلقي في ملجئه انتجاعاً للراحة.

وبعد ذلك لم التق به قط في دروب الحرب، مع الاسف. وكذلك لم أره في موسكو . ولكني أود ان اعتقد أن هذه المناظر، المبدعة من قبل محارب ـ رسام، والملتقطة عن هذه الطريق غير العادية ـ عبر فتحة المراقبة في الملجأ أو عبرعينية نظارة مزدوجة ـ أود أن اعتقد بان هذه المناظر من الاراضي السوفييتية والبولونية والالمانية لم تفقد.

لقاء على الدرب

أود التحدث باقتضاب عن هذا، لان الكلمات عاجزة، لا تستطيع التعبير عن كل أغوار الاسى والحزن التي لا نهاية لها.

أعني بذلك لقاءاتنا مع الناس الذين سيقوا الى ألمانيا من جميع البلدان الاوروبية. كانوا أكثر من خمسة ملايين. وكان الهتلريون قد جمعوا في برلين قسماً كبيراً من أسراهم. وها هي مواكب اللاجئين تتحرك من المدينة الآن، في الايام الاخيرة من نيسان (أبريل). كانوا يخرجون من الاحياء المحترقة، والبيوت، والشوارع، التي كانت المدافع تصب عليها نيرانها، من وطيس المعركة ذاتها. لقد بدأ انطلاق الشعوب الاوروبية الذي لا ينسى من برلين.

كنا نرى جموع اللاجئين هذه من قبل أيضاً على جميع دروب ألمانيا الشرقية، ولكنهم كانوا كثيرين بصورة خاصة قرب العاصمة الالمانية.

وفي تلك الايام بالضبط وقعت في يدي، في احدى دوائر الشرطة، في آلت — لانسبرغ، بين الاوراق التي خلفها الهتلريون، وثيقة لا يمكن أن لا أتذكرها الآن. كانت «تعليمات بشأن معاملة العمال الاجانب من السكان المدنيين الموجودين في الامبراطورية». ولعل الاهتمام الخاص انما كان موجها في هذه «التعليمات» الى من كانوا يسمونهم بـ«العمال الشرقيين»، ويعنون بهم الناس السوفييتيين.

واليكم مقتطفات قصيرة من هذه التعليمات:

«يحمل العمال الشرقيون اشارة «OST» (مستطيل ذو حاشية زرقاوية مكتوب عليه بأحرف بيض على مهاد سماوي كلمة «OST»).

يوضع العمال الشرقيون في معسكرات مغلقة، مبنية بناء خاصاً كمعسكرات للعمال تحت الحراسة الدائمة.

في المؤسسات الزراعية الصغيرة أو في المزارع الفردية، يمكن السماح بوضع العمال خارج المعسكر، في مساكن حسنة الايصاد يكون فيها رجل ألماني يمكن أن يأخذ على عاتقه القيام بوظيفة المراقبة.

العلاقة الجنسية بين الالمان والعمال الشرقيين ممنوعة، يعاقب عليها العمال الشرقيون بالموت، والالمان بالنفي الى معسكر الاعتقال.

لا يحق للعمال الشرقيين مراجعة الطبيب الا برفقة ألمان».

«ليس للعاملات الشرقية حق في أن يكون لهن وقت فراغ» — هذا ما جاء في كراس توجيهي خاص موجه الى ربات البيوت بشأن

استخدام العاملات الشرقيات في البيوت الخاصة في المدن والريف.

«محظور دخول المطاعم، ودور السينما، والمسارح، وغيرها من المؤسسات. ولا يسمح أيضاً بدخول الكنائس...

ولا يجوز للالماني أن يعيش في غرفة واحدة مع عاملة شرقية.

والثياب، عادة، لا تقدم للعاملة الشرقية.

ان الروسي قنوع، ولهذا فمن الايسر اطعامه بدون احداث خلل ملحوظ في ميزاننا الغذائي. فليس يجدر تدليعه أو تعويده على الطعام الالماني...».

...ولقد أخذت معي هذه الصفحة التي كانت تبرز عليها بجلاء طبعة كعب حذاء – فقد داس احدهم على الورقة وهي ملقية على الارض – وطالما رحت أقرأها حين كنا نلتقي بمواكب اللاجئين.

كانوا يسيرون مشياً على الاقدام، دافعين أمامهم عربات نقل يدوية موسوقة بالامتعة، وعربات أطفال، وكان البعض يركبون الدراجات، أو عربات تضم عائلات، يجرها حصان واحد أو حصانان.

وكانوا رجالاً ونساءً، ذوي وجوه كالحة ناحلة خاوية، والاعياء باد على جميع ملامحهم؛ كان الاعياء يغمر العيون الغائرة بغشاء كالح.

الاطفال الصغار جداً وحدهم لم تكن على ملابسهم شرائط متعددة الالوان تعبر عن شعار الراية الوطنية. أما الشبان والفتيات، الرجال والنساء، فقد كانوا يضعون على اكمامهم، وعلى معاطفهم، وعلى قبعاتهم، وفي كل مكان، شرائط وعصائب ملونة. وكانت ثمة

اعلام صغيرة مربوطة على عيدان رفيعة، مرفوعة فوق العجلات، فوق عربات الاطفال، فوق مقاود الدراجات، فوق دواليب العربات اليدوية.

أدهشتنا أول الامر وفرة هذه الاعلام. ولكننا أدركنا فيما بعد أن هؤلاء الناس الخارجين من وطيس الحرب، من سجون الاشغال الشاقة الالمانية، كانوا سعداء لمجرد تمكنهم من وضع شعار رايتهم الوطنية على ملابسهم.

كانت الفاشستية تحاول القضاء على كرامتهم الوطنية والانسانية في جحيم المعسكرات، والتعذيب، والقتل. فهل ثمة ما يستدعي العجب من أن هذه العصائب ذات الالوان العديدة على الاكمام قد أصبحت رمزاً للحرية المستعادة والامل المستردّ، رمزاً للعزة الوطنية بالنسبة لجميع الذاهبين من الارض الالمانية الى وطنهم.

وقد كنا نرى كيف كان البولونيون والفرنسيون، البلجيكيون والايطاليون، البلغاريون والمجر، التشيكيون والسلوفاكيون، الهائمون في الطرقات، يلوحون فرحين بالرايات الصغيرة لدباباتنا وسياراتنا، وكيف كان هؤلاء الناس وهم يجرون أقدامهم بعسر ومشقة، وقد بلغ بهم الاعياء أقصى الدرجات، غالباً ما كانوا يرتبون بدقة وضع الشرائط على أكمامهم.

كان صعبا على المرء أن يشاهد بدون انفعال هذه الحركات ذات المغزى العميق، ولقد كان القلب يعتصر ألماً حين كنا نمر بهذه المواكب الزاحفة من اللاجئين التي كان يبدو كأن لا نهاية لها...

...حدث ذلك على الطريق في ضواحي برلين، قبيل المساء، حين توقفت سيارتنا قرب دبابة حائدة على جانب الطريق.

وكان أحد رجال الدبابة واقفاً بدون معطف، وقد تلطخت قميصه بالزيت، الامر الذي يدل على أنه السائق، يمسك بيد فتاة نحيلة سوداء الشعر. والى جانبها كانت تقف صديقتان لها. كانت الفتيات لابسات جزمات ومضرّبيات، وعلى ظهورهن زكائب كبيرة.

وسمعت حديثاً بالروسية فدنوت من الجماعة. كان يثير دهشتي على الخصوص وجه جندي الدبابة، فقد كان من شدة الانفعال مغطى ببقع حمراء، أما عيناه فكانتا تتطلعان بلهفة وامعان الى الفتاة.

خيل اليّ أول الامر أن جندي الدبابة الذي كانت الفتاة تدعوه فاسيا، قد وجد فجأة زوجته أو أخته الاسيرة. فكثيراً ما كان يحدث هذا هنا، على دروب الحرب في ألمانيا. وقلت لهن:

ــ مرحبا ببنات البلد.

فاجابت الفتيات على الفور مبتسمات، أما جندي الدبابة فقد كان من شدة الاستغراق في حديث تلك التي كان يضغط على يدها براحته ضغطاً شديداً، بحيث أنه لم يلتفت اليّ حتى برأسه.

ــ تسأل، يا فاسيا، كيف كنا نعيش؟ كنا نعيش أسوأ مما تعيش الكلاب! ــ هكذا كانت الفتاة تتكلم في غير عجلة، كأنما كانت تملي رسالة، وصوتها القوي الميلودي يدوّي بعيدا.

واذ ذاك رحت أفكر بأن فتاتنا الروسية هذه، صاحبة هذا الصوت المجلجل بقوة شابة، كان شاقاً عليها بصورة خاصة أن تعيش وتتكلم دائماً بما يشبه الهمس في الاسر الهتلري. وتابعت الفتاة كلامها:

ـ وتسأل، يا فاسيا، كيف كانوا يطعموننا؟ كانوا يقدمون لنا شوربة فجة الى حد ما كان يستطيع معه أحد أن يأكلها. كنا نشتغل في اليوم اثنتي عشرة ساعة ونحن جائعات. ويأتي رئيس أو مراقبة ألمانية. فتستحثني قائلة: «ماري، أربايتن، شنيللر، شنيللر!»*.

وظل جندي الدبابة صامتا، أما ماريا فاردفت تقول، وهي تتنهد:

ـ كانوا يوقظوننا للشغل في الساعة الثانية بعد منتصف الليل. ينفتح الباب، ويشعل الشرطي النور ويصرخ: «اوفشتين!» يعني: استيقاظ! فنستيقظ على الفور ونخرج الى الفناء فنقف ساعة. ويبدأون بتعدادنا. وننتظر. تحت المطر أو في الصقيع. الجميع حفاة ـ أيمكن هذا؟

ـ حفاة ـ كرر رجل الدبابة هذه الكلمة، وهنا فقط التفت الي. وكان بنظرته المستاءة كأنما يدعوني لاكون شاهدا على هذه الحكاية المحزنة.

ـ ايه، او تعلم يا فاسيا، أن دماغي كان يجف من التفكير، وعيناي كانتا لا تعودان تريان شيئاً من ذرف الدموع، وأنا أتذكر البيت!

وانسكبت الدموع من عيني ماريا.

ـ البيت ـ كرر جندي الدبابة من جديد بصوت خافت.

ـ وان معي لجريدة من جرائدهم. مكتوب فيها عن بنات كورسك. وأنا أعرف الترجمة، يا فاسيا ـ سارعت تضيف ماريا، لان جندي الدبابة تناول بيده صفحة من جريدة «فرانكفورتن

* يعني بالالمانية: «يا ماريا، الى العمل، اسرعي، اسرعي!»

زايتونغ » مدعوكة مصفرة بعض الشيء، وفي وجهه تعبير من القرف كأنما كان يهم بأن يلقي بهذه الجريدة على الفور في قناة الطريق.

وراحت ماريا تترجم الخبر الصغير، ولا بد أنها كانت تفعل ذلك من ذاكرتها:

ـ «عمال الاقاليم السوفييتية المحتلة يقيمون في المعسكر المحاط بالاسلاك الشائكة. ان هؤلاء الاشخاص المنقولين الى ألمانيا من منطقة كورسك يجب بالتأكيد أن يكون اعتقالهم صارماً وأن يبقوا تحت المراقبة، فليس ثمة ما يضمن ان لا يكون بينهم بلاشفة يمكن أن يقوموا باعمال تخريبية. ان رئيسهم المباشر يدعم مكانته بالسوط...».

ـ السوط ـ قال جندي الدبابة. وتناول يد ماريا الثانية، وجذبها اليه قليلاً وسأل: ـ واذن لم تكن كاتيا معك؟

ـ كلا، يا فاسيا، لقد قلت لك انهم فرقوا بيننا. نقلوها الى معسكر آخر.

ـ أهي حية؟

ـ حين كنا معا، اعتلت صحتها قليلاً، يا فاسيا. باتت نحيلة، وباتت ساعداها كساعدي بنت صغيرة. ما بقي في وجهها غير عينيها.

ـ لن يتاح لي أن أجدها. واين سنلتقي هنا! فاذا التقيت بها فقولي لها اني حي وسأشترك في الاستيلاء على برلين!

ـ الا كم انتظرناكم يا أحباءنا! ما كنا في حاجة الا لان نرى جماعتنا الروس!

ومن جديد انسكبت الدموع من عيني ماريا، وبدت الدموع في عيني صديقتيها.

– وها نحن جئنا!..

قال جندي الدبابة هذا وأطلق يدي ماريا واندفع الى الدبابة.

ولقد فهمت أن ماريا هي صديقة لزوجة فاسيلى، جندي الدبابة هذا، وهما من قرية واحدة.

وبعد ثلاث دقائق ظهر جندي الدبابة ومعه ثلاث علب كونسروة، وسكر، وخبز.

– زاد للطريق.

– وماذا بقي لكم؟

– خذن، أقول لكنّ. اذا بقي الجندي حيا، أطعمه رئيس العرفاء. هذا لكنّ من جميع سدنة الدبابة.

ولقد تمنعت الفتيات طويلاً، ودموع الشكران في عيونهن، ولكن فاسيلي دس هداياه في أيديهن بحزم واصرار. وبعد ذلك استدعاه قائد الدبابة.

– والآن يا بنات، الى الامام سر نحو روسيا – صاح بهن مبتسماً، وتابعت الدبابة سيرها في الطريق، وأما الفتيات فقد ظللن بعض الوقت يركضن الى جانبها فاتحات مضرّبياتهن، ملوحات بمناديلهن، الى أن مضت عجلة القتال بعيداً، مخلفة وراءها سحابة زرقاوية خفيفة من دخان البنزين.

ومضينا نحن أيضاً عقب الدبابات. وعلى بعد خمسمئة متر تقريباً واجهنا في طريقنا موكبا من الاسرى الهتلريين. كان موكباً طويلاً جداً يلف ذيله على منعطف الطريق. وكان الاسرى يتعثرون باقدامهم مكتئبين، و الموكب يتجرجر مقهوراً الى الشرق. وقد بلغت الدبابة التي يسوقها فاسيلي رأس الموكب.

وفجأة حدث أمر غريب. فقد دارت جنازير الدبابة بشكل حاد جهة اليمين. فاذا بالهتلريين، السائرين في الصف الاول، يرفعون أيديهم ويفقدون طاقياتهم ويلقون بانفسهم بهلع الى قناة الطريق مباشرة. وكان جلياً أن بعضهم قد ظنوا أن الدبابة ستمزقهم بجنازيرها.

ومرت العجلة الجبارة قريباً جداً من رأس الموكب، ولكن الدبابة حادت هنا الى اليسار، واندفعت الى أمام بسرعة مضاعفة.

وتوقف الموكب، وتبلبلت صفوفه. وعاد الهاربون من القناة ممتقعي الوجوه. وكان الكثيرون يصلّبون.

لست أدرى ما الذي حدث في الدبابة. ربما كان السائق، وقد استبد به الاسى على زوجته بعد أحاديث صديقتها، قد ثار به



برلين. موكب من الاسرى الالمان.

الحقد على الهتلريين بحيث ادار الدبابة غاضباً نحو الموكب. ولكنه تمالك نفسه في تلك اللحظة، ففتح السرعة الثالثة، ومضى بسرعة الى أمام.

أو ان السائق قد حاد فقط في مسيره، متجنباً شيئاً ما على الطريق.

هذه كلها تخمينات.

ولكننا نحن جميعاً، وقد لاحظنا هذا الحادث العابر على الطريق، قد اتضح لنا أمر واحد: لقد كان الهتلريون يسلمون بمثل هذا الانتقام لرجال الدبابات. كانوا يعرفون أنهم مستحقون له بما ارتكبوا من آثام وجرائم لا عداد لها. و ما كان من قبيل المصادفة أن الاسرى كانوا في كل مرة ينظرون الى كل دبابة من دباباتنا نظرة ترقب وحذر، وفرائصهم ترتعد ارتعاداً مكتوماً.

ولا غرابة! فلقد كان النازيون هؤلاء يحكمون على الناس السوفييتيين بمقاييس أخلاقهم هم المنكرة، وغرائزهم المنفلتة.

اجل لقد كان «صناديد» هتلر بالامس في خوف وهلع شديدين! كانوا في ارتياع، وما كان في وسعهم أن يتمالكوا أنفسهم الا بعد وقت طويل.

ولكن مضت قرابة عشر دقائق، وسكتت الاصوات المبحوحة الحادة، ومن جديد راح الموكب يتجرجر نحو الشرق...

ليلة في أحد بيوت برلين

مع مرور الزمن تنمحي التفاصيل، وينسى ما قيل أو سمع، ولكن الذاكرة تحتفظ أحياناً لوقت طويل بما يمكن تسميته بالشعور العام، والصورة العاطفية، و «النكهة» الحقيقية للاحداث.

وهذا الاحساس الدقيق بالحقيقة يجمع في الذاكرة تفاصيل الماضي وسماته المميزة.

وما أدري السبب في اني، خلال مجرى الاحداث المتعاقبة بسرعة سحرية، قد لبثت أتذكر على الخصوص تلك الليلة التي لم يجر فيها أي شيء ذو صفة خاصة. ما ادري لماذا تعيش في نفسي حتى اليوم «نكهة» الليلة الاولى التي قضيتها في برلين، لا داخل الملجأ ولا في صندوق سيارة، بل في بيت عادي، سكني، برليني، متعدد الطوابق، نصفه فارغ، لم يبق فيه في مكان ما غير بعض من ساكنيه، وقد قرروا قضاء ساعات القتال في منازلهم.

كان البيت عاديا، رمادي اللون، على واجهته شرفات، ذا سلالم مؤدية الى الشارع والى فناء فيه حجيرة مصعد يغطيها نسيج العناكب.

أخذونا الى شقة فارغة في الطابق الثالث، كان أصحابها قد هجروها منذ وقت قريب، فكانت ما تزال دافئة لسكنى الآخرين.

وفي الحرب كما يعرف الجميع، يكون يسيراً على الناس الدخول الى بيوت لا يعرفونها، والنوم الهنيء في أية أسرّة غريبة. وكم ذا قدّر لنا المبيت في منازل غريبة وراء الحدود — في بولونيا، وفي ألمانيا نفسها!

ولكنها كانت جميعاً أماكن آهلة باتت خلف خط الجبهة. أما هنا، في برلين، فالقتال ما يزال دائر الرحى ثم أن هذه كانت برلين! وقد بات في وسعنا الاستلقاء للنوم، خالعين ملابسنا، كأننا في بيتنا، في شقة برلينية. وكانت هذه ال«بات» المنطوقة ذهنياً ذات وزن غير اعتيادي وزاخرة بمشاعر خاصة.

ألقيت بزكيبتي في غرفة النوم، وشملت المكان بنظرة سريعة، فيما كان سباسكي يخلع ملابسه. كان ثمة صور عائلية على الجدران، وسريران عريضان من الخشب عليهما لحافان من الريش.

كانت أول مرة التحفت فيها، بدلاً من البطانية، لحافاً ضخماً محشواً بالريش، كان مع ذلك جد خفيف، في بيت صغير على مقربة من مطار لودز. وقد تملكني اذ ذاك احساس غريب بدفء حمام بخار بدا لي أن جسمي غائص فيه. ولكننا مع الزمن الفنا لحاف الريش أيضاً.

ولكني في تلك الليلة ما استطعت النوم تحت لحاف الريش على الرغم من شدة التعب. كان ثمة ما يعتصر قلبي. ومع أن النوافذ كانت مفتوحة، فقد كان جو الغرفة خانقاً.

ومن وراء النوافذ، كانت تتلامع بروق نارية، ويدوي في الغرفة هدير المعارك الليلية. فمن قريب كانت تنفجر قنابل الهاون كأن أحدا يمزق قطعة كبيرة من نسيج الكتان وتقصف المدفعية الثقيلة، أحياناً، فتهتز جدران البيت من صلياتها.

فقررت مبارحة السرير، ولبست ثيابي وجلست على رف النافذة. كانت البروجيكتورات تنقب في سماء برلين، وتتصالب في السماء أحزمة من النور بيضاء، فتكوّن شبكة مضيئة ذات تجاويف سود. فتارة كانت تتلاشى، وتارة تنبثق من جديد، وكأنما كانت تتحرك صوب قلب المدينة. كان القتال ينتقل الى هناك. أما حين كانت تنطفىء البروجيكتورات، فكان يبدو كأن هذه الشبكة تسقط من السماء في مكان ما هناك، الى أمام، من فوق قبة الريخستاغ، على مبنى دار المستشارية.

ونزلت الى الشارع انتجاعاً للهواء النقي. كان الشارع هادئاً مقفراً، ولعله كان جد مقفر بالنسبة لمنطقة تكاد تكون متماسة وخط الجبهة. وما كان ثمة غير سيارتي شحن تبيتان قرب الجدار المواجه لبيتنا وقد ارتفعت دواليبهما فوق الرصيف.

وما كان هذا التحسب في غير محله في برلين. فقد رأيت ذات مرة سيارة صغيرة واقفة في جادة شارع ضيق. وفي ذلك الحين كان رتل من دباباتنا عائدا من القتال، فصدمت الدبابة الامامية السيارة بجنازيرها. وفي لحظة قصمت فقرات جنزير الدبابة الجبارة قرابة نصف سيارة «أوبل - كابيتان» الصغيرة، كأنما بضربة سكين، وعلى مرأى مني تمزقت السيارة إرباً.

وفي فناء بيتنا كانت تبيت أيضاً سيارة اسعاف وعربتان.

كانت الليلة مقمرة، وضوؤها الشاحب ينفذ حتى الى فناء البيت العميق كأنه البئر. وعلى أسفلت الطريق كان يطوّف شبحان طويلان خفيفان على رأسيهما قبعتان. وحين رآني الالمانيان، ولا بد أن يكونا خفيرين للبيت، جمدا في مكانهما، ثم حيياني برفع قبعتيهما.

لاحظت وجود براميل مملوءة بالرمل، ومجارف، ومخل، ومساح. انها مجموعة بسيطة من أدوات مكافحة الحريق. وكان هذا كله يذكر بافنية البيوت الموسكوفية أيام غارات الطيران الالماني. ومضى الخفيران الالمانيان صوب فجوة السلّم المظلمة المؤدية الى المخبأ من الغارات الجوية. وبعد أن وقفت قليلاً في الفناء، قررت النزول الى المخبأ. عتبتان من السلم تؤديان الى تحت، وبعد ذلك باب من الباطون ذو مقابض من الحديد، ومن ورائه غرفة مستطيلة واطئة العقد.

لم تكن الكهرباء مشعلة، وفي الزوايا كانت مصابيح كاز تنفث الدخان. ولقد رأيت رفوفاً للمنامة ممدودة على طول الجدران في عدة صفوف، وفي المكان الخالي طاولة من حولها مقاعد خشبية.

كانت الارض الباطونية وسخة لم تكنس منذ وقت بعيد. وفي احدى الزوايا، كانت صهاريج لقضاء الحاجة كما في حجرة سجن. وكان الهواء ثقيلاً، فاسداً، مشبعاً بروائح كريهة، وقد بلغ من شدة اثارته للاشمئزاز أن أدهشني كيف أمكن للناس أن يستنشقوه طويلاً.

لقد كان سكان البيت يلوذون بهذا المخبأ لا لساعة أوساعتين. كلا. انما كانوا يأوون هنا، جاعلين من القبو مسكنا حقيراً، ومتكيفين هم أنفسهم مع هذه الحياة الكهفية على مر الكثير من الليالي والايام.

ورفعت مصباحي اليدوي الى أعلى، فرأيت الناس نائمين. كانوا يملأون الرفوف، نساء وأطفالاً، متوسدين مخدات أو اكياساً، وملتحفين بطانيات خفيفة. ولكن ثمة بضعة أشخاص كانوا جالسين قرب طاولة تشتعل عليها شمعة صغيرة، وكهل ألماني يقرأ في جريدة.

وعلى مقربة من نقالة عليها مريض تجلس عجوزان. وكان ثمة نقالات في الطرف الآخر من المخبأ. فما كان يقدم الاسعاف للمرضى والجرحى المدنيين في المستشفيات، والعيادات في المدينة لم يبق سليما منها غير القليل. وما كان ثمة مكان يوضع فيه من يؤتى بهم من الجبهة.

وقد أحدث هذا المخبأ انطباعاً ثقيلاً في نفسي. ربما لانه قد

مضى عليّ وقت طويل لم أدخل فيه مثل هذه الاقبية، ولا كنت من هؤلاء «المدنيين» الملزمين بالنزول الى المخبأ لدى سماع أول صفارة انذار.

و ما أدري لماذا تذكرت في تلك اللحظة أول انذار ليلي في شهر حزيران (يونيو) في موسكو. كان ذلك انذاراً تدريبياً. وقاذفات القنابل الالمانية ما كانت بعد قد شقت طريقها الى عاصمتنا. ولكننا ما كنا نعرف هذا اذ ذاك، فاعتبرنا الانذار المفتعل انذاراً حقيقياً.

يقال ان الانطباعات الاولى هي الاكثر حدة، وان هي، ربما، لم تكن الاكثر صدقاً. المخبأ ذو الجدران العابقة برائحة دهانها الجديد، والمقاعد الجديدة، والهواء المنعش اللطيف، امتلأ في طرفة عين بالناس المتحادثين همساً، واللابسين على عجل، وقد عراهم الارتباك والانفعال.

وشأن كل مستجدّ في مثل هذا الامر، كنا نتوقع في كل لحظة انفجاراً ، وقعقعة، وسقوط قنبلة على بيتنا مباشرة. وكان الجميع يتطلعون الى ساعاتهم يعانون بألم بطء سير الوقت.

الا كم يزعج الناس ازعاجاً رهيباً شعورهم بالجهل المطبق، وهم حبيسون في كيس أصم من حجر!

أذكر أن الوقت كان منتصف الليل . كان الصمت مخيماً في القبو، ولكن ماذا في الشارع؟ ربما كانت البيوت قد اخذت تتداعى؟

وبعد ذلك انتهى الانذار، وخرجنا الى الشارع الغارق في ضباب الفجر الرمادي الشاحب، خرجنا ونحن نشعر بالخلاص من خطر الموت، وكأننا أناس قد وهبتهم الاقدار أن يعيشوا يوما آخر من الحياة.



انتهى القصف الجوي. وسكان برلين يخرجون من مخابئهم.

ومع مرور الزمن، ومرور حوادث قصف حقيقية بالقنابل، خفت حدة هذه الانفعالات، بل لقد اصبحت تبدو أمراً مألوفاً بالنسبة لمن كان في الجبهة.

ومن الخير أن موسكو لم تزعجها الانذارات من الغارات الجوية وقتاً طويلاً، فقد هدأت حوالى ربيع سنة اثنين وأربعين. وها قد مر وقت، فاذا بالحرب قد نقلت هذه الانذارات، والغارات، والحرائق من شوارع موسكو الى شوارع برلين.

كنت أنظر الى الناس النائمين في المخبأ القائم تحت بيتنا، فما أستطيع الا العطف على هؤلاء النسوة والشيوخ والاطفال. انهم بلا ضوء، وبلا ماء، انهم جياع، لم تكد تمر ساعة منذ شهور

عديدة لم يودعوا فيها الحياة ذهنياً، وهم يسمعون من الراديو ولولة الصفارة العالية الحادة.

ومنذ أن شقت القوات السوفييتية طريقها الى المدينة، لم تعد الانذارات من الغارات الجوية تطلق للسكان بتاتاً. فما كان هتلر ليهتم بسلامة أهالي برلين. انه هو نفسه لم يكن يزحف من تحت الاقبية، وقد كانت حياة أولئك الالمان الذين لم يغادروا بيوتهم تمر تحت الارض حرفياً لا مجازياً.

وبعد أن توقفت قليلاً في المخبأ، ذهبت الى فناء الدار من جديد. فسمعت من ورائي من يقول باللغة الروسية: — «عفوا!»، فالتفت. فاذا هي امرأة متوسطة العمر، شقراء، محتفظة بقوام رشيق. والى جانبها كان يصعد درجات السلم خارجاً من القبو رجل يرتدي بزة رمادية رياضية.

وكررت المرأة قائلة مرة أخرى: — «عفوا» — ولا بد أنها قد لاحظت في نظرات عيني ارتباكاً حذراً. ثم قالت بانفعال: — «أود التحدث معك، أيها الضابط الروسي، من فضلك». وأضافت قائلة: — «اني روسية!».

فذهبنا الى فناء الدار المغمور بنور القمر. وكان الفناء منيراً الى درجة كافية، فتمكنت من تأمل وجه المرأة وقد أدهشني بابتسامته الغريبة: انها ابتسامة طرية، متملقة، محيّرة، والى جانب ذلك مستكينة، كأنها ابتسامة شخص يعلل نفسه بموقف طيب منه وهو مع ذلك غير متأكد من هذا.

— ماذا تفعلين هنا؟

طرحت عليها هذا السؤال وأنا أفكر متسائلاً من ترى يمكن أن تكون هذه الروسية: أسيرة، لاجئة، ضابطاً متنكراً من ضباطنا؟

فقالت وهي تدفع نحوي برفيقها:

ــ وأنا ألمانية أيضاً.

فقلت لها مستغرباً:

ــ ألمانية وروسية؟ ما هذا الكلام الفارغ؟

فسارعت تقول:

ــ كلا، كلا، هذه حقيقة لا كلام فارغ. كان أبي يعيش في روسيا، أبي روسي. ولكن كان هناك زوجي، وهو ألماني، وها هو ذا! ــ وأمسكت بساعد رفيقها ــ لقد تزوجني، وذهبنا الى برلين.

ومن جديد كررت قائلة: «أنا روسية»، ملقية على زوجها نظرات بليغة التعبير، وفي صوتها ترن نبرات من الفخار والاعتزاز.

ــ وما اسمك؟

ــ ماريا ــ ثم سألت قائلة: ــ فهل فهمت الآن؟

فقلت لها: «تماماً». ولكني، والحق يقال، لم أفهم شيئاً واحداً، الا وهو لماذا كان زوج ماريا يبتسم بحنان، وما الذي دعاها للحديث معي.

واكتفت ماريا بأن قالت : «شكراً».

ولقد تصورت أن كل ما في الامر هو أن المرأة قد تضايقت من المكوث في المخبأ الوسخ الخانق، فرغبت، كما رغبت أنا، باستنشاق الهواء النقي. كانت ماريا تتكلم الآن بالروسية، وقد كان هذا يقلل من شدة خوفها من وقوف هنا في فناء الدار في الهواء الطلق.

ـ هتلر كابوط ـ قالت فجأة، ونظرت من جديد الى زوجها الملتزم الصمت لكي يقدر أنها تتحدث بالروسية مع ضابط روسي. وقد كان جميع الجنود الاسرى الالمان ينطقون عادة بهذه العبارة، ولعلهم كانوا يفترضون أن هذا الاعلان وحده يحدد على الفور آراءهم السياسية. ـ كابوط، تعني بالروسية النهاية ـ قالت ماريا.

ـ النهاية لم تحل بعد، ولكنها وشيكة.

ـ كلا، كلا، لقد سقط. انه جثة! ـ قالت ماريا في حزم ـ رهيبة، رهيبة هذه الحرب! لم أعد استطيع ملازمة هذا القبو! فنحن لسنا من الخلد...

كنت أسير في الفناء على مهل. وكانت ماريا تسير الى جانبي غير متخلفة، وهي تواصل الكلام بسرعة. ولقد تشجعت فدعتني للصعود الى شقتها لشرب قليل من القهوة. ولكني رفضت.

ولمجرد أن أسأل شيئاً، قلت لها:

ـ وماذا يعتزم زوجك أن يفعل بعد الحرب؟

واني لاعترف بأن الالماني الطويل القامة، السائر بجانب زوجته، ما كان ليثير اهتمامي.

ـ ان هنريخ رياضي، كيف ذلك بالروسية... الدراجة، السباق. ولكن من يحتاج الى السباق الآن؟ ان لهنريخ حلماً صغيراً ـ قالت ماريا، وقد أدهشني كيف كانت تلحن باللغة الروسية التي فقدت عادة النطق بها خلال سنوات عديدة عاشتها في برلين.

ـ حلم؟ وما هو؟

ـ لدينا قليل من المال. ويريد هنريخ أن يكون له مخزن. بضاعة رياضية. ما اسم هذا بالروسية ـ تاجر صغير!



لقاءات في شوارع برلين المحررة.

– ايوه، ليكن تاجرا – قلت لها وأنا أقيس الالماني بنظراتي، فابتسم لي.

لست ادري ماذا قرأت في عيني تلك المرأة المزهوة بانها روسية، الا انها لا تعرف شيئاً على الاطلاق عن البلاد السوفييتية. قد تكون اعتبرت ابتسامي علامة استحسان، فهي قد تناولت يدي بجرأة وقالت مرة اخرى: «شكراً». فقلت لها اذ ذاك:

– مع السلامة، يا ماريا. أتمنى لك النجاح في الحياة الجديدة ولجميع جيرانك النائمين في المخبأ. وأتمنى أيضاً لو أنهم من الآن فصاعداً سيناموں على الدوام في منازلهم وينسون زعيق صفارات الانذار من الغارات الجوية.

فراحت ماريا تلوح لي بيدها، وهي واقفة وسط الفناء. وكان

زوجها يستعجلها للعودة الى المخبأ. ولكنها كانت تتباطأ. وقد شعرت بانها في لهفة للتحدث أكثر أيضاً بالروسية.

وعدت الى غرفتي، ولكني ما استطعت الاغفاء حتى الفجر. كان الجو فوق برلين قد بدأ بالاشراق، وشيئاً فشيئاً راحت ملامح البيوت تنبثق من الظلام. وفي لحظة ما ساد الهدوء، هدوء الى حد بعيد، كأنما نامت الحرب، ونامت معها المدينة، والناس في البيوت، والملاجئ، والمخابئ، وفي صناديق السيارات، وتحت درع الدبابات.

استمر هذا بضع دقائق فقط. ثم اذا بمدفع ينفخ في مكان ما نفخة ثقيلة. وبطيش وحدّة صفرت قنبلة الهاون في الجو. وتمتم رشاش شيئاً كأنه في نعاس مطلقاً رشة قصيرة.

واجتاز شارعنا أربعة جنود لابسين مشمعات خضراء، كان الهواء يرفعها وراء ظهورهم كالاجنحة. وتوقف الجنود عند المنعطف، فدخنوا، ثم تابعوا مسيرهم.

وانتهى الليل والهدوء الموقت.

وتذكرت الحديث في فناء البيت، والمخبأ، وزوج ماريا الذي سيصبح «تاجرا صغيرا» في برلين. وماذا؟ تلك هي قضيته!

وبعد ذلك رحت أفكر في أن الناس الشجعان موجودون في كل مكان. ولكن الحلم، في الحياة وكذلك في القتال، يولد المأثرة. وانه لأمر يبعث السأم في النفس أن يذهب المرء الى القتال، الى الموت وهو يحلم بدكان. وأنا على يقين من أن أولئك الجنود الذين كانوا يجتازون الشارع انما كانوا يحلمون بأن يهبوا السلام للعالم كله، والسعادة للناس جميعاً، لا أقل!

رجال الدبابات

كانت الدبابات واقفة على الارصفة قرب جدران البيوت، متخذة منها متّقى من قصف المدفعية. وكانت القطعة تستعد للقتال. وخلال ذلك كانت أبواب أبراج الدبابات مفتوحة، وجنودها يتمشون حولها، على جادة الطريق، أو هم ما يزالون في غرف الطابق الاول، حيث النوافذ المحطمة منفتحة بشكل ثغرات مظلمة.

لست أذكر اسم هذا الشارع الصغير، غير البعيد عن محطة سيليزيا. ففيه، كما في عشرة غيره، كانت تسير جموع اللاجئين — من نساء تجمد الهلع في عيونهن، وشيوخ عابسي الوجوه، وأطفال صامتين. كانوا يغادرون الاحياء التي حمي فيها وطيس القتال أو يقترب منها.

انها لصورة مدهشة، خيالية، فريدة! فأنّى للمرء أن يجد الالوان والكلمات لتصوير هذا الخليط المرقش المتنافر الفوضوي، ذي المظهر الوحشي، في الحال التي هو عليها؟!

أطفال رضّع على سواعد نساء متدثرات بمناديل، وماسورات مدافع الدبابات المرتفعة الى العلاء! شيوخ يتهالكون للاستراحة على كراس من النوع الذي يطوى ويحمل، والى جانبهم جنازير الدبابات الملطخة بالاوساخ وببقع الدم!

كان الجنود، رجال الدبابات السوفييتيون بخوذهم السود المتسخة، أو حاسري الرؤوس، جالسين في اطمئنان على دروع الدبابات مباشرة يمسكون بقدور بين ركبهم. وما كانت تمنعهم من أن يأكلوا بشهية لا قعقعة انفجار القذائف على مقربة منهم، ولا

صفير شظايا قنابل الهاون فوق رؤوسهم. وكانت الممرضات، وعلى أكمام معاطفهن عصائب بيض، يضمدن المصابين بجروح خفيفة، الممتنعين عن مبارحة الخطوط الامامية الى الكتيبة الطبية.

واما جموع اللاجئين فكانت ما تزال تسير وتسير، وتسدّ جادة الطريق بعربات اليد، والناس يحتشدون على مفارق الطرق، يترامون في هلع من جهة الى أخرى حين كانت تنفجر في مكان قريب قذيفة ثقيلة. كان اللاجئون يعيقون رجال الدبابات، طبعاً، ولكن هؤلاء كانوا يساعدون النساء والاطفال على الخروج سريعاً من منطقة النار.

ولقد كانوا يفعلون ذلك مدركين أن ثمة أيضاً رجالاً من الحرس الهتلري الخاص وضباطاً بين الجمهور الارقش، متعدد القوميات واللغات، يتسربون نحونا، الى مؤخرة جيشنا، مع الاطفال والنساء. فلقد كانوا يستبدلون بالسترة العسكرية جاكيتا مدنياً، ولكنهم كانوا يصطحبون في جيوبهم مسدسات وقنابل يدوية كثيرا ما تنفجر قرب مطابخ الميدان و الخيم الطبية.

في ذلك اليوم كان الصباح شامساً، لطيفاً، دافئاً. وفي مثل هذه الايام المشرقة لا يفكر الناس، حتى على الجبهة، في الشر، وفي الموت.

ولكن جنود الدبابات هؤلاء، الجالسين على درع دبابتهم يتناولون عصيدة من الحنطة السوداء والنقانق والمعلبات ويشربون الفيرموث المغتنم من الالمان، وأولئك الذين كانوا يتحادثون ويتضاحكون ويحاولون التفاهم مع النساء الالمانيات، وهم يعرفون كلمتين أو ثلاثاً، ولكنهم يستخدمون الاصابع والابتسامات، و أولئك

الذين كانوا يكتبون رسائل الى الاهل، واضعين دفاترهم على ركبهم، وأولئك الذين كانوا في تلك اللحظات يلاطفون فتياتنا - من ممرضات ومنظمات للسير - ولكن هؤلاء جميعاً كان في انتظارهم بعد نصف ساعة قتال حامي الوطيس تراق فيه الدماء. وطبيعي أن لن يكتب لهم جميعاً العودة منه أحياء.

كنت أبحث في الاحياء الشرقية من برلين عن جنود دبابات العقيد شارغورودسكي، فوجدتهم في هذا الشارع . وقد قلت صفوف الفوج بصورة ملحوظة. ولكن الروح القتالية لدى رجال الدبابات لم ينل منها لا الاعياء، ولا الخسائر بالرجال والمعدات.

وما كان المرء في حاجة، من أجل الاقتناع بهذا، لالقاء نظرة على النشرات الحربية. صحيح أن القتال هو القتال دائماً! انه ثقيل في كل مكان. وقد تكون رؤية الضحايا في شوارع برلين أشد ايلاماً للنفس، اذ لم تكن قد بقيت هناك لانتصار رجالنا غير أمتار، غير بضعة أحياء، بكل معنى الكلمة. ومع ذلك فقد كان في معارك برلين كثير من الخاص والفريد.

كانت تستولي على جميع المحاربين هنا بهجة عارمة مسكرة سبق لبوشكين ان قال بصددها: «ثمة متعة يحس بها الانسان أثناء القتال وعلى شفير الهاوية المظلمة». فقد كانت تستحوز على الجميع حماسة للقتال تسمو بالروح وبالهمة التي تولد آيات البطولة.

ورحت أفتش في الشارع عن دبابة بافل سينيتشكين. وكانت دبابة من طراز «ت ٣٤» مصابة برضوض في خاصرتها واقفة قرب جدار البيت. وحين عرفت رقم الدبابة، كان رتل الدبابات قد أخذ يمتد شيئاً فشيئاً على مواقع الانطلاق للاقتحام.

والدبابات تتجمع للهجوم، عادة، في الليل تحت جنح الظلام. ولكن العدو لم يبق لديه الآن غير القليل من الاسلحة المضادة للدبابات. واما رماة القذائف اليدوية النفاثة المضادة للدبابات (فاوستباترون) فكان يكافحهم حملة البنادق الاوتوماتيكية السوفييتيون. ولذلك فقد كانت الدبابات تزحف نهاراً مستخدمة للتغطية الانقاض المتكدسة المتعالية الى السماء والمتاريس الالمانية المؤلفة من الباصات والتراموايات المحطمة وأعمدة التلفون الساقطة، وهي المتاريس التي أقامها الهتلريون في جميع الشوارع تقريباً.

كان سينيتشكين جالساً على عمود حجري صغير فوق الرصيف، كأنه جالس على مقعد في حديقة، يقرأ جريدة «النجم الاحمر». وكانت الجندية المشتغلة في بريد الميدان قد حملت اليه حزمة الجرائد للتو.

وألقيت بنظري من وراء ظهر رجل الدبابات فقرأت في الجريدة نبأ يقول ان قائد الجيش الجنرال الكولونيل بيرزارين عين في الخامس والعشرين من نيسان (أبريل) أول حاكم عسكري سوفييتي في العاصمة الالمانية.

وقد أصدر أمره الاول. وجاء فيه أن القيادة السوفييتية تضمن للاهالي المسالمين الامن والحياة، وتأمر بمواصلة تموين السكان بالمواد الغذائية حسب المعدلات المقررة.

وشعر سينيتشكين بأن ثمة من يقف وراء ظهره، فالتفت بحدّة. وعرفني. فقلت له:

ــ مرحباً، أيها الرقيب الاول ، كيف حالك؟

فمد اليّ يده، وقال مصححاً:

ـ اني الآن مساعد وقائد دبابة.

ـ فلك التهنئة اذن مرتين!

فقال سينيتشكين مجيباً على سؤالي:

ـ عائشون، عائشون حياة جد طريفة، لقد عين جنرال سوفييتي حاكما عسكريا للمدينة، والفاشست يعبثون بالامن وما يزالون يطلقون النار.

فقلت لرجل الدبابات مبتسماً وأنا أقلد لهجته الساخرة:

ـ هذا العمل غير لائق، عيب عليهم!

ـ انهم يطلقون النار، وكما يقال، كل رصاصة هنا يمكن ان تصيب!

وقلت لسينيتشكين انه قد بات في قبضتنا أكثر من نصف برلين، وفي الاحياء المحررة تعود الحياة السلمية كل ساعة أوطد فأوطد، وقد فتحت المخازن في بعض الاماكن.

ـ واضح، واضح! برلين قرية كبيرة! ـ قال سينيتشكين مبتسماً ابتسامة ساخرة ـ وما دمنا قد جئنا الى هنا، فسنقضي على الحرب، هذا واضح بكل تأكيد.

فقلت معرباً عن تقديراتي:

ـ لقد طوقت برلين، وبقيت بضعة أيام من المعارك، لا أكثر.

ـ هذا صحيح، ولكن أوضح لي فقط لماذا يماطل الهتلريون، لماذا لا يستسلمون، أتراهم يأملون؟

ـ وما رأيك أنت نفسك؟

فقال رجل الدبابات في ثقة ويقين:

ـ انهم لا يتوقعون الرحمة، هذا سبب سلوكهم هكذا. كنت أفكر فيما سبق انهم يستشرون على رجالنا فقط، أما على رجالهم فيتأسفون. ولكن لا. كم من ناس مسالمين يموتون هنا الآن عبثاً.

وأشار سينيتشكين الى اللاجئين.

ـ وعلى من يتأسفون، أيها المساعد؟ انهم يريدون اطالة أمد سلطتهم ولو ليوم، ولو لساعة، ولو على حي واحد من أحياء المدينة. وانهم ليزدرون بأن سيموت في هذه الشوارع بضعة ألوف اخرى من الجنود والنساء والاطفال.

ـ طبعا، وهل هؤلاء بشر؟ انهم وحوش! ـ قال سينيتشكين وهو يهز رأسه.

وهنا انقطع حديثنا. وكان سائق الدبابة قد بدأ بتشغيل مطلق المحرك الذي راح يزمجر بصوت أجش متوتر.

ـ الى القتال؟

ـ تقريباً، وداعاً! كلا، بل الافضل ـ الى اللقاء الجديد!

وقبل أن يعتمر سينيتشكين خوذته، صافحني شاداً على يدي بقوة. وقال:

ـ الا تلاحظ اننا نلتقي غالباً، في بولونيا، ثم على الاودر، والآن في برلين؟ ولا بد أن نلتقي عند الريخستاغ. وهناك سنشرب نخب النصر مئة غرام من الفودكا.

ـ لا بد، بالتأكيد. فليحالفك التوفيق في القتال!

وانطلقت الدبابة «ت ٣٤» تجري في الشارع بهدوء، قرب نوافذ وشرفات تتدلى منها أعلام بيضاء. وكان سينيتشكين بعض الوقت واقفا في باب برج الدبابة مكشوفا حتى الحزام، دون أن

يغوص فيها، وهو ينظر الى أمام. وقد صاح بسائقه قائلاً شيئاً ما، فتحاشى هذا عربات اللاجئين الموسوقة بالحقائب، ودراجاتهم.

وبعد أن ودعت سينيتشكين، ذهبت أبحث عن مركز مراقبة شارغورودسكي. فقد انتقل موقتا الى عليّة بناية ذات ثمانية طوابق بقيت سليمة. وقد كانت نظارة مزدوجة ذات قرنين معدنيين تبرز هنا من نافذة بيضوية صغيرة، وكان يلتصق بها قائد فوج الدبابات نفسه، ناظراً الى شوارع الحي المجاور.

كان شارغورودسكي، طويل القامة، جسيما، معتاداً على الحركة الحادة والخطوات الكبيرة. وفي ظلمة العلّية كان يحس بأنه كالفيل في دكان لبيع الاواني الفخارية. وطول الوقت كان يرن تحت قدميه زجاج ما، وكان كتفاه يصطدمان بزوايا الخزائن الصغيرة، والمرايا، التي لا بد أن السكان الهاربين قد حشروها قبيل فرارهم في العلية.

ـــ أدخل، أدخل الى دكاني لبيع الآثار القديمة! التحية الكفاحية لصحافتنا! هل تروق لك، أيها الموسكوفي، هذه المدينة الصغيرة المتربة؟ ـــ سأل العقيد وقد حول أنظاره عن النظارة المزدوجة لحظة فقط.

حتى الآن، وقت القتال، لم يتخل شارغورودسكي عن اسلوبه في ارفاق كل كلمة بنكتة وابتسامة. فلا بد انه، من حيث طبيعته كانسان مرح المزاج، قد رسخ لديه هذا الاسلوب منذ يفاعته حين كان يعمل في مسرح المتنوعات.

ما كان لدي اذ ذاك متسع من الوقت لان أتبين دروب الحياة التي أوصلته، هو الانسان الذي بدل بضع مهن، الى صنعة قيادة

الدبابات. ولكن الاوسمة والمداليات على صدر العقيد كانت تشهد على أنه متملك من هذه الصنعة.

ـ وما قولك أيها الرفيق الصحافي؟

فقلت بايجاز أن برلين في نظري مدينة كبرى وليس يمكن أن تغير هذا الشعور الخرائب الناجمة عن قصف طيران الحلفاء.

ـ اما انا فمن شأني أن أستبدل بها مدينتنا الشامسية أوديسا. فيا لها من مدينة كالحة الوجه! لست أحس بالدفء فيها، فهي لا تدفئ النفس.

ولبثت صامتاً اعتقاداً مني بأن الحديث سيعيق العقيد عن القيام بالمراقبة. الا أن شارغورودسكي بما يختص به من مزاج جنوبي ونفسية رجل الدبابات الكفاحية، لا بد أنه كان يحب القيام دفعة واحدة بعملين واحياناً بثلاثة. وعلى كل حال، فقد استمر يتحدث معي.

ـ انك ترى: الازقة ضيقة، واما البيوت، فمثل الصخور في شعاب الجبال! وأنّى للدبابة أن تتحرك هناك؟ حتى الانسان القوي البنية لا يستطيع المرور لا سيما اذا كان جسمه مثل جسمي مطبوعاً بحروف ضخمة!

فقلت مبتسماً اني أفهم العقيد بوصفه رجل دبابات. فهنا، في برلين، كان من الصعب جدا على الدبابات أن تقوم بالقتال في تلك الشوارع المكتظة بحطام البيوت وكأنها قرى النمل. وكان في وسع أي رام من رماة «فاوستباترون» أن يطل من قبو ويصيب الدبابة بقذيفته ويبقى هو نفسه في منجى من الاصابة.

ـ يا لهؤلاء الرماة من حثالة! ان بينهم شباباً كثيرين من منظمة

«هتلريوغيند»، يكادون يكونون أطفالا. لعلهم بحاجة لدراسة الهندسة في المدرسة ولشد البنات من جدائلهن. أما الآن فانهم «جنود فوهررهم»!

ـ وانهم لحقودون عنيدون ـ اردفت قائلا.

ـ لقد أفسد هؤلاء الانذال النفوس الفتية أيضاً. ولكن لن يستطيع هتلر الحرب طويلاً بالغلمان. وما دام الطفل الامخط يحمل «فاوستباترون» فهو مستنسر نافخ أوداجه. وأما اذا نزعت منه السلاح فان اللعاب يسيل على وجهه.

ولكن ما يزال في برلين أيضاً أفراد الحرس الهتلري الخاص، الاشقياء، الذئاب الضارية. أما نحن فنقتلهم جميعاً بلا استثناء.

وصمت العقيد بعض الوقت. وقد راح يتطلع بعض الشيء في النظارة محولاً اياها من جهة الى اخرى. كانت شوارع برلين تسبح أمام ناظريه، مقطعة بشبكة الاحداثيات، وهي عبارة عن خطوط رفيعة على شكل مربعات، مخططة عليها المقاييس. ان الشخص الذي يتطلع بالنظارة لا يعود يميز الخصائص المعمارية للمدينة. فليس أمامه غير هدف حربي.

وعلى مقربة من العقيد كان يجلس جندي شاب متربعاً على قدميه، محني الظهر في توتر وجهد . انه جندي اللاسلكي. كان ينادي رجال الدبابات، وهو يكاد يمس بجبينه طرف جهازه، مطلقاً صوتاً رناناً، كأنما يصيح في غابة، صارخاً في الميكروفون الصغير :

ـ آلو، آلو، أنا سوسن الوادي! أنا سوسن الوادي! انادي النجم! الى جانبي الرفيق الثالث. انه ينادي بوغروف. اضبط على موجتنا، كيف تسمعني، حول، حول!

واتصل جندي اللاسلكي بقائد كتيبة الدبابات. وكان هذا موجوداً اذ ذاك في دبابة تشن الهجوم.

وقال شارغورودسكي لجندي اللاسلكي بحدة:

ـ أعطني بوغروف، هات بسرعة.

وانتزع منه السماعة بشكل يكاد يكون اختطافاً. ولا بد أن صوت قائد الكتيبة كان خافتاً يقطعه الصفير والازيز ونتف من كلام الماني.

ـ أنا الثالث، يا بوغروف، أتسمعني، أما أنا فاراك، أرى كيف تكوى الساحة بجنازير الدبابات. هيا الى الامام، يا عزيزي، أبعث بالفتيان الى أمام، ولسوف ننزل العقاب بجميع الفريتزات البرلينيين!

وقدم بوغروف تقريرا عن موقف القتال: الالمان حركوا المدافع المضادة للدبابات، يضعونها للرمي المباشر. ويضرب رماة «فاوستباترون» نيراناً حامية. احترقت احدى دباباتنا. وطلب قائد الكتيبة دعماً نارياً.

ـ اعرف كل شيء، وأرى، يابوغروف! اعمل، طوق البطارية من الجناحين. المدافع بلا ناس لا تطلق. فأعطهم يشعلون سيكاراتهم بشرارة نار من الحرس!

كنت آرى كيف كان جنود البنادق الاوتوماتيكية يركضون خلف دباباتنا جاهدين للبقاء قربها بحيث لا تستطيع نيران العدو أن تقطعهم عنها وتردهم الى وراء.

وأمر شارغورودسكي قائلاً:

ـ لا تنفصل عن المشاة. القطاع السادس أمامك. فاستول عليه، وأنا سأساعدك. هل فهمت؟

لم أسمع ما أجاب به بوغروف. فقد مضت دبابته الى أمام، ولا بد ان جهاز اللاسلكي كان يعمل أثناء المسير على نحو غير ثابت. وفي ذلك الوقت اتصل شارغورودسكي هاتفيا بـ«صاحب الدار الكبير» — فقد تلفن لقائد الفيلق، طالباً دعماً من المدفعية.

كان صعباً عليه الكلام. ففوق علية بيتنا كانت تصفر شظايا قنابل الهاون، ومن حين لآخر كانت تقع على مقربة منا قذائف ثقيلة، فتهز البناية كلها بدويّها الثقيل . واذ ذاك كانت أعمدة الدخان المرتفعة الى السماء تملأ العلية برائحة الحريق الخانقة.

وحمي وطيس القتال. وأحس العقيد بالحرارة، فخلع معطفه، وحل طوق قميصه.

وكانت كتيبة بوغروف تتقدم الى أمام. وكانت دبابة سينيتشكين تشق الطريق لغيرها ومضت تسير بسرعة كبرى، وما حدث لها في تلك الساحة من برلين، قد شهدته بنفسي جزئياً، وأما الباقي فقد اكمله جنود دبابات شارغورودسكي بما رووه بعد المعركة.

كان جندي من الحرس الهتلري الخاص مزود بـ«فاوستباترون» يطلق النار من نافذة طابق أرضي نصف قبو. وقد أصاب بقذيفة الجنزير الايمن لدبابة سينيتشكين. وخلال لحظة جمدت ماسورة مدفع الدبابة، بعد أن رسمت قوساً في الفضاء، كأنما هي «تشم» العدو. وبالطلقة الاولى كان رامي «فاوستباترون» قد محق محقاً.

بيد ان الدبابة كانت قد فقدت جزئياً القدرة على الحركة. فما كان في وسعها ان تدور الا على جنزير واحد حول محورها في اتجاه عقرب الساعة.

وقد أدرك هذا كما يبدو رامي «فاوستباترون» آخر. فأطلق النار وحطم بقذيفته الجنزير الايسر. وجمدت الدبابة في مكانها.

وانفجرت القذيفة التالية قرب برج الدبابة فعطلته وجرحت الرامي. ولقد كان الهتلريون يجيدون الرماية على الهدف الثابت. وكانت دبابات الكتيبة قد مضت بعيداً الى أمام، وبقي سينيتشكين مع دبابته وحيداً في الساحة.

كان الآن الوحيد في الدبابة القادر على القتال، فقد جرح السائق أيضاً.

وتشجع جنود الحرس الهتلري الخاص، فزحفوا الى الدبابة «ت ٣٤». فقد بدا لهم أن الدبابة العاجزة قد تحولت الى كومة معدنية ميتة، وأن سدنتها قد لقوا مصرعهم.

ولكن سينيتشكين ما كان يفكر بالاستسلام. وكان قد بقيت لديه بندقية أوتوماتيكية وزخيرة من القنابل اليدوية. فراح يطلق دفعات النار من باب البرج المفتوح، ويقذف منه بالقنابل، ويطلق الرصاص عبر فتحة المراقبة في واجهة الدبابة الامامية ويعود سريعاً الى الباب، حتى لقد بدا لجنود الحرس الهتلري الخاص أن في الدبابة لا محارباً واحداً بل ثلاثة على الاقل، يقاتلون بضراوة.

وهكذا استمرت الحال طويلاً، بضع ساعات. وحول الدبابة تغطت جادة الطريق كلها بحفرمن القنابل. وفوقها كانت تصفر رصاصات كاشفة فكانت مرئية حتى في النهار، تبدو للعيان خطوطاً قصيرة من نار تشق الفضاء.

كانت الخطوط المتقطعة من الرصاصات الكاشفة تتجمع على الدبابة. فقد كان حملة البنادق الاتوماتيكية الالمان يبحثون في درعها عن أماكن مكشوفة وثغرات ضئيلة. شدّما كانوا متلهفين لوضع نقطة رصاص في نهاية الخط المتقطع من الرصاصات الكاشفة، أي قتل سينينشكين!

ولقد بدا فعلاً في بعض الاحيان أن رجل الدبابة قد قتل. فقد كانت الدبابة لا ترد باطلاق النار خلال دقيقة أو دقيقتين. واذ ذاك كان الهتلريون يزحفون أقرب فأقرب، وما هي الا لحظة ويستولون على الدبابة!

واذ ذاك كان يظهر من باب البرج رأس سينيتشكين ويده التي تقذف بالقنابل.

ولقد كانت نيران العدو في الساحة من الشدة بحيث لم يكن في وسع محاربينا أن يزحفوا لانقاذ سينيتشكين. فظل يحارب لوحده. وتعاقبت ست هجمات، الواحدة اثر الاخرى. وصد سينيتشكين جميع الهجمات.

وقد أصيب بجرح في يده اليمنى، فضمدها بنفسه، واستمر يقاتل. وجرح في رجله، وفي كتفه. وظل يحارب.

وهكذا جعل المساعد سينيتشكين من دبابته حصناً منيعاً في أحد شوارع برلين.

وبعد بضع ساعات فقط، حين جاءت الى هناك كتيبة الدبابات الثانية التابعة لقطعة شارغورودسكي، انتشل الرفاق سينيتشكين من الدبابة وقد فقد الكثير من دمائه واعتراه الضعف، فحملوا البطل على النقالة الى السرية الطبية.

ضريح كارل ليبكنخت

قبيل مساء الرابع والعشرين من نيسان (أبريل) جاءنا عامل الماني، لم يمض على خروجه من السجن غير أسبوع، فعرض علينا أن يصحبنا الى ضريح كارل ليبكنخت*.

تركنا سيارتنا، وأكملنا خزنات سلاحنا تحسبا للطوارئ، وذهبنا الى حي كان قد تم تطهيره من الهتلريين، الى مقبرة ليختنبرغ القائمة وسط بيوت وشوارع محترقة ملأى بالدخان الكثيف الخانق.

كان دليلنا يسير صامتاً، يتطلع الى ما حوله بامعان كأنه قد جاء الى برلين للمرة الاولى. وما كان يبصر شعارات غوبلز التي تكاد تملأ جميع الجدران، حتى يحول بصره عابس الوجه.

ان السوفييتيين، اذ قضوا على الدولة الهتلرية الوحشية، ما كانوا يعتزمون قط الانتقام من الشعب الالماني، من النساء والشيوخ والاطفال الالمان.

وقد كان الالمان المعادون للفاشستية أول من خرج من الاقبية ومن ملاجئ الباطون لمساعدة جنودنا في تطهير الشارع من أكوام الحجارة، ورفع الجثث. وكانوا يرشدون الى الضباط الهتلريين، ورجال الحزب النازي العاملين، اللابسين ثياباً مدنية، والمحاولين الاختلاط في الجمهور والاختفاء، وبكلمة لقد كان الوطنيون الالمان الصادقون يجهدون لمساعدة جنودنا بكل ما في وسعهم.

وسريعاً ما وجدنا أنفسنا في حديقة ضخمة، مجزأة الى مربعات كبيرة وصغيرة، تتخللها ممرات ودروب مستقيمة الخطوط صفراء.

---

* كارل ليبكنخت (١٨٧١ - ١٩١٩) - شخصية بارزة في حركة العمال الثورية الالمانية والعالمية، وأحد مؤسسي الحزب الشيوعي الالماني.

وكانت الزهور هناك متفتحة، والهواء عابقاً بالروائح العطرية الحادة المنبعثة من باقات الزهور النضرة، وبالروائح النتنة بعض الشيء من الباقات الذابلة المنثورة على القبور.

كان القتال ناشباً في مكان قريب، وأما هنا فكان يبدو مدهشاً الهدوء والمماشي التي كانت تخشخش فيها بفعل الرياح الخفيفة أشجار الكستنا الجعداء المقببة الرؤوس، وتتمايل قليلاً أشجار الصنوبر العالية الصارمة. وكنا ما نزال نمشي صامتين مجتازين الساحات العشبية الانيقة الواحدة اثر الاخرى، وصفوف شجيرات الليلاك المقصوصة بعناية حتى لتكاد تبدو لاصقة بالارض.

ومن وقت لآخر كان دليلنا يتوقف فيسترد أنفاسه ويده تضغط على قلبه. فقد كان، على ما يبدو، مريضاً مرضا خطرا، تتحدث بذلك عيناه اللاهبتان المضطربتان واصفرار بشرة وجهه المشدودة على وجنتيه.

— القلب مريض! — قال اخيراً معترفاً، ودس اصبعه الطويل النحيل في صدريته التريكو البنية التي كانت بارزة من تحت جاكيته الرث العريض الكتفين.

وكرر مبتسماً لامر ما: — لقد عطلوا القلب — وراح يهز رأسه وهو يقول — النازيون عطلوا القلب!

فاقترحت عليه أن نعود فاجاب على الفور: «كلا، كلا» ومضى قدماً.

وعبرنا المقبرة من جنوبها الى شمالها، الى أن واجهنا حملة البنادق الاتوماتيكية السوفييتيين فحدنا الى الغرب. وهنا أيضاً كانت المماشي متشابكة، فظللنا وقتاً طويلا نجول وسط تماثيل واسيجة

للأضرحة من الحديد الصب المزخرف مكللة بالازهار والخضرة. وفي الزوايا البعيدة من المقبرة حيث كنا نبحث عن ضريح كارل ليبكنخت قلّ عدد المسلات المرمرية المزينة بصور الموتى المنحوتة، وازداد عدد الاضرحة البسيطة التي ليس عليها الا حجر مضلع قائم من جهة الرأس.

– ينبغي أن يكونا في هذه الناحية. ان كارل وروزا* قد دفنا معا. هنا كان يقوم نصبهما التذكاري، – قال مرافقنا. فرحنا نتبعه سائرين من مربع أخضر الى آخر.

وبدا في بعض الاحيان أن دليلنا تائه. فبعد السنوات الثمائي التي قضاها في السجن تغير الكثير حتى هنا في المقبرة. وأغلب الظن أنه هو نفسه أيضاً كان يفكر في هذا بقلق. وبدا أن وجهه النحيل قد ازداد نحافة، فكان يتمتم بشيء ما بينه وبين نفسه ناطقاً من حين لآخر نتفاً من العبارات بصوت مسموع.

وكانت الظلمة قد بدأت تحل، والسماء المغطاة بالدخان، المتقلبة اللون بسرعة، أصبحت تتزايد حلوكة. وعندما يحل الظلام في برلين، كان يشتد عادة قصف المدفعية. وحتى هنا، في المقبرة، كنا غالبا ما نصادف جنودنا المسرعين الى المدينة، وتمر بنا عربات، واندفعت في المماشي دبابة خفيفة متجرجرة تنفث الدخان.

وكنا قد أخذنا نفقد الامل بالعثور على ضريح كارل ليبكنخت حين اختفى دليلنا فجأة عن أنظارنا وسط شجيرات كثيفة. وسريعاً ما دوت صيحته المبتهجة. فتبعنا مصدر الصوت، وقد تأكدنا أنه

* يقصد روزا لوكسمبورغ – الشخصية النشيطة في حركة العمال الالمانية والبولونية، التي اشتركت مع كارل ليبكنخت في تأسيس الحزب الشيوعي الالماني.

قد وجد الضريح. فماذا رأينا؟ كان دليلنا واقفاً خلف شجيرة ليلاك والى جانبه الماني طويل القامة في ثياب عامل. كانا معا يتطلعان بامعان الى حجر صغير من الغرانيت قائم على رأس ضريح. وقال لى دليلنا منحنيا على الضريح:

ـ هذا هو المكان. هنا دفنوا. كارل ليبكنخت وروزا لوكسمبورغ، وشيوعيون آخرون. ولكن النازيين انتزعوهم من الارض ودفنوا أناساً آخرين. ما كنت اعرف هذا. وهذا ما يقوله الرفيق.

وأشار بيده الى الالماني الطويل بثياب العمل. ثم أضاف بعد وقفة طويلة:

ـ لم ير أحدنا الآخر منذ ثماني سنوات. كنا معتقلين ثماني سنوات في سجون مختلفة. وها هو صديقي قد جاء الى هنا يبحث عن ضريح ليبكنخت.

ورحنا نتطلع حولنا. كانت تلك زاوية نائية من المقبرة. وكان يدفن هنا أفقر الناس. وفي هذا المرج الاخضر الصغير كان يرقد العمال البرلينيون سنوات طويلة.

والآن تنتصب في المكان الذي دفن فيه مؤسس الحزب الشيوعي الالماني شاهدة حجرية كتب عليها: «الى لويز هانسن من والديها المحبين».

ولقد سجلت في دفتري، ولا أدري لماذا، اسم لويز هانسن هذه، وقفلنا جميعاً عائدين من حيث أتينا. والظلام قد حل. كان دليلنا ورفيقه يسيران في المقدمة، يرشداننا الى الطريق.

وهكذا، وعلى نحو غير متوقع، التقى في المقبرة عدوان للفاشستية، رفيقان لم يتوقفا قط عن الكفاح في سبيل حرية شعبهما.

كانا يسيران متشابكي الساعدين، وكان ذلك المشهد القصير عند ضريح ليبكنخت السابق أبلغ تعبيراً من أية كلمات عن قوة الاممية البروليتارية، عن قوة الافكار المنتصرة على أية آلام وعلى الموت ذاته، وعلى أي سم فاشيستي عدو للانسانية.

وتذكرت اذ ذاك بصورة عفوية أول أيار (مايو) المقبل الذي سنستقبله مع الرفاق الالمان في برلين. وقد غمرتنا سعادة خاصة نادرة حقاً لشعورنا بأننا سنحتفل بأول ايار وبالنصر هنا، في شوارع العاصمة الالمانية.

وبعد قليل أطبقت الظلمة اطباقاً تاماً. وكنا جميعاً ما نزال في أرض المقبرة. ومن خلف سياجها كانت البيوت تترا ءى للعيان، والابواب ومحاجر النوا فذ تنفغر في فراغ مظلم، لاقبس، ولا بصيص من نور! وحين كانت الظلمة تضيء فجأة بوهج طلقة مدفعية، حينذاك فقط كنا نرى أن الرفيقين الالمانيين كلاهما، متشابكا الساعدين كما في السابق، يسيران أمامنا في الممشي ويتحادثان في أمر ما...

بيت صغير في الضاحية

حين تقدم خط الجبهة من الضواحي الشرقية الى الاحياء الوسطى من برلين، نقلنا «قاعدتنا» أيضاً من شترا وسبرغ الى ضاحية اولنغورست البرلينية.

كانت اولنغورست داخلة ضمن نطاق برلين الكبرى، الا أنها لم تكن مدينة ولا هي بلدة اصطياف. حول الفيلات الريفية ذات الطا بقين

كانت تقوم غابات فسيحة من أشجار الصنوبر، ولكن كثرة الطرقات والدروب المعبدة بالاسفلت والفيلات الحجرية ذاتها قليلاً ما كانت ترتبط بما في الذهن من تصور عن المنازل الريفية الخشبية ذات البناء البسيط.

لم تكن الحرب قد نالت من اولنغورست، ولا خلفت عليها ميسمها. فكأنما موجة نيرانها، التي كانت تدمر كل شيء حول هذا المكان وتحيله الى رماد، قد مرت من هنا سابحة في الفضاء، فما اصابت غير أعالي أشجار الصنوبر المعمّرة.

لقد بقي كل شيء سالماً، على ما يبدو، في البيوت المريحة المرفهة التي تحيط بها بساتين صغيرة وكبيرة: التيار الكهربائي، وتمديدات المياه، والورود والدلبوت في أحواض مزروعة بعناية، وأزرار الاجراس الكهربائية على لوحات حجرية مثبتة قرب الابواب في الاسيجة، وميكروفونات صغيرة لمناداة أرباب الفيلا. وما كان ينقص هنا غير وجودهم هم أنفسهم.

فالكثيرات من النساء الالمانيات، وقد اصابهن الهلع من جراء دعاية غوبلز، التي كانت تنذرهن بكل رهيب، قد حملن أولادهن وانطلقن يختبئن في الارياف. ولكن كثيراً منهن عدن الى بيوتهن بعد قليل.

لم نر ربة منزلنا أسبوعاً كاملاً، فحسبنا أنها اما قد قتلت او هي قد هربت الى المناطق الغربية من البلاد.

لذلك كنا مضطرين لتدبير الامور بأنفسنا في المنزل وفي المطبخ، وكان سائقنا يجد متسعاً من الوقت في الصباح لسقاية الزهور وللعمل قليلاً في بستان الفواكه الصغير الملاصق للبيت.

وهناك اكتشف كوربوسنوف، وهو يشتغل بالمجرفة قرب شجيرة توت العليق، بلطة تحمل على سنانها آثاراً من دم جاف. فنظف البلطة، ووضعها في المطبخ، غير مشتبه بانها ترتبط بحادثة فاجعة جرت في هذا البيت منذ تلك الايام التي كان قد أخذ يصل فيها الى اولنغورست دوي أولى الطلقات من مدافع قطعاتنا المقتربة.

كنا عادة لا نجيء الى المنزل الا للمبيت. وفي تلك الساعات التي كنا نقضيها في الفيلا، كنت أصعد الى الطابق الثاني للعمل في غرفة كان يشاطرني فيها سباسكي. وكان ثمة اريكتان قرب النافذة المطلة على البستان من جهة باب السياج.

وكان يرى من النافذة شارع ضيق على جانبيه خضرة نيسان المبهجة للانظار. وكنا نبيت سياراتنا قرب السياج المغطى بشبكة.

وهناك رأيت ذات مرة، قبيل المساء، امرأة لابسة بنطالاً، وعلى رأسها منديل قاتم، تحمل حقيبتين تمر بين السيارات متوقية حذرة. دخلت باب سياجنا وراحت تقترب من البيت في تردد وهي تتطلع بانظارها هنا وهناك.

وبعد نصف ساعة، حين نزلت من الطابق الثاني الى المطبخ لآخذ كأساً من الماء، فتحت الباب فاذا بي أرى امرأة قصيرة نحيلة قد أجفلها ظهوري. فقد قفزت في الحال عن الكرسي وانحنت محيية. واتسعت عيناها الرماديتان الكبيرتان من الهلع، وأما أصابعها فكانت تعبث بطرف مئزرها في عصبية.

ولقد حييتها وصعدت في الحال الى غرفتي لمجرد أن يهدأ روع المرأة. ثم أضطررت للذهاب الى المطبخ مرة ثانية. ومن جديد،

وبرغم كل ابتساماتي وحركاتي المطمئنة، استمرت المرأة على اضطرابها، وظل وجهها المبتئس الذابل يعبر عن هلع جلي يبدو انها ما كانت تستطيع التغلب عليه.

وقد كانت غرابة سلوك ضيفتنا – وماكنت أعرف بعد من هي في ذلك الحين – وبخاصة تعابير وجهها المستخذية المستعطفة، تبعث في نفسي شعوراً غير مستحب يمتزج فيه على غير ارادة مني الرثاء بالاشمئزاز.

وفي ذلك المساء حاولنا أنا ورفاقي الآخرون الظهور أقل ما يمكن قرب المطبخ.

وبعد العشاء عرفت أن الجالسة في المطبخ هي ربة المنزل فراو* ماريا منتزل. وقد التمست السماح لها بالاقامة موقتاً في المطبخ.

وقد عرضنا عليها في الحال أن تشغل احدى الغرف الخالية، واذا كانت في حاجة فغرفتين، وان تجلب ابنتها الطالبة التي خبأتها لامر ما لدى أقارب لها.

ولكن فراو منتزل رفضت الاقامة في الغرفة واعلنت أن الطابق الارضي ملائم لها تماماً، ففيه الدفء، والهواء الجاف، والنور، ولها امتعة مخبأة فيه.

لم يكن من شأن اصرارنا في ذلك الوقت الا أن يخيف ربة المنزل. فالطابق الارضي البعيد عن غرفنا كان يبدو لها أكثر أمناً. وأملاً بأن فراو منتزل ستنتقل قريباً الى الغرفة، حين تزداد معرفة بنا، كففنا عن محاولة اقناعها.

---

* فراو – تعني باللغة الالمانية السيدة.

وبالفعل، ما أن مضت بضعة أيام حتى كانت فراو منتزل تركن الى الاطمئنان شيئاً فشيئاً. فشغلت غرفة خالية، وباتت اذ ذاك طول النهار تقرقع بالقدور في المطبخ، أو تجري بالممسحة في الغرف، تنظفها في الساعات التي كنا نذهب فيها الى برلين.

كان ميخائيل سيميونوفيتش غوس أول من ركنت اليه فراو منتزل بعض الشيء، فباتت تصارحه. فقد كان يتكلم الالمانية خيراً من الاخرين، وكان اكثر الجميع اهتماماً بروح البرلينيين، وموقفهم من النظام النازي الذي كان يعيش أيامه الاخيرة.

كان ميخائيل سيميونوفيتش يتحادث في أوقات فراغه مع فراو منتزل، وله في أول الامر تحدثت عن نفسها، وعن بيتها، وعن المستأجرين لديها، وعن الجيران.

وكان زوج فراو منتزل، وهو مستخدم في بنك، قد اشترى هذه الفيلا بالتقسيط، وحين ذهب الى الحرب، أجرت زوجته الطابق العلوي.

وبعد قليل قتل رب البيت على الجبهة الشرقية قرب أوديسا. وباتت فراو منتزل أرملة. ولكن المستأجر لديها، المهندس فرنر بريتشنيدر، بقي في البيت.

وكان بريتشنيدر، الشاب نسبياً، قد انتسب وهو ما يزال فتى الى فصائل الحرس الهتلري الخاص، وحين غدا مهندساً انتمى الى الحزب النازي.

وفي دفتر العائلة، الذي كان على جميع الاسر الآرية ان تكون حائزة عليه بموجب أوامر الهتلريين، سجل بريتشنيدر اسم ابنته انغريد بدلا من اسم الولادة برتا. فقد بدا الاسم انغريد، المقتبس

من الاساطير الالمانية القديمة، أكثر عصرية بالنسبة للنازي الشاب.

بيد أن هذا النازي، المعجب بالقرون الوسطى، هذا «النبيل» الفاشيستي، قد فقد كل رباطة جأشه وبقايا رجولته وصوابه حين أخذت القوات السوفييتية تقترب من ضواحي برلين.

وهذا ما روته فراو منتزل.

يوم سمع أهالي اولنغورست أصوات قصف المدافع الروسية البعيدة، اعترفت زوجة المهندس لفراو منتزل بأنها جد قلقة على زوجها. فما كان يقر له قرار، خوفاً من العقاب، يقيناً منه بأن الروس حين سيأتون الى اولنغورست، فان مصيره، كعضو في الحزب النازي سيكون القتل أو النفي الى سيبيريا.

وبعد مرور بعض الوقت، اذ كانت المرأتان معاً في المطبخ، سمعتا أصواتا غريبة في غرف الطابق الثاني، كأنما ثمة من يحطب بالبلطة في الغرفة.

ــ «ماذا لديكم؟» ــ سألت فراو منتزل.

ــ «لست أدري. يا الهي، ما هذه الاصوات الغريبة!» ــ قالت زوجة بريتشنيدر واصفرّ وجهها. ثم انطلقت الى غرفتها وهي تصيح.

ومضت قرابة خمس دقائق. وفجأة امتلأ البيت بصرخات حادة. فانعقد لسان فراو منتزل من شدة الرعب. فما اعتزمت الاستنجاد بأحد، ولا مبارحة غرفتها.

ولكن جار فراو منتزل راح يناديها بعد قليل من وراء السياج لكي تجيء اليه. فقد عثر على المهندس منطرحاً في البستان قرب السياج. وكان بريتشنيدر ينزف دماً.

وقد اعترف بأنه قد قطع أول الامر بالبلطة ابنته البالغة من العمر عامين وولده ابن الاربع سنوات، ثم قتل زوجته أيضاً بالبلطة ذاتها. وقد دفن الجثث في قبر كان قد حفره في البستان من قبل.

وسمعت أيضاً، والهلع يتملكها، ان بريتشنيدر حاول الانتحار بقطع شريانه. الا أنه لم يتمكن من انهاء حياته على الفور، فمات في هذا البيت بعد ثلاثة أيام.

في ذلك المساء بالذات، هربت فراو منتزل من بيتها مع ابنتها الى أقارب لها قاطنين في ضاحية أخرى.

مثل هذه الحادثة الفاجعة أبعد من أن تكون بنت المصادفة، ولا كانت الفريدة من نوعها في تلك الايام.

وحين عرفنا بها بتنا ننظر بعيون أخرى الى ربة منزلنا التي احتملت وعانت الكثير.

ولقد كنا نشرح لفراو منتزل طويلاً وبصبر أن مستأجر بيتها، بوصفه عضوا عاديا في الحزب النازي، غير مقترف جرائم حربية، لم يكن مهدداً بشيء على الاطلاق.

فهل ترى كانت فراو منتزل تفهم هذا أم تراها، بالاصح، كانت تثق به؟ لست أدري.

كنا نقول لها ان بريتشنيدر كان مخدوعاً من قبل غوبلز وطغمته من الكذابين. وان الفعلة التي ارتكبها – قتل الزوجة وطفليه – هي من قبيل بربرية القرون الوسطى التي غرسها الهتلريون، وان هذه الوحشية لا تفسر الا بالجنون المنبعث من الهلع والشائعات الافترائية والهستيريا وبث الكراهية للناس السوفييتيين.

كانت فراو منتزل تصغي بطيبة خاطر، وتهز رأسها موافقة،

ماسحة بالمنديل جفنيها المحمرين من الدمع ، متظاهرة بأنها مصدقة.

وفي اليوم التالي الذي عقب اطلاعنا على المأساة التي كانت قد حدثت في بيتنا، وجد سباسكي في الغرفة التي كنا ننام فيها، معطف بريتشنيدر في الخزانة وقد تفشّت عليه بقع كبيرة من الدم. فاخذت فراو منتزل المعطف.

لن أقول أننا شعرنا بعد ذلك بكثير من الارتياح في الغرفة التي كانت أرضها تحمل آثار بقع حمراء مغسولة. فقد كان يخيل اليّ أني أسمع صرخات طفلين وهما ينظران الى أبيهما وهو ينقض عليهما بالبلطة.

وهل ترى ينبغي للمرء أن يكتب أيضاً عما لا يمكن للكلمات أن تصوره أو تعبر عنه!

ولكن حكاية هذه المأساة ألقت ظلاً غير مرئي على نفوسنا. لقد تجلى في رسائلنا وفي تسجيلاتنا التي قمنا بها في تلك الغرفة، وتجلى في شدة الحقد الذي كنا نحمله في نفوسنا ونحن نفكر بالنازيين الذين حملوا الى الشعوب هذا القدر من الشرور والآثام، النازيين الذين كانوا ما يزالون قابعين في سراديب الرايخستاغ ودار المستشارية الجديدة لهتلر.

مستشفى على ضفة بحيرة

كان مستشفى الجيش قائماً في أجمل مكان من شتراوسبرغ على مقربة من بحيرة تتوافر على ضفافها أشجار صنوبر رشيقة. انه دار كبيرة ذات أعمدة قائمة قرب الشاطئ. ومن الغرف المحولة الى مهاجع ، كان ينفتح للعين منظر رائع على البحيرة الساكنة التي تسبح

في مياهها اوز تم بيض كان يمكن ان يحسب من المعجزات بقاؤها هنا سالمة في أيام الحرب هذه .

ووسط البحيرة كانت ترتفع جزيرة مدوّرة خضراء، وهناك كانت ترى في أجمة من الشجيرات عرائش حجرية ذات أعمدة رفيعة لها سقوف حديدية مدببة الرؤوس. وكانت الجزيرة زاخرة بهذه العرائش كأنها فطور بيض عملاقة.

وبكلمة، كان الجريح يرى أمامه لوحة من الحياة السلمية لا شيء فيها البتة يذكر بالحرب.

وكان ممتعاً جداً للناس الذين يؤتى بهم الى هنا من المواقع الامامية مباشرة، من شوارع برلين اللاهبة، ذلك الهدوء السائد في الحديقة، وذلك العبير الفواح من الصنوبر، واوز التم السابحة على وجه الماء المتموج الهادئ، واشعة الشمس على لحاء الصنوبر الذهبي الكهرماني.

كان في الوسع اعتبار السماء فوق ألمانيا الشرقية في تلك الايام هادئة، أو كما كان يقول الجنود، «نقية» من طيران العدو، أما في أطراف شتراوسبرغ فما كانت تظهر عصابات «المتذئبين» السائبة. وفي وسعي القول ان في هذا ما يفسر تلك اللوحة الغريبة للمستشفى العسكري التي رأيتها هنا.

لا بد أن جميع نزلاء المستشفى العسكري تقريباً قد انتقلوا في ذلك الصباح الى الحديقة في الهواء الطلق.

فان جميع الجرحى، أولئك الذين كان في وسعهم الجلوس على كراسي صغيرة من نسيج الكتان، وعلى المقاعد، وأولئك الذين كانوا واقفين على العكاكيز، وأولئك الذين كانوا مستلقين على

الاسرة والنقالات، كانوا قد أخرجوا أو نقلوا جميعا الى الهواء الطلق، الى العشب الاخضر، للتمتع بالشمس الطيبة، ودفء نيسان، والربيع اللطيف. غادرنا سياراتنا قرب سور من قضبان الحديد الصب المزخرف يحيط بالحديقة واجتزنا مرجا أخضر. وكنت عرفت أن هذا المستشفى قد نقل اليه رجل الدبابات الجريح بافل سينيتشكين، وكنت راغبا في عيادته. وقد جلبنا معنا ميكروفوناتنا أيضا.

كانت الحرب ما تزال دائرة الرحى، أما بالنسبة للجرحى فكانت قد انتهت. وقد كان هؤلاء الرجال السائرون على العكاكيز، والمضمدون، والذين ما يزالون مستلقين على النقالات، هنا، على بعد أربعين كيلومترا من برلين، بعيدين بأفكارهم، آلاف الكيلومترات من هنا، في البيت، في الوطن. وما الذي هم معتزمون فعله بعد المستشفى، بعد الحرب؟ كنا راغبين بأن نسمع عن هذا، وبأن نسجل ذلك على شريط.

أكيد أن القرار الذي يتخذه انسان نزيل مستشفى، ما يزال مريضا، ما يزال ضعيفا، ليس بالقرار النهائي.

ولكن أفكار الجنود عن الحياة السلمية الآن، عشية نهاية الحرب، كانت لها قيمتها الخاصة، واصالتها التاريخية، واهميتها، وذلك على وجه التخصيص لانها صادرة عن أناس كانوا للتو يريقون دماءهم في المعارك.

فنبدأ أولا من سينينشكين. كان مستلقيا على نقالة وقد أسند ظهره الى وسائد لكي يتاح لرجل الدبابات أن يرى الرفاق، ويبقى رأسه مرتفعا فيتطلع الى الساحة المرقشة ببيجامات الجرحى البيض، والصفر، والخضر والرمادية المقلمة.

لم يكن الهتلريون الذين كانوا يطلقون النار على سينيتشكين يخطئون هدفهم. فقد أصابته رصاصة في عضلة ساقه، وأصابت أخرى عظم ساعده، ووقعت ثالثة على عظم يده اليمنى، ولذلك فقد شد سينيتشكين شداً محكماً بالجص يلف حول جذعه كله وحول ذراعه.

وهكذا كان يستلقي في قميص أبيض من الجص، أما يده اليمنى نصف المحنية، وقد بات سمكها ضعفين بسبب الجص، فهي مثبتة جامدة أمام الصدر.

كان الجرحى يطلقون على هذا الضماد الجصي اسم «الطائرة» على سبيل الدعابة، فقد كان فيه شيء ما يذكر بجناح الطائرة.

وكان سينيتشكين الشاحب الوجه (فقد نزف الكثير من دمه) مستلقيا على ظهره، يتطلع الى السماء، وأصابع يده اليسرى السليمة تداعب العشب. وقد ابتهج لرؤيتي لما بيننا من سابق معرفة، فقال:

— ها انذا آخذ حماما شمسيا، تفضل أجلس قربي على العشب.

وألقيت بنفسي قرب النقالة. فسألني سينيتشكين أول ما سأل:

— وكيف الحال في برلين؟

فحدثته باقتضاب. فقال لي:

— أنا ما حاربت حتى النهاية. وقد قصرت قليلا في السير الى مأربي. وحنثت بوعدي لك.

— بماذا؟ — قلت له غير فاهم ما يعني.

— كنت أقول أننا سنلتقي عند الريخستاغ. ولكن هاك الى اين طُرح بي، على البحيرة، قرب اوز التم البيض!

وصعّد سينيتشكين انفاسه.

— وما العمل! انها الحرب!

– اي نعم – قال سينيتشكين.

واستفسرت عن حاله فقال:

– ها أنا ملفوف بالجص. فيا له من نصيب! لقد قضيت الحرب كلها تحت درع الدبابة. وها أنا من جديد يلفني درع، ولكنه من جص!

وراح ينقر بأظافره على صدره. فكان لذلك رنة تحسب معها أنه كان ينقر على قطعة من خشب.

– هاك أنظر، انه درع متين، عليه اللعنة!

قال هذا اما بمرارة واما بلهجة ارتياح ما، متلمسا بيده اليسرى قميصه الجصي القاسي.

وكرر قائلا:

– درع! كلمة واحدة – درع!

وبعد دقيقة سأل وقد عدل وضعه على النقالة بشكل ملائم: «كيف حال جماعتنا هناك، أما تعرف؟». وكنت أرى أن الضماد الجصي يؤلمه.

ورحت أحدث عن الوضع في برلين، قائلا:

– ان فوج شارغورودسكي قد بات في مكان ما على مقربة من الريخستاغ. والفتيان يقاتلون قتالا رائعاً!

– قتالا رائعاً، وبدوني!

سبق لي انا نفسي أن جرحت مرتين جراحا خطيرة، فكنت أعرف لا عن طريق المطالعة بل عن طريق تجربة قلبي كم يطيب للجريح، المتعب بعد شهور من القتال، أن يتمتع لا سيما في الايام الاولى بسكون المستشفى، والاستراحة، والاغطية النظيفة، وأيدي

الاطباء والممرضات الملاطفة، وبمجرد ادراكه انه هنا في أمن نسبي.

وان هذا انسانيا لامر مفهوم وليس ينال البتة من شجاعة الناس الذين يعودون الى قطعاتهم، بعد شفاء جراحهم، ليقاتلوا فيحسنوا القتال.

وليس من العادة أن يكون الجرحى على استعجال شديد لمبارحة المستشفى الى الجبهة، واذا هم كانوا على استعجال فليس من المألوف أن يجري الكلام جهارا عن هذا. وقد كنت أرى أن سينيتشكين كان آسفا بالفعل لعدم مواصلته السير الى الريخستاغ ولكونه الآن موجودا في المستشفى، لا في القطعة، لا في ساحة القتال.

وانه لامر جلي أن نواحي الضعف المشتركة لا تماثل بين الناس. انما توحد بينهم قوة الطباع. ولقد كانت تلك الرجولة لدى سينيتشكين أقوى من الخوف، أقوى من لحظات الضعف المنبعثة من الالم والوجع.

وطرحت على سينيتشكين هذا السؤال:

ــ ايوه، لقد انتهيت من الجيش! وسوف تحتمل هذا. فماذا تنوي أن تفعل في الحياة السلمية؟

واستغرق سينيتشكين في التفكير. لا بد أنه كان يتذكر شيئا ما. وليس غير الافكار الطيبة تجعل الوجه مشرقا على ذلك النحو. وقد ابتسم ابتسامة خفيفة، ولكنه راح يصعد أنفاسه مع ذلك. ثم قال:

ــ الدرب المستقيم بالنسبة لجندي الدبابات، من الدبابة الى التراكتور، من ماكنة الى ماكنة. فبدون محرك ستكون الحياة مضجرة لي. والحاصل، أنا فلاح بمحرك!

وراق هذا التعبير لسينيتشكين. فقد راح يردد بشفتيه فقط، وبدون صوت، هذه العبارة «فلاح بمحرك».

ولقد خطر لي اذ ذاك ان سينيتشكين كان يشعر في نفسه أيضا، بما يقرب من قوة محرك الدبابة الذي لا يكل، والذي ظل طوع يده شهورا كثيرة.

ـ كتبت رسالة الى البيت يوم أمس. باليد اليسرى. فاليمنى في الجص. شيء غريب! الحروف كانها كسيحة، تتساقط جميعا الى اليسار. خرابيش! ولكن في الوسع فك رموزها. شيء طريف! بدأت، ومشى الحال فورا.

هكذا كان سينيتشكين يتكلم وهو يبتسم كأنما كان يسخر من نفسه ومن كونه قد استطاع منذ التجربة الاولى أن يكتب رسالة باليد اليسرى. وراحت ابتسامته تزداد عرضا لادراكه اعتزازه الصريح هذا.

ـ وهكذا ستبدأ حياتك الجديدة، وسيمشي الحال على الفور!

ـ يمكن، أيها الرفيق المراسل. على أن أطرح هذا فقط!..

ومن جديد راح سينيتشكين ينقر بأصابعه على قميصه الجصي الابيض القاسي الذي كان يمنعه من أن يتنفس بعمق ملء صدره.

واني لاتذكر العسكرى ايفان ايفانوفيتش بوريكو، الذي كان مستلقيا على مقربة من سينيتشكين، فقد كان فيما سبق عامل منجم في سيبيريا. كان مصابا بجرح خطير في صدره، فكان يتنفس بشيء من الجهد والمشقة صافرا صفير قاطرة عتيقة تجري مناورة في فناء منجم.

كان صعباً على بوريكو أن يتحدث، على ما كنت أرى، ولكنه خاطبني هو نفسه، وقد سمع حديثي مع سينيتشكين:

ـ وأنا، يا بني، اذا ما قدر لي أن اعيش، فسأمضي الى بيتي في بروكوبييفسك، في الكوزباس. هل سمعت عنها؟ انها لبقاع جميلة ـ ربما لن يقبلوني الآن في المنجم نفسه، ولكنهم عسى أن يجدوا لي عملا ما خارج المنجم، في فنائه. سأكون على مقربة من الفحم وأشم رائحته على الاقل.

ـ ربما ستستطيع العمل حفارا؟

ـ كلا، يا عزيزي، لست آمل بالنزول تحت الارض، لا مؤاخذة. لست أعد بهذا. ـ قال بوريكو بلهجة جدية كأنما عليه الآن بالذات أن يقرر أين سيعمل.

... وأتذكر رجل المدفعية الطويل القامة، قائد البطارية، المصاب بجرح في رأسه. ولكني نسيت كنيته، مع الاسف. كانت مهنته المدنية معلما للفيزياء، في مدرسة ثانوية مهنية.

ـ حين أصابتني الرصاصة في رأسي خفت، واني لاعترف بذلك. فقد كنت أفكر أن الاصابة ما دامت في الرأس، فقد انتهى كل شيء، انتهت محاضراتي. ـ وقال مبتسما: ـ فلن يستطيع المرء تعليم الفيزياء بدون رأس!

ـ وهل بتّ الآن في حالة نفسية أخرى؟

ـ نعم. لقد فحصت قدرتي على حل المعادلات التفاضلية السهلة. وسررت سرورا مضاعفا: أولا، لانني لا أزال أتذكر، وثانيا، لان دماغي ما يزال يشتغل.

ـ اذا، سوف تمارس التعليم؟

ـ طبعا. ممكن ان اشتغل في مجال العلم ايضا، في أحد معاهد البحث العلمي. كنت اتمنى هذا منذ وقت بعيد. وذلك، طبعا، اذا لم يتعطل هذا.

وبحذر وبشيء من الاحتراز، مس رجل المدفعية رأسه المضمدة.

... وأما الملازم الشاب كوراشوف، من سلاح الاشارة، فكان قد درس في معهد المواصلات، ثم قضى نصف عام في المدرسة العسكرية للاشارة وبعد ذلك جاء الى الجبهة. انه الآن جالس على مقعد مقدما الى أمام رجله الجريحة المجبرة. كانت تبدو اثخن بمرتين من الرجل العادية. وكان كوراشوف يتطلع الى رجله كانما هي لم تكن له، ولا هي رجل على الاطلاق، بل شيء ما غير مفهوم ثقيل الحركة، ظهر مصادفة الى جانبه، هو الشاب المعافي الزاخر بالنشاط.

طول الحرب كان كوراشوف يحمل في حقيبة ظهره دفتر علاماته في المعهد.

ـ علامات جيدة؟

ـ لا بأس بها. صحيح ان ثمة علامة واحدة سيئة. وما تمكنت من تعديلها. فقد أخذت الى الجيش. ما هي مشاريعي لمرحلة ما بعد الحرب؟ اكمال الدراسة ـ أولا!

ـ وما ثانياً؟

ـ وثانياً وثالثاً. مختلف انواع «الاكمالات». اكمال حبي لتلك التي لم أكمل حبها من جراء ضياع الوقت في الحرب مع هتلر. اكمال الحيازة على نصيبي من السعادة ـ اي أن اتزوج. اكمال ما لم أتم عمله لهذا السبب. وبصورة عامة أن أعيش بحيث آخذ من الحياة في السنة ما يعطى في عامين وزيادة.

ـ يا له من برنامج كفاحي!

ـ وكيف لا؟ فاذا ما بقيت حيا فلسوف أعمل بكل ما في طاقتي!

ـ اتمنى لك النجاح.

... كان هذا المساعد، ذو الوجه الكهل، الصارم، المكدود، مستلقيا قرب جندى يقاربه عمراً ومن أبناء بلده. كلاهما كانا من الجنوب، من اقليم ستافروبول.

ـ الربيع! عندنا يبذرون في آذار، والآن تطلع الحنطة الربيعية. طلع أخضر. اني من حيث الدراسة مهندس زراعي. الكنية ليوشنين. بعد الحرب سيكون الشعب في حاجة الى الكثير من القمح. كثير جداً! والى اللحم والى المنتجات الزراعية عموما. انك ترى ما يجري في ألمانيا. مجاعة، أيضا. وفي أوروبا. فلا بد من ملازمة الارض.

ـ هل اتفق لك أن عانيت جوعا شديدا في الحرب؟

ـ حدث ذلك ـ أجاب ليوشنين بدون تحديد ـ ولكن القضية ليست متعلقة بشخصي. ان الزراعة عموما ستكون في حاجة ماسة للملاكات من الاختصاصيين. ساعود، بالطبع، الى منطقتي. فأنا ما ولدت على الاسفلت. والارض، كما تعلم، تجذب! هو ذا ابن بلدي ـ واشار ليوشنين الى الجندي ـ انه هو أيضا مزارع من سهولنا. ينام فيرى اقليم ستافروبول في منامه.

وأجاب الجار على الفور:

ـ تمام. لكل، يا أعزائي، جهة يوليها وجهه. أما سمعت يا رفيق، متى سيبدأون بتسريح الكهول الى بيوتهم؟ فور ان نأخذ برلين؟ فلن يكون لزوم للبقاء؟

ـ لست أعرف بالضبط، ولكنى أعتقد أن الذين هم من عمركم سيسرحون الى بيوتهم بسرعة.

ـ ما أحلى أن نأسر هتلر أيضاً ـ قال الجندى هذا بلهفة ولهجة يخيل اليك معهما أن تحقيق هذه الرغبة من شأنه أن يجعله في كامل الارتياح والسعادة.

... وهذا الجريح، ذو البيجاما الرمادية السماوية، وكان صعباً تبيّن هذا اللون بين الشجيرات، كان جالساً على ضفة البحيرة يمسك عصا الصنارة، في زاوية من الحديقة بعيدة، هادئة، قليلة الناس.

كان يبدو في الثلاثين أو الخامسة والثلاثين من العمر، وربما في الاربعين. فلقد كان وجهه الشبيه بوجه طفل شائخ، ذلك الوجه البيضوي الصقيل البشرة، الممتلئ الخدين، الا أن الشيب يتوجه على الصدغين، كان من تلك الوجوه التي يصعب تحديد عمر الانسان على أساسها.

كان مصابا بجرح في يده اليسرى، فهي الآن مضمدة معلقة بزناره، أصابعها تتحرك. وكان الجريح يدخل بها الديدان، ببراعة كافية، في صنارته.

وقد انتفض انتفاضة حادة حين خشخشت الاغصان تحت جزمتي.

ـ الحظ السعيد لصنارتك. مرحبا!

ـ لقد أخفتني. اني هنا ارتاح في العزلة. ـ قال الجريح هذا وراح يتطلع اليّ بامعان.

ـ المعذرة، من فضلك. اني أنظر الى هذا المكان كم هو جميل ـ قلت له، وأنا أتأمل باعجاب مياه البحيرة الهادئة. فقد كانت اشبه بصحن ضخم صقيل ذى أطراف زرقاء مكسرة قليلاً.

فقال الجريح:

ـ أهم شيء هو أن المكان هادئ ساكن! ـ كانت كنيته إما بودتوتشينسكي واما بريدتيتشنسكي، لست أذكر بالضبط. وقد راح يفكر طويلاً، متردداً ومتباطئاً في الجواب، مع اني ما كنت قد أخرجت دفتري.

ـ وما حاجتك الى ذلك؟

ـ مجرد اهتمام. فان هذا يهمنا جميعاً: كيف سنعيش بعد الحرب؟

ـ أريد أن أعيش في غابة، كبيرة، هادئة. سأبني لنفسي بيتاً صغيراً من الخشب، بعيداً عن السكة الحديدية، بعيداً عن المدن. ربما ساتزوج، أو ادعو مع أخي الي.

ـ أكنت تشتغل حارس غابة قبل الحرب؟

ـ كلا! كنت أعمل اقتصادياً أولا في احدى المؤسسات كورسك.

ـ وفي الجيش؟

ـ ضابطا في شعبة التسليح والذخيرة.

ـ يعني أنك الآن ميال الى الطبيعة؟

ـ ليس يتعلق الامر بالطبيعة، بل بالميل الى البعد عن الناس، من أجل أن لا أسمع ضجيج الماكنات، بل صرير العربات فقط، هكذا! ومن أجل أن لا يكون في السماء غير تغريد الطيور ودندنة النحل الطنان، لا الطائرات! اني في شوق الى الهدوء والسكون، لكي يكون في كل مكان هدوء وسكون، ولا حاجة بي لاكثر من ذلك.

ـ هل انت تعب؟

طرحت هذا السؤال وقد بدأت أقلد بعض الشيء، على غير ارادة مني، لهجة الجريح.

فأجاب:

ـ وما رأيك أنت؟ كم شهدنا معك من أشياء رهيبة، وأليمة! أنا تعب، حقا. وأود الهدوء والسكينة.

ـ ولكن أما تراك ستسأم في الغابة وحيداً؟

ـ ولماذا؟ ستكون معي زوجتي وأولادي. ان أحداً بعد لم يمت من السأم. ولكن من قصف القنابل يموتون! حقاً!

كان صعباً علي دحض هذه الملاحظة. فالناس يموتون فعلاً من القنابل، وأما من السأم فهم، على كل حال، لا يموتون على الفور. وما كانت بي رغبة في معارضة الجريح. فليعش المرء في الغابة، ففي ادارة شؤون الغابات لا بد من اقتصاديين.

... فيما بعد، وأنا أراجع دفاتر ملحوظاتي في أولنغورست، لاحظت أن المحاربين الكثر الذين تحدثت معهم في المستشفى، ليس بينهم سوى شخص واحد **كان** يحلم بالعزلة، بعيداً عن الناس، وعن ضجة العالم الكبير الصاخب وغليانه. واحد فقط.

في محطة ميترو

كان المكتب الحزبي للقطعة يجتمع في محطة ميترو منتزعة من الهتلريين. وقد اعتزمت، حين علمت بهذا، أن أشق دربي الى المدخل الى الخط الحديدي القائم تحت الارض في برلين.

وقد قال لي الجندي المرافق لي ان القبول في الحزب يجري الآن في فسحة الميترو.

– ولماذا في الميترو بالذات؟

– هناك هدوء. والقنابل والقذائف وطلقات الرصاص لا تصل الى هناك. المكان ملائم. وأضاف بعد دقيقة أن المشتركين في اقتحام محطة الميترو من جنود وضباط قد قدموا طلبات الانتساب بعد المعركة التي دارت للاستيلاء على هذه المحطة. وختم كلامه قائلاً:

– وهكذا بحيث يتم البحث فيهم – في الوسع القول – في مكان الحادث.

ماكان في وسعي، بدون الدليل، ومهما جهدت، أن أجد مدخل الميترو، الذي لا يكاد يلحظ من بعد، وقد تراكمت عليه الحجارة وشلل الاسلاك الشائكة، و«القنافذ» المضادة للدبابات، وهي قطع من الحديد متصالبة متلاحمة.

وراح دليلي ينزل على درجات السلم، حاملاً بندقيته الاوتوماتيكية استعداداً لكل طارئ، وأنا أسير من خلفه، الى ان اصطدمنا بجثة جندي هتلري طريحة مبسوطة الساعدين كأنما هو يحاول بهما سد ممر الميترو الضيق.

فازحنا معاً الجثة جانباً، وتمتم دليلي قائلاً شيئاً ما بصدد اهمال «فرقة الدفن»، العاجزة عن رفع الجثث من شوارع برلين.

اذا قلت ان ميترو برلين قد بدا لي مبنى متواضعاً في تجهيزاته، فانما أكون قد استعملت تعبيراً لطيفاً. كلا، لقد كان يبدو كالحاً

جداً تفوح فيه روائح حبيسة من الرطوبة، والصدأ، والاسمنت المبلل، وروائح الحريق والدخان التي لم تنطلق من هنا بعد المعارك.

وبدا السلم النازل قصيراً. فسرعان ما وصلت الى الارض الرمادية لرصيف المحطة، الذي كانت الخطوط قائمة على جانبيه. وكانت تخيم فوق الرأس قبة واطئة نسبياً. وكانت هذه محطة غير عميقة.

كان الرصيف اذ ذاك معتماً بعض الشيء. فالنور في النهار يتسرب الى هنا من جهة سلم المدخل. وكانت ما تزال في السقف ثغرة فاغرة، احدثتها قنبلة، يتسرب من خلالها النور أيضاً.

كانت تقف على الخط الى اليسار عربة ميترو للركاب، ادخلت فيها طاولة صغيرة لامين السر. وكان أعضاء المكتب الباقون جالسين على مقاعد مستطيلة من جهة، ومن جهة أخرى كان يجلس المدعوون للقبول، متراصين، ممسكين ببنادقهم الاوتوماتيكية بين أرجلهم.

كانت العربة مضاءة بمصابيح كهربائية منقولة، فكانت تبدو، حقاً، كأنما هي موشكة على التحرك من مكانها والتدحرج على الخط في عتمة أعماق النفق المرعبة، الى قلب برلين.

كان أمين سر مكتب الحزب، وهو رائد كهل، يسند خده على راحة يده ممسداً بأصابعه بعض الشيء فوده الذي وخطه الشيب، مصغياً الى رقيب يتحدث عن سيرة حياته. ولقد كانت غير معقدة.

كان غينادي باجوكوف قد انهى في بيرم مدرسة السنوات السبع، ثم ذهب للعمل في المصنع الميكانيكي، وأما في المساء فكان يدرس بالمراسلة في مدرسة ثانوية مهنية. كان يريد أن يصبح،

مع مرور الزمن، مهندساً في الطيران. وفي العشرين من حزيران (يونيو) قدم الامتحانات النهائية، وفي الثاني والعشرين منه بدأت الحرب، فدعي غينادي الى الجيش.

وبعد ذلك في فوج التدريب، ففي التشكيلة، ففي الجبهة، ففي المستشفى، ثم في التشكيلة من جديد، ففي الجبهة من جديد، وهكذا عدة مرات.

والآن يفرك الرقيب جبينه الناتئ فركاً شديداً، محاولاً تذكر وقائع بارزة أخرى من سيرة حياته، الا أنه على ما يبدو لم يتذكر شيئاً.

ــ كل شيء عادي، أيها الرفيق الرائد! سيرة حياتي لم يدركها النماء بعد. لقد وضعت الاساس وحسب، كما يقال.

ــ أنت أورالي؟

ــ تمام ــ قال باجوكوف منتعشاً، ناطقاً هذه الكلمة بلهجة من اكتشف في سيرة حياته مأثرة أخرى من مآثره: انه أورالي!

وسأل الرائد الصارم:

ــ أذكر، كيف اشتركت في المعارك الاخيرة؟

كانت المعركة الاخيرة بالنسبة لباجوكوف، المعركة التي دارت رحاها في سبيل الاستيلاء على هذه المحطة. وقبل أن يبدأ بالكلام، راح ينظر الى رصيف المحطة، والى جدران الفسحة، وقد غطيت بآثار الرصاص وشظايا القنابل. ثم قال وهو ينظر الى العتمة كانما كان بوسعه أن يتميز الآن أيضاً الجنود الهتلريين:

ــ كان رماة «فاوستباترون» يقبعون هنا، أيها الرفيق الرائد. وأما في النفق فقد كان يرصد حملة البنادق الاوتوماتيكية. وكنا نحن

من جهة النور، وكانوا هم قد اعتادوا الظلام، أيها الرفيق الرائد. وعليه، فنحن نراهم رؤية سيئة، وهم يروننا رؤية حسنة.

فقال الرائد، مصححاً، للرقيب الذي كان يتطلع الى وجهه:

ـ لا تتحدث لي وحدي، بل للجميع.

ـ حاضر!

وتراجع باجوكوف قليلاً الى وراء لكي يرى جميع أعضاء مكتب الحزب. ثم أكمل فكرته قائلاً:

ـ ولهذا السبب بالطبع وقعت خسائر من جانبنا.

وقد لاحظت أن جميع الجالسين في تلك العربة، المشتركين في المعركة من أجل المحطة كانوا اذ ذاك يصغون الى الرقيب بانتباه شديد، انتباه أناس عارفين بشيء خارق للعادة وهام جداً. وشيئاً فشيئاً كانت تشتعل في عيون السامعين شرارات بهيجة من الانفعال. فقد كان كل منهم، بالطبع، يستعيد ذكرياته في ذهنه ويعيش من جديد المعركة التي انتهت للتو.

وراح باجوكوف يتحدث بصوت أعلى وأسرع وأنشط، مستعجلاً في بعض الاحيان، وبالعاً نهاية الكلمات.

ـ كان الالمان يطلقون النار بشدة! وكنا نحن نزحف زحفاً والمكان مستوى السطح لا مجال فيه للاختفاء. كان رشاشنا يطلق نيرانه من جادة الطريق عبر الثغرة العلوية الناتجة من قنبلة. وطلبنا من رجال المدفعية أن ينزلوا مدفعهم من عيار ستة وسبعين الى الميترو. فأنزلوه على الدرج، وأما هم فكانوا يتوارون خلف حاضن المدفع. ومع ذلك فقد كانوا ينزلونه على أيديهم.

فهز الرائد رأسه موافقاً وقال:

ـ مفهوم. هو ذا!

فكيف لم الاحظ على الفور وجود المدفع في فسحة محطة الميترو! صحيح أن الظلام كان مخيماً هناك، والمدفع قائم لا على الرصيف، بل تحت، على السكة الحديدية مباشرة. وانه لمدهش كيف استطاع جنودنا انزاله الى الميترو على أيديهم تحت نيران الرشاشات!

ـ ايوه، يعني ضربوا النار منه مرة، ثم مرة أخرى. رأساً الى النفق. ويا له من ضجيج راح يدّوي هناك! فكأن الميترو كله قد تهدم. وبعد ذلك انقضضنا نهاجم...

واستمر الرقيب يروي كيف زحف على السكة مع بندقيته الاتوماتيكية، وكيف واصل الزحف في عتمة النفق، وهناك كان يتقدم خطوة خطوة وهو يطلق النار.

وخرجت من العربة لامر على الرصيف الى رأس النفق. لقد كان الهتلريون يستخدمون أنفاق الميترو هذه ببراعة وفي وجوه عديدة. فعن طريقها كانوا يقذفون بالامدادات الجديدة من الافراد الى القطاعات المطوقة، وكانوا يقيمون في المحطات مراكز استناد قوية.

وعبر الانفاق كانت القطعات الالمانية تخرج من الطوق المحيط بها، وعن طريقها كانوا يحملون الجرحى ويجلبون الذخائر. اما حين نزل المحاربون السوفييتيون الى تحت الارض، فقد هبطوا الى الانفاق المضاءة بالبروجيكتورات ووقعوا تحت نيران الرشاشات المتقاطعة.

ففي سبيل كل محطة، وفي سبيل كل نفق، كان لا بد من خوض معركة ضارية عنيدة دامية.

وعدت الى العربة المضاءة. وكان الرقيب باجوكوف ما يزال يفرك جبينه البارز براحة يده، ويرد على الاسئلة. كان يتحدث عن النظام الداخلي للحزب.

لست أدري اذا كان الرائد قد سجل في المحضر المكان الذي كان يعقد فيه الاجتماع. فيا حبذا لو أن هتلر، الجالس قريباً في سرداب دار المستشارية، قد عرف بأن ثمة قبولاً في الحزب الشيوعي يجرى في ميترو برلين! أغلب الظن، أن مجرد التفكير بهذا كان يمكن أن يفقده صوابه!

وهل ترى كان اعضاء مكتب الحزب والمقبولون في الحزب يشعرون بكل ما كانت تتسم به تلك الدقائق وما كان يتسم به ذلك الاجتماع من سمات خارقة للعادة واصالة تاريخية؟

أغلب الظن انهم كانوا يشعرون بذلك، الا أنهم ما كانوا يتكلمون عن هذا، بل يصغون الى الرقيب بانتباه فقط ويتحدثون فيما بينهم بما يشبه الهمس عن أمور القتال الحيوية المختلفة.

... وكان اجتماع المكتب الحزبي للقطعة في محطة ميترو برلين ما يزال مستمراً...

الايام الاخيرة

كان مقر اركان فيلق الجنرال ش. قائماً في شارع لاغنشتراسي، قريباً من نهر شبري، ووراء منعطف أندرياسبلاتس، وعلى مقربة من هناك كانت محطة سيليزيا. انه حي

مركزي من أحياء برلين، ومن هناك كانت ترى قبة الريخستاغ الضخمة كأنها سرادق وقد بدت الثغرات التي أحدثتها القذائف على حديد سقفها.

يبدو أن هذه القبة ثقيلة، جد ثقيلة. كانت تنيخ بكلكلها على أعمدة عالية ثخينة، مبقعة بثقوب من الرصاصات وشظايا قنابل الهاون والقذائف، الا أنه كان يبدو من بعد أن هذه القبة نفسها تزعزع بضخامتها أقدام الاعمدة الموشكة على الانهيار فوق الارض.

المدخل الى مقر أركان الفيلق على الشارع رأساً من نافذة طابق نصف أرضي علقت عليها بمسمار واحد لافتة عليها هذه الكتابة: «ايلزا توسكا – بضائع من المستعمرات»، كما وضعت ممسحة لكي لا تدخل شظايا الزجاج المحطم في أحذية عابري النافذة.

وضعنا اجهزتنا في غرفة صغيرة سليمة، وأقمنا الميكروفون على طاولة صغيرة ذات ثلاث قوائم، نصف محترقة. وجلس خلف الطاولة الجنرال ماجور قائد الفيلق. وكان يبدو أن لو نهض الجنرال فجأة، لهدم بكتفيه السقف الواطئ.

فالجنرال طويل القامة، جبار البنية، له يدان ضخمتان عليهما عقد من الاوردة.

قبل مجيء الجنرال الى الغرفة، كان مرافقه يروي لي أن قنبلة انفجرت ذات مرة في البيت الذي كانت تشغله أركان الفيلق. فانهارت ألواح الارضية، وتدهور جميع الموجودين في الغرف الى مكان ما في الاسفل، يحيط بهم الدخان. وكان الجنرال أول من نهض يمشي متأنياً مطمئناً.

وقال المرافق هكذا بالضبط: «ينهض وينفض عن كتفيه العوارض الخشبية!».

والجنرال، على حد قول المرافق، يتميز في فيلقه، الذى يضم غير القليل من أبطال الاتحاد السوفييتي، ببسالة خاصة ورباطة جأش كبرى في القتال.

وحين دخل الجنرال تلك الغرفة الصغيرة التي هي كما بدا لنا أكثر الغرف هدوءاً، والمخصصة للتسجيل، راح يتطلع بفضول الى الميكروفون. ولقد رجوت قائد الفيلق أن يتحدث في البداية باقتضاب عن الوضع في المدينة وفي المواقع الامامية للمعركة.

ــ وهل هذا للتسجيل؟

ــ الآن لا، لنا فقط من أجل أخذ فكرة عن الموقف.

ــ ايوه، هذا أيسر، فما أنا بمحرر. وفي وسعي التعبير بصورة خشنة، كجندي. أما أحداث الايام الاخيرة فجد مفرحة ــ قال الجنرال ــ سمعنا يوم أمس من الراديو نبأ يقول ان هملر قد توجه الى قيادة الحلفاء عارضاً ان تستسلم ألمانيا للولايات المتحدة وانكلترا، لا للاتحاد السوفييتي. يا للنذل! انهم على وشك أن يفطسوا جميعاً، ومع ذلك فانهم يحاولون، هؤلاء القرود الفاشست، أن يثيروا الشقاق بين الحلفاء ودق أسفين بيننا. ولكن لن تكون لذلك أية نتيجة. ان هذا الاستسلام مرفوض.

وقلت في نفسي: «قال الجنرال: يوم أمس، أي في التاسع والعشرين من نيسان (أبريل)».

ان لدينا جهاز استقبال ايضاً في سيارتنا. ولكننا لم نسمع هذا النبأ.

ولقد انطلقت مني هذه العبارة عفواً:

ـ لقد باتت الامور الآن تجري بكل سرعة. فيا لهذه الايام التي نعيشها!

ـ وثمة أيضا هذا الخبر: يوم أمس أيضاً قام الهتلريون بهجوم معاكس في منطقة بوتسدام بقوات الجيش الثاني عشر الذي يقوده الجنرال فينك. انها التشنجات الاخيرة لهتلر. وهاك فأنظر جريدتهم التافهة! ـ وعرض علي الجنرال أحد الاعداد الاخيرة من «فولكيشر بيوباختر» ولعله آخر عدد على الاطلاق، وقد بسطه على الطاولة. على الصفحة الاولى بكاملها كان يتبختر عنوان يبدو أنه قد طبع بأضخم حروف وجدت في المطبعة:

«مقاومة برلين البطولية لا مثيل لها. بهذا تعترف موسكو ولندن ونيويورك!».

لقد ظل الفوهرر المخبول حتى لحظاته الاخيرة لا يتخلى عن التبجح والاكاذيب الصارخة، مواصلاً خداع جنوده والبقية الباقية من أنصاره.

وفيما كنا نقرأ الجريدة، جاء المرافق، وكان قد بارح الغرفة، بنبأ جديد: الغي في موسكو نظام التعتيم، وسمح بالاضاءة الطبيعية للشوارع والمساكن.

ـ في موسكو يشتعل النور ـ نطق الجنرال بهذا كأنما كان ينتظر ذلك اليوم بالذات.

وفي برلين ما يزال نظام التعتيم قائماً، وان لم يكن على كثير من الشدة. ففي منطقة القتال غالباً ما كان وهج الحرائق المتواصلة يحيل الليل الى نهار.

ولقد رجوت الجنرال ان يتحدث عن عشية عيد أول ايار (مايو) في برلين.

فسألني قائلاً:

– والى أين سترسل الاسطوانة؟

– الى موسكو، ومن هناك سيذاع التسجيل على البلاد بأسرها.

وقلت ان من الممكن، بالاضافة الى هذا، اعداد رسالة مسجلة وارسالها الى مدينة غوركي، موطن الجنرال. وهناك تألفت أيضاً أفواج هذا الفيلق.

– شيء حلو! – قال الجنرال. وقبل أن يجلس أمام الميكروفون قدم لي صورة أمه، والتمس ارسال الاسطوانة لها.

كانت تنظر الي من الصورة اللماعة المدعوكة في الجيب عينان ذكيتان يخيل للمرء كأنهما تشملان الجميع برحمتهما على عادة العجائز، تحيط بهما تجاعيد كخيوط العنكبوت، وجفنان منتفخان بعض الشيء ربما من جراء الارق. كانت أم الجنرال تبدو عجوزاً قصيرة القامة، عليها ملامح طفل محنى الظهر، على رأسها منديل أسود أملس، وعلى صدرها طوق أبيض مخرّم.

كان يصعب على المرء أن يتصور انها هي بالذات قد ولدت مثل هذا العملاق. وقد كتب على زاوية الصورة بخط دقيق: «بحق الله، حافظ على نفسك. ماما». وكان الجنرال طول الوقت دائباً على تغطية هذه العبارة باصبعه.

وبدأنا التسجيل.

وبدأ الجنرال الكلام منحنياً نحو الميكروفون وممسكا أياه بأصابعه من قاعدته لكي لا يهبط على الارض بفعل موجة من موجات الانفجار. فقال:

ـ أيها الرفاق الاعزاء أبناء بلدي. أود أن أهنئ الجميع بالعيد من هنا، من برلين، حيث نجهز على ألمانيا الهتلرية. فبأي شيء نستقبل عيدنا؟ بتشديد الضغط على العدو في الاحياء التي يواصل فيها الصمود...

وفيما كان الجنرال يتكلم كنت أتذكر ما هي حال هذه الاحياء ذاتها، القريبة من المواقع الامامية للمعركة.

في نقطة من نقاط تقاطع الشوارع، حيث توقفت سيارتنا، عرض علينا، فجأة، عجوز ألماني كل ثيابه سود، كأنما هو معتزم الانضمام الى موكب جنازة، ـ عرض علينا أن نشتري منه دليلاً لبرلين. وعلى نحو متردد، طلب ماركا ثمناً له. وهيهات أن يستطيع أحد الافادة من دليل في مدينة مدمرة انمحت أحياء منها بكاملها من جراء ضربات القنابل أضف الى ذلك أن المارك يعيش ساعاته الاخيرة.

أغلب الظن أن العجوز كان مقدراً لهذا. ومع ذلك فقد كان يبيع دليلاً يحكي عن برلين كيف كانت قبل بداية الحرب التي اشعلها هتلر. وقد اشترينا الدليل ولكن لا بمارك الريخ، بل بمارك احتلال سوفييتي، من الماركات التي كانت القيادة السوفييتية قد شرعت في اصدارها.

وهنا، في قلب المدينة، اخرجت الدليل مراراً محاولا الاسترشاد في تيه الشوارع والبيوت والجسور المهدمة. ولكن عبثاً. ففي بعض

الشوارع التي كان الميترو يمر من تحتها انهارت الجادات كلها، فلم يبق غير نتف من الارصفة ناتئة لصق البيوت. وكثير من الازقة انمحت على الاطلاق وانقبرت تحت ردم عمارات ضخمة. وكثير من الشوارع العريضة سدتها حواجز من الحجارة والباطون ما كان يمكن ان تتخطاها لا السيارات ولا الدبابات.

وعلى مقربة من مقر أركان الفيلق كان الشارع كله محجوزاً بالمدافع السيارة والدبابات السوفييتية المستعدة للاقتحام. وكان في وسع المرء أن يرى في شوارع برلين، الى جانب الدبابات والمدافع السيارة، سائقي العربات البواسل أيضاً. فقد كانت العربات تقترب ببسالة الى المواقع الامامية بالذات، ناقلة المواد الغذائية والعلف. وقد كانت رائحة الحشيش اليابس الملوّح بالشمس، كأنما هي رائحة السهول الروسية، وصهيل الخيول الهادئ، وصيحات الحوذيين التي كانت تسمع في الفترات ما بين انفجارت القذائف وقنابل الهاون ـ كان هذا كله، ممتزجا بضجيج القتال البعيد والقريب ،يؤلف صورة مدهشة في تعدد ألوانها واصالتها وندرتها.

... كان الجنرال يقرأ كلمته أمام الميكروفون. ومع أننا كنا أربعة فقط جالسين في غرفة صغيرة ضيقة، لا يرانا ولا يسمعنا أحد، فقد كان صوت الجنرال ينتفض، فيبح من جراء التوتر غير المألوف.

وفي ختام كلمته، وفيما هو يرسل الى ابناء بلده تحيات من رجال الحرس، توقف الجنرال لحظات وراح يفكر. ثم قال بعد وقفة، وهو في أغلب الظن يوجه في أفكاره هذه الكلمات الى أقاربه:

ـ الا فاعلموا أيها الرفاق أن كل شيء عندنا هنا على ما

يرام. كل شيء عندنا على ما يرام! ـ كرر الجنرال هذه العبارة الشائعة المألوفة لدى رجال الجبهة وتوقف فجأة....

وفي مكان ما، ما يزال بعيداً، تعالى صغير مألوف صادر عن قذيفة منطلقة. وكان الحدس لدى رجال الجبهة يقدر ان هذه القذيفة ستسقط في منطقة مقر أركان الفيلق.

حدث هذا كله في لحظة واحدة. فحاول الجنرال أن يسد الميكروفون براحتي يديه كأنما كان يمكن لذلك ان يخفف من صوت الانفجار. ودفعت موجة الهواء الحارة في الغرفة اطار النافذة. وما استطاعت راحتا الجنرال، بالطبع، ان تقدما العون، فتسجلت في نهاية كلمته على الاسطوانة ضجة تصم الآذان، ورنين تحطم الزجاج، وصيحات الجرحى المدوية. وتعطلت الاسطوانة.

ـ ايوه، لقد اتلفوا واحدة ـ لاحظ الجنرال بهدوء، وهو ينهض عن الكرسي لينفض عن كتفيه نثار الجص الهابط من السقف. ثم راح ينظر من النافذة، غاضباً، الى باحة الدار، حيث كانت ما تزال تتساقط الحجارة التي تطايرت بفعل الانفجار. ولقد بدا لي أن الجنرال شديد اللهفة الآن لان يصيح بالهتلريين غير المرئيين الذين يشوشون الآن على قضية حساسة كالتسجيل على اسطوانة.

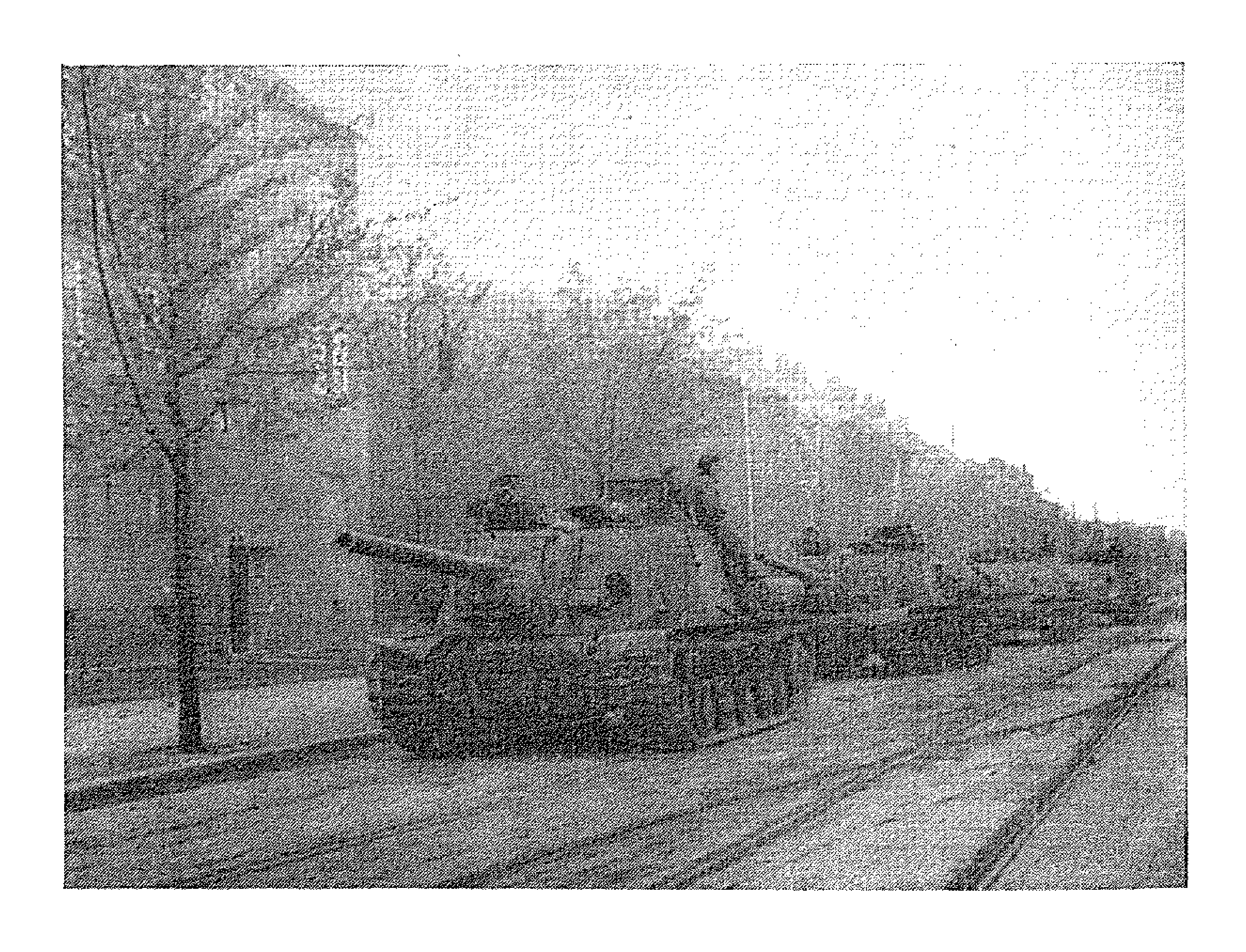
وفيما كنا نضبط الجهاز، كان الجنرال مسترخياً في صمت على مسند الكرسي، مغمضاً جفنيه في اعياء. وكانت أصابعه المستندة الى طرف الطاولة تهبط وترتفع في بطء. فلعل قائد الفيلق، في فترة التوقف القصيرة هذه من معمعان المعركة، كان يفكر بأمه العجوز وبالدروب التي اجتازها، وبما عاناه، وبكل ما لا يمكن للمرء أن يقوله أمام الميكروفون بأية كلمات.

فقلت له:

– ينبغي بدء كل شيء من البداية.

فقال الجنرال: «نعم، نعم!» كأنما هو قد استيقظ من نوم، ومن جديد أمسك الميكروفون باصابعه من قاعدته، وهو ينظر صوب النافذة بطرف عينه نظرة مغضبة. وراح اذ ذاك يتكلم بهدوء، لا بتلك اللهجة الجافة، لهجة القائد، كما في المرة الاولى، بل بلهجة أكثر دفئاً. ولقد كان يبتسم لي بعينيه فقط، كأنما هو يقول: «هاك أنظر، كل شيء سينتهي نهاية حسنة».

... وفي هذه المرة لم نسمع حتى الصفير المنذر. وقد بدا أول الامر ان ثمة من يهز البيت بقوة جبارة، كما تهز علبة كبريت،



المدافع السيارة السوفييتية في شوارع برلين.

كأنما يختبر هل في داخله شيء، ويتسمع الى الرنين، ثم يهز مرة أخرى.

وسقط الميكروفون مع الطاولة على ركبة الجنرال. واقتحم النافذة المفتوحة تيار من الهواء والدخان الخانق والحريق و ... عبير غير متوقع من زهر الزيزفون. لعل ثمة، في مكان ما قريب، حديقة صغيرة سليمة، قد أزهرت فيها الاشجار.

وكأنما أصبحت غرفتنا الضيقة أوسع من ذي قبل. وقال الجنرال وهو يتنفس بعمق:

ـ تفوح رائحة زيزفون. وقليل من رائحة العشب اليابس، على ما يبدو لي. ففي مكان قريب عربات نقل. وعندي في مدينة غوركي أشجار زيزفون في الحديقة الصغيرة!

وهنا راح قائد الفيلق، وكأنما هو قد نسي القصف، يتحدث عن المدينة التي هي مسقط رأسه، وعن الفولغا، وعن بيته الصغير على جرف الفولغا الشديد الانحدار.

ـ ويا لغروب الشمس عندنا على الفولغا، يا له! نصف السماء يزدهر. اما الالوان فلا تجد لها كلمات تعبر عنها. تذهب الى الشاطئ فتشعر كأنما قد ركبت لك أجنحة، وكأنما أنت طير تحلق فوق النهر! وقد افتتحت الملاحة الآن عندنا. وراحت السفن البخارية الصغيرة تجري على الفولغا الأم!

وفجأة قال دون ان يغير لهجته الحالمة:

ـ ايوه ضعوا اسطوانة اخرى، وللقرد. فيجب أن ننتهي.

وجاء المرافق، فتردد طويلاً عند الباب، عارضاً للجنرال أوراقاً ما، دون ان يتكلم. ولكن هذا لم يكن ينظر اليه.

ومن جديد بدأ الجنرال من ذلك المكان الذي قطعه فيه عن الكلام ضجيج القذيفة المنفجرة:

ـ كل شيء عندنا على ما يرام. أقدم التهانئ بعيد أول أيار!

كانت أصابع الجنرال، الممسكة بالميكروفون، متقبضة من التوتر. وكان مقبلاً بكل صدره على الطاولة، كأنما كان يود في هذه المرة أن «يدفع» في الميكروفون، بدون أية تشويشات، كلمات بهيجة عن النصر.

وأخيراً، وبعد المحاولة الرابعة، توصلنا الى التسجيل حتى النهاية. وخرج الجنرال من مقر الاركان، وجلس في سيارته الجيب. وراحت السيارة تتجرجر في الشارع المملوء بحطام الحجارة والحديد. ونهض الجنرال عن المقعد وراح يلوح بيده مودعاً. وصاح من خلال ضجة المحرك:

ـ أعدوا لي اسطوانة. للذكرى... للعجوز! سأبحث عنكم بعد نهاية الحرب!

اقتحام «القلعة»

كان الجنرالات الهتلريون، اذ أعدوا المدينة للدفاع، قد قسموها الى تسعة أقسام عسكرية ـ هي قطاعات دفاعية. وكان القطاع التاسع الاخير، وهو يضم المؤسسات الحكومية الرئيسية وحي حديقة تيرغارتن، يسمى بـ «القلعة»، الامر الذي كان ينبغي أن يدل بحد ذاته على مناعته.

«القلعة»! لقد كان المحاربون يطلقون على هذه المنطقة اسماً آخر هو: «وجار الوحش الفاشستي»! والاستيلاء على «القلعة» كان يعني

الاجهاز على هذا الوحش في وجاره. وكان الريخستاغ قائماً في قلب القطاع. ولكن هذه البناية لم تكن، بالطبع، مجرد مركز استناد للعدو، بل رمزاً لانهيار الدولة الهتلرية، رمزاً لنهاية الحرب نهاية مظفرة.

كان الحظ العسكري في بدء الاقتحام التاريخي للريخستاغ قد وقع على كاهل ثلاث كتائب من المشاة. اثنتان منها — وهما كتيبتا النقيبين ستيبان نيئوسترويف وفاسيلي دافيدوف — كانتا تابعتين لفرقة ادريتسك المئة والخمسين، الحاملة وسام كوتوزوف من الدرجة الثانية، وأما الثالثة فهي كتيبة الملازم الاول قسطنطين سمسونوف، التابعة لفرقة المشاة المئة والاحدى والسبعين. وكانت الفرقتان معاً من فيلق الجنرال ماجور بيريفيرتكين، واما الفيلق فكان تابعاً لجيش الهجوم الثالث بقيادة الجنرال — الكولونيل كوزنتسوف الذي كانت قطعاته أول من شق الطريق الى ضواحي برلين من الشمال الشرقي.

والقارئ يدرك، بالطبع، أن الحديث عن تفاصيل هذه المعركة وحدها وعن جميع المشتركين فيها من شأنه أن يتطلب كتاباً على حدة *. واني لاقتصر هنا على بعض الاحداث التي شهدتها بنفسي جزئياً، وهي أحداث ذات صلة باعمال كتيبة نيئوسترويف.

حوالى منتصف نهار الثامن والعشرين من نيسان (أبريل) وصلت هذه الكتيبة الى نهر شبري. وفي هذا الوقت أيضاً وصل الى قائد الفوج العقيد زينتشينكو العلم الاحمر، أحد الاعلام التسعة للمجلس الحربي للجيش، التي أعدت خصيصاً لرفعها فوق قبة الريخستاغ.

* بعد الحرب مباشرة صدر كتاب يتضمن ذكريات موجزة للمشتركين في الاستيلاء على الريخستاغ. وعنوانه: «اقتحام الريخستاغ».



الهدف هو الريخستاغ!

كان من الصعب قبل ذلك تحديد الفوج الذي سيكون الاول في بلوغ الريخستاغ، ولذلك فان جميع الاعلام قد وجهت الى مختلف قطعات الجيش.

وحين تلقى زينتشينكو العلم أبلغ بذلك قادة كتائبه جميعاً، ومن جملتهم النقيب ابن الثالثة والعشرين ستيبان اندرييفيتش نيئوستورويف، المولود في مدينة بيروزوفسلك، غير المديد القامة الا انه ضابط متين البنيان، مدور الوجه، جميل خطوط الفم، ذو عينين رماديتين ثابتتي النظرة.

وراح نيئوستورويف يستطلع المكان مستعرضاً اياه. فكان يرى أمامه، على أقل تقدير، ثلاثة مراكز استناد للعدو، تعرقل تقدمه الى الريخستاغ. وكانت هذه المراكز الثلاثة: نهر شبري، و«دار هملر»، وساحة كينيغسبلاتس. فقال لنائبه في القسم السياسي الملازم بيريست:

ـ هي ذي ثلاث «جوزات» أيه، انها، على ما أشعر، لصلبة!

فوضع بيريست المنظار على عينيه. وهو ضابط شاب، ذو بنية رياضية جميلة، مرح وهادئ. وتطلع ثم قال:

ـ سنكسرها باسناننا، يا أندريتش! وقد نكون أول من يشق الطريق الى الريخستاغ. وفي اعتقادي أن ذلك مكافأة على الحرب كلها!

ـ لا بأس، هنالك سيرى الامر. ولنبدأ الآن حسب الترتيب. ان أمامنا نهر شبري! ـ قال قائد الكتيبة منهياً الحديث.

كانت ضفاف شبري، المار من قلب برلين مباشرة، المغطاة بالغرانيت، تتعرض لنيران كثيفة متشابكة من الرشاشات والمدافع. وكان نيئوستورويف يرى امامه جسراً على النهر يحمل اسم مولتكه.

وكانت المسالك اليه مسدودة بالمتاريس والاسلاك الشائكة، ومزروعة بالالغام .

وبعد قليل عمد الالمان أنفسهم الى نسف جسر مولتكه، ولكن التوفيق لم يحالفهم: فقط ظل القسم الاوسط منه معلقاً فوق الماء. وقد قرر نيئوسترويف الافادة من هذا.

كان يعلم أن القطعات السوفييتية كانت تستعد لعبور شبري منذ أن كانت على الاودر، حين جمعت القوارب المغتنمة، فاعدت جسوراً عائمة متنقلة وعبّارات خاصة. وحين كانت القوات قد تقدمت الى شبري على جبهة عريضة، حدد قطاع عبور رئيسي في منطقة تريبتوف ــ بارك، حيث يبلغ عرض النهر مئتي متر.

وعلى نهر شبري أقيمت معدّيات للدبابات، وعلى الماء تحت النار طافت قوارب منفوخة، وزوارق بخارية وزوارق نصف مروحية للاسطول النهري. ولكن هذا كله كان فيما بعد. اما في الساعات الاولى، فقد كان جنود نيئوسترويف يعبرون نهر شبري عن طريق الخيط الفولاذي الباقي من الجسر المخرب الذي كان يمكن أن ينهار الى الماء من جراء الانفجارات.

وكان اول من عبر النهر الى الشاطئ الآخر فصيلة العريف بيتر بياتنتسكي، ومن ورائه فصيلة الرقيب بيتر شيربينا، وبعد ذلك كل سرية الرقيب الاول ايليا سيانوف.

لم يكن قد بقي بينهم وبين الريخستاغ أكثر من خمسمئة متر. ولكن يا لها من أمتار!..

انتصبت أمامهم، بناية ضخمة قاتمة، سادة الطريق، محصنة بمتاريس من التراب بالقرب من الطوابق السفلى سمك جدرانها

متران، لها أبواب ونوافذ مسدودة بالآجر، وليس في ثغرات النوافذ الا فتحات وثلمات لاطلاق النار. وكانت هذه «دار هملر».

صباح التاسع والعشرين من نيسان (أبريل) بدأ الهجوم على عمارة وزارة الداخلية بقصف من المدفعية.

وبعد ذلك راحت مفارز الانقضاض من كتيبة نيئوسترويف تزحف خطوة خطوة نحو البناية. وحوالى منتصف النهار كانت قد استولت على القسم الركني من البناية المطل على شليفينوفر، واقتحمت الفناء. وبدأ القتال على كل غرفة، طويلاً، عنيداً، عنيفاً!

أبلغ رجال الاسعاف نيئوسترويف أن ليس في الكتيبة مصابون بجراح خطيرة. فأثار ذلك الدهشة لدى قائد الكتيبة. لماذا لا يوجد في «دار هملر» غير القتلى او المصابين بجراح خفيفة من محاربينا الذين يواصلون القتال؟ وما عرف قائد الكتيبة الا فيما بعد أن الجنود، حتى المصابين منهم بجراح خطيرة، كانوا يظلون يحملون السلاح في أيديهم اللهم اذا ما بقيت لديهم قوى.

وراحت بناية الوزارة تحترق. وكان الدخان الكثيف يخنق الانفاس، ويعمي العيون، ويعيق التقدم! وطول نهار التاسع والعشرين من نيسان وليلة الثلاثين ظلت كتيبتا نيئوسترويف ودافيدوف تخوضان القتال من جهتين مختلفتين في سبيل الاستيلاء على بناية واحدة فقط. وما تم الاستيلاء على «دار هملر» الا في الساعة الرابعة للثلاثين من نيسان (ابريل).

واستقر نيئوسترويف في الطابق الادنى من البناية، في غرفة تطل نوافذها على كيونيغسبلاتس. وقد كانت هذه الساحة مغطاة كلها بالخنادق طولا وعرضاً. وعلى مدى رؤية قائد الكتيبة من

مركز قيادته، كانت تنتصب أمامه قرب البناية ذاتها تلال معتمة ــ هي استحكامات العدو الخرسانية.

عقد نارية منفردة، مجهزة بالرشاشات، وعلى ذلك فهي مرتبطة فيما بينها بخنادق الاتصال. وقد كانت الساحة محصنة تحصيناً قوياً للدفاع.

ودعا نيئوسترويف الى مركز قيادته قائد السرية الرقيب الاول سيانوف. كان يحترم هذا القائد المحنك الذي تخطى سن الشباب. كل شيء لدى سيانوف كان ضخماً: وجهه، يداه، ووجنتاه الثقيلتان بعض الشيء، وجبينه العريض. كانت ملامحه تنم عن القوة. وسأل نيئوسترويف:

ــ أترى جيداً هذه الدار، يا ايليا ياكوفليفيتش؟

فاجاب سيانوف مبتسماً في سخرية:

ــ اهي دار هتلر؟

ــ يمكن اعتبارها هكذا، وان يكن هتلر قابعاً الآن في دار أخرى.

فقال سيانوف مصححاً:

ــ يعني الريخستاغ!

وهنا قال نيئوسترويف:

ــ اني اكلفك بمهمة: ان تشق الطريق اليه. سريتك ستقتحم في المقدمة. أتشعر بجسامة هذه المهمة؟

فاجاب سيانوف بهدوء:

ــ سيتم انجازها، ايها الرفيق النقيب.

ــ لا، لا تستعجل يا ايليا ياكوفليفيتش، واستمع الى الموقف.

الحامية هناك قرابة ألف وخمسمائة والكثير من رماة «فاوستباترون».
وأنت نفسك ترى اية نار يطلقون ــ من مدافع الهاون، ومن المدفعية. والريخستاغ على العموم مدوّر، ملائم جداً للدفاع من جميع الجهات. فلا تغامر بالرجال عبثاً!

ومن جديد كرر سيانوف جوابه بصرامة:

ــ سيتم انجازها.

وبعد قليل بدأت سرية سيانوف تنتشر تدريجياً من «دار هملر» على ساحة كيونغسبلاتس. وراحت مفارز الانقضاض تجهد للتقدم خلف الحاجز الناري الزاحف المكون من انفجارات القذائف. الا أنها، بعد أن تقدمت مئة متر تحت ستار من نيران بطاريات مدفعيتنا، كانت مضطرة للانبطاح قرب خندق مملوء بالماء. وكان هذا قسماً من خط للميترو مبني فوق الارض.

وفي ذلك الوقت، وصلت الى نيئوسترويف في «دار هملر» مفرزة من رجال الاستكشاف التابعين للفوج. وكان قد بعث بهم العقيد زينتشينكو. وقد أتى اثنان من رجال الاستكشاف المدربين، شابان قويا البنية، هما الرقيب ايغوروف والعريف كانتاريا حاملين علم المجلس الحربي للجيش.

وراح نيئوسترويف يتأمل الكشافين الباسلين بارتياح.

ــ حاملا العلم؟

فاجاب ايغوروف:

ــ بالضبط، سنرفع حسب الامر راية النصر.

ــ ستصلان الى سرية سيانوف، فابلغاه امري بان يدعمكما جيداً بالنار حينما ستذهبان بالعلم. لا تتقدما على السرية والا فستقتلا.

ــ ابدا، ايها الرفيق النقيب، نحن في حرز، اننا نحمل العلم ــ قال ميليتون كانتاريا الجورجي ذو الحركات الخفيفة السريعة.

ولكن رفيقه ميخائيل ايغوروف التمس مع ذلك السماح بابلاغ سيانوف ما يلي: اذا لم يتمكن الكشافان من ايصال العلم، الى الهدف، فليتناوله محاربون من السرية.

وأضاف ايغوروف قائلاً:

ــ تحسباً للطوارئ.

فقال قائد الكتيبة وهو يودعهما:

ــ هذا أمر واضح بحد ذاته. مع السلامة، أيها الكشافان. ان هذا لشرف عظيم لكما! اتمنى لكما التوفيق!

وما كاد الكشافان ينطلقان زحفاً الى الساحة حتى اتصل نيئوسترويف هاتفياً بقائد الفوج، ملتمساً تشديد التغطية المدفعية. وبعد قليل اجتازت سرية سيانوف الخندق بوثبة سريعة الاندفاع واقتحمت الدرج العريض المؤدي الى الريخستاغ. وكان أول من ظهر هنا بياتنيتسكي، وياكيموفيتش، وبريغونوف، وشيربينا.

وراح العدو يصب عليهم نيراناً حامية. فسقط بيتر بياتنيتسكي شهيداً.

وفي ذلك الوقت اقتحمت سرية سيانوف البناية ذاتها حيث بدأ القتال على كل غرفة وعلى كل ممشى.

وتكونت داخل الريخستاغ «جبهة غرف» كانت تمتد الى الطوابق العليا وتنحدر الى السراديب التي انسحب اليها القسم الاكبر من حامية الريخستاغ.

وفي اعقاب سرية سيانوف نفذ الى البناية محاربون من

السريتين الاخريين، وقائد الكتيبة نفسه نيئوستر ويف ونائبه في القسم السياسي بيريست.

وفيما بعد، اذ كان نيئوسترويف يتذكر كيف اجتاز ساحة كيونغسبلاتس، قال:

«حدثنا أحدهم أن نهار الثلاثين من نيسان (أبريل) كان نهاراً شامساً في برلين. ممكن. ولكننا نحن كان يبدو لنا أن القتال يجري في غسق المساء. فما كنا نرى الشمس. الى هذا الحد كان الدخان يخيم على الساحة...».

وبالفعل، فقد انضاف الدخان المنطلق من الريخستاغ الى انفجارات القذائف، والى سحب دخان الحريق والغبار في ساحة كيونغسبلاتس. وقد أشعل الهتلريون أنفسهم الريخستاغ. فكانت ألسنة اللهب ترتفع في قاعة الاجتماعات، وتنتقل الى المماشي. وبسرعة وتأجج احترقت بطانة القاعة الخشبية المشبعة بالدهان والطلاء، كما احترقت المقاعد الوثيرة والسجاجيد. والتهبت العشرات من الغرف... ومع ذلك فقد رسخ المحاربون أقدامهم في الطابق الاول من البناية.

واتصل نيئوسترويف هاتفياً بقائد الفوج، من الريخستاغ هذه المرة.

ـ أنقل اليك أمر رب الدار الاكبر ـ قال زينتشينكو قاصداً بذلك قائد الجيش ـ لقد عينتُ حاكماً عسكريا للريخستاغ. فأبسط الموقف!

فابلغ نيئوسترويف أن الهتلريين يقومون بهجمات معاكسة من سراديب البناية، وانهم هناك كثيرون. والكشافان ايغوروف

وكانتاريا قد شقا لنفسهما الطريق الى الطابق الثاني بالقنابل اليدوية، ولكن درجات السلم منهارة فيما فوق ذلك. ومن الطابق الثالث تطلق رشاشات العدو رشقات مستمرة. ثم أضاف قائلا:

- وليس عندي ماء أيضاً، والذخائر قليلة.

فقال زينتشينكو انه سيعمل كل المستطاع لنجدة الكتيبة، ولكن نيران العدو لا تفسح الآن لاية نسمة حية المجال لاجتياز ساحة كيونيغسبلاتس. اصمد بقواك، لقد بعثت اليك برجال ومعهم اطعمة وذخائر.

ولكن الجنود الذين بعث بهم زينتشينكو لم يتمكنوا من شق الطريق لانفسهم الى الريخستاغ.

وفي الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والعشرين، نصب ايغوروف وكانتاريا العلم في الطابق الثاني، ثم نزلا الى نيئوسترويف لكي يبلغا عن هذا. واذ ذاك نظم قائد الكتيبة مفرزة الانقضاض لمرافقة حاملي العلم. وكان على رأسها الملازم بيريست. وتألفت هذه المفرزة بكاملها من جماعة الرقيب بيتر شربينا.

ومن جديد بدأ القتال على كل درجة من السلم، المؤدي الى الطوابق العليا من الريخستاغ، وعلى كل متر يدني الكشافين من قبته.

وفي ذلك الوقت كان الحريق داخل البناية يتعالى باطراد. فكان اللهب يئز أزيزاً كئيباً في البناية الضخمة. ومن النار والشرر كانت تحترق قمصان الجنود وأرديتهم. وكان الدخان الكثيف يعمي العيون ويثير الغثيان.

وفي الطوابق العليا كان الدخان أقل، والحرارة غير شديدة نسبياً، ولكن مفرزة الانقضاض بقيادة بيريست، والكشافان ايغوروف وكانتاريا، قد احتاجوا مع ذلك الى نصف نهار تقريباً لكي يشقوا طريقهم، مع العلم، الى قبة الريخستاغ.

وفي الساعة الثانية والعشرين والدقيقة الخمسين من اليوم الثلاثين من نيسان (أبريل) خفق علم النصر فوق الريخستاغ.

وحل يوم اول أيار (مايو)، ولكن القتال في الريخستاغ لم يتوقف. فقد كان الهتلريون القابعون في السراديب يقاتلون في كثير من الغيظ والجنون. كانوا ما يزالون يأملون بتلقى الامدادات، ويأملون بان الحريق سيخرج من الريخستاغ كتائب نيئوسترويف، ودافيدوف، وسمسونوف، التي تخوض القتال في مختلف اجنحة البناية.

وبالفعل، كان الحريق قد اصبح غير ممكن الاحتمال. وكان يقلّ باطراد لدى نيئوسترويف عدد الغرف التي لم تلتهمها النيران، الغرف التي كان يمكن وضع الجرحى فيها، والمكوث فيها هم أنفسهم. ومن جديد تلفن نيئوسترويف لزينتشنكو.

ـ أين الماء وأين الذخائر، أيها الرفيق العقيد؟

ـ لا يستطيع الرجال شق طريقهم اليك، يا عزيزي! اننا جميعاً جد قلقين. سابعث أيضاً بجنود.

ـ منذ وقت بعيد شربنا كل ما كان في زمزمياتنا من الماء. العطش شديد الوطأة.

ـ وكيف البناية؟

ـ النار تلتهم أربعة طوابق. ولست أخفف من شد الحصار على السراديب.

ـ يا لكم من بواسل! ولكن أسمع يا نيئوستروويف. اذا ما أصبح الصمود مستحيلاً، فاني أسمح بالانسحاب موقتا.

ـ في أقصى الحالات فقط ـ أجاب نيئوستروويف. الا أنه كان يفكر بينه وبين نفسه اذ ذاك بأنه ما دام حياً فلن يترك الريخستاغ الذي تم الاستيلاء عليه بمثل هذا القتال وبكل هذه الضحايا.

ولحسن حظ الكتيبة، وجد الجنود، مصادفة، في تلك الساعات نقباً في جدار كان يؤدي الى غرف في البناية لم يكن قد وصل اليها الحريق بعد. ووراء الجدار اكتشف جنود نيئوستروويف أنهم موجودون... في مؤخرة العدو. وهناك كان الهتلريون، الخارجون من سردابهم، يتنفسون الهواء النقي بنهم. وقد كان ظهور الجنود السوفييتيين مباغتاً ومذهلاً للالمان بحيث أنهم هرعوا مترامين الى مكمنهم، حتى دون أن يطلقوا النار.

وفي نهاية نهار أول أيار فقط، ظهر على أحد السلالم المؤدية الى سراديب البناية، جندي يحمل أول علم أبيض. انها الحامية، المدافعة عن الريخستاغ، كانت تعرض بدء المفاوضات.

وكان أول من نزل الى السرداب الجندي بريغونوف، وهو يعرف اللغة الالمانية. وبقي بريغونوف، وهو يحمل شريط الوسيط الابيض، قرابة عشرين دقيقة في القبو، فأخذ القلق على مصيره يساور النفوس. وقد عاد فأنبأ بأن الهتلريين مستعدون لاجراء مفاوضات، ولكن مع الضابط الاقدم فقط. وقال في حقد وغيظ:

ـ فقدّم لهم جنرالاً أو عقيداً!

ـ ايوه، فلينتظروا حتى أنال هذه الرتبة ـ قال نيئوستروويف مازحاً. ومع ذلك فان مطلب الالمان قد شغل فكره جدياً لان الكتيبة

كانت منهكة، وكان عدد الرجال الباقين لدى قائد الكتيبة قد بات قليلاً.

ـ متدلعون! انهم يظهرون عنجهيتهم، يا بيريست! ـ قال نيئوسترو يف هذا، وهو يفكر بأن الجنود والقواد قد مضت عليهم ساعات كثيرة لم يأكلوا فيها ولم يشربوا، واذا هم كانوا يقاتلون بتفان خارق للعادة، فما ذلك الا على حساب توتر في القوى فوق القدرة البشرية. وفوق ذلك فان الحريق لم تهدأ ناره، والرجال يختنقون في الدخان الكثيف.

ـ ما العمل؟ ـ سأل نيئوستروويف. وأخرج من جيب صدره مرآة صغيرة فنظر فيها. كان قميصه محترقا في عدة أماكن، وخدّاه يغطيهما الشعر، وعيناه غائرتين.

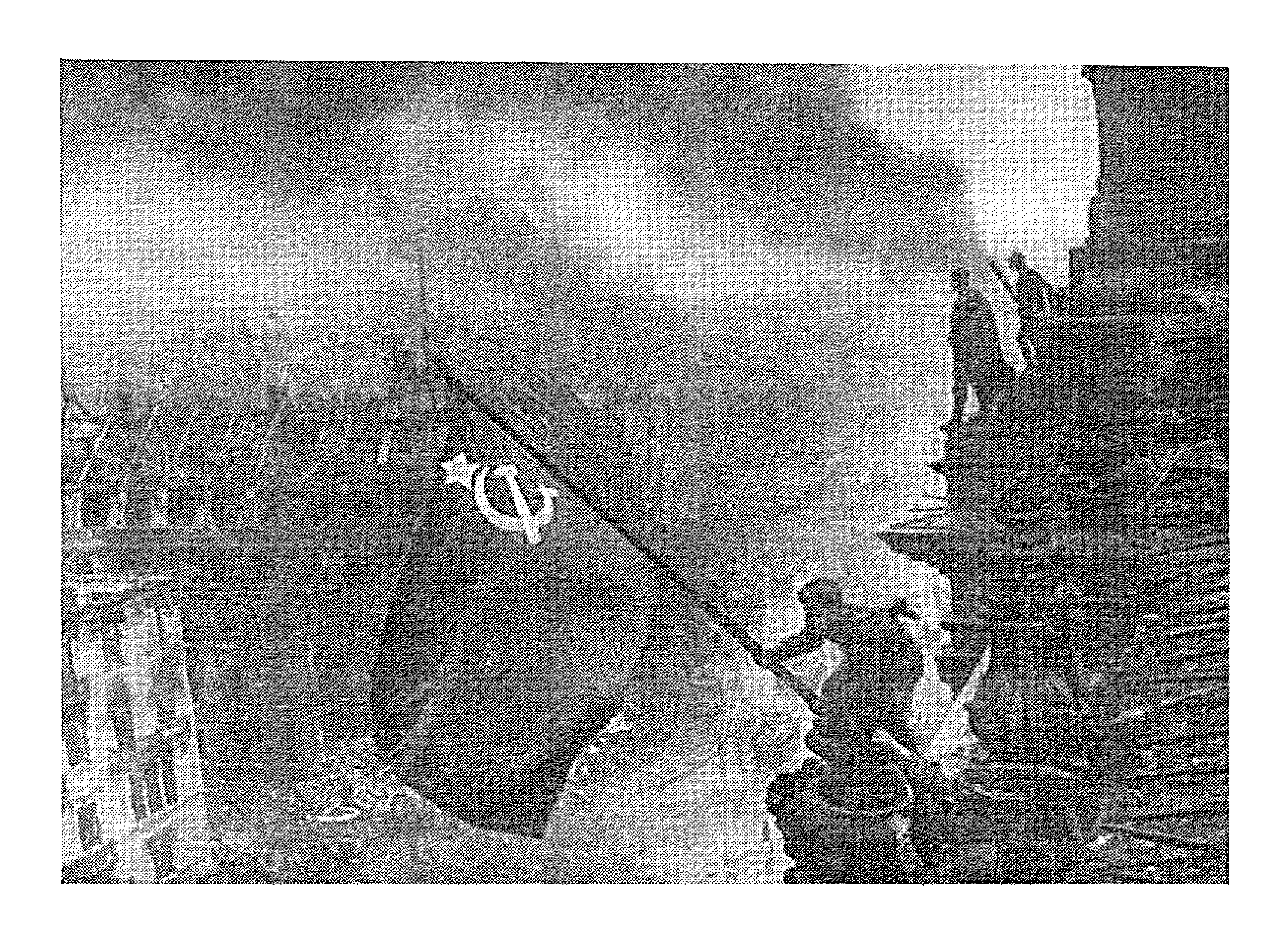
ـ لن يصدقوا اني أنا الضابط الاقدم في هذا المكان، فما رأيك يا بيريست؟ ـ طرح هذا السؤال وألقى بنظره على نائبه الجسيم ذي الهيئة المهيبة والطلعة الفتية.

ـ هل أتفق لك أن كنت دبلوماسيا؟

ـ أنا؟ ـ قال بيريست رافعاً كتفيه ـ ربما ستتاح الفرصة بعد الحرب.

ـ كلا، الآن. فاغتسل وأحلق ذقنك. ولسوف نغير ملابسك، هيا بسرعة، يا بير يست، هيا!

وحلق النائب فى القسم السياسي ذقنه بالشفرة كيفما اتفق، وتمكن من خياطة طوق نظيف كان يحمله معه على الدوام، وقاس أول الامر طاقية، ولكنهم أعطوه عمرة أمالها بيريست صوب أذنه بحركة عنيفة. ووجدوا، مصادفة، لدى أحد الجنود قفازين جلديين.



رفع الراية فوق الريخستاغ.

ــ ايوه، كيف؟ ــ سأل بيريست.

ــ حسن! ــ قال نيئوستر ويف.

ــ أليس هذا افراطاً... مع القفازين. انه أول أيار على كل حال!

ــ ملائم! فتولّ قيادة الوفد. انت الرئيس، وأنا مرافقك، ومعنا المترجم بريغونوف ــ قال نيئوسترويف ورتّب نفسه قدر مستطاعه.

وأضاف بيريست قائلا:

ــ اني أقترح أن نأخذ أيضاً الملازم غيراسيموف كممثل غيرِ رسمي... مع رشاش.

ونزلت مجموعة الرسل الى السرداب. وهناك كان في استقبال بيريست مقدم ألماني، لم يذكر كنيته. وقد أعلن هذا قائلاً:

ـ سنخرج من السراديب بشرط واحد.

فاستفسر بيريست بهدوء:

ـ وبأي شرط؟

ـ اسحبوا وحداتكم من الريخستاغ. فلن نخرج بين صفوف جنودكم.

ـ أي نعم! ـ قال بيريست ـ لقد طوقنا الريخستاغ وعلينا الآن ان ننصرف؟

وهمس نيئوسترويف في أذن بيريست قائلا:

ـ يريدون كسب الوقت.

فاعلن بيريست قائلاً:

ـ الاقتراح مرفوض. والآن اسمع شروطنا. تستسلمون للاسر بدون اية شروط. ان مقاومتكم لا طائل تحتها. وفي حال الاستسلام، ستضمن الحياة لجميع أفراد الحامية.

فاعلن المقدم قائلاً بوقاحة:

ـ لقد اقتحمتم الريخستاغ ولن تخرجوا من هنا أحياء. ولا أحد! وفي الجملة أنتم أيها الرسل! ان كل متر أمام الريخستاغ واقع تحت نيران بطارياتنا . ان لدينا قوى!

فقال بيريست منهيا الحديث:

ـ أكرر مرة ثانية: استسلموا. عشرون دقيقة تعطى للتفكير. فاذا لم يرد جواب فسنفتح النار!

وغادر رسلنا السرداب. وكان ذلك في الساعة الثانية من ليلة الثاني من أيار.

ومضت ساعتان أيضاً. ولم يستسلم الهتلريون فبدأ نيثوستورويف التهيئة للانقضاض الاخير.

وفي ذلك الوقت باتت نيران العدو في ساحة كيونغسبلاتس أخف وطأة، وكانت قواتنا الرئيسية قد تغلغلت الى قلب برلين، الى قطاع «القلعة». وفي ذلك الوقت أيضاً اقتحمت الريخستاغ بضع وحدات دفعة واحدة في ضجة وصخب.

وأخيراً وصل أيضاً الجنود المرسلون منذ أربع وعشرين ساعة يحملون زمزميات ملأى بالحساء والقهوة الحارتين! وجاءت الذخائر.

واذ ذاك، في الساعة الخامسة ليلاً، شنت كتيبة نيثوستورويف مع كتيبتي سمسونوف ودافيدوف الاقتحام الاخير على أقبية الريخستاغ. وراح الجنود يقذفون الممرات المؤدية الى السرداب بالقنابل اليدوية، واخذت مفارز غير كبيرة من حملة البنادق الاوتوماتيكية تتسرب الى الاقبية.

واذ ذاك أخذ يخرج لملاقاتهم جنود وضباط حاملين الاعلام البيض. فامر نيثوستورويف بوقف اطلاق النار. وخرج ضابط فسلم قائد الكتيبة أمر حاكم الريخستاغ بالاستسلام للأسر.

كان النور قد أشرق على الساحة، وشمس أيار تشع بمرح على ألواح السقف الحديدية فوق القبة التي خرقتها الشظايا ومزقتها حين أخذ الاسرى الاوائل متحدبو الظهر ينحدرون على أدراج الريخستاغ المحطمة. كانوا يمشون في بطء، جارّين أرجلهم في تثاقل كأنما هم يخشون أن تزل أقدامهم على الدرجات المحطمة ويسقطوا.

وفي ذلك الوقت تناول نيئوستروبف وبيريست القليل من الحساء والقهوة الساخنة، فشعرا بالانتعاش. ومع ذلك فقد كان الضابطان كلاهما يشعران بتعب يهد الجسم هدّاً، بوجع في الارجل يكاد يهوي بها، بحيث أنهما، اذ خرجا من الريخستاغ لاستنشاق الهواء النقي، قد استندا بظهريهما على غرانيت الاعمدة البارد.

وهنا راح نيئوستروبف وبيريست يتطلعان صامتين الى جموع الاسرى، ويبحثان باعينهما عن الهيكل المديد لذلك المقدم الوقح الذي توعّدهما بالموت في الريخستاغ.

ولكن ها قد مر الكثير من الاسرى، وما من اثر للمقدم. فلعله قد جرح أو قتل بقنبلة يدوية، أو لعل هذا العسكرى النازى المتكالب الشرس قد قتله جنوده في اللحظات الاخيرة، وقد قرروا أن يخرجوا احياء من سراديب الريخستاغ الى ساحة كيونغسبلاتس مهما كلف الامر...

نهاية «الريخ الثالث»

سيتناول هذا الفصل بالحديث هلاك الامبراطورية الفاشستية، والاحداث المتعلقة بزعماء العصابة الهتلرية، وما بات معلوماً لدينا بناء على شهادات الاسرى من الجنرالات، ورجال الحرس الهتلري الخاص وعلى التحقيقات والمنشورات في وقت متأخر.

صباح السادس عشر من نيسان (أبريل)، في الوقت نفسه الذي جرى فيه هجوم القوات السوفييتية على الاودر، كانت تنهال على برلين ضربة شديدة من الجو. كانت القنابل تنفجر في قلب المدينة، في باحة دار المستشارية مزلزلة السقوف الباطونية للسراديب العميقة،

حيث كان قد بدأ احتضار الاقطاب والجنرالات الهتلريين، وتشنجاتهم الاخيرة قبل الموت.

وفي الصباح من ذلك اليوم نفسه عقد هتلر في مكتبه تحت الارض اجتماعاً للجنرالات والاميرالات. وراح، ويده الراجفة تتخبط على الخارطة، ينقّل الاعلام الصغيرة الحاملة أرقام الجيوش المحطمة، والمستنزفة دماؤها، أو التي ما كانت موجودة بعد الا في مخيلته. فقد كان هذا المصروع المعتوه ما يزال يؤمن أو يحاول أن يوحي للآخرين الايمان بنهاية طيبة للحرب. وكان يؤكد دون كلل أن قوى الروس قد نفدت.

وفي هذا الاجتماع تكلم كايتل المتزلف، داعماً هتلر بل لعله في الاكثر انما كان يدعم آماله الفارغة هو، فقال:

«أيها السادة، ان ثمة قاعدة عسكرية تقول: اذا الهجوم لم يتكلل بالنجاح في اليوم الثالث فلسوف يكون فاشلاً».

فنظر هتلر الى فيلدمارشاله نظرة حمد وشكر.

بيد أن الجنرالات الآخرين ظلوا صامتين، وكان هذا الصمت زاخراً بالمعاني. أما دينتز فقد لاحظ، ضابطا نفسه، متجهم الوجه، بأن قاعدة كايتل لا تبدو له باعثة على الكثير من الامل.

وفي المساء من ذلك اليوم نفسه استخلص دينتز استنتاجاته من هذا الاجتماع لدى هتلر . فما أن حل الظلام حتى انطلق من برلين الى مدينة بلين موكب كبير من سيارات الشحن محملة بممتلكات اركان حرب دينتز، وموسوقة بامتعة الاميرال نفسه.

ولقد فتح دينتز الطريق، فكان أول من قرر البقاء بعيداً عن هتلر، وبرلين والجبهة، مهتما قبل كل شيء بأن ينجو بجلده. وفي

الواحد والعشرين من نيسان (أبريل) قام هتلر بمحاولات يائسة لفك الحصار عن برلين من الخارج .

وفجأة بدا ملاك الانقاذ للطغمة الهتلرية، المغلق عليها في برلين كانما في كيس من حجر، في شخص جنرال الحرس الهتلري الخاص شتاينر، الذي كان يوجد تحت قيادته مجموعة غير كبيرة من القوات، مؤلفة من فرقتين من فيلق الدبابات. وتلقى شتاينر أمراً بالانتقال الى الهجوم. وفي ذلك اليوم بالذات ألقى هتلر الى القتال بجميع الذين خدموا في القوات الجوية الالمانية.

«يجب تسليم جميع من يستطيعون السير على الارض فوراً الى شتاينر . وكل قائد لا ينفذ هذا الامر سيعدم خلال خمس ساعات».

بيد أن هذا العواء الهستيري المنطلق من الامر الهتلري لم يؤد هو أيضاً العون لشتاينر.

ففي الاجتماع الذي عقد في اليوم التالي بحضور كايتل، ويودل وكريبس وبورمان، سأل هتلر أين ترى يوجد شتاينر، وهل تراه قد بدأ هجومه؟ وحين عرف هتلر أن شتاينر لم يقتصر الامر لديه، تحت ضغط القوات السوفييتية، على أنه لم يستطع التحرك صوب برلين، بل هو بالكاد يحتفظ بمواقعه الدفاعية، — حين عرف هتلر هذا ثارت ثائرة حنقه وغيظه. فراح يصرخ صراخاً عالياً، نابحاً بأن الشعب الالماني لايفهم أهدافه، وأنه اتفه واحقر بكثير من أن يدرك مقاصده ويحققها.

وفي هذا الاجتماع أيضاً اقترح هتلر فتح الجبهة أمام الانكليز والاميركيين، ونقل جميع القوات من المواقع الغربية، وسحبها جميعاً الى الشرق. وراح يخيل لكايتل، ولهتلر على اثره، أن هذا



٢٦ تموز (يوليو) ١٩٤٤. كايتل، وغورنغ، وهتلر، وبورمان
في المقر الرئيسي لهتلر.

التدبير سيتيح لهم «الايقاع» بين القوات الغربية والروسية. وكان هذا هو الامل الوحيد الباقي لدى هتلر في «السلامة» . ومن جديد رفع هتلر صوته، وقد تبدل مزاجه فجأة من حال الخور الى حال البهجة العاصفة، فامر بنقل جميع القوات من الجبهة الغربية وتحويلها لنجدة برلين ضد الروس.

وكان الجنرال شتاينر قد مني بالاخفاق، ولكن برز في ذلك الاجتماع اسم جديد لـ«منقذ» برلين. انه فينك الذي كان ما يزال يتصرف، حسب رأي هتلر، بجيش قادر على القتال. ومع أن هتلر كان قد أمر اذ ذاك فينك بأن يشق الطريق الى برلين، فقد كان هو نفسه لا يؤمن بأنه سيوفق لتغيير الوضع في العاصمة الالمانية. وفي

ذلك اليوم كان هتلر قد اعترف للمرة الاولى بأنه قد خسر الحرب، وأن كل شيء قد ضاع، ولم يبق له هو، هتلر، الا الانتحار. وفي هذا الاجتماع وفي اجتماع الثالث والعشرين من نيسان (أبريل)، حين كان كايتل قد عاد من جديد الى دار المستشارية، بعد أن زار فينك في مقر أركان حربه، – في هذين الاجتماعين كان كايتل وغوبلز يحاولان تشجيع فوهررهما.

الا أن هتلر كان يتظاهر بانه لا يستمع الى كايتل وغوبلز، مردداً من جديد أنه سيموت في برلين... وقد كان كل الوضع المتنفخ الذي اتخذه، والصوت المتفخم الذي كان يتكلم به، والموقف المسرحي الذي وقفه، كأنما يتوخى من المحيطين به جميعاً التقدير للقرار الذي اتخذه الفوهرر واقتفاء اثره .

وكان يودل أول من خرق حاجز الصمت الثقيل الذي حل. وقد كان رئيس أركان قيادة العمليات للقوات المسلحة، يودل، صنيعة هتلر ومستشاره المقرب. وكان هذا المنافق الحاذق يعتبر حبيباً للفوهرر. وقد بدأ حرفته كجنرال بالخيانة والغدر: فمنذ عام ١٩٣٨، وبوشاية منه، حل بالجنرالين النازيين رونشتادت وبراوختش غضب هتلر بصورة غير مكشوفة.

ان يودل، وهو في العادة متعالي الهيئة، ذو مظهر متصنع، وتعابير في الوجه متكلفة، كان يبدو في تلك الساعة عجوزا متعباً مغيظاً. الا أن ما قاله بصوت جاف وقاس قد حمل هتلر على الارتعاد. فقد قال:

– أعتقد، يا فوهرري، أن عملي انما هو قيادة القوات لا أن أموت بين الانقاض!

ولكن كايتل، وعلى أثره غوبلز على الفور، اكدا لفوهررهما بكلام متفخم انهما سيظلان وفيين له حتى الرمق الاخير.

بيد ان كايتل، وقد خرج من دار المستشارية ، عقب يودل، قد سارع الى مطار غاتوف. وبالكاد استطاعت سيارته أن تشق طريقها في شوارع برلين، فقد بدأت تبلغها القذائف السوفييتية الثقيلة.

وبكثير من الجهد ارتفعت الطائرة فوق الدور العالية المحيطة بالمطار في المدينة، وحلقت فوق خط الجبهة دون أن يصيبها أذى، ثم هبطت في برختسغادن. وهناك انضم كايتل الى غورنغ وهملر وغيرهما من قادة العصابة الفاشستية، العازمين على انتزاع السلطة من يد هتلر، في الفوضى العامة.

وفي السادس والعشرين من نيسان (أبريل) وصلت الى دار المستشارية برقية من غورنغ مرسلة عن طريق الراديو من برختسغادن، موجهة الى هتلر. وكان غورنغ يقول فيها ان على هتلر أن يسلمه السلطة.

وقد سلم بورمان البرقية للفوهرر وهو، على ما يبدو، لا يشك في رد الفعل الذي ستثيره لدى هتلر. وفي هذه البرقية يقول غورنغ : «يا فوهرري، انكم موافقون على أني، بعد قراركم القاضي بالبقاء في برلين للدفاع عنها، آخذ على عاتقي بموجب القانون الصادر في ٢٩ حزيران (يونيو) ١٩٤١، كل ادارة شؤون الامبراطورية الداخلية والخارجية. فاذا أنا لم أتلق جواباً، حتى الساعة الثانية والعشرين، فاني ساعتبركم محرومين من حرية العمل، وساعمل وفقاً لمشيئتي».

ولقد أثارت برقية غورنغ حنق هتلر وغيظه. فاصدر أمره

باعتقال غورنغ في الحال، مع أنه كان قد عينه، منذ بضعة أيام، نائباً له.

وفي السابع والعشرين من نيسان (أبريل)، صعق الجنرال فايدلينغ، وكان قد جاء الى هتلر لتقديم تقريره الدوري، لما كان يسود دار المستشارية من تشوش وارتباك. كان رجال الحرس الهتلري الخاص يتهامسون فيما بينهم وقد بلغوا من الانهيار النفسي اشد مبلغ. وهتلر لم يكن قد تلقى تقريراً من قائد حامية برلين.

وعرف فايدلينغ بعد قليل أسباب التشوش والارتباك فقد ظهر أن محظي هتلر وقريبه، زوج شقيقة ايفا براون، جنرال الحرس الهتلري الخاص فوغلاين قد خان فوهرره وحاميه.

فقد هرب فوغلاين، مرتدياً لباساً مدنيا، بعد أن طرح في سردابه لباسه الاسود، لباس رجال الحرس الهتلري الخاص.

بيد أن هتلر قد بعث برجال الغستابو الاوفياء له، فتم العثور على فوغلاين والقبض عليه في أحد أحياء برلين. فأمر هتلر باعدام قريبه رميا بالرصاص على الفور في فناء دار المستشارية.

واعدم فوغلاين رميا بالرصاص. ففي تلك الايام كان كل أمر من أوامر هتلر مزداناً على نحو ثابت بالعبارة المألوفة «الاعدام رميا بالرصاص».

ولكن الاعدامات رمياً بالرصاص لم تجد نفعاً هي أيضاً. فالاشقياء من رجال الحرس الهتلري الخاص، كانوا يجرون النار مع ذلك الى قرصهم، ويستغلون كل فرصة مؤاتية، ورجال الغستابو، من شتى الرتب والالقاب، وحرس هتلر الخواص، وأمناء سره، وطباخوه وأطباؤه الخصوصيون، ــ كان هؤلاء الخدم جميعاً، على

اختلاف الوانهم وشاكلاتهم، يفرون من سراديب دار المستشارية فرار الجرذان من سفينة مشرفة على الغرق.

وفي السابع والعشرين من نيسان (أبريل) ارتكب هتلر جريمة أخرى من جرائمه النكراء المذهلة، جريمة أدهشت حتى المقربين من هتلر.

فقد ابلغوا هتلر أن كشافي القطعات السوفييتية الامامية المهاجمة تقترب من محطة الميترو الموجودة خلف دار المستشارية.

وكان هتلر يعلم حق العلم أن في المحطة والانفاق القريبة منها كان يقوم مستشفى عسكري الماني وكان ثمة الوف من الجرحى. ولكن هتلر كان يعلم شيئاً آخر ايضاً: أن مياه نهر شبري تجرى قرب محطة الميترو.

وقد بقي غير معروف ما اذا كان أحدهم قد أوعز لهتلر بهذه الفكرة، ام أن القرار الفظيع قد ولد لنفسه في مخه المصاب بالالتهاب. وما ردع هتلر أن في الميترو ضباطا وجنوداً من الجيش الالماني قيد المعالجة، لهم اقارب بين رجال الحرس الخاص المحيطين به. لقد أمر هتلر قائلاً:

ـ اغرقوا الميترو، افتحوا السدّات، فلسوف يجري الماء بعيدا تحت الارض، ولا يمكن الروس من الاستيلاء عليه.

وقد بدا للضابط المناوب من رجال الحرس الهتلري الخاص أنه لم يحسن سمعاً. فحاول الاعتراض قائلاً في تردد:

ـ ولكن رجالنا هناك، يافوهررى!

ـ لا اهمية لذلك. ان علينا أن نكافح. وما تبقّى ليس له من أهمية ـ قال هتلر متمتما بصوت أبح.

ورفعت السدّات، وتدفقت مياه شبرى العكرة في الانفاق.

وما أوقف اغراق ميترو برلين هجومنا وهيهات أن يكون أخّر الاستيلاء على دار المستشارية ولو يوماً.

وأخذ يشرق بالماء الواصل الى الحناجر الرجال الملازمون للنقالات. فراحوا يصبون على هتلر لعناتهم الاخيرة وهم منطرحون على الارض الباطونية في الميترو. فما كان ثمة شيء يمكن أن يفسر لهم هذا التدبير الوحشي الفظيع.

وهكذا، وباشارة واحدة من يده، أضاف هتلر، للملايين العديدة من ضحاياه، الجرحى في ميترو برلين ايضاً، مغرقاً هناك بضعة آلاف من الرجال. هكذا كان هتلر!

وبعد يوم، في التاسع والعشرين من نيسان (أبريل)، تزوج هتلر. فقد كانت له، خلال سنوات عديدة، علاقات غير مشروعة مع ايفا براون، التي كانت تعمل مساعدة في ورشة تصوير في ميونيخ. وقد جرت مراسم زواج هتلر في قبو دار المستشارية. ومن الجلي أنها كانت قصيرة، اذ كان العريسان على عجلة من أمرهما. فقد كان يمكن للروس أن يقتحموا دار المستشارية في كل ساعة، وما كان يمكن تحديد هذه الساعة مسبقاً.

وقد بدت هذه المراسم كئيبة، وكانت كئيبة وجوه الضيوف: بورمان، غوبلز وزوجته ماغدا. وكان العريسان، الجالسان في صمت، ورأساهما مسدلان ، قد أعدا لنفسيهما حبتين ضعيرتين محتويتين على السم.

وما كادت تنتهي مراسم زواج هتلر حتى جاءه فايدلينغ يقدم تقريره. كان يوم التاسع والعشرين من نيسان (أبريل) يوم أحد، وكان

تقرير الاحد هذا من فايدلينغ آخر تقرير قدمه لهتلر عن الوضع في برلين.

وقد أذهلت فايدلينغ ملامح هتلر الخارجية. فقد كان امامه هيكل متهدم، ذو وجه أصفر متورم، شديد الانحناء على المقعد. وحين قام هتلر عن كرسيه، لاحظ فايدلينغ أن يديه ترتجفان، وأما اليد اليسرى فكانت مع ذلك ترتعش ارتعاشاً تشنجياً، الامر الذي كان هتلر يجهد لاخفائه بكل وسيلة. وفوق ذلك فقد كان يجر احدى قدميه جرا أثناء المشي.

وكان صوت هتلر قد خفت، فبات يتكلم بما يشبه الهمس. وقد كان يجلس على مقربة منه: المرافق الاقدم، الجنرال بودغدورف، ومارتن بورمان، ورئيس الاركان العامة الجديد كريبس، وغوبلز.

رسم فايدلينغ باقتضاب وضع حامية برلين الصعب. لا ذخائر. لا مواد غذائية، وقد انقطع كل أمل بالحصول عليها عن طريق الجو. وطرح فايدلينغ هذا السؤال: ما العمل؟

وظل هتلر صامتاً وقتاً طويلاً، ثم راح يتكلم عن انه ما يزال يأمل الحصول على الذخائر من جيش فينك.

واذ ذاك لاحظ فايدلينغ أن مينائي برلين الجويين مطار تيمبيلهوف ومطار غاتوف، قد استولى عليهما الروس، وأن المدفعية الروسية قد أحرقت ساحة الاقلاع، المقامة على مقربة من دار المستشارية.

وكان فايدلينغ يريد أن يقول لهتلر: «لقد انتهى كل شيء، انها النهاية!» الا انه قال بدلاً من ذلك:

– لن نستطيع الدفاع عن برلين. ولكن قد يكون من الممكن ايجاد وسيلة لانقاذكم، يا فوهرري.

فما أبدى هتلر رد فعل حيال هذا الاقتراح.

وما عاد هذا رجلاً، انما تلك انقاض! لم يبق فيه أي اثر للرجولة. بل ما عاد في حالة يستطيع معها اتخاذ أية قرارات على الاطلاق. ولقد كان فايدلينغ يرى ذلك.

وفيما بعد، خلال حديث معنا في حي يوغانيستال، قال فايدلينغ ان هتلر قد ترك في نفسه، يوم التاسع والعشرين من نيسان (أبريل)، صورة لرجل قد انتهى وحطمه القدر. فقد كان منسحقاً جسدياً ايضاً، لا معنوياً فقط.

ان هتلر، الذي اجتمع فيه الجبن والشراسة البعيدة عن تصور العقل، ان هتلر الروحاني المصروع، كان يبدو اذ ذاك في صورة حقيرة مثيرة للاشمئزاز. وكان فايدلينغ يعتقد ان هتلر لم يعد قادرا على الانتقال الى الكفاح السري، كما أنه لم يجد في نفسه الرجولة لتحمل مسؤولية جرائمه ومواجهة قضاء الشعوب.

حتى في ذلك الاجتماع الاخير مع هتلر، ما كان الجنرال فايدلينغ يشك بان الشعور بالخراب التام، مشدداً بالهلع الحيواني، قد يوحي لهتلر بمخرج واحد فقط، هو الانتحار.

ومع ذلك فانه، وهو الجنرال الانضباطي، المستخدم لدى هتلر، قد عمد اذ ذاك، في الاجتماع، خضوعاً لشعور ما كان في وسعه فيما بعد توضيحه ولا تحديده، الى الاقتراح من جديد بان يجري البحث عن سبل ما لانقاذ الفوهرر.

ولقد تذكر فايدلينغ في تلك اللحظة ما شاهده اثناء مروره

في مماشي دار المستشارية. كان رجال الحرس الهتلري الخاص جالسين سكارى في جميع السراديب. الجنرالات، وكاتبات الاختزال، وحرس هتلر الشخصيون، وحملة البنادق الاوتوماتيكية، كانوا يحاولون اغراق هلعهم ويأسهم في الخمر. فكانت دار المستشارية مشبعة بروائح الخمر الواخزة. وفي بعض الغرف كانت الخمرة مسفوحة على الارض، من كونياك، وليكور، وشمبانيا، وفيرموت. فكان حذاء فايدلينغ يتبلل وهو يمشي فوق هذه البرك.

– يا فوهرري!

هكذا كان فايدلينغ قد بدأ يتكلم من جديد، آملاً بان هتلر سيقول له شيئاً بشأن المعارك في المدينة.

ولكن هتلر ظل صامتاً. وكانت هذه آخر مقابلة لفايدلينغ مع هتلر، وما عاد رآه قط.

وفي ذلك اليوم ذهب فايدلينغ من دار المستشارية، مستعجلاً مغادرة مكتب الفوهرر، وليس في ذهنة غير فكرة واحدة وامل واحد – أن ينجو بنفسه، كيفما اتفق، في هذا الهرج والمرج الدموي، في فوضى تفسخ الدولة النازية وهلاكها هذه.

وفي اليوم التالي، في الثلاثين من نيسان (أبريل) راحت قذائف المدفعية السوفييتية الثقيلة تنفجر في فناء دار المستشارية وخرقت بعض القذائف الثقيلة الجدران. وانضمت الى نيران المدفعية السوفييتية القنابل المنهالة من طائرات الحلفاء. وكان قلب المدينة مطوقاً كله باعمدة من اللهب. وكانت الارض تتزلزل، وبدا كأن جدران الباطون في الاقبية والملاجىء ترتعد وتهتز.

وكان صوت الحرب الجبار هذا مسموعاً اذ ذاك في سراديب دار المستشارية أيضاً. انه لصوت العقاب الرهيب! فما كان قد بقي بعد في برلين وجار عميق كان يمكن التغلغل فيه فراراً من سماع انفجارات القذائف.

وفي ذلك اليوم بالذات، بعد منتصف النهار فوراً، جمع الجنرال فايدلينغ في مقر اركانه قادة قطاعات الدفاع عن برلين، وكان قد بقي القليل منها، وكانت جميعاً متاخمة للحي المركزي من المدينة.

طرح فايدلينغ على بساط البحث مسألة امكانية خرق القوات الباقية تحت إمرته طوق الحصار والخروج من برلين. وكان قادة القطاعات يميلون الى وجوب القيام بهذه المحاولة. وفيما كان فايدلينغ يجر نفسه من جديد الى دار المستشارية الجديدة قادماً من مقر أركانه، كان كشافونا قد قبضوا غير بعيد عن هذه البناية على ضابط ألماني يحاول اجتياز خط الجبهة. وقد عثر في محفظة الضابط على أوراق سرية هامة، من بينها وصيتا هتلر الشخصية والسياسية. وعلى الفور سلمت الاوراق لاركان حرب جيش الجنرال تشويكوف. وكانت الوصية الاولى تقول:

«وصيتي الشخصية.

مع اني كنت في سنوات الكفاح أعتقد أني عاجز عن تحمل مسؤولية كالزواج، فقد قررت الآن وأنا على عتبة الموت الاقتران بتلك المرأة التي جاءت، بعد سنوات كثيرة من الصداقة الحقة، الى هذه المدينة المطوقة تقريباً، لمشاطرتي مصيري برغبتها الخاصة وهي سترافقني الى الموت أيضاً برغبتها الخاصة، كزوجة لي، وان

في هذا لمثوبة لنا على كل ما فقدناه نتيجة لخدمتي الشعب الالماني.

كل ممتلكاتي ستكون ملكا للحزب، واذا هو لم يعد موجوداً، فللدولة. واذا ما تحطمت الدولة ايضاً، فلا تكون ثمة أية ضرورة لاصدار أوامر لاحقة. واللوحات التى اقتنيتها خلال هذه السنوات، ما كنت أجمعها لنفسي شخصياً، بل لاقامة معرض للوحات في مدينة لينتز على نهر الدانوب، التي هي مسقط رأسي، واني لشديد الرغبة في ان تتحقق امنيتي.

أعين وصيا لي أخلص رفيق لي في الحزب مارتين بورمان. فله الحق في اتخاذ اية قرارا ت. وفي وسعه أن يعطي أقاربي كل ما هو غال عليهم كذكرى، وكل ما هو ضروري لكفالة العيش لهم، ولا سيما أم زوجتي وموظفيّ المخلصين — رجالاً ونساء، الذين يعرفهم حق المعرفة. فان الاكثرية منهم هم أمناء سرى المخلصون — فراو فينتر والآخرون، الذين ساعدوني في عملي سنوات طويلة. لقد اخترنا الموت، زوجتي وأنا، تجنبا لعار السقوط والاستسلام.

وبناء على رغبتنا يجب ان تحرق جثتانا على الفور في المكان الذى كنت أقوم فيه بالقسم الاعظم من عملي اليومي خلال اثنى عشرة عاماً في خدمة شعبي.

برلين، ٢٩ نيسان (ابريل) ١٩٤٥ — الساعة الرابعة
أدولف هتلر

الشهود: مارتن بورمان
الدكتور غوبلز
نيكولاس فون بيلو».

...وصل فايدلينغ الى دار المستشارية الجديدة في الساعة السابعة مساء. ومن جديد اخذوه الى مكتب هتلر. ولكن هتلر نفسه لم يكن موجوداً فيه. لقد وجد فايدلينغ هناك ثلاثة أشخاص: غوبلز، وبورمان، وكريبس . فأبلغوه عن وجود الوصيتين، وبالاضافة الى ذلك فان غوبلز قد تلا على فايدلينغ بصوت مسموع مقاطع من الوصية السياسية. وقد جاء في هذه الوصية:

«وصيتي السياسية

القسم الثاني

اني وأنا على عتبة الموت أطرد من الحزب مارشال الريخ السابق غورنغ وأحرمه من جميع حقوقه التي كان قد نالها بالمرسوم الصادر بتاريخ ٢٩ تموز (يوليو) ١٩٤١، وبموجب الخطاب الذي القيته في الريخستاغ في أيلول (سبتمبر) ١٩٣٩. وأعين مكانه الاميرال دينيتز رئيساً للريخ وقائداً اعلى للقوات المسلحة.

واني وأنا على عتبة الموت أطرد من الحزب وأحرم من الحقوق ريخسفوهرر السابق للحرس الخاص ووزير الداخلية السابق هنريخ هملر وأعين مكانه الحاكم كارل خانكه ريخسفوهرراً للحرس الخاص ورئيسا للشرطة الالمانية، والحاكم كارل غيزلر وزيراً للداخلية.

فبالاضافة الى أن غورنغ وهملر كانا غير وفيين لي، فأنهما قد لوثا بلادنا وامتنا بعار لا يمحى بكونهما قد أجريا سراً وخلافاً لرغبتي مفاوضات مع العدو وحاولا الاستيلاء على السلطة في الدولة.

وفي سبيل أن تكون لالمانيا حكومة، مؤلفة من رجال نظيفين،

سيواصلون الحرب بكل الوسائل، فاني، كزعيم للامة، أعين الشخصيات التالية أعضاءً في الوزارة...».

وهنا قطع غوبلز القراءة، وأعلن لفايدلينغ أن هتلر قد عين في وصيته، قبل الموت، الاميرال دينيتز رئيساً، وبورمان وزيراً للحزب، وعينه هو، غوبلز، مستشاراً للامبراطورية.

ثم أضاف غوبلز أن هتلر وزوجته ايفا براون قد تجرعا السم، وبعد ذلك أطلقا على نفسيهما النار تأكيداً. وقد حدث هذا في الساعة الثالثة من يوم الثلاثين من نيسان (أبريل).

وهكذا كان فايدلينغ واقفاً أمام المستشار الجديد، أمام غوبلز القميء، الاعرج، الممصوص الجسد، يتطلع الى وجهه الكالح، ذي الارتعاشات العصبية، والحاجبين الناتئين، والعينين الصغيرتين القاتمتين الذاهلتي النظرات.

وما بقي خليفة هتلر وقتاً طويلاً في الدار الجديدة للمستشارية ـ نصف يوم الثلاثين من نيسان (أبريل) وكل يوم أول أيار (مايو). وما فعل شيئاً، ولا كان في وسعه أن يفعل غير شيء واحد، هو مواصلة الحرب العقيمة ولو لنصف يوم في برلين، ومواصلة تضليل الشعب الالماني.

ففي ندائه الذي اصدره يوم أول أيار كان يؤكد للفارّين أن جميع القوات قد نقلت من الجبهة الغربية للدفاع عن المدينة، وذلك في الوقت الذي كان فيه الجنود، بالفعل، يستسلمون للاسر، افواجاً وفرقاً، في ايدي الحلفاء، في الجبهة الغربية.

وفي أول أيار هذا قام غوبلز بمحاولة للاتصال بالقيادة السوفييتية ولبدء المفاوضات بشأن وقف اطلاق النار والهدنة في برلين.

قبل الفجر

امضينا يوم اول أيار (مايو) في منطقة أركان حرب جيش الجنرال تشويكوف.

وقد كان لتصادف يوم العيد مع الشعور بالنهاية المظفرة المحتومة للمعارك في برلين معنى رفيع ومؤثر في النفس.

في الاقبية ما زال رجال الحرس الهتلري الخاص يطلقون النار في مقاومة يائسة، وأما في جادات الشوارع المحفّرة بالقذائف فكان يمكن رؤية سيارات على متونها لافتات حمر وأعلام صغيرة وزهور. وكانت الحاملات المصفحة المصبوغة باللون الاسود تحمل ازهار الليلاك الى المواقع الامامية، حيث كانت تعقد في كل مكان هناك اجتماعات قصيرة، حيثما أمكن ان يكون الاجتماع في معتصم من نيران مدافع الهاون. وبعد الاجتماعات كانت تبدأ الهجمات من جديد.

كانت كل ساعة من القتال يمكن ان تكون الاخيرة وكان الجميع يدركون كم ليس باليسير على المرء أن يمضي الى الهجوم في يوم شامس من أيام أيار، ويوم عيد، وأية رجولة رفيعة في مأثرة الجندي الذاهب لمواجهة الموت في الدقائق الاخيرة من الحرب.

وفي النصف الثاني من النهار، بدأت البطاريات القائمة في منطقة محطة سيليزيا تقصف الدار الجديدة للمستشارية، في شارع أونتردين ليندن، حيث تقوم الدوائر الحكومية. وفي الليل بدأت طلقات المدفعية تخف شيئاً فشيئاً. وطلع الفجر. وبدأ يوم الثاني من أيار (مايو) ١٩٤٥.

كنا مستلقين في غرفة مستطيلة ضيقة كعلبة السردين، في الطابق الرابع من دار كبيرة. وكان يسبح في الغرفة ضوء أحمر ثقيل

منبعث من نيران الحرائق المتأججة في الحي المجاور. ومن النافذة المفتوحة، كان يرى المرء كيف تصفرّ السنة اللهب الطويلة على صفحة السماء المضيئة وتغدو شفافة. وكنا نسمع، ونحن مستلقين، تنفس المدينة الخافت، يتسرب الى الغرفة في موجات بطيئة.

ومن خلال هزيم الحرائق، وصليات المدفعية غير الكثيفة، وصل الى مسامعنا على غير انتظار صوت غير مألوف، وكانما هو قد بات منسياً. انها قاطرة بخارية تصفر بصوت جريح على السكة الحديدية الدائرية التي وصلت عليها، اغلب الظن، الوحدات السوفييتية لاصلاح الطرقات. وتصفر القاطرة طويلاً وعلى نحو دعائي، كأنما هي تعجّل الجنود وتدعوهم للعودة الى البيت. ولقد سمع صفيرها في الغرفة المجاورة التي ما كان يفصلها عن غرفتنا غير حاجز خشبي رقيق، حيث كان يستلقي سائق قائد الفرقة، ابن مدينة مينسك الكهل، وجنديان من الحرس المناوب.

ـ انها تصفر بصوت حي ـ قال السائق وهو يتنهد. وما كان لقوله من جواب غير تنهدتين قويتين قصيرتين وطقطقة مثيرة للاعصاب من نوابض الاسرة.

ـ قبل الحرب، أمضيت عشر سنوات مع فترات في المشاتي الشمالية ـ قال أحد الحارسين متدخلاً في الحديث ـ فهل سمعت عن مثل هذه؟ ـ سأل الجندي ثم اضاف قائلاً دون انتظار جواب ـ ايه، منطقة القطب الشمالي! من يصدف أن يكون هناك فلن ينسى ـ قال الجندي على غير عجلة، منتقياً الكلمات، ويبدو كأنه لا يحتاج اليها بالذات الا كحوافز للذكريات التي تندفع كاعصار الآن في أعماق نفسه.

ـ شيء ثقيل؟

ـ ما هذا هو القصد، وانما أنت تعيش هكذا سنوات ثلاث في المشاتي النائية، حيث لا وجود الا للثلج الابيض وللدببة البيض ، ثم تذهب في العطلة الى الارض الكبرى. وتسافر، تجر زحافتك الكلاب، اسبوعاً، وثانياً، ثم اذا بك فجأة وأنت من بعيد لا تكون ترى شيئاً من وراء الافق ـ تسمع صوتا مديداً غير معروف. وتفكر متسائلاً: ما هذا؟ ثم اذا بك تحزر فجأة: انها القاطرة تصفر! الارض الكبرى... وبعد ذلك تركب القطار وتسمع الاصوات الاولى غير المعروفة كأنما هي أصوات الموسيقى. وعلى الدوام كان يبدو لي كأنما أبدأ حياة جديدة.

ـايه ـ يقاطعه الحارس الآخر زافراً او متعجباً. كان صوته لطيفاً، ذا نبرة شرقية، وهو يتكلم باستعجال ـ أيه، حيثما ذهبت تعبق رائحة الفستق، في كل مكان. والقلب، كالفستق، يتفطر من الاسى.

فيسأل السائق في دهشة:

ـ وأي فستق؟

ـ امرأتي بعثت لي من القرية كيساً صغيراً من الفستق المحمص. احمله في جيبي. والرائحة تركض ورائي كالكلب وراء اللحم. ما العمل؟ أفكر بالبيت، أفكر بزوجتي، أفكر بتركمانيا، والرأس ثقيل! ـ وكان مسموعاً كيف يقفز عن الاريكة، ويمشي في الغرفة مسرعاً، ويتمتم بشيء ما بينه وبين نفسه.

سائق قائد الفرقة وحده لا يتكلم عن البيت. لقد ساق الالمان زوجته معهم من مينسك عند تراجعهم. انه يبحث عنها منذ عام في جميع المدن الالمانية. انه يبحث عنها في دروب المانيا، في

جموع اللاجئين والاسرى، متطلعاً بامعان الى وجه كل امرأة شابة على كمها شريطة حمراء. وهو يبحث عنها الآن في برلين.

ـ غداً، على الارجح، ستنتهي الحرب ـ قال رجل القطب ثم صمت على الفور كأنما هو يود ان يتسمع الى الصدى الذي ستثيره هذه الكلمات البسيطة المشتهاة كالسعادة.

ويظل الجميع صامتين. ومن جديد يتكلم رجل القطب:

ـ عما قريب سنعود الى الارض الكبرى.

فيتنهد التركماني ناطقاً بالكلمة كأنها من مقطع واحد:

ـ ممتاز.

وأما القاطرة فما تزال تصفر وتصفر. تارة يبتعد الصوت، وتارة يغدو أشد وضوحاً، ولذلك كان يبدو أن القاطرة تقوم بجولات قصيرة على السكة المرممة، مقتربة اكثر فاكثر من قلب برلين.

وفجأة يتكلم السائق فيقول:

ـ والآن لا يبقى للمرء الا أن يعيش ويعيش.

وكان من الصعب الآن معرفة صوته الذي هو في العادة صوت خشن، مثير للاعصاب. ثم اضاف قائلاً:

ـ ولا يبقى الا أن أجد زوجتي، أن ألقى زوجتي العزيزة.

ولقد نطق بالكلمات الاخيرة بصوت يكاد يشبه الهمس، ولكن هذا الحزن العميق ونداء الحنين هذا اللذين كانت مشبعة بهما حملا الجميع على الصمت لحظات.

وبعد فترة يقول رجل القطب في ثقة:

ـ ستجدها. مادمت تحب هكذا، فليس يمكن أن لا تجدها.

ويتنهد التركماني من جديد فيقول دفعة واحدة:

– عال.

ثم يبدأ يهمس بشي ما بشفتيه. وينتقل الهمس الى تمتمة خافتة، ثم تسمع ميلوديا بطيئة خافتة. وتتعالى فتغدو أشد وثوقاً. انها اغنية بدون كلمات، لا نهاية لها، كصحراء كاراكوم، رنانة كالاجراس المعلقة في رقاب الجمال السائرة على الرمل سيراً رتيباً ثقيلاً. فيها الحزن والسعادة، فيها التفكير بالبيت، والغضب على العدو، وكثير مما لا تجد له الكلمات المعبرة عنه، وما يبعث في صدورنا الآن غصة حلوة معذّبة.

كان الجنود يصغون الى أغنية التركماني منحبسي الانفاس. فقد كان يسيرا على المرء أن يتخيل كل شيء دفعة واحدة، وهو تحت موجتها العريضة البطيئة.

ومن خلف النافذة يزداد النور باطراد. والعلم الابيض على الدار المجاورة يبدو نيليا كانما هو مغسول من جديد. ومن السماء ينحدر في بطء حرام عسكري رمادي.

ونخرج الى الشارع. أشباح السيارات المعتمة ترتسم بقعاً على صفحة ضباب الفجر. وكتل الدور الضخمة، كأنها الجبال، وقد زحزحتها هزة أرضية، تحجب السماء، فلا تبصر العين منها غير شريط رمادي مشرق ضيق. وتتحرك سيارتنا في القسم الاوسط من الزقاق، فاذا بسائقنا بغتة يضغط على الفرامل بحدة، ويترك المقود، ويطل بجذعه من باب السيارة... ثمة ناقلة مصفحة تقترب ببطء من الدار الكائنة في طرف الزقاق، حيث تقوم أركان حرب الجيش. ويبدو للانظار بشكل بارز علم كبير ذو لافتة سوداء مطوية طياً شديداً، يمسك به جندي الماني طويل القامة يرتدي معطفاً

أخضر فاتحاً وعلى رأسه خوذة لامعة ناتئة القمة. والى جانبه يجلس على درع السيارة الاسود، كتفاً لكتف، عدة جنرالات ألمان.

يقفز أولاً الى الاسفلت ضابطان سوفييتيان. فيشيران للالمان الى الطريق المؤدي الى الاركان. ويسير الجندي الالماني الى باب الاركان المفتوح، محنياً رأس العلم الى أمام. ويسرع الجنرالات خلفه، رافعين قبات معاطفهم، غير محولي الابصار.

ويمر كل هذا في دقيقة واحدة. وما كان الضباب قد تبدد بعد، فكان صعباً تميز وجوه الالمان.

ــ جنرالات! ــ يقول كوربوسنوف في دهشة، ولامر ما يضع يده على قلبه. ــ وفد ألماني. المدينة تستسلم.

وننهال بالاسئلة على اول ضابط ظهر على باب الاركان. فيؤكد ذلك بحركة من رأسه. أجل، انه الاستسلام!

ونهرع الى السيارة. فاذا المحرك لا يشتغل. فندفع بايدينا سيارة «الويليس» الى ما بعد الحاجز المخطط. وترتعش يدا السائق من الانفعال، فهو يتلمس الاجهزة على لوحة السيارة على العمياء تماماً.

ــ بسرعة، بسرعة الى شتراوسبرغ، الى مركز الاتصال. علينا أن نعود الى هنا حوالى منتصف النهار، لكي نذهب الى مركز المدينة عبر الممرات في المتاريس الاخيرة.

وتمضي السيارة في شوارع برلين المقفرة. وكان النور قد أشرق تماماً، الضباب يرتفع الى الاعالي، وفي السماء الحليبية اللون تسبح أشعة حمراوية من الحرائق. ويشدد كوربوسنوف سرعة السيارة باطراد. وأمام أبصارنا يمرق جنودنا بسرعة البرق على مفارق

الشوارع ، ونرى ألماناً يخرجون من بيوتهم الى الشوارع بحذر هنا وهناك.

وباتت السيارة خارج المدينة. ان هنا لمزيداً من الناس. ونتخطى جموعاً من اللاجئين.

وتدنو سيارتنا دنواً شديداً من عربة اوكرانية عالية مغطاة من فوق بخيمة مقلمة، حتى لقد كادت دواليبها تصطدم بالحصان. وعلى الضجة تبرز من العربة فتاتان على أكمام سترتيهما شريطان أحمران.

وتتمكن الفتاتان من تميز لباسنا العسكري وكتافياتنا. فتتناولان علما أحمر صغيراً، معلقاً على خيمة العربة، فتلوحان به. فنروح ننظر من السيارة، وابصارنا لا تريم، الى البصيص المتأرجح حتى تحول الى نقطة حمراء صغيرة على صفحة السماء الزرقاء واندمج كلياً بالكرة الهائلة، كرة الشمس الصباحية الحمراء، وهي تتصاعد الى قبة السماء.

سقوط برلين

اعود الى الحديث عما جرى يوم أول أيار (مايو) وفي ليلة الثاني منه، في دار المستشارية الجديدة، وفي مركز قيادة الجنرال تشويكوف.

في ذلك اليوم جاء رئيس الاركان العامة للقوات المسلحة الالمانية الجنرال هانس كريبس، برفقة بضعة ضباط، كوسيط للمفاوضة مع قائد جيش الحرس الثامن فاسيلي ايفانوفيتش تشويكوف.

جرى ذلك في حي شولنبورغرنغ، الذي يقطنه أثرياء البرلينيين، حي الاغنياء المؤلف من دور ضخمة ذات خمسة طوابق.

وقد كان حي شولنبورغرنغ، في برلين السابحة في معمعان القتال، يبدو زاوية هادئة نسبياً. كانت شوارعه مسدودة بحواجز تمنع الدخول الى مقر قيادة الجيش. والبناية التي اتخذت مقراً لقيادة تشويكوف، تتميز بكون واجهتها اقل من البنايات الاخرى تأثراً بشظايا قنابل الهاون والقذائف، وبلون جدرانها الاخضر القاتم الذي يذكر باللون الحاد لمعاطف الهتلريين العسكرية.

كان كريبس، الملحق العسكري السابق في السفارة الالمانية بموسكو، يتكلم اللغة الروسية. وقد قدم نفسه، رافعاً يده بالتحية العسكرية خابطاً كعبي جزمته، معلنا انه «يتشرف بان يسلم بتكليف من الحكومة الالمانية الجديدة مظروفاً» كان يحتوي على وصية هتلر ورسالة غوبلز. وكانت الرسالة تثبت صحة تفويض كريبس.

ومع تشويكوف كان يوجد في مركز قيادة الجيش أيضاً ممثل قيادة الجبهة جنرال الجيش سوكولوفسكي.

فسأل عن الغاية من قدوم الوسيط. فاجاب كريبس:

ـ نطلب هدنة موقتة لمدة أربع وعشرين ساعة، بغية استيضاح موقف الدول الاخرى من حكومة غوبلز ـ دينيتز الجديدة!

فاعلن سوكولوفسكي قائلاً:

ـ كلا، لن تكون أية هدنة. اننا نطالب بالاستسلام التام بلا قيد ولا شرط.

فهز كريبس رأسه تعبيراً عن أنه قد فهم، ولكنه لم يستعجل اعطاء جوابه. ولقد تكون لدى الجنرالات السوفييتيين انطباع بأن

رئيس الاركان العامة الالمانية يشعر وهو في مركز القيادة لتشويكوف أنه أكثر اطمئناناً على نفسه مما في دار المستشارية، وهو على كل حال غير مستعجل العودة الى هناك.

وكرر تشويكوف مطلب القيادة السوفييتية: لا اتفاقيات انفرادية. وليس غير الاستسلام دون قيد أو شرط.

وما كان قد بقي لكريبس من شيء غير الانصراف لتقديم تقرير الى غوبلز عن هذه المحادثة. فطلب بضع ساعات للتفكير. فوافق تشويكوف وسوكولوفسكي على هذا.

وها هي سيارة كريبس الفاحمة، المسدلة الستر على نوافذها، تتجه صوب الجبهة وذهب مع الجنرال الالماني أيضا ضابط الاشارة السوفييتي الملازم الاول زاروبنكو. وقد أخذ معه جهاز هاتف وبضع كراريات معدنية عليها شلل من الاسلاك.

جرى هذا حوالى الساعة السادسة صباحاً. وقد سار زاروبنكو مع كريبس قرابة ساعة في شوارع برلين المغمورة بأنقاض البيوت. وقد كان هذا الطريق في وقت السلم يستغرق قرابة عشر دقائق.

كان الالمان صامتين، وكان زاروبنكو أيضاً صامتا، وهو يعلم أنهم يأخذونه الى سراديب دار المستشارية. وقد يقع له هناك كل شيء! وكان طول الطريق يكر السلك ويمده الى السرداب، الى حيث كانوا يمضون بالملازم الاول معصوب العينين. وحين رفع زاروبنكو العصابة عن عينيه، دلوه على مكان، فاقام على الطاولة هاتفه الميداني.

ومضى بضع دقائق، واذا بباب غرفة زاروبنكو ينشق قليلاً. ويظهر هناك شخص قميء أصفر الوجه عليه ثياب مدنية قاتمة.

فيخطو نحو زاروبنكو بضع خطوات، وهو يعرج على احدى قدميه. ويروح هذا المدني ينظر الى زاروبنكو نظرات ثابتة لا تريم عنه، كأنما هو قد رأى شيئاً ما خارقاً للعادة ومريعاً. وبعد ذلك، ودون ان ينبس ببنت شفة، يقفل راجعاً ويعرج بسرعة صوب الباب.

ولقد عرفه زاروبنكو. انه غوبلز.

وفيما كان ضابط اشارتنا جالساً قرب جهاز الهاتف، بانتظار اخبار ما من دار المستشارية، كان يجري في مكتب غوبلز، القائم في أسفل طوابق الملجأ، اجتماع كان يحضره بورمان، وكريبس، وفايدلينغ. وكان يدور فيه الجدل حول ما اذا كان ينبغي الاستسلام دون قيد أو شرط.

كان غوبلز يصر قائلاً:

– لقد امرنا الفوهرر بأن نقاتل حتى النهاية.

وكان بورمان موافقاً على رأيه. وكان كريبس يؤثر الصمت. وما كان يعارض غوبلز غير فايدلينغ.

كان ينوه بان برلين قد اصبحت بدون ماء، وبدون نور، وبدون محطات اذاعة. وقد حشد الروس لانزال الضربة الاخيرة على منطقة أنتردين ليندن أكثر من خمسمئة مدفع.

ودون أن يجيب على ملاحظة فايدلينغ كرر غوبلز بعناد قائلاً:

– الفوهرر لم يسمح لنا بالاستسلام.

واذ ذاك اعلن قائد حامية برلين أن المدينة، في رأيه، لم تعد تستطيع الصمود. الا أن غوبلز كرر أمره بالمقاومة.

وبعد هذا الاجتماع ذهب كريبس الى جهاز زاروبنكو، واتصل الملازم الاول بمركز قيادة جيش الحرس الثامن، فابلغهم أن كريبس يطلب استقباله من جديد.

وحين وصل كريبس للمرة الثانية الى تشويكوف عرض عليه مطلب الحكومة الالمانية الجديدة: يلقي الالمان السلاح، اذا ما ترك الروس تحت إمرة غوبلز ذلك القسم من برلين الذي هو الآن تحت اشراف القوات الالمانية.

وفي هذه المرة أيضاً تلقى كريبس الجواب:

ـ ما من شروط البتة. الاستسلام!

فقال كريبس لتشويكوف:

ـ ولكنكم تدركون، أيها السيد الجنرال، أننا لا نستطيع البتة البقاء بدون أرض. ان حكومتنا المحرومة من الارض، تصبح اذ ذاك أشبه بالحكومة البولونية في لندن. ان هذا غير ممكن تصوره، ومضحك.

فأجاب تشويكوف ضابطاً نفسه، الا انه مقطب الجبين:

ـ المضحك شيء آخر. المضحك هو أن غوبلزكم يطلب ابقاء أرض له. اما ترى قد فات أوان هذا الذي خطر لكم؟ أما بشأن بولونيا، فلست أرى في ذلك أي مجال للمقارنة. ان هتلر قد هاجم بولونيا كقطاع الطرق.

ومن جديد بدأ كريبس يقول:

ـ ولكن، أيها السيد الجنرال...

فاوقفه تشويكوف بحركة حادة:

ـ لا نريد الكلام عن أية حكومة فاشستية جديدة لكم فعلكم

أن تستسلموا على الفور وبدون أية شروط. والا فان جنودنا سيقتحمون دار المستشارية ، وستقع في برلين ضحايا جديدة.

وحاول كريبس من جديد تعليل مطلبه. ولكن بات واضحاً أن قدومه الثاني انما كان يقصد منه كسب الوقت. وتشويكوف الذي كان يدرك هذا، كان في هذه المرة أقل ميلا لاطالة المفاوضات مما كان قبل. ومع ذلك، فقد قبل، بناء على التماس كريبس، الاصطبار بضع ساعات أخرى، لحين ذهاب كريبس الى دار المستشارية لتقديم تقرير الى غوبلز والتشاور معه.

رافق كريبس الى خط الجبهة الضابط السوفييتي، الرائد بيلووسوف. وقد اجتاز الى جانب كريبس قرابة كيلومتر، حاملا في يده اليمنى علما صغيراً أبيض. وعند حاجز الاسلاك الشائكة، حيث فتح ممر لكريبس، سار الجنرال الالماني في المقدمة، أما بيلووسوف فقد ظل واقفاً في الساحة الصغيرة المكشوفة. وطبيعي أن جميع الهتلريين، في ذلك الجانب المقابل من الاسلاك الشائكة، كانوا يرون علمه الابيض الصغير، علم الوسيط.

وما كاد كريبس يغيب عن الانظار حتى راح الهتلريون يطلقون النار على بيلووسوف من بنادقهم الاوتوماتيكية. فاصيب الرائد بجراح قاتلة وسقط على الطريق. فاجاب جنودنا باطلاق النار على خنادق العدو. وهرع رجال الاسعاف الى بيلووسوف، ولكن كان قد فات الاوان. وقد قال بيلووسوف وهو يلفظ انفاسه الاخيرة:

ـ أولئك هم الفاشست. فلا تصدقوهم!

وبما أن الجواب من كريبس لم يصل في وقته المحدد، أمرت القيادة السوفييتية بفتح النار على دار المستشارية.

وفي ذلك الوقت، مساء الاول من أيار (مايو) في الساعة التاسعة والدقيقة الثلاثين، عقد فايدلينغ الاجتماع الاخير لضباط أركان حرب الدفاع عن برلين. وهناك عرض نتائج مقاومة القوات الهتلرية الخرقاء الدامية فى برلين.

وكان ضباط اركان فايدلينغ يصغون اليه صامتين. وما كان ثمة من معترض.

وليلة الثاني من أيار (مايو) كان ينزل مطر خفيف مزعج. وكانت السماء مغطاة بالسحب. وكانت المياه في قناة لاندفير تبدو كثيفة، كالحبر، فما كانت تعكس كالمألوف أشعة النجوم الكامدة. وفي العتمة كانت تبدو النصب التذكارية نصف المتهدمة فيتيرغارتين، على الساحة المواجهة للريخستاغ، أشد ضخامة وثقلا. ومن بعيد كان يبدو شبح جسر بوتسدام كأنه الغول المخيم فوق الماء. كان الجو في برلين داكنا قاتماً.

وفي تلك الليلة التقط جندينا العامل على اللاسلكي الموجود في قبو على مقربة من تيرغارتين، نصاً مفتوحاً لنبأ مذاع باللغة الروسية عن الاستسلام.

وفي الوقت المعين ظهر على الجسر العقيد الالماني تيودور فون دوفين، وقد تبين أنه رئيس اركان فيلق الدبابات الثامن والخمسين. فقدم لضابطنا رسالة من فايدلينغ جاء فيها أن العقيد الركن فون دوفين مكلف باسم فايدلينغ وباسم القوات الموجودة تحت امرته بالابلاغ عن أن أركان حرب الدفاع عن برلين قررت الاستسلام.

وبعد بضع ساعات، حين بزغ الفجر فوق برلين، وبدا كأن البيوت الضخمة تنبثق من قلب الضباب، ساعة بدا الهواء المنعش فوق المدينة نيلياً، فهو لهذا أكثر برودة، أبصر جنديان روسيان في أحد قطاعات المواقع الامامية شخصاً غريباً.

فقد كان ثمة أحد ما، في بزة ضابط ألماني، يتسلل قرب جوار بيت متهدم، يكاد يزحف زحفاً.

فصاح الجنديان بالالمانية وبالروسية:

– ارفع يديك!

فانتصب الضابط واقفا. ورأى الجنديان شارات رتبة الجنرال على الكتفين وصلبانا على الصدر. وكان الجنرال يمسك بيده قطعة من النسيج الابيض.

– استسلام! – قال الجنرال باللغة الروسية. فأخذوه على الفور الى مقر اركان القطعة. وكان هذا فايدلينغ. وقد وصل الجنرال فايدلينغ الى مقر أركان تشويكوف مع جنرالين آخرين هما فيتاش وشميدت – دانكفارد، اللذين سلما نفسيهما أيضاً للاسر في ذلك الوقت. وكانا قد جاءا الى البيت مباشرة على ناقلة مصفحة مع جندييهما للخدمة. وكان الجنديان الالمانيان لابسين خوذتين لماعتين.

وهؤلاء هم الذين رأيتهم فجر الثاني من أيار (مايو) حين كنت ذاهباً بسيارتي الى مركز الاتصال في شتراوسبرغ.

وفي مكتب تشويكوف، حين استعاد فايدلينغ وعيه بعد اغماءة قصيرة (اذ انهارت اعصابه)، افاد بان غوبلز وكريبس قد انتحرا، اما مارتن بورمان فقد اختفى من سراديب دار المستشارية في الساعات الاخيرة بصورة غير ملحوظة.

وقد كان فايدلينغ نفسه من شدة الانفعال بحيث لم يكن في وسعه أن ينشئ على الفور أمراً بالاستسلام. فقد ظل جالسا قرب الطاولة صامتاً قرابة ثلاثين دقيقة. وبعد ذلك فقط، حين هدأ روعه بعض الشيء، وقع أمراً صاغه له العقيد الالماني ريفيور بشأن استسلام جميع القوات الموجودة في برلين.

الثاني من أيار، بعد الظهر

منذ بضع ساعات والمدافع صامتة. وما كان النبأ قد صار في علم الجميع، ولكن الاكثرية تحزر. لقد حلت النهاية! المدينة ما تزال تشتعل فيها النيران. والجو فوق المدينة مشحون بالدخان. أشعة الشمس تشق طريقها الى الارض بصعوبة، كأنما هي تمر عبر زجاج مغبش ويقدر المرء تقديرا أن ثمة، خلف الغيوم القاتمة، زرقة السماء الربيعية التي لا نهاية لها.

وندخل بسيارتنا شارعاً ضيقاً يسده حاجز مخطط. أول ما يواجهنا الى اليمين بيت صغير من الخشب له أعمدة وحديقة صغيرة مسيجة . وعند الباب المؤدي الى فناء البيت يقف خفراء. ويستقبلنا رئيس الحرس، وهو ملازم من سلاح المدفعية. وعلى قميصه الحائل اللون من لفح الشمس شرائط ذهبية دلالة على الاصابة بجراح.

ـ هل حاكم برلين عندك تحت الحراسة؟

ـ اجل، هنا ـ قال الملازم مبتسماً.

كان الجنرالات جالسين في غرفة نصف معتمة مسدلة الستائر خلف طاولة طويلة. جميعهم يرتدون بزات العرض بكامل شرائط

الاوسمة الملونة والصلبان الحديدية. الاول الى اليمين يجلس فايدلينغ. تقاطيع وجهه ضخمة، وانفه جسيم منحدر الى أسفل، وشعره أسود أملس. ومن جميع مسام وجهه كان ينضح الاعياء والتعب. ولو لا كتافياته، لبدا الآن بورجوازيا في لباس عسكري مستعار.

وقد لفت نظري أن فايدلينغ، ويا للغرابة، لا يلبس لبس جنرال: فهو يرتدى بنطالاً رمادياً مهترئاً، وجرابات رمادية ايضاً طويلة خيل الي أول الامر انها قلاشين جندي. وسترته متسخة لم تنظف منذ وقت بعيد. فلا بد أن المدافع الاخير عن برلين لم يكن لديه في الايام الاخيرة متسع من الوقت لكي يرتب بزته التى كان من شأنه، لو استطاع، أن يطرحها بسرور، على الارجح، في أول حفرة يلقاها.

كنت أنظر الى فايدلينغ وأتذكر أن هذا الجنرال المعمّر الذى عركته السنوات والاحداث عركاً شديداً، والذي عينه هتلر بحكم تجمع ظروف عابرة، حاكماً عسكرياً أخيراً لبرلين، كان يوشك أن يحكم هتلر أيضا باعدامه رميا بالرصاص بسبب كارثة الجيش الالماني التاسع عند بوبرويسك.

صحيح أن هتلر قد ألغى أمره بعد ذلك، ولكن في وسع المرء أن لا يداخله الشك في أن هلموت فايدلينغ قد عانى الخوف الشديد وهو ينتظر تنفيذ الحكم، وظل وقتاً طويلا يتذكر المزاج الحاد الجنوني، مزاج الفوهرر المصروع، الذي كانت أوامره تزدان بالعبارة الحبيبة لديه: «يعدم رمياً بالرصاص»!

ليس يصعب على المرء أن يحزر لماذا وقع اختيار هتلر في تلك الايام الاخيرة للامبراطورية الفاشستية على فايدلينغ بالذات.

ففي ذلك الوقت لم يكن تحت يد هتلر ضابط خبير غيره، وقد كان فايدلينغ اثناء الحرب العالمية الاولى قائداً لمنطاد «تسيبيلين». وكان في بولونيا قائداً لفوج من المدفعية، وفي فرنسا كان قائداً لمدفعية الفيلق.

ولقد جاء فايدلينغ الى الجبهة الشرقية أيضاً، الى روسيا. الا أنه كان هنا يتراجع بصورة رئيسية. فقد تراجع عن موسكو، وعن قوس كورسك، وهرب من ضواحي بوبرويسك، تاركا «القطعات الموكولة اليه»، وتراجع عن بروسيا الشرقية، وعن الاودر، وتراجع، أخيراً، في برلين، مسلما للقوات السوفييتية حياً بعد آخر.

وهكذا ظل يتراجع ويتراجع، الى أن وجد نفسه في حي يوغانيستال، في بيت صغير جالساً أمام ميكروفوننا، ينظر اليه الآن نظرة هادئة عبوسة، نظرة شخص محطم المعنويات كئيب.

وكان جار فايدلينغ جنرالاً ما يزال شاباً نسبياً. وقد التفت الينا بكل هيكله. واني لاتذكر وجهه المنعّم المتعالي المكتنز بالشحم، على عينه اليسرى مونوكل. وقد كان هذا الجنرال يهز رجله في جزمة ملمعة هزاً عصبياً، ثم يهب واقفا ويروح يتمشى في الغرفة، فيسمع من تحت اقدامه صرير بلاط الغرفة الخشبي.

والى جانب فايدلينغ كان يجلس جنرال عجوز متقاعد، باسطا أمامه كفيه النحيلين، غير رافع رأسه. فما كان ينظر الينا، ولا كان ينظر الى فايدلينغ، انما كانت عيناه عالقتين بنقطة ما. ومع أنه كان طول الوقت صامتا، فقد كانت تنبعث منه موجة من العداء تكاد تحس جسدياً.

وكنا قد جلبنا معنا مرافق فايدلينغ، وهو ضابط شاب. وفيما

كنا نرتب الجهاز، راح يتحدث للجنرالات عن الوضع في المدينة. وكان المرافق قد وزع أمر الحاكم العسكري على قطعات حامية برلين. التسليم للاسر يجري بالجملة. فكان المرافق يعدد الاحياء وارقام القطعات، والجنرالات يستمعون صامتين.

... كان فايدلينغ، وهو يوقع امر الاستسلام في مكتب تشويكوف، يشك في موقف قطعات الحرس الهتلري الخاص، ويتساءل في نفسه هل ترى ستنفذه. وقد صرح بأن ليس له من سلطة على قطعات الحرس الهتلري الخاص.

وقد قال تشويكوف في اقتضاب:

«نحن انفسنا سنرغم هؤلاء على الاستسلام».

ولكن سرعان ما عثر على نائب غوبلز في وزارة الدعاية فريتشي الذي عجز عن الفرار من دار المستشارية. ولقد أعرب هذا عن الرغبة في ان يخاطب رجال الحر س الهتلري الخاص بالراديو.

وقد جلبوا فريتشي الى مقر تشويكوف. فابصر القائد السوفييتي امامه رجلا طويلاً نحيلاً ذا أنف أعقف ضخم. فسأله تشويكوف وهو ينظر نظرة ارتياب الى الطقم الحدادي القاتم الذي يرتديه هذا السيد:

ـ هل تطيعك قوات الحرس الهتلري الخاص؟

ـ طبعاً، فانا شخصية مرموقة في المانيا!

وقد انعكس على وجه فريتشي المتزلف شيء ما من قبيل الشعور بالمهانة. فكيف لم يتسنّ لهذا الجنرال الروسي أن يسمع عنه، هو، هانس فريتشي، القائد السياسي للاذاعة الهتلرية؟ ان شخصيته يمكن ان يؤكدها مستشار وزارة الدعاية خايريخسدورف،

والناشر الفاشستي كريغك، والعاملة الخاصة على الآلة الكاتبة لدى غوبلز كورتسافا، الذين وقعوا في أيدى الجنود الروس.

فقال تشويكوف ملوحاً بيده:

ـ طيب! خذوهم الى جهاز الارسال. وليتكلم اذا كان ثمة ضرورة لذلك.

...لم يتح لفريتشي أن يتكلم من الاذاعة. فقد راحت قوات الحرس الهتلري الخاص تستسلم بطيبة خاطر وبسرعة كالقوات الاخرى. ولكن ها هو ميكروفوننا موضوع على الطاولة امام فايدلينغ في النصف الثاني من نهار الثاني من ايار (مايو).

كان فايدلينغ جالساً محني الظهر بعض الشيء، باسطا كفيه الراجفين على غطاء الطاولة الاحمر.

وقد سأل باقتضاب:

ـ راديو؟

ـ أجل، هذا التسجيل للصوت، وسترسل الاسطوانة الى موسكو، ومن هناك ستبثها محطات الاذاعة على الاثير.

وكرر فايدلينغ عبارة «الى موسكو»، واحنى رأسه موافقاً. ونطق بضعة جنرالات بهذه العبارة همساً.

كان فايدلينغ يدعك بين أصابعه نص أمره الى حامية برلين، المطبوع على ورق رقيق.

ـ أقرأ ـ قال له سباسكي.

وساد الغرفة السكون. وراحت أسطوانة الجهاز تدور برشاقة وخفة، والابرة الماسية تخدش طلاء الاسطوانة، وتركض عليها قشة رفيعة فضية اللون. وراح فايدلينغ يقرأ:

«الى جميع الجنود المحاربين في برلين. لقد انتحر الفوهرر وتركنا، نحن الذين أقسمنا على الوفاء له، لمشيئة الاقدار».

كان العامل الفني ينظر بالمجهر المضاء الى خطوط تسجيل الصوت. وبأصابعه يرفع القشة بحذر. وكان الجنرال الجسيم متجمداً كأنما هو مسمّر لصق الطاولة. وما عاد كفاه يتراقصان على الطاولة. كانا منبسطتين كانما هما مسحوقان. وواصل فايدلينغ القراءة بصوت جاف:

«ان برلين ينقصها السلاح، وتنقصها الذخائر. وكل يوم من المقاومة يزيد الى درجة لا تقاس من آلام الاهلين والجرحى لدينا. وكل من يقتل في برلين في هذه الايام انما يضحي بنفسه عبثاً...

وبناء على طلب القيادة السوفييتية، اقترح وقف القتال».

كان فايدلينغ ينظر الى الجهاز وهو، على ما يبدو، لا يفعل ذلك الا لكي لا يرى جنرالاته. وكانت نظرته ذاهلة فارغة.

ودوّت في الغرفة قرقعة الكراسي وهي تتحرك من اماكنها، ووشوشة الجنرالات المخنوقة، وفجأة وعلى نحو مباغت للالمان، سمع من المكبّر صوت فايدلينغ جهورياً وجلياً:

«الى جميع الجنود المحاربين في برلين...».

فارتعد فايدلينغ وابتعد غريزياً عن الجهاز. وقال المرافق للجنرال العجوز شيئاً ما وهو منحن على الطاولة. وتجمدا في منتصف الكلمة. وكنت ارى وجهيهما معاً في آن واحد ـ الوجه الشاب، المصطبغ بحمرة الدم، والوجه العجوز الشاحب الذابل الجلد كأنه جلد رق.

وراحت الاسطوانة تتكلم. لم يعد صوت فايدلينغ ملكاً له. وتراخى الحاكم مستنداً على ظهر الكرسي. واستندت راحتاه على طرف الطاولة على نحو تشنجي، فكأنما كان يريد دفعها عنه. أغلب الظن أن الحاكم قد بدا له: الآن تسمعه برلين، وألمانيا، وأوروبا، والعالم يسمع صوته الآمر بأن تستسلم برلين للروس.

وقال سباسكي:

ـ ينبغي تسجيل اسطوانة اخرى تحسباً للاحتمالات. ـ ومن جديد اقترح على فايدلينغ أن يعيد قراءة النص... ومن جديد، راح فايدلينغ يقرأ، مسدلاً رأسه، بصوت بات الآن متقطعاً. حتى أن الجنرال الجسيم المتعالي بات عاجزا على الجلوس باستقامة على كرسيه. فكأنما ثمة من يحني رقبته السميكة الحمراء الى الاسفل. وشملنا بنظرة حاقدة...

وأغلق سباسكي محرك الجهاز، وخرجنا من الغرفة نصف المعتمة. و مضى بسيارتنا الى خارج المدينة شارع فرانكفورت المستقيم كالسهم. وأثناء الطريق تخطينا موكب أسرى الحرب. كانوا للتو قد القوا السلاح. وكان الموكب ينطلق من مكان ما قرب الريخستاغ، وأما مقدمته فمتوارية بعيداً في الطريق خارج المدينة. وكان الاسرى يجرجرون أقدامهم على الاسفلت، رافعين نعالهم بجهد ومشقة، كأنما جادات برلين مطلية بالصمغ. والى جانب السيارة كان صوت الاقدام المتجرجرة لا ينفك يجري برتابة. وأما من الجهة المقابلة فكانت الدبابات السوفييتية تسرع الى المدينة مقعقعة وتتدحرج المدافع، وسيل لانهاية له من السيارات يجري ويجري...

في فناء المستشارية

وصلنا دار المستشارية قبيل المساء من اليوم الثاني من أيار (مايو). كانت الشمس تغرب، ووهج المغيب الاصفر، المنير لنصف السماء، يندمج بنيران حرائق برلين.

ظلت سيارتنا وقتاً طويلاً تشق لنفسها الطريق عبر الممرات في المتاريس وبين الانقاض، وعبر الحفر الناجمة عن القذائف، وقد حدث لها في بعض الاماكن أن دفعت بالايدي الى أن وصلنا الى البناية الطويلة الرمادية التي تشغل حيا بكامله.

وكانت هذه تسمى بدار مستشارية هتلر الجديدة ــ الهيئة الحكومية المركزية السابقة لالمانيا، والمقر الرئيسي لاركان حرب الهتلريين زمن المعارك في سبيل برلين.

وما كان لون المغيب الذهبي لينعش منظر المدينة. فقد كان كل شيء حولنا يبدو عابساً كئيباً.

وقد خطرت في ذهني مقارنة، اوحتها لي صورة بعيدة عن مشهد المدينة المتهدمة. لقد كانت بناية المستشارية أشبه بجبل جليدي عائم. القسم الاكبر منها غير مرئي، فهو يتكون من هذه الطوابق السبعة التي كانت هذه الدار موغلة بها تدريجياً تحت الارض.

وكان القسم تحت الارضي من هذه العمارة يمثل ملجأ ضد الغارات الجوية من فوقه طبقة من الاسمنت ثخنها ثمانية أمتار. وكان هذا يسمى «سرداب هتلر». وقد كان يشغل نصفه هتلر وطبيبه الخاص موريل، والجراح شتومبفيغر، وايفا براون، وكذلك الكلب بلوندي. وكان يسكن النصف الثاني الطباخون، وخدم هتلر ووصيفه الخاص.

ومنذ أن أخذت تنزل ببرلين ضربات قاذفات الحلفاء الشديدة، نقل هتلر مكتبه الى أعماق السراديب، وهناك، تحت كتل الباطون، في سكون المخبأ الخانق القاتم، كان هتلر يعقد الاجتماعات مع الجنرالات ومع زعماء الحزب النازي.

وفي ذلك اليوم، اذ كانت ما تزال تحترق البيوت حول دار المستشارية، وفي داخلها يئن الجرحى الهتلريون، واذ كانت قطع الاثاث تحترق فى الكثير من غرف دار المستشارية — في ذلك اليوم كانت ما تزال ترتفع من الاقبية سحب الدخان والحرائق الخانقة.

بصريح العبارة، لقد كان النزول الى الاقبية رهيباً. فمن الذي يرغب في أن يقتل في اليوم الذي تستسلم فيه برلين! فقد كان يمكن بالطبع لقطاع الطرق الهتلريين أن يطاقوا النار أو يطعنوا بسكين من زاوية معتمة ويختفوا فوراً في متاهة الغرف نصف المتهدمة، المشحونة بالدخان والروائح النتنة الى درجة أنه لم يكن بالامر المستغرب أن يموت فيها المرء اختناقاً.

ولكننا قررنا مع ذلك ان نطلع في العمارة التي ما تزال تحترق على ما كان يمكن الاطلاع عليه بسرعة خاطفة. فقد كنا في لهفة لأن نكون هنا من الاولين. فكأنما كنا نحدس بأن هذه البناية ستصبح بعد شهر أو شهرين بالنسبة لمن سيأتون الى برلين مما يكاد يثير أعلى درجات الفضول مثل الريخستاغ أو جادة أنتر دين ليندن وبوابة براندنبورغ القائمة فيها.

وقد ظللنا وقتاً طويلاً نشق طريقنا الى مكتب هتلر، يجتذبنا الفضول وذلك الشعور القوي المعقد الذي كان ينطوي على التعطش للاخذ بثأر ما من هتلر شخصيا — ولو بالمرور بالجزمة في مكتبه،

ورؤية جثته بأم العين. وينبغي الاعتراف بأن في نفوسنا كان يكمن ضعف بشري معروف، هو، على ما أعتقد، الغرور الذي له ما يبرره في تلك الايام، والرغبة الطبيعية في الحصول من مكتب هتلر على شيء ما للذكرى عن معارك برلين، لعرضه بعد كثير من السنين على الاولاد والاحفاد.

كان الممشى الطويل المؤدي الى مكتب هتلر نصف متهدم. وكانت نوافذه مسدودة بأخشاب، وهنا وهناك كتب مأخوذة من مكتبة الفوهرر الخاصة.

وطبيعي أن لم يكن لدينا متسع من الوقت لتفحص الكتب. وقد كان هناك الكثير من الكتب المهداة «الى الفوهرر العزيز»، وعلى الارض كانت تتبعثر نسخ من كتاب «كفاحي» مسحوقة بالاقدام وممزقة.

وفوق كومة من أكوام الكتب هذه منطرحة جثة شخص شبيه لهتلر في الظاهر. ولكنه لم يكن هتلر بل واحد من اشباهه. ويبدو أن عددهم قد بلغ الستة في مماشي دار المستشارية. وكان المقصود من جثث الاشباه تضليل كشافينا عن جثة هتلر ذاته.

وكان الاشباه قد قتلوا رميا بالرصاص بعد موت هتلر، وبامر منه. فلقد أستمر هتلر يقتل وهو ميت!

وقد بدا شق الطريق الى باب المكتب أمراً غير يسير، لأن الارض في الممشى كانت في بعض الاماكن منهارة، ومن السقف كانت تتدلى قطع من الباطون وتبرز أضلاع القضبان المعدنية. وقد اقتضى الامر البحث عن طرق ملتوية عبر الغرف والمكاتب الاخرى لامناء سر الفوهرر ووزرائه.

كان المكتب نفسه – وهو غرفة كبيرة مستطيلة عالية النوافذ في زاويتها مدفأة في الحائط – مدمراً بالقنابل تدميراً شديداً. وكان السقف منهاراً في بعض الاماكن. وعلى الارض كان يتبعثر الاثاث المحطم المتسخ بنثار الجص من السقف.

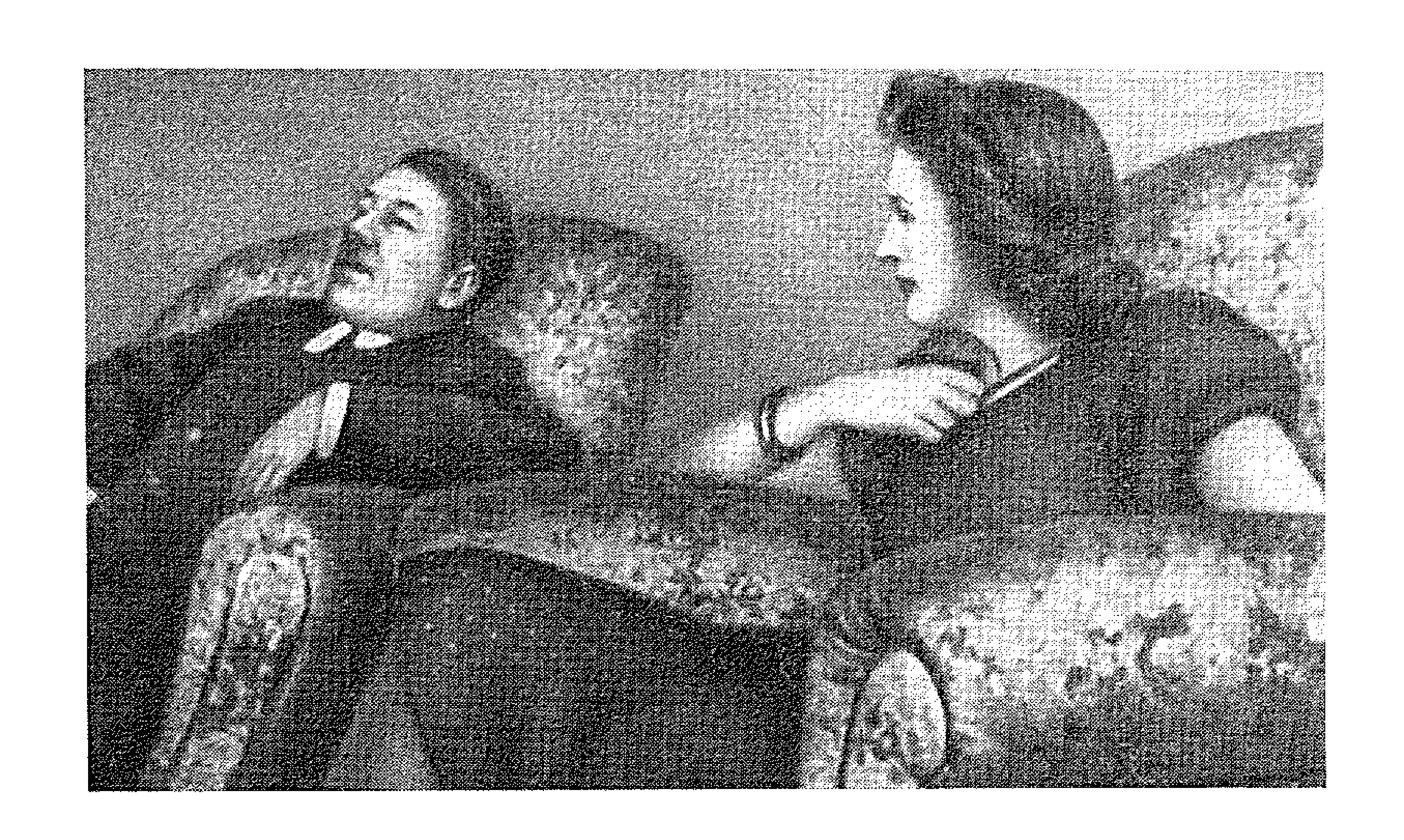
ومن العجيب أن المصابيح الجدارية كانت سليمة – من أجل الاضاءة . وتجدر الاشارة بالمناسبة الى أن محطة توليد الكهرباء تحت الارض، وتمديدات المياه ومركز الاذاعة، كانت تعمل هنا بشكل مضبوط، وذلك في الوقت الذي كان فيه البرلينيون يعيشون بدون ماء وبدون نور.

وقرب جدار المكتب البعيد كانت قد انهارت على الارض كرة مكسرة كبيرة الحجم. وكانت الكرة عادة موضوعة على قاعدة ضخمة قرب طاولة الكتابة. وكان هتلر مشغوفا بان يحسب عليها مخططاته. فعليها رسم ذهنياً دروب مسير حملاته اللصوصية. وكانت الكرة تدور بيسر وسهولة. وكان هتلر يحلم بالسيطرة العالمية.

والآن كانت الكرة مطروحة على الارض. وتبدو عليها بجلاء آثار من ضربات جزمة. قد تكون هذه جزمة رجل من رجال الحرس الهتلري الخاص لعن هتلر وهو في حالة اليأس، قبل أن يموت. أو هي، بالاحرى، جزمة جندي روسي وهو يطرح جانبا هذه الكرة الخرقاء التي تسد الطريق.

ولقد تصدعت الكرة الآن، وأما جثة صاحبها السابق فكانت مطروحة على مقربة في حفرة من حفر القنابل.

في تلك الايام وفيما بعد راج حول موت هتلر الكثير من التخمينات والروايات. ومع مر السنين ظهرت معلومات جديدة.



المنتحران.

وفي الخامس والعشرين من تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٥٦، أكدت محكمة برختسغادن الادارية موت هتلر، في قرار رسمي صدر عنها.

وقد ورد وصف مسهب لهذا المشهد في دراسة روزانوف «أيام هتلر الاخيرة»:

«...لقد ظل هتلر اميناً لنفسه حتى النهاية: انه لا يريد أن يموت لوحده. ويعرض على ايفا براون النبأ الملتقط للتو من الاذاعات الغربية عن مصير موسوليني. وقد جاء فيه أن الانصار الايطاليين قد القوا القبض على «الدوتشي» مرتديا معطفاً المانياً ومعه عشيقته كلارا بتراتشي على أطراف بحيرة كومو. فاعدما كلاهما على الفور رميا بالرصاص، ونقلت جثتاهما الى ميلانو. وهناك علقتا، ورأساهما الى تحت، عند محطة لبيع البنزين على ساحة لوريتو، وراح سكان المدينة يمرون من هناك بالتعاقب، ويبصقون على جثتي الطاغية الفاشستي وخليلته.

فتقع ايفا براون في حالة من الخور التام: ذلك اذن ما ينتظرها اذا هي وقعت في يد العدو. فتتمتم بصوت لا يكاد يسمع قائلة بأن يؤتى لها بالسم هي أيضاً. ويروح هتلر يلقي خطاباً متفصحاً يضع فيه «اخلاص» ايفا براون في مواجهة «خيانة» الشعب الالماني.

بيد أن هتلر ما يزال يتباطأ، فهو يعلق امله على شيء ما. فان هذا السفاح، الذي كان يبعث الى الموت بالملايين من الناس دون أن يرفّ له جفن، يظل الآن وقتاً طويلا دون أن يعتزم القضاء على نفسه.

وبعد منتصف نهار الثلاثين من نيسان (أبريل) فقط... حزم هتلر امره اخيراً... بعد الغداء، حيث كان يجتمع عادة أكثر المقربين لهتلر من الشخصيات، كان يسود في هذه المرة صمت كصمت القبور: كان وجود الميت الحي يكبل الجميع. كانوا جميعاً ينتظرون بفراغ صبر متى سيحل هتلر أغلال أيديهم أخيرا. وتجرجر هتلر وايفا براون الى غرفتهما. وكان هتلر، في أول الامر، قد سمم كلبته وجراءها الاربعة لكي يتحقق من مفعول السم. بيد أن القاتل الضاري ما يزال يتماهل في جبن. أخيرا، يتغلب الخوف من الوقوع في أيدي الحلفاء حياً ومن العقاب على ما ارتكبه من جرائم — يتغلب على كل شيء. وعند الباب يقف بورمان وأكسمان وخادم هتلر الخاص لينغي في فراغ صبر، منقلين قدما اثر قدم. وا خيرا تشير الساعة الى الثالثة والنصف. وتلعلع طلقة رصاص.

...لقد انتحر هتلر باطلاق الرصاص في فمه. وقضت ايفا براون نحبها بتجرع السم.

وتبادر مجموعة من ضباط الحرس الهتلري الخاص مؤلفة من

لينغي وغيونشي وغيرهما، فيسحبون جثة هتلر من فوق الاريكة ويلفونها بسجادة مفروشة على الارض. وبعد ذلك يجرون حملهم عن طريق مخرج للطوارئ على سلم ذي اربع درجات، الى حديقة دار المستشارية. ويصل بورمان خلفهم بجهد ومشقة وهو يجر جثة ايفا براون وقد القاها على كتفه. وفي الحديقة يؤلف رجال الحرس الخاص سلسلة فيتناقلون الجثة من واحد لآخر بسرعة، أقرب فأقرب الى حفرة كبيرة احدثتها قنبلة. وهناك يضعون الجثتين احداهما قرب الاخرى ويصبون عليهما البنزين بسرعة، فيشعلونهما. وبفضول ابله ينظر رجال الحرس الخاص الى الدخان كيف يرتفع والى النتانة كيف تنتشر من ذلك الذي ظل اثني عشر عاماً، كالطاعون، يسمم العالم...»

كان ذلك القبر الذي حفرته القنبلة لهتلر قائماً في فناء دار المستشارية وسط اشجار وشجيرات غير كثيفة. وقد أكتشفت الجثة فيه بعد بضعة أيام، حين تم القبض على رجال الحرس الهتلري الخاص الذين أحرقوا جثماني هتلر وايفا براون. فلقد كان هؤلاء السفاحون الذين استولى عليهم الهلع على حياتهم جد مستعجلين. كان هتلر، بعد أن صب عليه البنزين، يحترق ببطء. أما ضجيج قصف المدفعية الروسية فكان يدوي بشدة متزايدة!

وفي الثاني من ايار (مايو) كنا نرى الكثير من الجثث في هذه الحديقة التي سماها الالمان أنفسهم «حديقة المنتحرين». فقد كان رجال حاشية هتلر يهرعون من السراديب الى هذه الحديقة لكي يتجرعوا النسمة الاخيرة من الهواء النقي ويطلقوا الرصاص على جباههم.

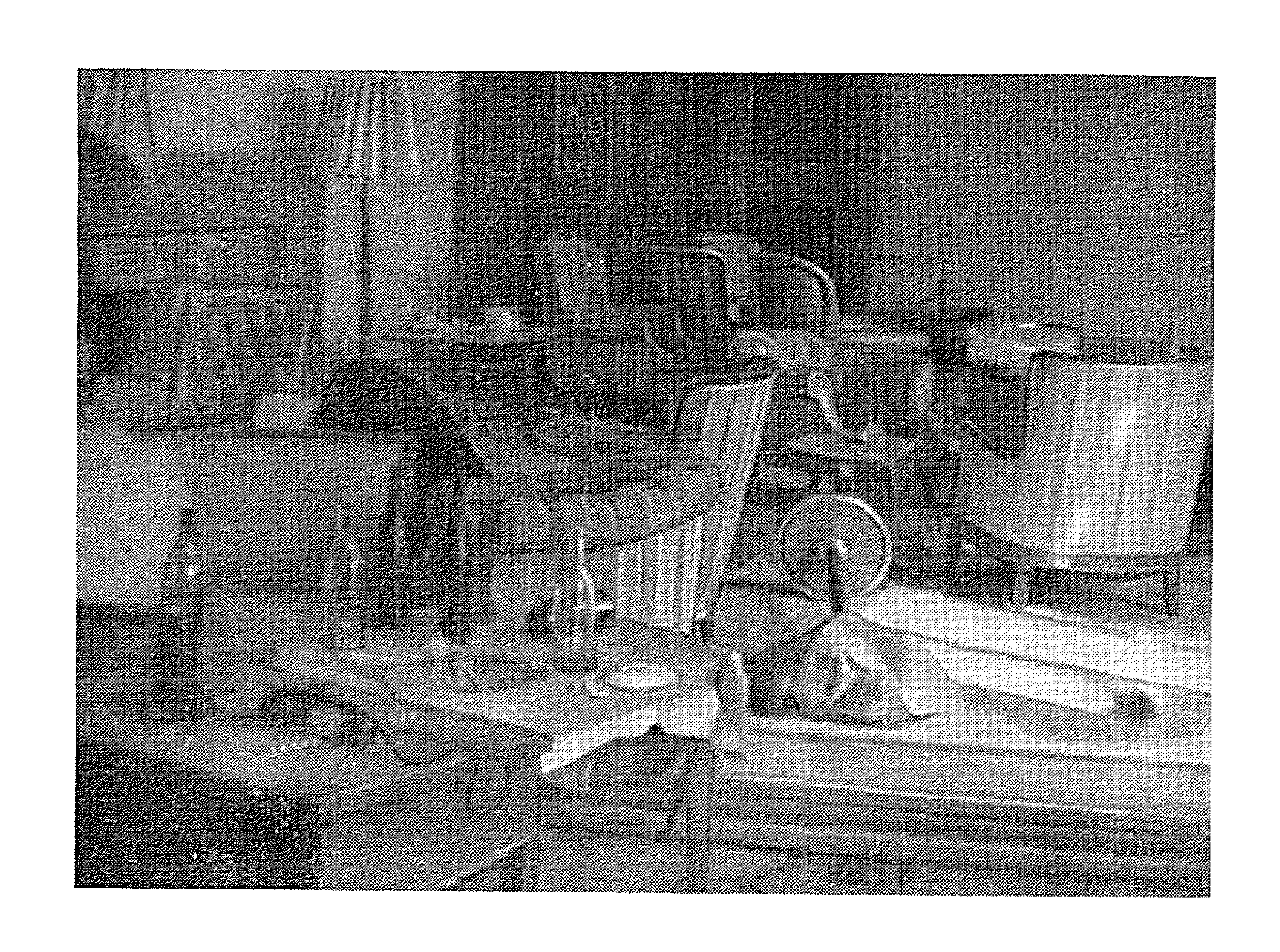
لقد كانت جثث المنتحرين منطرحة هنا تحت كل شجيرة تقريباً. وأما الشجيرات الصغيرة، المكسرة المجرحة بفعل شظايا القنابل، فقد كانت مع ذلك تشرئب الى النور، الى الشمس، الى دفء الربيع. وفي «حديقة المنتحرين»، هي أيضا، في تلك الايام من ايار (مايو)، كانت الارض تستيقظ ويزهر الليلاك. كانت الحياة تحل محل الموت! ولقد كان طبيعياً كل هذا. «طبيعياً»، كما كان يقول جنودنا.

وفي ذلك اليوم نفسه، شهدت في فناء دار المستشارية الامبراطورية جثة غوبلز المتفحمة. لم يتمكن رجال الحرس الهتلري الخاص من اخفائها، ربما لأن غوبلز قد تأخر بالانتحار، وكان مأمنه أدنى دركاً من جميع الاقبية، فامضوا وقتاً طويلاً في جر جثته الى الفناء.

لقد سمم غوبلز أولاده، وهم بنات وصبية من مختلف الاعمار. وها هي جثته الآن منطرحة امامنا على الارض نصف محترقة. و كانت الارض من حولها تبدو سوداء كأنما هي متشبعة بالمازوت أو البنزين. ولقد رأيت الجمجمة ذات الشكل المستطيل السعداني الشاذ، والرجل القصيرة وعلى كعبها لوحة نحاسية حمراء.

وقد كان جنودنا وضباطنا، وهم يتطلعون في فضول عفوي، يلمسون بقرف تلك القناني التي تفوح برائحة البنزين الحادة، وقطع القماش، والاحذية النسائية، وأقلام الرصاص الملونة الساقطة من جيب طقم غوبلز.

ولقد تذكرت في تلك اللحظة صورة فوتوغرافية سبق لي أن رأيتها في ألبوم يمجد قادة «الامبراطورية الثالثة». كانت الصورة



مكتب هتلر بعد سقوط برلين.

ملتقطة لغوبلز بين افراد عائلته الكثيرة العدد. وحول الاب والام كانت تجلس بنات متزينات وعلى رؤوسهن شرائط معقودة يرتدين فساتين بيضاء، ويقف صبي ذو جبهة مدورة وعينين حادتين كريهتين.

ورحت افكر في ان غوبلز بوصفه رئيس جهاز الدعاية لدى النازيين، هو المسؤول المباشر عن تلك المأساة أيضاً التي جرت في بيتنا في اولنغورست. فقد تذكرت فيرنر بريتشنيدر ــ ذلك النازي العادي الذي قتل اولاده متأثراً بفعل الدعاية الفظيعة. وفيما بعد سمم أولاده «رب العائلة النموذجي» أيضاً غوبلز. وفي الحق، ان الحلقة

المفرغة، حلقة الكذب الدامية البربرية ، حلقة الاجرام والموت الرهيبة، قد انغلقت على نفسها...

...ولقد روى لنا سكرتير الدولة لوزارة الدعاية هانس فريتشي، الذي أُلقي عليه القبض في اليوم نفسه كيف عقد غوبلز اجتماعه التوجيهي الاخير يوم الواحد والعشرين من نيسان (أبريل).

اجتمع قرابة خمسة آلاف من موظفي وزارة الكذب والتلفيق في بناية نصف متهدمة كانت من قبل داراً للسينما. ولم تكن الكهرباء مشتعلة في القاعة، فلم يكن غير الشموع تومض وميضاً كابياً. وكان قد اعد مقعد وثير لغوبلز على المسرح الكبير.

وتجرجر على المسرح لابساً طقما بلون الحداد، وغاص في المقعد العريض جداً عليه، واضعا الى جانب ذلك ساقاً على ساق.

وعمّ تكلم غوبلز؟ انه لم يقدم لـ«جهازه» أية ارشادات، ولم يعلم الكويتبين كيف ينبغي أن يضللوا الشعب الالماني. انما اقتصر غوبلز، وهو في حالة من الغيظ الاهوج، على شتم الشعب الذي «خان زعماءه»، وعلى شتم الجيش المتقهقر في الشرق والمستسلم للاسر في الغرب. ولقد راح غوبلز يصرخ صراخاً هستيريا، قائلاً:

ــ وما العمل بشعب رجاله عاجزون عن القتال ونساؤه خائرات!

ومن جديد استمر يقرّع الشعب الالماني زاعماً أنه كان قد اختار مصيره بنفسه حين فوّض النازيين بالسلطة في البلاد. وكان يصيح في القاعة قائلاً:

ــ لماذا كنتم تشتغلون معي؟ من الذي كان يرغمكم؟ فحذار الآن ــ ان رؤوسكم جميعا ستقطع!

تلك كانت التوصية الاخيرة من الكذاب الاكبر لاتباعه، ولقد كانت اعترافا بالانهيار التام والهزيمة الكاملة لـ«الريخ الثالث».

واتجه غوبلز صوب الباب، تصحبه دمدمة خافتة من الرعب صادرة عن الموظفين النازيين، ثم التفت لام ة الاخيرة، وكشّر فمه فجأة عن ابتسامة وقحة. ثم خبط الباب خبطة شديدة.

ولقد سبق لغوبلز أن وعد في احدى خطبه قائلاً في كآبة: «أذا ما قدر لنا أن ننصرف فلسوف نخبط الباب خبطاً شديداً».

وها هو ذا قد خبط الباب، وهو هارب من دار السينما الى سرداب دار المستشارية الاكثر أمناً. ومن الذي كانت تخيفه تلك الخبطة؟ ما كانت تخيف الا غوبلز نفسه.

لست أذكر كم من الوقت ظلت جثة غوبلز مطروحة في فناء دار المستشارية، فقد أخذت الى سجن بليتسينزيي فيما بعد. ولكنها طول الوقت الذي ظلت فيه منطرحة على الارض قرب «حديقة المنتحرين»، كان يتجمهر حولها جنودنا، والصحفيون الحربيون، والمصورون المراسلون.

وكانت قد تخوطفت جميع أقلام رصاص غوبلز ذات الاغلفة المعدنية، وراح الصحافيون الذين كانوا قد وصلوا للتو، يتجادلون في صخب عمن سيأخذ للذكرى قلم الحبر الذي وجد قرب الجثة المتفحمة.

وظلوا يثيرون الضجيج وقتاً طويلاً ملوحين بايديهم، وفي ذلك الوقت كان المصورون المراسلون يطقطقون بآلات تصويرهم من طراز «فيد» ملتقطين صورة نادرة: جموع الناس المرحين قرب جثة غوبلز، والوجه المبتسم لذلك الشخص الذي أصبح أخيراً مالكاً لذلك القلم.

لست من المفرطين في هواية التذكارات، الا أن مثل هذا التذكار المأخوذ من فناء دار المستشارية مستثنى بالطبع.
وما اكتب عن هذا الا لكي اذكرّ مرة أخرى بالصورة التي كانت مطروحة بها جثتا هتلر وغوبلز على الارض، في قلب برلين، وبالكيفية التي انتهى بها وجود النازيين الذين كانوا يحلمون بالسيطرة العالمية، وفي أية أقذار ونتانات انتهت دولتهم مشيعة بلعنات الشعوب.

الوصل الناطق

بين صفحات دفتري البرليني، حفظت مع تسجيلات الجبهة صور فوتوغرافية ملصقة، من هذا النوع: سدنة «دبابتنا الراديو»، لدى وصولهم من موسكو الى بوزنان، وهم يفارقون موقتا ملاحي طائرتنا ــ الطيار كورينيف والميكانيكي ايغوروف. جماعتنا في ضواحي برلين قرب بيت فراو منتزل. غوس، وشالاشنيكوف، وكوفاليف، وصحافيو اذاعة لينينغراد مغراتشوف، وسفيريدوف، وبيتوشكوف، قرب النصب التذكاري للقيصر غليوم في قلب برلين.
واني لاتذكر الآن، وأنا أنظر الى هذه الصورة، يوما قاتماً، تتخلله أمطار خفيفة، والطقس فيه من شدة البرد، بحيث أرغمنا على ارتداء المعاطف. كانت قطرات المطر المنحرفة والريح تلطم الوجه مباشرة، ولذلك كانت عيون الكثيرين على الصورة متقلصة، وأما الوجوه ففي شرود، بل أن على بعضها لتعابير من غضب.
والآن، حين أنظر الى هذه الصورة الصغيرة، بعد سنوات كثيرة، يبدو لي بعيد الدلالة أننا جميعاً واقفون في تراص،



بعد ايام القتال المتوترة، يمكن السماح للنفس بالتمشي على غير عجلة في المدينة.

وأن الكثيرين كانوا يضعون أيديهم في جيوب معاطفهم انتجاعاً للدفء، وأننا جميعاً كنا ندير ظهورنا لنصب القيصر التذكاري نصف المتهدم.

ولكن تبهجني أكثر أيضاً حقيقة الاحساس المسجل في لحظة، ولاسيما ما على وجوهنا من تعبير عادي مطمئن لا ظل فيه لتصنع أو تحمس، وجوه أناس يبدو عليهم كأنماهم لا يجدون شيئاً خاصاً في أن تؤخذ لهم صورة على مهاد برلين المتهدمة، قيد خطوات من قاعدة النصب التذكاري الذي كانت تتجسم فيه وقتئذ عظمة ألمانيا الحافلة بالروح العسكرية.

أمامنا سلم يؤدي الى تمثال مستطيل الشكل تحيط به مجموعات

من نصب رمزية منحوتة من الحجر. وقمة قاعدة التمثال تطأها قوائم ضخمة لحصان يمتطيه غليوم معتمراً بخوذة لماعة مدببة الرأس.

لم يظهر هيكل القيصر على صورتي، انما كانت ترى فقط قوائم حصانه، أما على الساحة، حول قاعدة النصب، فتنطرح هنا وهناك خوذ من شكل آخر، هي خوذ الجنود الهتلريين، مدعوكة مخروقة بطلقات الرصاص.

ولقد كان عدد هذه الخوذ كثيراً جداً في ذلك اليوم. فلعل جنودنا قد جاؤوا بها الى هناك فوضعوها، لا عن غير قصد، عند أقدام امرأة عارية من الحديد الصب، تمثل ألمانيا، قرب النحوت الجدارية للجرمانيين القدماء، القائمة على أطار النصب. فكأنما كانوا يقولو ن: أنظروا، يا أبناء برلين، ذلك هو لكم الدرس الملموس من التاريخ!

وفي ذلك اليوم، كان في وسعنا، ونحن نبارح النصب التذكاري، أن نسمح لانفسنا بنزهة على هوانا، ونمتع أنفسنا بدون استعجال، ونتجول هنا وهناك، ونتفرج من الداخل على عمارات المسارح والمتاحف الضخمة نصف المتهدمة، التي ليس لها في الوقت الحاضر من حفيظ ولا رقيب، وندوس بأقدامنا على الارض الوسخة للقاعات نصف المعتمة ذات السقوف العالية المقببة.

وقد وقعنا في احدى هذه العمارات على متحف الاسلحة. وها هي ذي المصادفة بنت حكم القانون الصارم: أن متحف الطغمة العسكرية الالمانية مدمر تدميراً شديداً، والرصاصات المنصبة عليه من الساحة، قد خرقت المقابض الخشبية للبنادق العتيقة، وشظايا قنابل الهاون قد خدشت الطلاء الاسود للمدافع القديمة.

وكان يبدو أن تأريخ برلين الجديد المتطلع الى المستقبل، وهو يولد في تلك الشوارع، يعلق بطريقته، على هذه الصور والمعروضات والاساطير القديمة، بوهج حرائقه وانفجارات القذائف.

وهكذا ظللنا نتجول من بناية الى بناية حتى بلغنا ضفة النهر. وقد بقيت الحواجز اطاراً عالياً من الباطون لمياه شبرى العكرة. هنا كانت قد توقفت سيارتنا، وقد رأينا ونحن ما نزال بعيدين عنها جماعة من النسوة متجمعات على مقربة منها. وظهر انهن اسيرات فرنسيات فاجأتهن الحرب في برلين، جائعات الا أنهن مرحات، أنيسات، ومغناجات على قدر ما كان يسمح لهن بذلك جهلهن باللغة الروسية.

وقد تفاهمن مع كوربوسنوف، وبعد ذلك معنا بالاشارات ومختلف التعابير الصوتية، بصورة رئيسية، الامر الذي لم يمنع سائقنا مع ذلك من أن يقريهن بالخبز، واللحم البارد، والخمر المغتنم من العدو الذي كان أخرجه من مؤونته لهذه المناسبة.

وقد راحت احدى الاسيرات، وهي في سن فتية، تأكل بشهية أزالت كل الحمرة عن شفتيها. الا أنها وقفت اذ ذاك على سلم السيارة فصبغت شفتيها بالحمرة أمام المرآة الصغيرة الموضوعة قبالة مقعد السائق.

كان يفوح من شعرها الاشقر عبير لطيف ناعم. ولقد رأيتها تقدم لصديقتها قنينة صغيرة، لعلها قد احتفظت بها بأعجوبة، ومن بعدها قلم حمرة الشفاه. وراحت النسوة الفرنسيات يعنين بزينتهن مستفيدات من مرآة كوربوسنوف للسواقة. فكان يبتسم ابتسامة تشجيع، والنسوة يتضاحكن. وفي نطاق فوضى انطباعات تلك

الايام، ظللت طول حياتي ـ ولا أدرى في الحق لماذا ـ اتذكر هذا المشهد الصغير.

ما ذنب العطور الفرنسية في هذا؟ وما ذنب البسمات الكاشفة عن الاسنان البيض، والعيون المتلامعة، وحركات الفرنسيات المضحكة، وهن يلقين بعلب الكونسروة الفارغة الى مياه شبرى بحركات نسائية غير مضبوطة الا انها عوضاً من ذلك رشيقة؟..

واجتزنا بعد قليل الجسر القائم على نهر شبرى، ورحنا نتمشى وسط شارع أنتر دين ليندن الرحب. لقد كان كل من يكتب عن برلين ينوه بهذا الشارع. بوابة براندنبورغ! استعراضات القوات الهتلرية، مواكب النازيين الليلية مع المشاعل، قرع الطبول، وزعيق الزمور الاحتفالي، وعلى الرماح السود نسور، وعلى الاعلام صلبان معقوفة.

كان يشار الى هذا في الافلام السينمائية، وفي اللوحات، وفي الكتب التي كانت تقرأ قبل الحرب.

أما في ذلك اليوم فقد كان أول ما وقعت عليه أبصارنا رتل من دباباتنا، قادم الى هنا لامر ما، ومدفع ألماني يتجه ماسورته نحو باب مخزن صغير.

وكان أحد رجال الدبابات، وقد أنهى عمله ومسح كفيه بخرقة من قماش، قد أقترب من الباب الزجاجي للمخزن ففتحه.

وسرت على أثره فوجدت نفسي في مخزن للساعات.

كانت الساعات كثيرة: على المنضدات تحت الزجاج وفوق الرفوف على طول الجدران ساعات يد، ساعات جيب، منبهة، مستطيلة، مدورة، على شكل برميل. واني لاذكر أني حاولت في



رفاق السلاح .

تلك اللحظة تصور أنتردين ليندن، شارع الاستعراضات البرليني، بعيني صاحب هذا المخزن. كنت راغباً في أن أتصور كيف يتأمل باعجاب مواكب مشاعل النازيين الليليلة الشيطانية الكئيبة. اذ ذاك، بالطبع، كان هذا البرجوازي الالماني يطرب ويمرح، مزينا بالصلبان المعقوفة جميع واجهات مخزنه الزجاجية. ولعله هو نفسه أيضاً كان يلوح بالمشعل؟

فالى أين هرب الآن، تاركاً ساعاته جميعا؟

كنت أراقب رجل الدبابات ويراقبني هو. وتناول رجل الدبابات ساعة منبهة ورفعها الى أذنه. وقال:

ـ مقبرة ساعات. جميعها واقفة. تنتظر صاحب المخزن.

وأخذ رجل الدبابات يدور الساعة المنبهة التي راحت للتو تطقطق طقطقة مرحة، فأدخلها أول الامر في جيب سترته الزرقاء، ثم غير فكره فوضعها من جديد على زجاج المنضدة. ثم قال مغضباً لامر ما:

– ليدوروها هم أنفسهم.

ثم ابتسم لي، شاعراً بالذنب بعض الشيء، وهز رأسه في تعبير غامض، لعله تعبير عن عدم الرضى على نفسه، أو لكون هذه الخيرات كلها موضوعة هنا بدون رقابة.

وأجال نظراته على المناضد مرة أحرى، ثم خرج الى الشارع، مغلقاً من خلفه بتأن وعناية الباب الزجاجي لمخزن الساعات الذى كانت جميع الساعات فيه صامتة. فيا له من مخزن غريب، كأنما توقف فيه الزمن القديم وتجمد، وما بدأ يدق بعد الزمن الجديد!

ومضى رجل الدبابات الى دبابته، أما أنا، وسباسكي، واللينينغرادي سفيريدوف، فقد رحنا نبحث في شارع أنتر دين ليندن عن مبنى الجامعة.

كان يصعب الافتراض بأننا، بعد يومين من استسلام المدينة، سنلقى في الجامعة علماء أو طلبة من الالمان. فالاولون ما يزالون جالسين في منازلهم أو هم يقومون بأولى الطلعات الوجلة الى الشارع. والآخرون كانوا يجوبون المدينة في مواكب أسرى الحرب، أو هم كانوا يصلون الى بيوتهم بعد أن أطلق سراحهم من السجون ومعسكرات الاعتقال الهتلرية. وعلاوة على ذلك، ما كنا نحسب أن مبنى الجامعة نفسه قد سلم من قصف طائرات الحلفاء.

بيد أن العمارات الضخمة، الشاغلة حياً كاملاً تقريباً، لم تعان كثيراً جداً من القنابل. وما كان يميز هذه المباني من غيرها في شارع أنتر دين ليندن الا ضخامتها الثقيلة ولون جدرانها وأعمدتها الأزرق الفاتح.

اهتدينا الى مدخل الجامعة من جهة شارع متاخم لشارع أنتر دين ليندن. وقد ظهر الباب الضخم ذو القبضات المذهبة غير مقفل، فانفتح بسهولة. فصعدنا سلماً عريضاً الى الطابق الثاني، وراحت خطواتنا ترن في مماشٍ طويلة وكانت تتعاقب كثرة من الابواب والغرف في هذه المماشي التي كان يسودها السكون، وما كان ثمة غير الرياح الداخلة من النوافذ المفتوحة تخشخش بالاوراق المطروحة بلا انتظام على الطاولات وعلى الارض.

وقد بدا لنا هذا المبنى المقفر من الناس كئيباً عابساً. فالدروس هنا، على ما يبدو، معلقة منذ وقت بعيد. وفي كثير من النوافذ كانت المصاريع قد تكسرت بفعل الرجات الهوائية، والدخان من الحرائق، والغبار والحروق، وزخات المطر وهبات الرياح، كأنما هي قد أزالت من الغرف كل ما كان يمكن أن يذكر بدروس الطلبة. وأية دروس كان يمكن أن تكون هنا وبرلين في الشهور الاخيرة كانت تقصف بالقنابل نهاراً وليلاً بدون انقطاع تقريباً؟ ولكن بدا لنا مع ذلك أننا سنجد أحداً ما في هذه العمارة. ففي بعض الاحيان كانت وشوشة الرياح أشبه بوقع أقدام بعيدة ضعيفة على البلاط الخشبي، فيخيل لنا أن سيكاد يخرج لمقابلتنا ولو حارس من الحراس، سامع لاصواتنا.

ولكن كان الممشى يعقب الممشى، والطابق يعقب الطابق، ونحن ننظر الى جميع الغرف، فما وجدنا من يدلنا الى مدخل مختبر كلية الراديوتكنيك.

وقد كانت هذه بالذات موضع اهتمامنا. فقد كان يمكن ان تكون محفوظة هناك اجهزة تسجيل كانت جديدة نسبياً اذ ذاك. وقد كان عاملانا الفنيان يحلمان باكمال ذخيرتهما من أشرطة واسطوانات التسجيل النافدة بسرعة.

لست أذكر كم قضينا من الوقت ونحن نجوب مماشي الجامعة، ونتطلع من النوافذ الى جادة الطريق الممتلئة بحفر القنابل، والى بوابة براندنبورغ المسدودة بألواح الخشب وأكياس الرمل، والى الجماعات الصغيرة من رجالنا الذين كانوا في ذلك اليوم يسيرون في شارع أنتر دين ليندن على حذر بعض الشيء، وغير قليل منهم يحملون البنادق الاوتوماتيكية مستعدين لاطلاق النار.

ومع ذلك فان عاملينا الفنيين سباسكي وسفيريدوف قد وجدا المختبر الراديوتكنيكي. وما أن دخلنا تلك الغرفة الكبيرة، الملأى بالطاولات والعدادات والمقاييس حتى وجدنا أيضاً على الفور ذلك الشخص الذي ظللنا نبحث عنه وقتاً طويلاً دون أن يحالفنا التوفيق.

واني لأسميه ميولر لأن ذاكرتي لم تحتفظ بكنيته على نحو مضبوط. كان رجلاً لم يبلغ سن الشيخوخة بعد، طويلاً، نحيلاً، صقيل الوجه من أثر الحلاقة، يرتدي جاكيتا مشرقاً من الطراز السبور، فهو أشبه بمدرب تنس منه بعالم.

لم يعتر ميولر لخوف لرؤيته لروس بغتةً، بل لقد بدا لي أنه فرح بقدومنا، الامر الذي كان من الصعب تفسيره على الفور. ولقد كان البادئ بالكلام، وقد تكلم بالروسية. فقال محنياً رأسه قليلاً، باعتزاز:

— مرحباً، واهلاً وسهلاً!

مرحباً، غينوسي* — أجابه سباسكي منا.

وشعرت أن سباسكي مستعجل لمعرفة ما اذا كانت في هذا المختبرا جهزة تسجيل؟ ولكن مباشرة الحديث بهذا على الفور بدت غير ملائمة حتى بالنسبة له وهو شديد الالحاح فسأله قائلا:

— ما مهنتك هنا؟

— ومن أنت؟ — أجاب ميولر سائلاً، وقد يكون أربكه أن لم يلحظ كتافيات على قميص سباسكي.

فأوضحت لميولر من نحن، وما أتيح لسباسكي أن يعرض طلبه بشأن أجهزة التسجيل، حتى أسرع ميولر فاخرج من خزانة جدارية جهازي تسجيل — هما صندوقان صغيران مستطيلان لهما حزامان للحمل على الكتف وعلى الساعد.

فقال سفيريدوف شارحاً:

— انهما جهازا تسجيل للصحفيين.

— هذان هما! — أضاف سباسكي بصيحة ابتهاج ممطوطة. وقد بات جلياً بما شع في عينيه من بريق الفرح ان هذين الجهازين الخفيفين نسبياً، والقابلين للحمل، اللذين يمكنان من اجراء التسجيل

---

* غينوسي تعني بالالمانية رفيق.

في أي مكان بدون أية استعدادات وتمهيدات بات جليا أن هذين الجهازين أقصى ما يمكن لعامل التسجيل أن يحلم به.

وفتح ميولر الصندوقين مشيراً الينا أن الجهازين في حالة جيدة. وما كان في استعداده لتقديم العون لنا تزلف، فكان اهتمامنا بهذا الرجل يزداد باطراد.

ــ أأنت هنا منذ وقت بعيد؟ ــ سأله سباسكي مشيراً الى جدران المختبر، الا أنه على ما يبدو، قد دهش هو نفسه لما في سؤاله من بعض السخف.

ــ جئت في الوقت نفسه الذي جئتم انتم فيه. على الارجح. جئت لارى مختبري . ما كنت هنا منذ وقت بعيد. طول الحرب. منذ ألقى بي النازيون في معسكر الاعتقال.

فسألته:

ــ ولاي شيء؟

ــ كنت لا أروق لاحدهم، قلت شيئاً ما لا ينبغي قوله، كنت أصمت حين كان ينبغي الصراخ، وأصرخ حين كان يجدر الصمت. وربما لسبب آخر أيضاً؟

وابتسم ميولر ابتسامة مريرة.

فسألت العالم أما كان يعمل في الحركة الشيوعية الالمانية السرية؟

ــ كلا، ما كنت شيوعياً. مجرد الماني طيب.

ألماني طيب! لقد رحت أفكر في أن النازيين كانوا يدخلون معانيهم في هذا المفهوم. طيب، سيء ــ انهما لكلمتان على جانب

كبير من عدم التحديد اذا لم يكن لهما لون سياسي واضح. وقلت لميولر عن هذا. فاقرني على رأيي. ثم قال بحرارة:

ــ لقد انقسم العالم الى فاشستي ومناهض للفاشستية. وليس لدي الآن مفهوم آخر، ولا مقياس للاشياء آخر . فالفاشستية هي الاشد هولاً، انها افظع من الكوليرا، وأشنع من الطاعون، انها انتحار للامة. اني أكره الفاشستية.

ولقد بدا لي أن كلمات ميولر، ولعنته للفاشستية، صادرة عن قلب متألم حقاً. فها أنه قد سارع للقدوم الى هنا، الى الجامعة التي ما تزال خالية، وكان أول القادمين. ولقد كان في هذا وحده الكثير من الدلالة. وقد أنبأت ميولر بقرار الحاكم السوفييتي بيرزارين في برلين القاضي بعمل كل المستطاع من أجل أن تبقى لبرلين تلك الملاكات من العلماء الذين يريدون التعاون مع السلطة الدمقراطية الجديدة. فقال محنياً رأسه:

ــ هذا طيب. الآن سيكون كل شيء في الجامعة على خلاف ما كان.

ثم أضاف وقد أحس بارتباك سباسكي وحيرته:

ــ واما جهازا التسجيل فخذوهما. فليس هنا الآن أية سلطة. ولكني، كاستاذ سابق في هذا المختبر وكألماني طيب، اسمح لكم بهذا.

وكنت قد بدأت أشرح لميولر أية تسجيلات سنتمكن من اجرائها على هذين الجهازين، الا أن ميولر رفع يده بحركة كانت تعبر بدرجة واحدة عن استعداده لتقديم العون لنا وعن عدم الارتياح لكون ما يجري شرحه له أمرا واضحا جليا. ولقد سأل قائلاً:

ـ وهل ترانا نحن الالمان لسنا في حاجة لهذا؟ انه ضروري لكم، ولى، ولاولادنا في ألمانيا الجديدة.

ثم كرر قائلاً:

ـ خذوا جهازي التسجيل، خذوهما!

فسأل سباسكي في دهشة:

ـ كيف، هكذا ببساطة؟

فقال ميولر:

ـ هكذا ببساطة.

ـ كلا، اننا سنعطيك وصلاً رسمياً باخذنا جهازي التسجيل للاستعمال الموقت.

ـ اني اصدقكم هكذا.

ولكن سباسكي أصر على رأيه، وتناول صفحة من الورق، وكتب وصلاً، متذمراً مع ذلك من عدم وجود أي ختم رسمي.

ولما كنا على وشك الانصراف، اقترح أحدنا، سفيريدوف أغلب الظن، تحرير وصل ناطق عن طريق أحد جهازي المختبر. وأضاف قائلا:

ـ سيكون هذا أحسن من الختم.

وتشبث ميولر بهذه الفكرة بحماسة وطلب منا أن نهديه شيئا ما من تسجيلاتنا.

فقال سباسكي:

ـ فلنعد تسجيل صوت فايدلينغ، انه طازج، يوم امس.

وجئنا بسيارتنا فاوقفنا قرب مبنى الجامعة. ووضعنا الاجهزة، وبدأنا اعادة التسجيل.

وهكذا، في اليوم الثالث من أيار (مايو)، على شارع أنتر دين ليندن، في مبنى جامعة برلين، وتحت قبة مختبر الراديوتكنيك العالية، سمعت من جديد صوت فايدلينغ، وهو يأمر باستسلام برلين للروس.

كان ميولر يصغي الى هذا التسجيل صامتاً. ولكن بدا لي أن وجهه كان يعبر في تلك اللحظة عن صراع معقد في المشاعر. فقد كان شديد الوطأة على ميولر، مع كل كرهه للفاشستية، أن يسمع عن آلام الاهالي المسالمين والجرحى في برلين. انه، كجميع الالمان الشرفاء كان يتألم بعمق للمأساة الوطنية التي حلت بألمانيا.

وأنهينا اعادة التسجيل، وقال ميولر «شكراً» وشد على يد كل منا مصافحاً بحرارة.

وبعد ذلك سجل سباسكي على هذا الشريط نفسه وصله القصير. أما أنا وسفيريدوف فتمنينا لميولر الحياة المديدة والنجاح الابداعي في مختبره الجامعي.

لست أدري اذا كان ميولر محتفظاً بهذا الوصل الناطق. فاذا كان محتفظاً به، فمن الممكن أنه، في الايام التي نحتفل فيها بيوم النصر هنا في موسكو، يسمع هذا الشريط للطلبة في جامعته. أو أنه يحتفظ بهذا الشريط في بيته، كأثر من آثار أيام الحرب، لكي يسمع أصدقاءه في المناسبات هذا التسجيل الفريد لصوت آخر حاكم نازي لبرلين، يعلن موت هتلر.

أما فيما يخصني أنا، فان الصورة الجماعية الفوتوغرافية عند النصب التذكاري للقيصر غليوم، والوصل الناطق، انهما ليذكرانني

على الدوام بأصدقاء الجبهة القدامى، والصحافيين الاذاعيين المحاربين، الذين كانوا اذ ذاك في برلين يعملون في قضية أبعد من أن تكون عادية ومألوفة. فقد كانوا يلتقطون على شريط آلة التسجيل ضجة التاريخ وصوته.

«دار هملر»

كان الجنود الذين اقتحموا الريخستاغ يطلقون اسم «دار هملر» على مبنى وزارة الداخلية المتاخم لساحة كيونغسبلاتس. ولكن منطقة «القلعة» المحصنة هذه كانت توجد فيها دار أخرى هي المقر الرئيسي لهملر، أشد البنايات هؤلاً في برلين، ذلك المقر الذي كان يلقي الرهبة والهلع في قلوب الملايين من الناس.

ففي شارع البرنتس ألبرختشتراسي القصير، الهادئ نسبياً، في الدار رقم ثمانية، في مبنى متحف سابق عن تاريخ الملابس، أقام وزير الريخ هملر دائرة لا صلة لها البتة بالفنون التطبيقية ولا بالفولكلور، كأنما للسخرية بكل هذا، أقام... دائرة الغستابو!

ولقد جدد الهتلريون، طبعاً، ترتيب المتحف والدور الملحقة به. فحيث كانت تقوم من قبل الرفوف وعليها المعروضات، ظهرت طاولات المحققين وزنزانات للمعتقلين. اما قاعة المكتبة الكبرى، فقد جهز هملر فيها سجنه المسمى «كولومبيا» الذي كان يمثل، في حقيقة الامر، «سجنا داخل سجن». وقد كان رجال الغستابو يسجنون هنا اخطر خصومهم، ويستجوبونهم، ويعذبونهم.

وكان أبناء برلين يجهدون للمرور بعيداً عن كل هذا الحي «الهادئ». وفي الاشهر الاخيرة تخربت شوارعه تخريباً شديداً

بفعل قصف طائرات الحلفاء. ويوم الثلاثين من نيسان (أبريل)، حين اقبلت كتائب الجيش الخامس الطليعية بقيادة الجنرال الكولونيل بيرزارين على هذا الحي مباشرة، ما كان يبدو بالحي «الهادئ»، انما كانت تنفجر فيه القذائف في كل مكان، واما الدور المتهدمة فكانت تبدو قلاعاً دفاعية داكنة.

وكان يحيط بمبنى الغستابو نفسه سياج عال من الحجر، تبدو للناظر من خلفه نوافذ مسدودة بالآجر باتت اشبه بالكوى الضيقة. وأمام الجدار الواقي كانت قد حفرت خنادق محصنة بتروس مصفحة متنقلة بشكل نصف كرة . وقد كان في هذا كله دلالة على أن رجال الغستابو كانوا يأملون بأن يدافعوا عن قلعتهم دفاعاً طويلاً صامداً. وبالفعل، لم توفق الهجمات الاولى التي شنتها كتيبة المشاة، محاولة النفاذ فورا الى ما وراء السياج الحجري. وظلت مفارز الانقضاض تجهد طول الليل لطرد الالمان من التحصينات، ولكن دون جدوى. وفي نهار أول أيار (مايو) فقط وفق المهندسون العسكريون لنسف السياج في مكان واحد، بوضع ألغام مضادة للدبابات في أسفله. وانشق ممر الى فناء دار الغستابو.

وفي الساعة الثانية والدقيقة الثلاثين، اتخذ قائد الكتيبة ــ وهو يعرف ما هي هذه الدار، وقد اشير عليها في خارطته الحربية بحلقة سميكة قاتمة ــ اتخذ قراراً بمباشرة اقتحام دار الغستابو. فبعث بمفرزة من الكشافين مؤلفة من خمسة جنود للتسلل من الممر الذي انشق في السياج ومباشرة التقدم زحفاً نحو الدار الرئيسية.

وعلى بعد مائة وخمسين متراً تقريباً من المدخل، اذ كان الكشافون قد أبصروا لوحة كبيرة كتب عليها «بوليس الدولة

السري»، لاحظهم رجال الغستابو فارغموهم بوابل من النيران الحامية على الالتصاق بالارض.

واذ ذاك أطلق قائد مفرزة الكشافين صاروخاً من مسدس الاشارة وذلك كما كان متفقاً عليه من قبل، لكي يستدعي بهذه الاشارة نيران مدفعيتنا.

فاذا بالقذائف تروح تنفجر في فناء دار الغستابو، وباصابات دقيقة دمر رجال المدفعية عدة تروس مصفحة.

وفي ذلك الوقت، وتحت ستار من نيران المدفعية، تقدمت السرية الثانية من كتيبة الانقضاض بوثبة واحدة صوب الكشافين البواسل. واذ ذاك فتحت السرية النار من فناء الدار على المبنى الاساسي، على سجن «كولومبيا»، على المخبأ الذي كان القسم العلوي منه، وهو كومة الباطون علوها ثلاثة أمتار، يرتفع وسط ساحة أسفلتية صغيرة .

وفيما كان القتال جاريا داخل فناء الدار، زحفت سريتان أخريان من هذه الكتيبة من الخلف، فطوقتا البناية. وباتت دار الغستابو داخل طوق من النار.

ومضت بضع ساعات اخرى. وبالقنابل اليدوية والبنادق الاوتوماتيكية شق المحاربون السوفييتيون لانفسهم الطريق الى فسحة البناية الاساسية، الى زنزانات سجن «كولومبيا» الانفرادية التي كان من الملائم تحويلها الى تحصينات خرسانية، والى سراديب المخبأ التي كانت تقوم فيها محطة لتوليد الكهرباء ومركز مواصلات، وحيث كان رجال الغستابو أنفسهم يقضون معظم أوقاتهم في الاشهر الاخيرة، محتمين من الغارات الجوية.

وقد لاحظ الجنود، اذ اقتربوا من نوافذ البناية، ان بعض الكوى تبرز منها مداخن قصيرة. الامر الذي يدل على أن رجال الغستابو كانوا يدفئون هذه البناية، في أشهر الشتاء، بمدافئ حديدية. فقد كان ينقص برلين الوقود للتدفئة المركزية.

ولكنهم في الدقائق هذه، التي كان القتال فيها حامي الوطيس في فناء الدار، كانوا يحرقون في المدافئ الحديدية الوثائق السرية، وأكواما من الاوراق، وجبالا من الاضابير، وركاماً من القضايا، والبلاغات، والملفات. كانوا يحرقونها وهم في حالة من الهلع والذعر، وفي استعجال جنوني. ذلك ان الجنود الروس كان يمكن أن يقتحموا البناية في كل دقيقة.

فعلاوة على الدخان الناجم عن انفجارات القذائف، وعلى الغبار الكثيف المتصاعد الى السماء، كان ينضاف هنا، في فناء دار الغستابو، سخام كثيف أيضاً، يتطاير نثاراً من النوافذ، وأوراق نصف محترقة تتخبط في الجو تشبه من بعيد طيوراً عجيبة سوداء.

كان الدخان يتدفق في أعمدة من جميع المداخن، ومن النوافذ، ومن الابواب المحطمة بفعل موجة الانفجار، وكالعلم الاسود كان الدخان الكثيف يرتفع فوق بناية الغستابو، رافعا الى السماء رماد الارشيفات المحترقة. ومن بعيد، من جميع الجهات، كان يرى هذا الدخان فوق «دار هملر» مميزاً لها بين عمارات الحي المحترقة الاخرى.

وفي النصف الثاني من نهار اول أيار (مايو)، برز منديل أبيض من احدى نوافذ الطابق الاعلى، ولكن جنود الكتيبة لم يلاحظوه في الحال، وهم مأخوذون بحماسة القتال.

وشيئاً فشيئاً هدأ اطلاق النار. ومن مدخل العمارة الرئيسية، ومن سجن «كولومبيا»، ومن المخبأ، أخذ يزحف الى فناء الدار الضوارى من رجال الحرس الهتلري الخاص الجسام، على كونهم قد نحلت اجسامهم، واسودت وجوههم من السخام، وهم يلقون السلاح في الفناء ويصطفون في رتل قرب الجدار.

وكان ذلك استسلام حامية كبيرة العدد لقلعة أخرى من قلاع الهتلريين، هي دار الغستابو. ومع أن رجال الغستابو هؤلاء كانوا يدركون أن النهاية قد حلت، وان الحرب قد خُسرت، فانهم قد قاوموا مقاومة عنيفة. فما الذي كان يحملهم على القتال هكذا في تلك الساعات الاخيرة وهم يواجهون هزيمة لا مفر منها؟

لقد كان تفسير مسلك «رجال هملر» أمراً بسيطاً. لقد كانت تربطهم جميعاً المسؤولية المشتركة، كانت تربطهم اغلال الجرائم النكراء، وسيول الدماء المسفوحة، والفظائع التي لا نظير لها في معسكرات الاعتقال، و القساوة البربرية، والمقاصد الرامية الى محق شعوب بكاملها وابادتها.

في اليوم الاول من ايار (مايو) رفعوا راية الاستسلام البيضاء فوق دار الغستابو. وفي الحق، ان مواكب رجال الغستابو، وقد رفعت الراية البيضاء، قد بدأت من هنا مسيرها مباشرة الى كراسي الاتهام التي كانت تنتظرها في محكمة نورمبرغ الدولية.

...واني لاذكر بلدة صغيرة الى الشرق من الاودر. فقد تقهقر الالمان بسرعة لم يتسع لهم معها الوقت للدفاع عن البلدة. وأما قطعاتنا، وقد دخلتها بدون قتال، فقد تابعت زحفها الى امام

صوب الغرب، ولذلك لم تعان البلدة من النار، وسلمت شوارعها، وبلديتها، وسجنها، ودار الغستابو فيها.

وكانت هذه الدار أضخم بناية تقريباً في مركز المدينة، وقد اتخذتها حاكميتنا العسكرية مقراً موقتاً لها. وبعد ان قضينا ليلتنا في المدينة، تناولنا طعام الافطار صباحاً في مطعم الحاكمية، وهو قائم في نصف قبو، كان منذ وقت قريب يستخدم مقصفاً لرجال الغستابو.

كان نهاراً مشرقاً شامساً، عليه طراوة الربيع. وعبر النوافذ المفتحة في مبنى المقصف المستطيل كان ينفذ نور النهار، وتترامى انعكاسات الشمس على الارض وعلى السقف، فكان ذلك يلطف من قتام الوان القاعة المحاكية لخمارة على نسق القرون الوسطى.

وعلى طول جدران المقصف صفت موائد للبيرة مبنية بشكل براميل ضخمة من براميل البيرة، وكان ثمة برميل خزان جسيم يستقر في زاوية المكان الذي كانت جدرانه مكسوة الى منتصفها باخشاب قاتمة اللون.

كانت تصدم النفس هنا وفرة من قرون الايل، كبيرة وصغيرة، تزين جميع الجدران. ولقد كانت معلقة ايضاً فوق المدفأة المكسوة ببلاط مختلف الالوان.

لقد سبق لي غير مرة أن لاحظت هذا الميل الراسخ لدى رجال الحرس الهتلري الخاص الى غنائم الصيد، والى قرون الايل، والى الدبب المحنطة، وهذا النزوع الى الصاق القرون في الفنادق والمطاعم والمقاصف. ومع ذلك فان رجال الغستابو، الجالسين في غطرسة تحت ظل قرون الايل المتشعبة، قد كانوا في

حياتهم انما يتصيدون بصورة رئيسية الناس الذين كانوا يعذبونهم في زنزاناتهم.

كنت اتناول طعام الافطار جالساً الى مائدة بيرة صغيرة، وأنا أتصور عفوياً كيف كان رجال الغستابو ينزلون الى المقصف، قارعين الارض بكعاب احذيتهم، لكي «يستريحوا» بعد عمليات الاستجواب.

وهنا كان يشعر بتمام الارتياح اوئلئك القتلة، الذين بعثوا البربرية في أشد صورها وحشية، وسبقوا كثيراً سفاحي القرون الوسطى القاتمة... فالنار في المدفأة تئز، والانعكاسات الحمر تتراقص على مرايا بلاطها الصقيلة، مضيئة وجوه الدببة المحنطة، المكشرة الانياب وخشب البرميل القاتم، والقرون المتشعبة.

وطول الليل كانت تلعلع في المقصف اصوات حلقومية، وتسمع جعجعات عربيدة، ويصخب الحاكي، وتتعاقب الاغنيات العاطفية الخفيفة، وتتقارع كؤوس المحققين المخمورين. وبعد ذلك!.. أما بعد ذلك فانهم يصعدون الى مكاتبهم قارعين درجات السلم الحجري قرعاً مدوّيا أو ينتقلون الى القبو المجاور حيث يقوم السجن الداخلي.

لم نمكث طويلاً في هذه المدينة، ومع ذلك فقد ألقيت نظرة سريعة على ممشى السجن. كان مشحوناً بالزنزانات، كقشرة البازاليا. وكانت هذه زنزانات انفرادية، أوجرة حجرية قاتمة أرضها من الباطون ما كان يمكن للمرء أن ينام عليها دون أن يصاب بالتهاب الرئتين. وأما في الشتاء فان مجرد الوقوف على مثل هذه الارض يصيب بالبرد.

في الزاوية اليمنى من الزنزانة سرير حديدي، والى اليسار طاولة صغيرة تطوى على الجدار ولا شيء غير ذلك، اذا لم نحسب من متاع الزنزانة الحافة الخشبية على النافذة من خلف القضبان الحديدية. وقد كانت هذه الحافة تحجب عن السجين كل السماء وضوء الشمس تقريباً.

وقد عثرنا في ممشى السجن الداخلي على اغلال يدوية مطروحة على عجل، وسلاسل لا يعرف الغرض منها، وقطع محطمة من أدوات التعذيب. ولنقل بالمناسبة، أن من بينها أيضاً خزائن معدنية ضيقة كان يحبس فيها الشخص فلا يستطيع حراكا. وهكذا يظل واقفاً متصلباً ساعات كثيرة حتى يفقد الوعي.

في الطوابق العليا من البناية كانت توجد دوائر الغستابو، وأبواب الاقسام الكثيرة العدد. ومهما تكن البلدة صغيرة، فقد كان مركز الغستابو فيها نسخة مصغرة فقط عن دار الغستابو في برلين. فقد كانت توجد هنا واحدة من خلايا تلك الشبكة العنكبوتية الهائلة التي كان الغستابو يغطي بها ألمانيا كلها والبلدان المحتلة.

...وقد أتيح لنا أن نرى «دار هملر» البرلينية بعد يومين من الوقت الذي أرغمت فيه كتيبة جيش بيرزارين رجال الحرس الهتلري الخاص على الخروج من ملجأهم رافعي الايدي. على أنه كان يقاتل، بالطبع، دفاعا عن دار الغستابو لا كبار الرجالات الهتلريين، ولا جنرالات الجيش والحرس الهتلري الخاص بل الجنود البسطاء، وضباط الجيش، ورجال الغستابو من ذوي المراتب الدنيا.

فقبيل ذلك الوقت، كان جميع هؤلاء الوجهاء والاعيان من رجال الحرس الهتلري الخاص قد لاذوا بالفرار كل الى جهة هو

مواليها: هؤلاء شقوا لانفسهم الطريق عبر خط الجبهة الى ألمانيا الجنوبية، وأولئك اختفوا في برلين، وآخرون كانوا يركبون البواخر بجوازات سفر مزورة، حاملين حقائبهم المشحونة بالنقود وبالذهب، لكي يستقروا تحت اسماء جديدة، في اسبانيا والبرتغال، والبلدان المحايدة، وفي جمهوريات أميركا اللاتينية.

بعد بضعة أيام من استسلام برلين، كانت دار الغستابو ما تزال تحمل آثار المعارك العنيفة القاسية. حتى الشوارع المتاخمة لهذه البناية ما كان البرلينيون قد تمكنوا بعد من تنظيفها من الانقاض والمتاريس وحطام العمارات المتهدمة.

قرب باحة السلّم في فسحة «دار هملر»، كانت مطروحة قطع محطمة من الاسلحة وأكوام من الحجارة، وعند مدخل المكاتب كانت الابواب المخلعة بفعل الانفجارات تتأرجح على العقد الملتوية، وفي المكاتب المملوءة بالاوساخ كانت ترى قطع الاثاث المحترقة وصناديق الحديد المكسرة والخزائن المحطمة المحتوية على أدراج الفيشات والاخباريات والقضايا والاضابير المتعلقة بجميع البرلينيين المشبوهين. وقد كانت هذه الخزائن تشغل الجدران بكاملها.

وفي كثير من المكاتب كانت السقوف والجدران ملأى بالثغرات والارض مغطاة بأكوام من الاوراق التي لم يتمكن رجال الغستابو من أحراقها. وفي كل مكان اضابير ممزقة وصور لهتلر وهملر موطوءة بالاقدام، ورياح الربيع المنطلقة من النوافذ تقلب جميع هذه الاكوام من عفاشة الورق، وتسحبها من المكاتب الى المماشي حيث تجرجرها علي الارض على امتداد أبواب يخيل للرائي أن لانهاية لها.

وقد شدهتنا وفرة الاوراق والقضايا المهملة كما شدهنا أنها الآن منطرحة هنا في الغرف والمماشي وعلى سلالم «دار هملر»، وليست بمحفوظة في رفوف الارشيف.

ولكن أي أيام كانت تلك الايام! لقد كان يشغل أذهان رجالنا الامر الرئيسي، الا وهو الاطاحة بالدولة الهتلرية المقيتة، وبعد ذلك يأتي مع الزمن دور امعان النظر في وثائق الغستابو وأوراقه.

وطبيعي ان اغلب ما وقع في أيدينا اضبارات عن قضايا الاشهر الاخيرة ومن بينها كثير بوجه خاص من تلك التي كانت موسومة بشفرة «زوندر كوميسيون». هكذا كان يشار الى أوراق «اللجنة الخاصة» التي الفها الغستابو بعد المحاولة الفاشلة لاغتيال هتلر في مقره، في راستنبورغ.

ان الغستابو، الذي قضى على الملايين من الناس الذين لا ذنب لهم البتة، ونشر شبكته من الاستفزازيين والمخبرين في طول البلاد وعرضها، لم يستطع مع ذلك صيانة فوهرره من محاولة اغتياله. ولكنه أجاب على هذه المحاولات بموجة من الاعتقالات بالجملة، ملقيا في السجون بالمئات من الالمان المشتبه بهم من العسكريين، ضباطاً وجنرالات.

لقد حاول اغتيال هتلر لا الخصوم المحاربون وراء خط الجبهة، ولا رجالات ألمانيا التقدميون الذين دفعهم النازيون الى العمل السري. انما حاول اغتيال هتلر رجال حاشيته المقربون، حين رأوا أن آلة الحرب الهتلرية تنحدر بسرعة الى الهاوية. وهذه الفئات المعارضة داخل ألمانيا، اذ كانت تتوقع انهيار الدولة وتخشى الانفجارات الثورية في البلاد، انما كانت تبحث فقط عن الفرصة

السانحة، بعد الاطاحة بهتلر، لعقد اتفاق منفرد مع انكلترا والولايات المتحدة لا يخفف، بل بالعكس، يشدد القتال على الجبهة الشرقية. ولعله ليس من قبيل المصادفة أننا في تلك الايام قد وجدنا على الاكثر أوراقاً تحمل شفرة «اللجنة الخاصة» في غرفتي المحققين لدى الغستابو ستارفيتسكي ولانغي، وفي مكتب عقيد قوات الحرس الهتلري الخاص والتر خوبنكوتن.

ان هذا الشاب الحقوقي الدراسة، والنازي المتحمس من حيث العقيدة، والاختصاصي في المحاكمات السياسية، سرعان ما لمع نجمه في الغستابو، فكان في ١٩٤٤ رئيساً لمصلحة الامن لدى الحرس الهتلري الخاص. وقد كانت تواقيع خوبنكوتن ولانغي، وستارفيتسكي، ورئيس مصلحة الاستخبارات الموحدة شيلنبرغ، وكالتنبرونر نفسه، تصادف أكثر من غيرها على أوراق وقضايا «اللجنة الخاصة».

وقد جلس هؤلاء السفاحون الضواري جميعاً على كرسي الاتهام، فيما بعد. ولقد كشفت افاداتهم، علاوة على ذلك، النقاب الى درجة ما عن ثلاث محاولات لاغتيال هتلر، كانت الاولى منها قد نظمت من قبل الغستابو نفسه لاغراض استفزازية.

جرى ذلك سنة ١٩٣٨، اذ كان رئيس الغستابو في ذلك الحين، هايندريخ، يشتبه بوجود مؤامرة ما ضد النظام النازي، الا أنه لم يكتشف آثارها، — فقرر مع معاونه شيلنبرغ أن ينظم العملية الاستفزازية. لقد قرر رجال الغستابو اقناع هتلر بوجود المؤامرة ضده عن طريق الكشف عن مؤامرة ملفقة! وان في نشوء مثل هذه «الفكرة» لاحسن ما يميز الغستابو ورجاله.

وقد تحقق اخراج مسرحية محاولة الاغتيال يوم الثامن من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٨ في مدينة مونيخ، حين اجتمع «اقطاب» الحركة النازية في أحد أقبية حانات البيرة. وجاء هتلر الى الحانة.

وقبل هذا بوقت قليل كان قد أطلق من السجن سراح مجرم محكوم بقضية جنائية لمدة طويلة، بشرط أن يضع قنبلة في الجدران الخشبية لقاعة البيرة في مونيخ.

وقد أتيح القيام بهذا لجورج ايلسر، المجرم الذي استطاع الغستابو فيما بعد ان يخرجه عبر الحدود مع مبلغ كبير من المال.

وانفجرت القنبلة...

ولكن بعد عشر دقائق بالضبط من مغادرة هتلر لحانة البيرة. وبغية التأكيد التام لصحة محاولة الاغتيال المزعومة، قرر هايندريخ وشيلنبرغ التضحية حتى ببعض الرجالات النازيين البارزين، من اعضاء الحزب القدامى. وكان أن قتلتهم القنبلة.

وقد أعطت العملية الاستفزازية رجال الغستابو ذريعة جديدة للقيام باعتقالات واسعة النطاق. أما هتلر المختل، الذي هو بدون ذلك مصاب بالمس في عقله، فان محاولة الاغتيال هذه قد أثارت في نفسه الهلع على حياته.

ولكن اذا كانت محاولة الاغتيال الاولى مختلقة ومكذوبة، فان المحاولة الثانية ـ في آذار (مارس) ١٩٤٣ ـ قد دبرت من قبل زمرة من الجنرالات المعارضين على الجبهة الوسطى، حيث كان هتلر قد وصل بالطائرة قادما من مقره.

فقد وضعت قنبلة موقوتة ضمن صندوق من قناني الكونياك

كان قد جاء به مرافق هتلر العقيد براندت كهدية لضابط من الضباط في المقر.

والشيء الوحيد الذي حال دون عمل المفجّر هو شدة البرد في الطائرة.

وكان أحد المتآمرين قد سافر بالطائرة على أثر هتلر في مقره في راستنبورغ وتمكن من اخراج القنبلة من الصندوق قبل أن يعمد العقيد براندت، غير المشتبه بشيء، الى تقديم هذه «الهدية» الى الضابط من معارفه.

ولم تنفجر القنبلة هذه المرة في الطائرة، الا انها انفجرت بعد عام تقريباً في راستنبورغ، حين جاء العقيد شتاوفنبرغ الى مقر هتلر ليقدم تقريره، وكان قد عاد لوقت قريب من افريقيا بدون يد وعين. وكانت في محفظة شتاوفنبرغ قنبلة تشبه تماما تلك القنبلة الموقوتة التي لم تنفجر في طائرة هتلر.

وكان شتاوفنبرغ قد اعتزم وضع محفظته، على نحو غير ملحوظ، في المكان الذي سيكون فيه هتلر وهملر. بيد أن اغتنام مثل هذه اللحظة كان أمراً صعباً، فقد انتوى شتاوفنبرغ عدة مرات وضع محفظته، الا أن هتلر كان يخرج في ذلك الوقت من المكتب، أو كان شتاوفنبرغ نفسه يضطر للابتعاد.

وفي العشرين من تموز (يوليو) استدعي العقيد كلاوس شنك فون شتاوفنبرغ الى المقر لتقديم تقريره الى هتلر. فاستقر الرأي لديه على أنه لن تتاح له فرصة خير من هذه، لا سيما وأن الغستابو كان يشم المؤامرة، فكان تأخير محاولة الاغتيال يهددها بالفشل التام.

يتحدث الصحافي الانكليزي يان كولفن، في كتابه «لعبة مزدوجة»، عن هذا الاجتماع الذي عقد، بسبب حرارة الجو، لا في المخبأ الباطوني، كما هي العادة، بل في بيت خشبي صغير خفيف نوافذه مفتحة على مصاريعها.

كان في الاجتماع، عدا هتلر، مرافقاه الجنرال شموندت والعقيد براندت الذي بات معروفا لدينا، وأمناء السر، وبضعة ضباط ينتظرون أدوارهم لتقديم تقاريرهم.

ووضع شتاوفنبرغ المحفظة المحتوية على القنبلة على الارض قرب رجل براندت، فازاحها هذا جانبا قليلا، كأنما هو شاعر بشيء ما. وكانت طاولة هتلر لا تبعد غير ثلاث خطوات عن القنبلة.

وعلى نحو غير ملحوظ، سحق شتاوفنبرغ كبسولة المفجر بأصابعه، وكان محسوباً له البقاء عشر دقائق.

وبعد ذلك، وكما كان متفقاً عليه، استدعي الى الهاتف، فاسرع بمبارحة البيت الصغير موقناً كل اليقين بان انفجار القنبلة لن يدع هتلر حياً.

وكان شتاوفنبرغ ما يزال في الحديقة المحيطة بقلعة المقر، حين وصل الى سمعه صوت الانفجار المصم للآذان. ونظر الى الوراء فأبصر بعمود من الدخان فوق البيت الصغير ورجالا يركضون حاملين المحفات.

وما مضى نصف ساعة حتى كان شتاوفنبرغ في المطار، حيث طار الى برلين، فابلغ اركان المتآمرين في الحال أن هتلر قد قتل... ولكنه كان على خطأ.

وما أن بات معلوماً أن هتلر قد نجا، حتى أسقط في أيدي المتآمرين، وأصابهم الهلع بالشلل. فما قام أحد بعمل حاسم، وتفرق شمل المتآمرين. وان هذا ليؤكد مرة أخرى أن المؤامرة لم تكن موجهة ضد النظام الفاشستي بصورة عامة، بل كانت موجهة فقط ضد هتلر الذي يجر ألمانيا بعناد الى هاوية الكارثة الوطنية.

وما كان الغستابو قد تمكن بعد من القاء القبض على المتآمرين، حتى كانت الانتحارات قد بدأت في صفوفهم. وهنا امر قائد جيش الاحتياط الجنرال فروم، في محاولة لانقاذ جلده، بأن يقتل رميا بالرصاص رئيس أركان حربه شتاوفنبرغ، منفذ محاولة الاغتيال، وغيره من الضباط المشتركين في المؤامرة.

وكان الجنرال فون تريسكوف موجوداً على خط الجبهة، فخرج من ملجئه ليفجر قنبلة يدوية الى جانبه. فمات في الحال. وكذلك حاول الجنرال بيك الانتحار، الا أن محاولته اخفقت، فعمد المشتركون الآخرون في المؤامرة الى اطلاق عليه النار في تلك الليلة، وهو جريح، في فناء مقر المتآمرين.

فما السبب في أن القنبلة التي انفجرت في راستنبورغ لم تقتل هتلر؟ كانت طاولته في وسط الغرفة، فضربت موجة الانفجار ودفعة الشظايا النوافذ ودمرت الجدران الخفيفة، وأما في وسط الغرفة فقد تكونت ساحة عديمة المفعول.

وحين تبدد الدخان بعض الشيء رأى كايتل، وكان قد ظل سليماً، جثث مرافق هتلر براندت وبعض أمناء السر مطروحة على أرض الغرفة. وكان هتلر أيضاً، وقد أصمّه الانفجار، منطرحاً على الارض وقد تحرّقت ثيابه وشعره.

وفي الليل، بعد أن تمالك هتلر زمام نفسه، القى خطاباً من الراديو اعترف فيه جهاراً بوجود مؤامرة ضد حكومته. وراح يزعق امام الميكروفون قائلا ان «حفنة خونة حقيرة من الزمرة العسكرية حاولت قتلي وقتل آخرين من ممثلي القيادة العليا!..».

وما كان هملر وقت محاولة الاغتيال في برلين، فعاد اليها على عجل، وبدأت اعتقالات واسعة النطاق لجميع الذين كان مشتبهاً بهم، ولو لأدنى حد، بانهم خصوم للنظام النازي.

ومن الطريف أنه قد أكتشف، لدى التفتيش في احدى الخزائن الحديدية السرية للمتآمرين، بين أوراق أخرى، تقرير طبي عن مرض العريف أدولف هتلر، يرجع الى زمن الحرب العالمية الاولى، حين كان هتلر في المستشفى. وكان الاطباء يشيرون الى وجود علائم هستيريا لدى المريض ويلحون على أن يقوم أطباء الامراض العقلية بفحص الافعال المنعكسة لدى هتلر.

فهل ثمة ما يستدعي الدهشة من أن هتلر قد وقع فيما بعد غير مرة في مثل هذا الجنون، وأنه، على ما يقال، كان في هذه الحال يتمرغ على الارض ويعض السجادة، وأن قد حدثت له، في الاشهر الاخيرة للنظام النازى ، نوبات من الغضب الجامح تؤدي الى حالة من السوداية، اذ كان هتلر يسير في الغرفة ساعات، متذكراً طفولته أو متحدثاً لحاشيته في شتى أنواع المواضيع الصوفية.

وفي مساء ذلك اليوم الذي نفذت فيه محاولة الاغتيال، ذهب هتلر لمقابلة موسوليني ووزير حربية ايطاليا غرازياني. وهنا وقع من جديد في نوبة هستيرية عاصفة، اذ راح يهدد جميع أعدائه

بأشد العقوبات هولاً ، ويندد بالشعب الالماني صارخا بأنه غير جدير بأن يكون له زعيم مثله هو– هتلر.

وسرعان ما امتلأ سجن «كولومبيا» الى ما فوق الحد بالمتآمرين الذين قبض عليهم على أساس قوائم خاصة. وأعدموا جميعاً في أوقات مختلفة وقد نفذ الحكم على بعضهم قبيل سقوط برلين وموت هتلر نفسه ببضعة أيام حرفياً.

وهذا هو السبب في اننا قد وقعنا في مبنى الغستابو على هذا العدد من «القضايا» المطروحة على عجل من قضايا «اللجنة الخاصة».

من الصعب التعبير عن ذلك الشعور من الغضب والاشمئزاز الذي كان يتولى كل ضابط سوفييتي حين كان يجتاز عتبة وجار هملر! فهنا، في بداية الحرب ضد الاتحاد السوفييتي، وقّع رئيس رجال الغستابو على «تعليمات» فظيعة تأمر بالقضاء على... ثلاثين مليون سلافي.

«...اننا نريد التوصل لأن لا يعيش في الشرق غير الناس الذين يجرى في عروقهم الدم الالماني الصافي...» – هكذا كتب هملر مخاطباً رجال الغستابو ورجال الحرس الهتلرى الخاص، من جماعات الوظيفة الخاصة من بوليس الامن ومصلحة الحرس الهتلرى الخاص السائرين وراء الجيوش الالمانية في روسيا.

وعقبه مارتن بورمان، نائب هتلر في زعامة الحزب النازي، فقال:

«ينبغي على السلافيين أن يشتغلوا لنا. فاذا لم نعد في حاجة اليهم، فيمكن أن يموتوا... ان ازدياد عدد السكان السلافيين غير مرغوب فيه».

ومن جديد، وبعد عامين، أعلن هملر لرجال الغستابو العاملين تحت امرته، قائلاً:

«...ان مسألة ازدهار أمة ما أو موتها جوعاً لا تهمني الا بمقدار ما يكون ممثلو الامة المعنية ضروريين لنا كعبيد لثقافتنا، وأما فيما عدا ذلك فليس يهمني مصيرهم البتة...».

تلك هي «الافكار» التي كان يحملها اولئك المجرمون الجالسون في مكاتب «دارهملر».

برلين بدون قضاة!

حدث ذلك في الثالث أو الرابع من ايار (مايو)، بعد وقت قليل، على كل حال، من سقوط برلين. كنا قد وصلنا بسيارتنا الى ساحة ألكسندربلاتس، ودخلنا الباب الرئيسي لمبنى المحكمة الاقليمية الهتلرية السابقة.

وقد كان مبنى المحكمة، كجميع الدور المماثلة للموظفين الفاشست، كئيب المظهر ثقيلا الى درجة مذهلة. وما كان اللون الاحمر القاتم لجدرانه القرميدية الا ليزيد من هذا الانطباع. ولو ان المهندسين المعماريين البرلينيين كانوا قد جهدوا لاعطاء هذه الدور الرسمية المظهر المعبر عن أكثر ما يكون من الصرامة العابسة، فهم قد نجحوا في ذلك.

ان هذه البناية التي تشغل نصف حي، لم تعان تقريباً من قصف المدفعية. وقد كان هذا نادراً هنا في مركز برلين. ومع انها قد سلمت، ولم تمسها القذائف، فقد كانت في الداخل كالحة عابسة، حتى ليشعر الداخل اليها أنه في قشعريرة.

وما كان البرد منبعثا من الجدران الباطونية السميكة وحسب، ومن المماشي الطويلة نصف المعتمة، انما كان البرد يبدو منبعثا من مجرد قتام هذه البناية المقفرة من الناس في الوقت الحاضر والمهجورة كلياً.

لست أدري متى هرب من هنا القضاة البرلينيون موظفو ما يسمى بـ «المحاكم الشعبية» الهتلرية. قد يكون القضاة، على اختلاف مراتبهم، قد تواروا عن الانظار في مواقيت مختلفة. أم تراهم قد هجروا البناية جميعاً في وقت واحد، حين سمعوا قصف المدافع السوفييتية؟ على كل حال، لقد لاحظنا في كل مكان، في ذلك اليوم، آثار فرار مستعجل بالجملة: اضبارات الدعاوى مطروحة على الطاولات، قوائم بالدعاوى التى يراد النظر فيها، قبعات ومعاطف ردنكوت مهجورة وقد بات لاجدوى منها على مساند كراسي القضاة أو على الحواجز أمام مقاعد المتهمين.

كنا نسير في المماشي مقابل الزنزانات. واني لأذكر ذلك الهدير المجلجل والصدى الذى كانت تثيره خطواتنا تحت تلك الاقبية المنخفضة التي جعلت المماشي اشبه بأنفاق مربعة. وفي كل مكان تقريبا كانت أبواب الغرف مشرعة ، فكانت تبدو لعيوننا أماكن فارغة ملأى بالوسخ والاوراق المهملة.

ولكن، لامر ما، كانت في كل غرفة تقريباً ، آلات كاتبة موضوعة على الطاولات، مفتوحة، جاهزة للعمل، وعلى المشاجب أرواب قضاة فاحمة معلقة تهزها الريح هزاً خفيفاً.

واضح ان هذه الارواب، الشبيهة بجبب القسوس، لم تعد تفيد الموظفين الهتلريين. ولكن هذه الآلات؟ من الجلي أنه قد كانت

تكتب بها طول الوقت الاحكام على المتهمين: الفرارين من الجيش، والجبناء من قطعات التعبئة العامة، والالمان الشاتمين هتلر، وجميع الذين لم يعودوا يريدون الموت من أجل هتلر في شوارع برلين. وفي اللحظة الاخيرة؟ فالقضاة اذ ذاك لم تعد تهمهم الآلات الكاتبة، فلاذوا بالفرار ناجين بجلودهم.

وعاشت برلين بعض الوقت، بضعة أيام بكاملها، بدون قضاة. القدامى تواروا عن الانظار، وأما الجدد الذين عينتهم للقضاء الحكومة الالمانية الدمقراطية، فما كانوا قد تمكنوا بعد من الشروع في ممارسة وظائفهم.

وقد سارع للافادة من هذا كل حثالة من حثالات المجتمع بين السكان، ومجرمون جنائيون أطلق هتلر سراحهم من السجون، وضباط متنكرون بثياب مدنية، وموظفون، وأعضاء الحزب النازي العاملون.

لقد قرروا ببساطة نهب مدينتهم في هذه الحال من فوضى الحرب، في الايام السلمية الاولى المشوشة، تحت ستار من الحرائق غير المنطفئة بعد. وقد كانوا هنا وهناك يطلقون النار أيضاً.

فما كادت سيارتنا تبتعد عن مبنى المحكمة الاقليمية حتى رأينا حريقاً كبيرا على شارع كيونيغسشتراسي. ولو أن القضاة الهتلريين كانوا الآن في مكاتبهم لكانوا أبصروا جيداً من النوافذ كيف كانت تحترق بناية المخزن الكبير ذات الطوابق العديدة وجمهور من البرلينيين يحيط بها أملاً باجتناء المغانم.

وكان من غير الممكن أن تمر سيارتنا قرب المخزن من جراء ازدحام الناس في الساحة بكاملها. كانت السنة اللهب المتوهجة تنبثق

من نوافذ الطابقين الثالث والرابع. فقد كان السمع يميز همهمة اللهب في داخل البناية التي كانت ما تزال خفيفة، الا انها جلية كل الجلاء.

ومن بعيد ما كان في وسعنا أن نرى من ذاك الراكض في مماشي البناية يلقي من النوافذ المفتوحة بالبضائع السليمة من الحريق. وقد كانت بالات النسيج المحزومة حزماً متيناً تنخبط على الطريق بصوت أصم. والبدلات الرجالية تعلق بأنابيب مجارير الماء، وعلى شرفات الطوابق الدنيا. وأكوام القمصان الرجالية، والملابس النسائية الداخلية — كل هذا يتطاير في الهواء ، بعلبها وصناديقها وغلافاتها الشفافة، ومئات الايدي في الشارع تتلقف الامتعة وتتخاطفها في تصايح وتشاجر، وأحيانا في عراك عنيف.

وتعالى في الساحة الصياح الحيواني والصراخ والانين من الناس الذين انفلت زمام نفوسهم من أيديهم، حتى لقد غطى ذلك على ضجة الحريق المتزايد التأجج.

وكان ذلك مشهداً بشعاً! ولقد بدا أن هؤلاء الناس المجانين الشاعرين بالمغانم اليسيرة ماكان يمكن تفريقهم أو وقفهم الا باطلاق النار.

ولكن انتباهنا في تلك اللحظة انصرف الى مسألة أخرى انصرافا اكبر : من هو، مع ذلك، هذا الذي ما يزال ينتشل الامتعة من النار ويقذفها الى الشارع، مغامراً بحياته هناك داخل المخزن الكبير المحترق؟

ولكن ظهر بعد قليل على الشرفة ثلاثة من الجنود السوفييتيين، عليهم قمصان مفكوكة الازرار عند العنق، وقد اصطبغت وجوههم

بالحمرة من الحريق، وتصبب العرق من جباههم، ودمعت عيونهم الحمر من الدخان والنار.

وألقى جندي فاحم العينين عريض الوجنتين بحزمة من القماش، وتنفس بعمق، ثم انحنى على درابزين الشرفة. كان يتطلع الى الجمهور الاسود المتماوج كانما يبحث عن أحد. ثم صاح فجأة:

ـ اى، غينوسي، غينوسي! كوم، كوم هنا!

وانسدل شعر الجندي المشعث المبلل بالعرق على جبينه، وظهر قرب عينيه خدوش كبيرة. فلا بد أنه قد اصطدم بشيء ما، وأضاع طاقيته في الحريق. بل لقد كان يبدو من بعيد أن يديه مصابتان بحرق، وقد ضمدهما على عجل.

وراح الجندي يصيح، وهو يتفحص قميصه المحرّق:

ـ اى، غينوسي! اى، غينوسي! انقذوا أموالكم! كوم الى هنا، لعندنا، شنيلر، شنيلر!

كان وهو في حالة التهيج يخلط الكلمات الروسية بالالمانية، ولكن حتى لو أنه لم يكن يتكلم البتة، فان هيئته كلها، وحركاته، ووجهه المصبوغ بحمرة الدم، وبالدرجة الاولى ما كان يفعله هناك، داخل البناية المحترقة ــ كل هذا كان بليغ التعبير ولا يحتاج الى أي ايضاح.

كان الجندي يطلب العون من الالمان. وقد سارع قرابة عشرة أشخاص من الجمهور الى أبواب المخزن، ولكن كانت تعيقهم، على مايبدو، النار التي كانت قد هبطت الى الطوابق الدنيا، ذلك لان هؤلاء الناس ذوي الثياب المدنية لم يظهروا خلال مدة طويلة قرب النوافذ وعلى الشرفة.

وركض الجندي الفاقد الطاقية الى داخل البناية. وبعد ثلاث دقائق ظهر على الشرفة من جديد حاملاً حزمة، فشهق الجمهور بعطف حين رأى أن النار قد احرقت شعره الداكن. وبدا اذ ذاك أنه قد شاب في لحظة.

وألقى الجندي بالحزمة الى تحت، فألقى رفيقه كومة من البدلات، وتحولت التنهدات في التحت الى صياح وصراخ، ومن جديد ارتفعت الى فوق أيد متعطشة.

طبيعي أن الجنود على الشرفة كانوا يرون جيداً أن الكثيرين ممن يتناولون الامتعة يحاولون في الحال الانسلال خفية من بين الجمهور، وطبيعي أن هذا لم يكن يروق للجنود، ولكن ماذا كان في وسعهم أن يفعلوا؟ أن هذا خير من أن تلتهم النار جميع الخيرات! لعل هذا هو ما كان يفكر به الاشخاص في الدار المحترقة.

وتطلع الينا الجندي الفاقد الطاقية وقد خرج الى الشرفة للمرة الثالثة. فرأى سيارتنا وعرف جماعته.

ـ اي، يا رفاق! ـ راح يصيح بصوت عال ملوحاً بساعديه، وقد بدا عليه الفرح، ولعله كان يأمل بأن قد جاءت النجدة. وراح يصيح، والعرق يتصبب على وجهه ممتزجاً بالدم:

ـ الى هنا، الى هنا، أيها السلافيون، أيها الاخوة! نحن هنا ثلاثة فقط! انظر كيف ينشط الالمان! أنقذوا المخزن، يا رفاق!

وفي الحال دفع كوربوسنوف السيارة الى امام، فتنحى الجمهور، مفسحاً لها الطريق.

وهنا حدث تردد. وكبح كوربوسنوف السيارة، لعدم سماعة الامر بالتحرك الى أمام. كنا جميعاً في تلك اللحظة في حيرة، لا ندري

ما ينبغي أن نفعل؟ أنترك السيارة والاجهزة؟ أننقذ البضائع التي كان يتلقفها على الفور أشخاص مشتبه بهم؟ أنندمج في هذا الحشد الثائر الهائج ، وقد يكون فيه رجال مسلحون من الحرس الهتلري الخاص ؟

واستمر كل هذا دقيقة وأخرى! ولكن فيما كنا نفكر، اتخذ الاقدم في مفرزتنا ـ شالاشنيكوف ـ قراراً. فصاح بالسائق:

ـ ستوب!

ولكن كوربوسنوف كان ما يزال يتقدم بالسيارة صوب المخزن ببطء وهي بفعل العطالة تسير من تلقاء نفسها. فصاح به شالاشنيكوف وقد خرج عن طوره:

ـ قف! لايبرح أحد مكانه! أدر السيارة! بسرعة، بسرعة! ـ راح يستعجل السائق بعصبية، وما هدأ حتى ابتعدنا عن البناية.

وكنت أرى وجه الجندي المندهش على الشرفة. كان ما يزال يصيح بنا قائلاً شيئاً ما. واستمرت الصناديق والحزم والعلب تنقذف من النوافذ ومن الشرفة، والدخان فوق المخزن الكبير يتكاثف باطراد، واللهب داخل البناية يشتد أكثر فأكثر.

وفيما بعد، في المساء، علل شالاشنيكوف قراره بالعناية الطبيعية بالاجهزة التي ما كان في وسعنا اصلاحها ولا ترميمها في المدينة المتهدمة، وبالقلق على اسطواناتنا وما عليها من تسجيلات، وبأن مهمتنا الرئيسية في برلين لم تكن اطفاء الحرائق وانقاذ بضائع المخازن!

ربما لم يكن على حق، وهل كان لغيره في مكانه أن يفعل غير هذا؟

ان مشهد الحريق على ساحة ألكسندربلاتس قد رسخ في ذاكرتي، وفي ذاكرة كثيرين من البرلينيين، على ما أعتقد. فعلى مرأى منا كان ثلاثة من الجنود السوفييتيين يغامرون بحياتهم في بناية تلتهمها النيران، وبعد انتهاء القتال.

وأنا موقن بانهم ما تلقوا بذلك أي أمر، انما كانوا يعملون بدافع من القلب، بحسن نية منهم، وما كان في وسعهم السماح بضياع خيرات كان سكان المدينة الجياع المتهرئو الثياب في مسيس الحاجة اليها.

لقد عاشت برلين بضعة أيام بدون قضاة! وكان الضمير قاضي كل فرد وذلك الشعور بالواجب وبالرجولة الذي جاء الى بناية المخزن المحترقة بثلاثة من جنودنا وبعشرة من أبناء برلين.

اطفاء نار الهلع بالخمرة!

بمحض المصادفة وقعنا على مستودع الخمر هذا، نهاراً، ونحن ذاهبون من مركز برلين. فقد دلني كوربوسنوف على المان ذوي هيئات غريبة، يجتازون الطريق على عجل واحداً اثر الآخر. كانوا يحملون سطولاً، وقناني، وصفائح بنزين تتسع لعشرين ليترا، ويركضون حاثين خطاهم القصيرة، محني الظهور، حتى لقد كان يخيل للناظر أن كلا منهم يوشك أن يقع على جادة الطريق من ثقل جسمه أو هبة ريح خفيفة. فيقول كوربوسنوف عابس الوجه:

— نهب!

ــ ماء، ياترى؟

فقال كوربوسنوف وقد انزل زجاج نافذة السيارة:

ــ كلا. مثل هذه الرائحة تثير الشهية للطعام.

ولقد حسست انا أيضاً برائحة خمر قوية، ورأيت أن جادة الطريق تندلق عليها من السطول سوائل منها ما هو خضراوي، ومنها ما هو وردي ومنها ما هو أحمر كثيف.

وسأل كوربوسنوف، وقد اوقف السيارة:

ــ ننزل، ما رأيكم؟

ــ ولماذا؟ ــ قلت له، وأنا اتسمع مرهفاً اذنيّ الى صيحات السكارى وطلقات نارية كانت تلعلع من أعماق فناء كان يوجد فيه، على ما يبدو، مستودع الخمر.

وبعد دقيقة قلت له:

ــ اسمع يا ميخائيل ايفانوفيتش انهم هناك يطلقون النار. حشرات! سكارى! مستشرسون!

ــ لا فرق! وما البقاء هكذا؟ غير مضبوط! ــ قال ميخائيل ايفانوفيتش، و فكر قليلاً، ثم فتح باب السيارة بيد صارمة.

ولقد كان يكون من السذاجة الافتراض بأن شتى صنوف الحثالة الفاشستية لن تحاول، في برلين المجتاحة بالمعارك، في المدينة التي تضم الالوف من المخازن والمستودعات، تنظيم أعمال النهب والسطو، البؤر الصغيرة للاخلال بالنظام، التي سرعان ما قضت عليها الادارة العسكرية السوفييتية.

ولعل مستودعات الخمر، الباقية بدون رقابة، كانت تمثل في تلك الايام الخطر الاكبر. فقد كان في وسع عصابات الحرس الهتلري

الخاص والمجرمين الجنائيين الذين أطلق هتلر سراحهم من السجون، الاخلال بحياة المدينة التي أخذت منذ قليل جداً تألف العهد الجديد السلمي.

لقد كان الفاشست في برلين، عشية هلاكهم، يحتسون الخمر كثيراً وفي نهم. الا أنهم لم يفرغوا جميع مستودعات خمورهم.

ولقد شهدت انا نفسي كيف أمر قائد فوج من افواج المدفعية بأن تقصف المدافع الثقيلة مصنعاً للخمور كان قائماً في اتجاه هجوم فوجه. وقد راح الخمر، الممتزج بالتراب والاوساخ، يجري في الشوارع نهراً عكراً. وجلي أن هذا القرار كان حكيماً، وان يكن الكثيرون من رجال مدفعيتنا قد راحوا يتطلعون بأسف الى الكونياك والليكور والفيرموت والشامبانيا منسفحة في المجاري والاخاديد والحفر.

والآن، في الايام الاولى بعد استسلام المدينة، ما كان يمكن بعد لا لهيئات الادارة الذاتية الالمانية، ولا للادارة العسكرية السوفييتية، ان تأخذ بالحسبان وتضع تحت الحراسة الشديدة جميع مخازن برلين ومستودعاتها.

بهذا فقط كان يمكن تفسير تلك الصورة الوحشية التي بدت لانظارنا: خوار سكارى يتدافعون في فوضى على مستودع خمور تحت الارض.

ودخلنا الفناء، أنا وكوربوسنوف، وفي أيدينا بنادق أوتوماتيكية، فأرغم ظهورنا وحده الالمان، الحاملين السطول، على التواري في مداخل البيوت والاحتجاب في مساكنهم.

وخلا الفناء بلحظة. ولكن المستودع تحت الارضي كان ما يزال فيه أشخاص، وكان لا بد، لاخراجهم من هناك، من النزول الى القبوعلى لوح من الخشب ضيق زلق متزعزع، مستعمل بدلاً من السلم المتكسر.

وفي النفق تحت الارض كان يسود ظلام مشبع بالروائح الكحولية الحادة المخدرة. ولم يكن ينير هذه الظلمة الحالكة غير بصيص اغبش من الفوانيس ووهج راجف من عيدان الكبريت.

ولقد كان المستودع، كما يبدو، جد كبير. فقد كانت الاصوات تدوّي عند المدخل بالضبط ومن مكان ما بعيد في الاعماق حيث كانت الصيحات تتمدد في صدى متكرر مجلجل. وكان هذا الصدى يمتزج باصوات يحدثها الخمر السائل منهمراً ومتقطراً. فكان يخيل للمرء أن قد تكوّن في الحفرة الباطونية الضخمة شلال صغير من الخمرة، فهو يغمر قاع المستودع تدريجياً، مرتفعاً على جدرانه الحجرية القاتمة.

وبكلمة، لقد كان النزول الى تحت رهيباً، وقد ظللنا بضع دقائق نراوح في مكاننا عند المدخل.

ـ ينبغي النزول الى تحت ـ قال كوربوسنوف بلهجة رجل قد وزن المغامرة وضرورة اخراج السكارى النازيين من القبو.

ولقد كان يدهشني دائماً لدى كوربوسنوف هذا العزم الذي لايتزعزع على ابعاد أي اخلال بالنظام، وكل ما لا يروق له سواء أكان هذا الامر يخصه أم غريباً عنه كلياً. وان ثمة لاناساً من هذا النوع ميالين بطبعهم الى الترتيب والتنظيم، وهذا الميل يحدد مسلكهم دائماً سواء أفي بلدهم أم في البلد الغريب.

ـ ايوه، سأزحف نحو هؤلاء الشياطين ـ كرر القول من جديد، من غير أن يدعوني مباشرة لان أتبعه، ولكنه في أعماق نفسه كان واثقاً بلا شك من أني لن أدعه وحيداً في القبو بين الهتلريين السكارى.

ونزلنا، أو بالاصح، تدحرجنا الى تحت على اللوح الخشبي المبلل. وفي قاع القبو وجدنا أنفسنا فوراً في الخمر يصل الى الركب. ومضينا بعد ذلك الى أمام، مثلما يسير عمال المناجم في ممرات تغمرها المياه. وكان كوربوسنوف يرفع رجليه عالياً فيتطاير رشاش الخمور القاتم من جزمتيه في جميع الجهات.

حين ابتعدنا عن اللوح الخشبي اشعلنا مصباحينا، فرأينا الى اليسار خزّانات اسطوانية ضخمة مبيضّة في نصف العتمة. ولقد بدا لي أنها أشبه بأفيال كبيرة جدا راكعة على نهر الخمر العكر محنية الظهور تحت قبة سقف المستودع الواطئة.

وفوق أحد الخزانات، شأن المروض على ظهر فيل، كان يجلس ألماني يتعتعه السكر، مدخلاً في فتحة الخزان انبوبا مطاطيا كتلك الانابيب التي يستخرج بها السواقون البنزين من البراميل. وكان يمسك بالطرف الآخر من الانبوب ألماني طويل له وجه شقي، يلبس سترة ضابط بدون كتافيات. بالكاد كان ممسكا بنفسه على قدميه. ومع ذلك فقد كان الالماني يسحب الهواء من الانبوب محاولاً امتصاص الخمر.

وتمكن أخيراً من ذلك. فانبثق مسيل قوي لطمه على فمه وعلى جهه، ولعله قد أصاب عينيه اذ أن الالماني راح يعوي عواء صارخاً وهو يلوح بيديه ثم وضع راحتيه المبللتين على عينيه كأنما

ثم صب عليه من اخمص قدميه الى رأسه، لا خمر بل حمض من الحوامض الكيماوية.
وقد بادر كوربوسنوف على الفور فانتزع الانبوب من يد الجالس فوق الخزّان، صائحاً به:
ـ ماذا تفعل! ـ فهرب الالماني حامل الصفيحة متورياً جانباً.
وقد ظهر أن في الخزان الكبير شراب روم جد ثقيل يحرق الحنجرة كانه محض سبيرتو. وكان الالمان يشربون هذا هنا، في القبو، فيسكرون بكثير من السرعة فلا تبقى لهم صورة بشر. وبضربات من اقدامنا قلبنا بضعة سطول وصفائح، ومضينا قليلاً الى أعماق القبو، فعثرنا هناك أيضاً على ألمان ما أن تميزوا بزاتنا العسكرية في العتمة حتى ابتعدوا عنا.
وقد قررنا طرد السكارى النازيين من القبو، ولكن هذا ما كان ممكناً الا بتهديدهم بالسلاح.
ـ أخرجوا جميعاً! ـ صاح كوربوسنوف. وطبيعي أن الالمان لم يفهموه، الا انهم شعروا بخطر لهجة صوته الذي دعمه ميخائيل ايفانوفيتش على الفور برشة من بندقيته الاوتوماتيكية وجهها الى السقف.
وشيئاً فشيئاً طردنا جميع السكارى من القبو. وقد خرجوا الى الفناء، الا أنهم لم يسرعوا بالانصراف فحاولنا عبثاً طردهم الى مدى أبعد عن هذا الفناء اللعين، بدون استعمال السلاح. فالخمرة تبعث حتى لدى الجبناء من الناس عناداً أرعن أبله. وحين كنا واقفين قرب سيارتنا، كان ذلك النفر من السكارى يراوحون مكانهم عند زاوية

الحي المجاور، ولكن ما أن ابتعدنا قليلاً حتى مضى الالمان يجرجرون أنفسهم مترنحين الى قبو الخمر.

– يا للحشرات! – قال كوربوسنوف شاتماً.

لقد كان أكثر ما أثاره أن كان بين هؤلاء الحشرات السكارى بعض الفتيان ممن تقارب أعمارهم السادسة عشرة، من عمر أولاده. وقد غسل كوربوسنوف وجه أحدهم قرب برميل ماء، وكان فتى اشقر أنمش، وأجلسه على لوح من خشب، مسنداً ظهره الى جدار البيت.

ولقد سمعته يتحدث مع الفتى بالروسية وهو يجفف وجهه بمحرمة:

– لم تحشر نفسك هنا؟ ايوه، ان هؤلاء الكبار، هؤلاء الذئاب، يخرسون وجدانهم بالخمر. انهم يغرقون في الخمرة حزنهم على دولتهم. وأنت، يا جرو، ما الذى لديك لتغرقه في الخمر؟ عليك أن تفرح. يجب أن تبني بلداً جديداً. أتسمع؟ أين تسكن؟ سنوصلك الى بيتك. فلا تعد تشرب الخمرة. هذا الاعتياد سريع الا أنه بعد ذلك يجعل سير الحياة كلها معوجاً.

وأما الفتى فكان، وهو يجهد للامساك بزمام رأسه المتهاوي، غير فاهم شيئاً يتطلع الى كوربوسنوف، وفي عينيه العكرتين المتعبتين يمتزج الخوف بوقاحة السكران ودهشته. وقد اعتزمنا الذهاب في طريقنا الى الحاكمية للابلاغ عن قبو الخمر غير المراقب هذا، وقبل أن ننصرف ملأنا مدخل المستودع ببراميل فارغة كانت متروكة في الفناء.

ولكن كوربوسنوف ملأ قارورة صغيرة بشراب الروم الخمري اللون، ووضعها قربه على المقعد، من غير خفية وقال:

ـ آخذها لارى أي شراب روم هذا الذي يشربه الاوباش في برلين. الفتيان هنا شربوا الفيرموت من قبو الغستابو فأثنوا عليه! ولعل هذا ليس بأسوأ منه؟

ثم أضاف بعد دقيقة، وقد أدار المحرك:

ـ الفاشست يغرقون بالخمرة هلعهم، وأما بالنسبة لنا، نحن الجنود، فالشرب قليلا بمناسبة النصر شيء مشروع!

وبعد ذلك ذهبنا الى الحاكمية ، وقد أخذنا معنا بضعة من المندفعين في هواية استغلال أيام السلم الاولى التي يختل فيها النظام، وسلمناهم لاثنين من رقبائنا المناوبين لاعادة الصحو الى رؤوسهم...

عند جدران الريخستاغ

في الخامس من أيار (مايو) ١٩٤٥، يحتفل عادة في الاتحاد السوفييتي بيوم الصحافة * . وقد عرفنا في الصباح أن الكتاب ومراسلي الصحف، والمصورين السينمائيين والصحافيين، الموجودين ذلك اليوم في برلين، قرروا الاجتماع جميعاً قرب الريخستاغ ، احتفالاً بيوم الصحافة. وهكذا مضت سيارتنا من جديد، صباح الخامس من الشهر، من الضاحية أولنغورست الى قلب برلين. وأثناء الطريق كنا نتأمل ما يجري في المدينة التي كانت في حال من كان مصابا بمرض قاتل ثم بدأ يستعيد وعيه.

* في الخامس من أيار (مايو) ١٩١٢، وكانت الحركة الثورية في صعود، صدر في روسيا العدد الاول من جريدة «البرا فدا» اليومية البلشفية. ومنذ ذلك الحين ويوم الخامس من ايار يحتفل به كيوم تقليدي للصحافة.

ولقد جرى الانتقال من الحرب الى السلم في برلين بسرعة خاطفة. فبالامس فقط كانت تلعلع الطلقات النارية، وكانت المدينة كلها تلفها الحرائق، أما في صباح اليوم التالي فكان البرلينيون قد بدأوا يعيدون بناء البيوت والشوارع، ويطفئون الحرائق، ويرفعون المتاريس.

وكان أهالي المدينة ينزلون الى الشوارع للعمل في اعادة البناء تحفزهم الضرورة ذاتها، وكان المرء يشعر أنهم بعد سنوات الحرب الرهيبة يستطيبون القيام بعمل ما ليس من أجل الخراب، بل من أجل السلام، من أجل حياة بشرية طبيعية.

واليك بالصورة البالغة أقصى حد من النموذجية لشوارع برلين في تلك الايام: على أكوام الحجارة، وعلى أنقاض جدران هاوية، يقف رجال يلبسون مضرّبيات وجاكيتات عتيقة، ونساء عليهن فساتين مرّ عليها الزمن ، واحداث وشيوخ وعجائز، وهم جميعاً، في صمت وفي دأب، يتناقلون حجارة الآجر وقطع الحديد من يد الى يد، تنظيفاً للساحات أو الشوارع.

ولقد كان من العسير على المرء أن يرى هنا وجوها مرحة، وأن يسمع ضحكة صاخبة. فقد عانى البرلينيون الكثير جداً، وتعبوا كثيراً جداً من الحرب ومن الجوع. فكانوا يشتغلون صامتين. ولعلي أقول أن وجوه جميع الكبار كان يبدو عليها الاعياء، الا أنها كانت في اطمئنان. فمهما تكن المقادير التي حلت بكل منهم، فقد كان ثمة شيء واحد لا شك فيه هو أن السلم قد حل، وتوقف اطلاق النار في المدينة. كانت النسوة تجلب الماء من المضخات. فالقصف

الجوي الذي استمر شهوراً عديدة قد حطم التمديدات المائية في بيوت برلين، حتى السليمة منها.

وكما في شارع قرية من القرى النائية، ها هن النسوة الآن، في قلب برلين، يقفن صابرات في صفوف انتظار طويلة حاملات سطولاً بيضاً مطلية بالتوتياء. وانهن أيضاً، على الدوام تقريباً، لفي صمت. على أنه ما كان يمكن للمرء في تلك الايام أن يتجنب صف الانتظار في اي مكان: أمام المخازن، حيث كانت تباع ببطاقات المواد الغذائية المجلوبة من روسيا، وأمام أول صالون للحلاقة فتح في المدينة، وأمام حانوت الادوية. بل لقد كان يصطف أمام مطبخ الميدان المتنقل لاحدى القطعات أطفال من أبناء برلين، والطباخ العسكري يصب لهم الحساء بالمغرفة في صحون معدنية.

خلال هذه الايام العشرة جميعاً من المعارك كانت تغادر المدينة جموع من اللاجئين، ولكن لم يتكون لدينا انطباع بأن برلين قد خلت من ساكنيها. وان ثمة كثيرين قد باتوا يعودون. والعائدون جميعاً كانوا يسيرون في الشوارع على أقدامهم فقط. فلم يكن قد بدأ العمل بعد أي نوع من أنواع وسائل النقل. وقد كان هذا يظهر كثرة السكان.

ولقد لاحظت قلة عدد متوسطي العمر من الرجال الالمان في الشوارع. على أن هذا كان طبيعياً: فان أكثرية الراشدين من البرلينيين كان هتلر قد تمكن من تعبئتهم في الجيش.

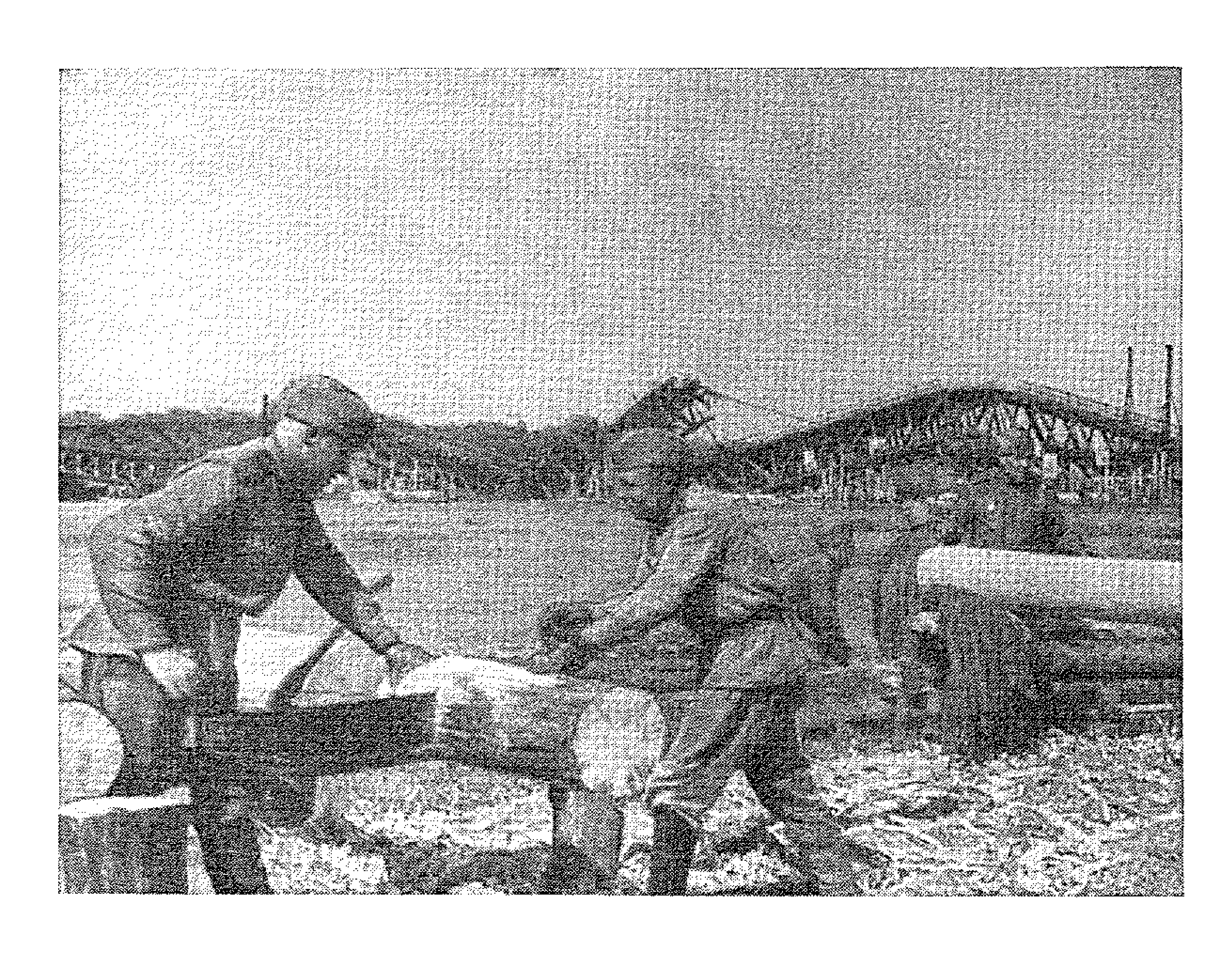
ولكن ما السبب في أن الصبايا لم يكن يظهر لهن أثر البتة تقريباً؟ وأما اذا هن ظهرن في الشوارع، فيحاولن الظهور بمظهر من تخطين سن الشباب، فيغطين رؤوسهن بالمناديل والشالات ويلبسن

رث الثياب؟ لقد كان هذا كله، بالطبع، من فعل دعاية غوبلز الشائنة.

لقد ظلوا شهوراً عديدة يحشون رؤوس أهالي برلين بالهذيان عن «وحشية الروس». وانها الآن لتتبدد سريعا كالضباب، لأن الناس كانوا يصدقون عيونهم والوقائع لا تخرصات غوبلز الميت. والوقائع قد تكلمت بنفسها. فقد كان جنود الهندسة السوفييتيون، من غير أن يخلدوا للراحة بعد المعارك، يرفعون الالغام من البيوت والشوارع، ويعيدون بناء الجسور المتهدمة. وفي قلب المدينة كان الجنود يرفعون الموانع القنفذية والاعمدة المضادة للدبابات، وينظفون حديقة الشارع ويرتبونها لكي يتنزه فيها البرلينيون باطمئنان.

وقد رأينا بوابة براندنبورغ، النصب التذكاري الوطني في المدينة. ان جنودنا هم الذين نزعوا عن الاثر المعماري الحواجز الخشبية الواقية، ورفعوا الالواح وازاحوا أكياس الرمل، فباتت بوابة براندنبورغ الآن شبيهة فعلا بالبوابة التي كان يمكن عبورها بالسيارة.

وما كان مر على استسلام المدينة غير يومين ونصف اليوم حتى شرع في ردم الحفر والخنادق العديدة في الساحة الرئيسية من المدينة. ولكنه العمل هنا كان صعباً، لان السيارات والعربات، بل والدبابات والناقلات كانت طول الوقت تمر من جميع أطراف الساحة الضخمة الى مبنى الريخستاغ، كما كان الجنود السوفييتيون يمرون في جماعات مشياً على الاقدام لزيارة الريخستاغ والتوقيع بأسمائهم على أعمدته المرمرية ذات اللون الرمادي المشرق.



لم تسكت بعد الطلقات الاخيرة، ولكن الاعمال قد بدأت في اعادة البناء.

وقد كان الريخستاغ في الخامس من أيار (مايو) ما تزال تفوح منه رائحة الحريق الذي لم ينقض وقت طويل على انطفائه. فان رائحة الحريق اللاذعة المستقرة لم تتبدد، بل لقد كانت تنضاف اليها أيضاً رائحة الغبار المتطاير سحباً كثيفة في الساحة والشوارع المجاورة.

لقد كانت الاغبرة كثيرة. وماكان يمكن الا في مدينة كبيرة كبرلين، تحولت فيها احياء بكاملها بفعل قصف القنابل الى حجارة مسحوقة، ان تتجمع هذه الكمية من الغبار الكثيف، الذي كانت الرياح ترفع سحبا كاملة منه الى الفضاء فتعتم ضوء النهار وتحبس الانفاس...

ارتقيت درجات سلّم الريخستاغ المحطمة. وكانت الاعمدة

الجسيمة متصاعدة الى السماء. وفي بعض الاماكن كانت مخرّبة تخريباً شديداً بفعل القنابل، وفي جميع الامكنة كانت تحمل آثار الطلقات النارية والشظايا. وفي الخامس من أيار (مايو) رأيت على أعمدة تواقيع كثيرة مكتوبة بقلم الرصاص، وبالحبر وبشيء ما كثيف شبيه بالحبر الصيني، لعله مازوت دبابة؟

غير معروف من ذا الذي قرر للمرة الاولى التوقيع على الاعمدة لكي يرى الجميع أنه قد جاء الى هنا، الى قلب برلين. ولكنه المثل كان معدياً. فكل يوم كانت التواقيع تتزايد، وفي آخر الامر تبقعت جميع الاعمدة على ارتفاع قامة الانسان بالتواقيع والكنى. وقد كان كل جندي سوفييتي في برلين يعتبر من الشرف والمكافأة له في تلك الايام أن «يوقع على الريخستاغ».

وكانت توجد وراء الاعمدة ساحة صغيرة تطل عليها أبواب ضخمة. وقد باتت الآن جميعها تقريباً مخلّعة من مفاصلها. وخلف الابواب كانت تبدأ فسحة الطابق الاول، وقد كان في ذلك اليوم يبدو قاتماً للغاية، اذ كان غطاء الجدران هنا محترقاً في كل مكان، كاشفاً عن الباطون والحجارة الوسخة.

كان كل شيء داخل الريخستاغ مشوهاً مخرباً. السقوف، الارض، والسلالم! وبدلا منها، على مختلف المستويات، كانت تبرز هياكل باطونية فقط للسلالم كأنها منخورة، وهي توشك بين لحظة وأخرى على الانهيار.

وقد احترقت الارضية الخشبية ايضاً فلم يبق لها أي أثر. فكنا نسير على ارض من الباطون غير مستوية حملت اليها جزمات الجنود طبقة من الوسخ. وفي كل مكان كانت الارض تنفغر بالاخاديد

والحفر والآبار ذات السلالم المحطمة. وقد كانت هذه تؤدي الى سراديب مبنى الريخستاغ.

وكان كل هذا اشبه بخط دفاعي بعد تدميره بقصف المدفعية الساحق، وبتحصينات باطونية محطمة، لا بقاعات الريخستاغ اللماعة التي كان يتمشى فيها فيما مضى سادة «الريخ الثالث».

وعلى نحو عفوي رحت اتطلع الى فوق، الى سقف البناية. وهناك كان يرى من خلال الارضيات المنهارة وانقاض الدعامات والسلالم الهيكل الكروي للقبة الكبيرة التي كانت ترتفع فوق كل القسم المركزي للمدينة.

وهناك الآن ترفرف، منذ عدة ايام، راية النصر. ولكن كيف توصل الى هناك كشافانا ايغوروف وكانتاريا، ومفرزة الملازم بيريست؟ كان يمكن الظن بانهم قد زحفوا على الجدران، كاللاعبين في السيرك. الا كم كان القتال شديداً عليهم هنا، كما كان شديداً على جنود النقيب نيئوسترويف وهم يزدحمون في الغرف التي كانت تقترب منها ألسنة اللهب!

في عام ١٩٣٣، احترق الريخستاغ للمرة الاولى. وحاول النازيون اتهام الشيوعيين بذلك.

في الجهة المقابلة من الساحة بحيث كان يمكن رؤيتها جيداً من باب الريخستاغ، تقوم بناية كبرى رمادية، هي الدار السابقة لغورنغ. ومن دار غورنغ الى الريخستاغ، عبر الساحة، كان قد حفر ــ كما اتضح فيما بعد ــ نفق سري تحت الارض.

وبعد مضى عشر سنوات على الحريق الاول للريخستاغ، أفشى غورنغ السر عن غير عمد، وهو في حالة السكر، للجنرالات

المشتركين في وليمة أثناء زيارته لاحد قطاعات الجبهة الشرقية، أنه هو نفسه أحرق الريخستاغ فهو بالذات يعرف تصميم هذه البناية!

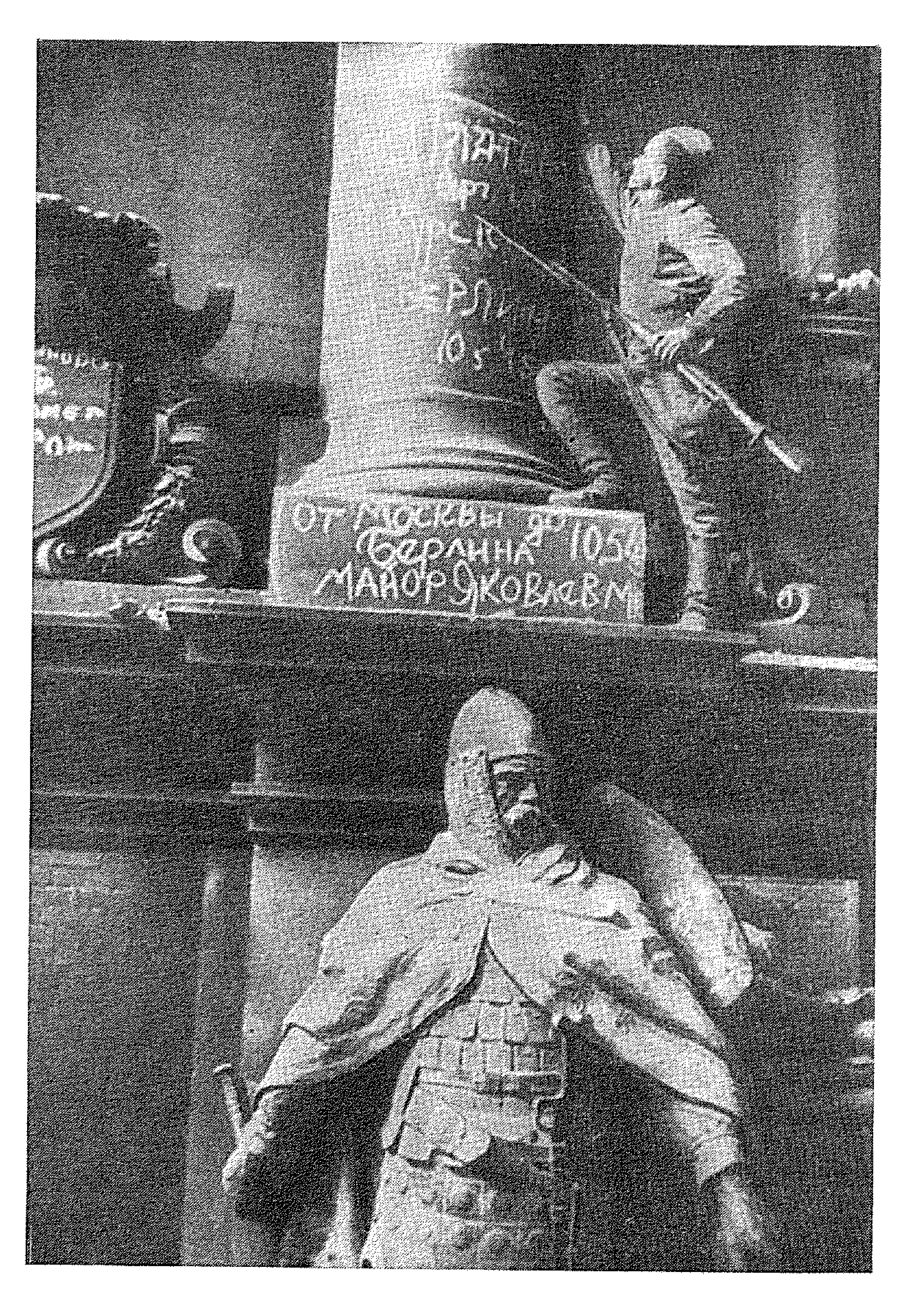
وقد كان هتلر يعتبر بداية «الامبرا طورية الثالثة» من حريق الريخستاغ ومجيئه الى السلطة في الثلاثين من كانون الثاني (يناير) ١٩٣٣. ومن حريق الريخستاغ في أيار (مايو) ١٩٤٥ انتهى وجود هذه الامبرا طورية النازية! وان هذا لرمز له دلالته الفعلية! لقد اشعل النازيون نار الحرب فاحترقوا فيها!..

... وفيما كنا نتمشى في الريخستاغ ، صباحاً، متجنبين بحذر الحفر والآبار، كان ممثلو السلك الصحافي قد بدأوا يظهرون، الوا حد بعد الآخر، فى الساحة عند الاعمدة والسلالم وهنا في فسحة الريخستاغ .

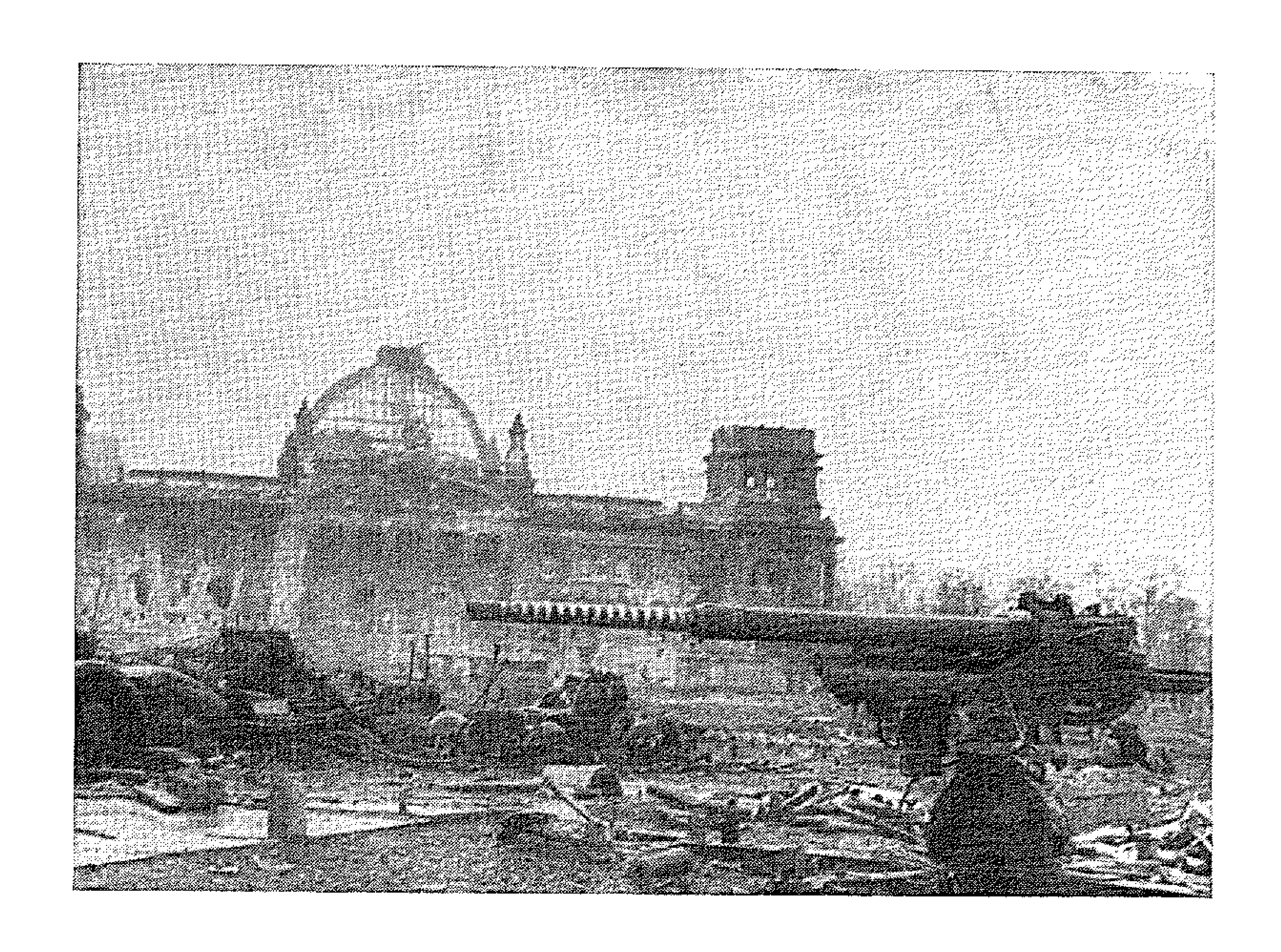
في تلك الايام لم يكن الكتاب والصحافيون يسكنون معاً في بيت واحد أو حي واحد، ولا كان يجمعهم مقر واحد او مركز اتصال واحد. فقد كانوا طول الوقت يتنقلون من مكان لآخر ، ويذهبون الى شتى زوايا برلين وسائر أنحاء المانيا الوسطى والشرقية.

ولاعترف باني قد دهشت لاجتماع هذا العدد الكبير من الكتاب الذين لم يتفق لي حتى ذلك الحين أن التقيت بهم اطلاقاً أو ما كنت أراهم الا رؤية عابرة ــ لقد دهشت لا جتماع هذا العدد الكبير منهم عند الريخستاغ ، يوم الخامس من ايار (مايو) في ساعة واحدة تقريباً.

ولكن يوم الصحافة قد جذب الجميع تقريباً على ساحة الملوك في برلين.



كل يوم تزداد التواقيع على اعمدة الريخستاغ.



الريخستاغ بعد الاستسلام.

كان الكتاب يؤلفون في الساحة جماعة كبيرة تكاد تكون اشد الجماعات صخباً ومرحاً. عناقات، ضحكات، ذكريات، حكايات عما رأى كل منهم وما عاني! وكان المصورون الصحافيون، الذين وصلوا أخيرا، يلتقطون الصور بآلاتهم على نحو غير ملحوظ. وقرر المصورون السينمائيون التقاط هذا المشهد للفيلم الوثائقي الذى يعدّونه عن الاستيلاء على برلين.

وفي تلك اللحظة، وعلى نحو غير متوقع، ظهرت في الساحة سيارة الجنرال الكولونيل بيرزارين.

وما كان من قبيل المصادفة، طبعاً، أن جاء حاكم برلين العسكرى السوفييتي الاول في هذا اليوم الى الريخستاغ. كانت الحياة

في المدينة قد دخلت في خط جديد. وكانت قد أقيمت هيئات ديموقراطية للادارة الذاتية. وكانت الحياة السلمية تنتظم.

ولا بد للمرء أن يذكر انه ما كان يوجد في برلين وقتئذ الا القوات السوفييتية. أما الجنود والمراسلون الحلفاء فما كان لهم وجود مطلقا. وكان كل ذلك يضع أمام الصحافيين العسكريين مهمات جديدة.

وراح الجنرال بيرزارين – وهو جسيم، عريض المنكبين، ذو وجه شديد الملامح يرتسم عليه حاجبان كثيفان – يحيي كل واحد تقريباً وهو يوصوص قليلا بعينيه الذكيتين. كان يبتسم، فتلطف ابتسامته خطوط ذقنه الثقيلة بعض الشيء وتعابير عينيه الصارمة. وفيما كان ينتقل من مجموعة الى مجموعة، كان يروي بحيوية ونشاط الانباء الاخيرة في المدينة، متحمسا هو نفسه:

– أدخل في التداول مارك جديد. أصدرت بطاقات لتوزيع المواد الغذائية للاهالي الالمان. الحصص لا تقل عما يعطى في الاتحاد السوفييتي من المواد الغذائية للعمال والمثقفين. وقد قدر الالمان هذا على الفور كعمل انساني نحوهم.

وقد افتتحت الحاكميات العسكرية السوفييتية في جميع الاحياء، وهي غارقة فيما تعالج من قضايا ومشاكل. فالامر يتطلب ليس فقط ترتيب الحياة الاقتصادية في المدينة بل والثقافية أيضاً. وسينال شغيلة الفنون حصة من المواد الغذائية من الفئة العليا، شأنهم في ذلك شأن العمال الذين يقومون بعمل جسدي مرهق.

وينبغي أن يعاد عمل الاذاعة، وأن تفتح المسارح ودور

السينما ومثيلاتها. أما كل ما يروج العقلية الهتلرية من موا ضيع فلا بد من تطهير البرا مج منه!

وقد تلقت الحاكميات العسكرية السوفييتية في الاحياء الامر باجراء تسجيل رجال العلم والعناية بهم بغية المحافظة عليهم من أجل العمل المبدع المقبل. وعلى نشاط العلماء أنفسهم يتوقف موعد افتتاح مؤسسات البحث العلمي. ولهم المساعدة من جانب الادارة العسكرية.

وستعرض في برلين أفلام سوفييتية، ذات ترجمة ناطقة في الوقت نفسه، ولكن لا بد من أن تقام أيضاً ستوديوهات سينمائية ألمانية خالية من العقلية النازية لاخراج أفلام شعارها: السلم والديموقراطية.

ان برنامج النشاط لواسع النطاق!

ولقد قال بيرزارين:

– لقد قضينا على الدولة الهتلرية، ولكننا لا ننتقم من الشعب الالماني. ينبغي أن يرى الشعب الالماني فينا أصدقاءه الحقيقيين...

... وفيما كان الجنرال يتحادث مع رجال القلم، كان السينمائيون قد تهيأوا للتصوير. واختاروا سلّم الريخستاغ مكاناً لهم. ولكن درجات السلم لم تتسع للجميع، فكان عليّ، مثلا، ان امتطي ظهر اسد من حجر، نجا من المعارك بأعجوبة، وظل مستقرا على قاعدته.

واجلسوا الجنرال بيرزارين في المركز من الجماعة. انطلق وهج نور المغنزيوم الخاطف! وراحت أجهزة التصوير السينمائي تطقطق. وتم اجراء البروفات الاولى. ولكن حدث اذ ذاك انقطاع

صغير: كان جنودنا يقودون من مبنى الريخستاغ رجلا بثياب مدنية، يلبس جاكيتاً معفراً بالتراب، يكسو خديه الشعر، معروق الجسم، أصفر الوجه، يتملكه خوف بالغ درجة الهلع.

وقد ظهر ان هذا البرليني، وهو رجل يتراوح عمره بين الخامسة والثلاثين والاربعين، مستخدم في محاسبة أحد المصانع، قد وجد نفسه في سرداب الريخستاغ منذ الثلاثين من نيسان (ابريل)، حيث جرّه العسكريون لانقاذ حياته، على حد قولهم. وقد كان الهتلريون يؤكدون له ان الروس سيقتلونه.

ولقد دخل هذا الرجل خفية في ثقب حجري بحيث لم يكن يرى كيف استسلمت حامية الريخستاغ، ولا كان يعرف أن المدينة قد استسلمت، فظل أربعة أيام بدون طعام، ولا شراب، الا أنه، وقد خارت قواه آخر الامر، قرر الخروج الى النور.

واذ أبصر «سجين الريخستاغ» هذا بجنودنا انهارت اعصابه كلياً وراحت أوصاله ترتعد بانتظار اطلاق النار عليه.

وقال الضابط بعد التحقق من هويته:

ـ أذهب الى بيتك! سقط هتلر! سلام!

وترجموا هذا الى الالمانية للرجل. الا أنه ما صدّق كلمة ولا تحرك من مكانه.

فكرر الضابط قائلا:

ـ الى بيتك! عش في سلامة!

وفجأة اجهش الالماني بالبكاء هلعاً أو مخافة تصديق الفرحة غير المأمولة وخر راكعاً على ركبتيه، وراح يتشبث بيد الضابط ليقبلها.

فغضب الضابط، وقال له ساحبا يده بشدة:

ـ رح!

واذ أبصر الالماني بالعدد الكبير من الضباط الروس مع الجنرال، تجمد من جديد في مكانه. فقال له الضابط اذ ذاك مشيراً الى بيرزارين:

ـ حاكم برلين العسكري بالذات يسمح لك بالانصراف الى البيت، ويتمنى لك حياة طيبة.

ـ اوه، الهر الحاكم العسكري! ـ تمتم الالماني غير فاهم، بالطبع، كل ما قال له الضابط، الا أنه حزر من اللطف البادي في لهجة صوته وحركاته أنهم يسمحون له بالانصراف.

ـ اوه، الهر الحاكم العسكري!

ومن جديد خر راكعاً على ركبتيه، وأحنى ظهره، ثم نهض فوضع راحة يده على مكان القلب من صدره، وانصرف عن الريخستاغ ببطء اول الامر، ثم راح يسرع أكثر فأكثر.

ولكن ما ان ابتعد هذا الشخص قرابة ثلاثين متراً حتى التفت على طقطقة جهاز التصوير السينمائي... وفجأة ابتسم ابتسامة وجلة. ولعلها كانت ابتسامته الاولى منذ أيام كثيرة، ان لم يكن منذ شهور كثيرة رهيبة من العذاب والهلع، ابتسامة وجلة على أمل في الحياة والسعادة.

ـ مع السلامة، مع السلامة، سلم على زوجتك! ـ قال له الجنرال بيرزارين ملوحاً بيده، فيما كان المصورون السينمائيون يستعدون لالتقاط مشهد جديد، مستفيدين من ضوء الشمس الذي انار الريخستاغ انارة جيدة.

على الجانب الآخر

يوم السادس من ايار (مايو) وكان النهار مشرقاً دافئاً ممتعاً، رأيت للمرة الاولى المرآة الرمادية الفاتحة للنهر ذي الاسم الرقيق اللطيف، المرتبط لدينا بصورة ذهنية عن شيء ما جد بعيد قائم في أعماق ألمانيا. لقد رأيت نهر الب.

ذهبنا الى النهر بسيارتنا لنتركها على الشاطئ وننتقل الى الشاطئ الآخر.

وهنا، في مدينة نوي – روبين الصغيرة الهادئة ضم كوربوسنوف «الدبابة الراديو» الى صف طويل من السيارات العسكرية الاخرى الواقفة على طول شوارع ضيقة، وفي الساحات الانيقة، وعلى شاطئ الب وقد كانت هذه سيارات ودبابات الافواج السوفييتية التي بلغت الب، وهنا، كما يقال، «قد انتهت الحرب لها».

وقد بدا النهر مقفراً. على المرسى كانت تقف بضع بواخر، مرئية من قرب. وكان قد جيء بها الى هنا، عبر قنوات من شبري، من قلب برلين، حين بدأ القتال هناك.

وكانت هذه بصورة رئيسية بواخر صغيرة للنزهة ذات جوانب ساطعة البياض، ومظلات مختلفة الالوان في الظهر الاعلى منها، عليه مقاعد وثيرة للتمدد وكراس مقاعدها من الكتان، متناثرة على طول حواجز من الحبال. ولقد بدا انها لم تجئ الى هنا من برلين، بل من مكان جد بعيد، من الحياة السلمية التي كنا قد نسيناها.

وسواء أمنظر البواخر الصغيرة الانيقة، أم الشمس المشعة على الامواج، وعلى الكرات العائمة لتنظيم السير في النهر، أم مجرد

الحالة النفسية البهيجة التي جئنا بها، قد كان يضفي على كل شيء هنا لوناً من فرحة العيد.

لم تكن بلدة نوي – روبين قد عانت من الحرب غير القليل جدا، انما نالها النصيب الاكبر من تخريب جموع النازحين، الهاربين في حالة من الذعر والهلع عبر الجسر والمعابر الخشبية.

لقد كان يفر الى هنا في هلع من كانوا يفضلون الاسر الاميركي على العلاقة بالروس، ومن كانوا يأملون بأن «يغوصوا الى القعر» والارتياح هناك والذوبان وسط سكان مدن ألمانيا الغربية العديدة.

ولكن المعابر تهدمت فما عاد في وسع أي نازي الآن أن يجتاز الطريق هنا الى الغرب، لا جواً ولا براً، ولا عبر مياه الب وقد باتت خط حدود عريض لا تجري فيه الا زوارق الحلفاء البخارية الحربية.

كنا قد تأخرنا بعض الشيء عن الساعة المحددة، وكانت مجموعة الضباط، وعلى رأسها قائد الفيلق الجنرال تسفيتايف قد تمكنت من عبور النهر. وفي احدى المدن الصغيرة، في اعماق ألمانيا الغربية، قد حددت مقابلة ضباط الجيشين السوفييتي والاميركي.

ويلوح مساعد روسي، مناوب على الشاطئ، بيده بعلم صغير أحمر ويطلق صفيراً شديداً. وقد سمعوه في الجانب الآخر، لان نهر الب لم يكن يزيد عرضه هنا عن ثلاثمئة متر. وكنا نرى بجلاء اشباح الجنود الاميركيين.

وها هو ذا زورق معدني عريض مسطح القعر، في مؤخرته محرك صغير، صدم الشاطئ. وكان يجلس فيه جنديان اميركيان

طويلا القامة يلبسان بزتهما المألوفة: السترة القصيرة الرمادية المشرقة، والبنطال المسدول على الحذاء وقد قفزا من الزورق بخفة تاركين على الارض الرطبة آثاراً من نعال احذيتهما الضخمة.

كان هذان الاميركيان، وهما يخدمان المعبر، يتطلعان ألينا بفضول، مع أنهما كانا قد نقلا الضباط الروس. وبحركة لامبالية رفعا يديهما بالتحية العسكرية مرحبين بالضيوف. ولقد أجبنا بالشكل ذاته، وبنظرات لا تقل فضولاً.

- طيب... تفضلوا!.. - قال أحد الجنديين بالروسية، وكان قد تعلم هذه العبارة الترحيبية على ظهر قلبه. وأشار بيده الى الزورق.

- ثنك يو فيري ماتش! - أجبنا معاً، أنا وسباسكي، بالانكليزية، ولكن على غير ثقة كاملة بصحة اللفظ. وبهذا انتهت مراسم تعارفنا مع الجنديين.

وبعد دقيقة كنا جالسين معاً في الزورق الذي دار بخفة على الماء بقعره العريض ومضى سريعاً الى الضفة الغربية.

كان الجنديان الاميركيان يبتسمان. ونحن أيضاً. وترنح الزورق بعض الشيء. فدارت، كأنما على مفاصل، الضفة الشرقية، حاملة الى الجانب جملة من السيارات، وحطام دعامات الجسر الباطونية، والمعبر المحطم.

ونزلنا من الزورق، وأجلسنا الاميركيان في سيارات مكشوفة ذات صندوق قصير - شيء ما بين سيارة الشحن وسيارة الركاب. وعلى المقعد الامامي كان يجلس جندي أميركي، سائق زنجي، باسطاً على المقود يديه الفاحمتين الكبيرتين.

وعلى الفور جعلنا نشعر بشدة الهواء المواجه اللاطم للوجوه، حين انطلقت السيارة في طريق مكشوفة من الجانبين، وعداد السرعة يسجل مئة كيلومتر تقريباً في الساعة!

واذا أنا قلت أن الجندي الزنجي كان يقود السيارة بجسارة، لكان هذا تعبيراً ملطفاً للغاية. انما كان يقودها على الحد الدقيق بين الحركة الجريئة وبين الكارثة.

وما كنا نخفف السرعة قليلاً الا حين كنا كالاعصار نقتحم أزقة المدن الالمانية الغربية الصغيرة. ولقد كان السائق يلف على المنعطفات هنا بحيث يقفز بالسيارة خلال ذلك على الارصفة، مثيراً هلعا عند الاهلين المارين جانباً.

ولكن سائقنا نفسه كان يبدو رابط الجأش. وقد كنت أرى أمامي مباشرة ظهره العريض الهادئ المطمئن. وكان لا يكاد، وهو يمسك بالمقود، يقوم بحركات يدوية حادة، انما كان يكتفي بالميل بجسمه كله الى الجهة التي كانت تميل نحوها «الدودج». فقد كان مندمجاً بالسيارة اندماج الطيار بطائرته حين يقوم في السماء بانعطاف حاد.

كنا نسيرنحو أعماق ألمانيا الغربية، مجتازين مدناً صغيرة وكثيراً من القرى. ولقد كان يبعث على الدهشة هنا الانعدام التام لأي أثر من آثار الحرب.

فما كان أبعد الشبه بين هذه المدن النظيفة، ذات المظاهر المترفة، والهيئة السلمية تماماً، وجادات الشوارع المكنسة بعناية، والحدائق الزاهرة في الساحات، وحركة سيارات الباص المنتظمة،— ماكان أبعد الشبه بين هذه المدن وبين مدن القسم الشرقي من

البلاد، تلك المدن الجريحة، نصف المهدمة، التي تجرعت كأس الحرب المرير حتى الثمالة.

كان السادس من أيار (مايو) يوم أحد، وفي شوارع هذه المدن، كان يتمشى الاهلون بثياب الزينة، رجالاً ونساءً وأطفالاً، يرمقون السيارة، وعليها الضباط الروس، بنظرات استياء ودهشة.

ولقد كان هذا التضاد مع ما كنا نراه الى الشرق من الب صارخاً الى درجة كان ينبئ بها بحد ذاته، على نحو يتجاوز حد البلاغة، عن تباين طابع المعارك التي جرت في الشرق من ألمانيا وفي الغرب منها.

كان يجلس في صندوق سيارتنا «الدودج» أميركي، هو صحفي عسكري، في حوالى الخامسة والثلاثين من العمر، نحيل الجسم، طويل القامة، ذو شاربين ضاربين الى الحمرة. وقد كان يرافقنا من آجل آن يكتب مقالاً أو نبذة عن تلاقي ضباط القوات الحليفة.

لقد كان زميلاً لنا، وكان المرء يشعر أنه يتخذ موقفاً ودياً منا، وكان، كالجميع في تلك الايام، مفعماً بشعور البهجة وبادي الحرارة في نفسه. كان يتأملنا بامعان، وأما نحن فكنا ننظر اليه أيضا ونحاول الحديث معه بقدر ما كانت تسمح لنا بذلك سرعة السيارة، والارتجاج في صندوقها، وقلة معرفتنا باللغة الانكليزية. كانت كنية الصحافي، على ما اعتقد، سميث، وهي الكنية الاميركية النموذجية. وقد حكى لنا أنه يعمل في جريدة الفرقة، ومهنته في أيام السلم معلم، وفي ولاية أيوفا تنتظره زوجة وولدان.

وتحادثنا عن الوضع الحربي في المانيا. فبعد استسلام برلين، كانت الحرب ما تزال مستمرة، شكلياً. وكان قد بات معلوماً لدينا أن الاميرال دينيتز ـ خليفة هتلر ـ قد وقع نداء الى الشعب الالماني وأمراً الى القوات، يطلب فيهما مواصلة الاعمال الحربية، وينعت بالجبناء والخونة جميع الراغبين في وقف المقاومة.

فقلت لسميث ان الهتلريين لا يقاومون الا في مناطق جبهتهم الشرقية، أما في الغرب فقد أداروا ظهرهم للحلفاء منذ وقت بعيد.

فابتسم سميث ابتسامة خبيثة وهزّ بكتفيه، كأنما هويقول أنه غير مسؤول عن الالمان.

ـ قال دينيتز: انهم يقاومون من أجل انقاذ حياة النازحين.

قال سميث هذا بلهجة يصعب معها الفهم هل هو يندد بدينيتز، المواصل للحرب، حاكما بذلك بالموت على الجنود الالمان، أم تراه يحبذ اعمال الاميرال ـ النصير المتعصب لهتلر. وقد بدا لي أن التقدير الثاني أقرب الى الحقيقة.

ـ ومن هم هؤلاء النازحون؟ أهم نازيون؟ وما السبب في أنهم يهربون اليكم أنتم بالذات، وراء الب؟

ومن جديد هز سميث بكتفيه. ثم قال:

ـ نحن لاندعوهم ثم ان جريدة فرقتي لا تكتب عن هذا.

ربما كان لسميث رأي ما في هذا الموضوع. أما الآن فقد كان يجيبنا بالابتسام، بصورة رئيسية، متجنباً الايضاح الصريح.

ـ الحرب، بالنسبة لكم، انتهت، أما أنا فما تزال بانتظاري جبهة. ـ قال بعد قليل من التريث، بأسى جلي بدا في عينيه وفي

صوته. وقد ظهر أن فرقته ستتوجه الى ما وراء المحيط، ولكن لا الى الولايات المتحدة، بل الى الحرب مع اليابان.

يبدو أن هذا الامر المتوقع ما كان يبعث الكثير من البهجة لدى الصحافي العسكري سميث.

ولقد لاحظت بيني وبين نفسي أنه كان يتكلم عن أعدائنا الفاشست حديثاً فيه من الفضول أكثر مما فيه من الكراهية، وعلى الاخص، بدون ذلك الصدق والاقتناع اللذين توحي بهما العداوة الواعية. وهذا صحافي في جيش عامل، يقضي عليه واجبه بأن يغرس هذه العداوة في الجنود!

توقفنا قليلاً من الوقت في قرية من القرى، حيث أوضح مرافقونا خط سيرنا. وقد ساروا بنا الى مقر الاركان، فتمشينا قليلاً في فسحته تطرية لارجلنا

لست أدري أي مقر هذا. فمن باب الى باب، وعلى الدرج، كان يمر بسرعة على مقربة منا ضباط يحملون اضبارات، ويرمقون الكتافيات الروسية وشرائط الاوسمة التي كانت تزين قمصاننا التي خلا لونها من لفح الشمس.

أما نحن فقد كنا نشعر بضيق في مقر أركان الاميركيين. اننا حلفاء، لا شك، ومع ذلك فان ثمة شيئاً من الحذر كان يتلامح من حين لآخر في رمقات العيون.

وبعد ذلك ركبنا السيارة من جديد. ومن جديد راح عقرب عداد السرعة يتراقص، والريح تلطم الوجوه بشدة تحبس الانفاس. ولقد خيل الي بعد ذلك أنه قد لا يكون عن غير قصد مرورهم بنا في دروب ألمانيا الغربية بمثل هذه السرعة، بحيث كنا عاجزين عن رؤية أي شيء حولنا بوضوح.

على انه كان ثمة شيء ما كان في غير مقدور المرء أن لا يراه وأن لا يتذكره: هو أولئك الناس، الذين كانوا يركضون الى طرف الجادة، ويصيحون لنا بشيء ما، ويلوحون لنا بأيديهم. وسرعان ما حزرنا أنهم الروس، الذين هجرهم الهتلريون الى ما وراء الب.

لقد أطلقوا سراحهم من المعتقلات، الا أن سلطات الحلفاء لم تعتزم بعد اعادتهم الى وطنهم. لقد كانوا من اخوتنا الروس، وقد جلبت انتباههم البزات العسكرية والكتافيات التى كان الكثيرون منهم لم يروها، ومع ذلك فقد حزروا أن سيارات «الدودج» الاميركية يركبها أناس سوفييتيون.

لا أكاد أتذكر مدينة كليتزي، اذ أني قد مررت بها بمثل هذه السرعة المدوّخة. كل ما بقي في الذاكرة شارع من بيوت غير عالية وعمارة من طابق واحد ذات جدران بيض وحديقة صغيرة مسيجة أمام الواجهة.

أخذونا الى قاعة كانت قد صفت فيها موائد تمتد من جدار الى جدار، وقد جلس هناك ضباط روس وأميركيون وجهاً لوجه. وكنا نحن قد تأخرنا، ولذلك جلسنا في قاعة أخرى، أصغر منها، مفتوح بابها عليها.

وكان يمكن هنا للمرء أن يحزر، من همهمة الاصوات المرحة حول الموائد، كم شرب من الكؤوس، نخب نجاحات جيوشنا والاسلحة الحليفة.

كان الكثيرون لا يجلسون على الموائد، بل يتمشون في القاعة، وفي جميع زواياها كان يسمع الكلام الروسي والانكليزي. ولأمر ما بقيت في الذاكرة خزانة بوفيه ضخمة بنية اللون، وعلى

مقربة منها جنرالان يتحادثان ــ سوفييتي وأميركي، والى جانبهما مترجم وكاتبان ــ هما ايفانوف وسلافين، يتناقشان حول أمر ما في حماسة.

وقد كان على المتأخرين، حسب العادة المتبعة، أن «يلحقوا» بمن كانوا قد اشتعلوا بنار الخمرة ونار هذا التلاقي.

ما كان يمكن وصف المأدبة نفسها بانها غنية. فقد قدموا لكل منا علبة تحتوي على جراية الطوارئ أي الجراية التي تحفظ في الجبهة لكل حالة طارئة ثقيلة. وفي الحق، لقد كانت في هذه العلبة اقراص شهية، وبسكويت، وقطعة شوكولاتة.

لست أكتب عن هذه التفاصيل الغذائية بدافع من حبي لمثل هذه التفاصيل، بل لاني تذكرت، عفواً في تلك اللحظة، بقسماط الجودار الاسود الذي كان يقدم لنا كجراية طوارئ في السنوات الصعاب لبداية الحرب.

لقد كنا أكثر فقرا اذ ذاك، ولكن بسالة الجندي لا تحددها كمية الحروريات التي يتناولها، وكما يقال، فليلهم الله الجنود الاميركيين ان يقاتلوا بشوكولاتتهم كما قاتل جنودنا في حينهم! ان المآدب متشابهة جميعاً. وما هي بالامر موضع الاهتمام الا بالنسبة لمن لم يحضرها. لقد كان ثمة كثير من الخطب، ومن الابتسامات، ومن المعانقات، ومن التهانئ المتبادلة بالنصر. وقد انمحى كل هذا من الذاكرة. ولكن حين بارحنا البيت الصغير لنستقل سياراتنا، كان يبعث الدهشة في نفسي حادث صغير.

في الجهة المقابلة من الشارع كانت تقف فصيلة من الجنود، في صفين. قد تكون هذه خفارة أو على الارجح شيء ما من قبيل

حرس الشرف الاميركي. كان الجنود يقفون في صف غير منتظم البتة، أرجلهم جد منفرجة، يتطلعون الى جنرا لنا وضباطنا في استهتار، مهملين الانضباط العسكري المتعارف عليه. وحين حياهم الجنرال لم يقفوا في الاستعداد بأمر «انتبه!»، كما كان جديراً أن يتوقع منهم، بل بالعكس، سحب كل جندي تقريباً آلة التصوير التي يحملها ووجهها نحو ضباطنا.

وقد رأيت أن هذا قد اذهل الجنرال، اذ كان في الاقل يعبر عن عدم الاحترام. والتفت تسفيتايف بحدة، دون أن يقول شيئاً في الواقع لمرافقيه الاميركيين. وبالفعل، هل يمكن للمرء أن يتصور مثل هذا المشهد في الجيش السوفييتي؟ لقد تحوّل صف حرس الشرف في لحظة الى مصورين ثقلاء؟!

لم نقض بين العسكريين الاميركيين غير بضع ساعات. وهذا وقت جد قليل للكتابة عن النظم في هذا الجيش. كل ما في الامر أن هذا الحادث قد أثار الدهشة في نفسي، ولذلك تذكرته.

وعدت بطريق الرجعة على هذه «الدودج» ذاتها، وكانت هذه المرة خلف موكب طويل من السيارات يجري من كليتزي الى الب. في المقدمة كانت تسير ناقلتان مصفحتان عليهما جنود الحرس. وقد كان هدير جنازير هاتين المصفحتين الصاخب ينذر الجميع من بعيد باقتراب موكب غير عادي.

كانت السماء تمطر رذاذاً دافئاً يغطي بخيوطه الندية الرفيعة، المعلقة في الفضاء، الاشجار، والطريق، ومعاطفنا المشمعة.

وبعد قليل من مبارحتنا كليتزي، استقبلنا على أطراف البلدة

الصغيرة القريبة حشد كبير من الناس، حاملين في أيديهم أعلاماً صغيرة حمراء. وكانت صيحاتهم الترحيبية تدوي في الفضاء.

مثل هذا الحشد من الناس كان يقف على أبواب قرية ثانية، فثالثة، فرابعة.

وكان هؤلاء من جديد روساً من أبناء بلدنا. فلا بد أن الانباء المتسامعة عن قدوم ضباط سوفييتيين الى أعماق المنطقة الغربية قد انتشرت على جناح السرعة بين أسرى الحرب والمسوقين للعبودية، فهم الآن ينتظروننا فى طريق العودة، لالقاء نظرة على الوجوه العزيزة، وسماع الكلام الروسي ولوالتعبير لنا بمجرد صياح، أو بكلمة واحدة عن كل مشاعر فرحتهم وسعادتهم وأملهم بالعودة سريعاً الى روسيا.

– هورّا، أيها الرفاق! – كانوا يصيحون.

– هورّا، ايها الروس!

وكنا نقفز عن مقاعدنا ونصيح ايضاً «هورّا»، ونلوح بايدينا، كما كنا نشرق بالكلمات، وبالريح التي تلطم الوجوه، وبفعل ذلك الشعور من الغبطة السامية الذي يصعب الآن التعبير عنه.

الا كم كان بودنا لو نوقف سيارتنا للتحدث مع أبناء بلدنا، وابلاغهم أن الادارة السوفييتية ستعمل كل ما في وسعها للتعجيل بعودتهم الى الوطن! ذلك أنهم، في ذلك اليوم، وللمرة الاولى، طبعاً، قد رأوا في ألمانيا الغربية مواطنيهم – ضباط جيش المحرّرين.

ولكن الاميركيين كانوا يسيرون بموكب سياراتهم على نحو متزايد السرعة أبداً.

لقد كان ترتيب هذا التلاقي وهذه الجولة موضوعاً من قبل، بالطبع. وبالطبع، كان الحلفاء لا يريدون الخروج عليه، وما كان ضباطنا يشعرون بأن لهم الحق في الالحاح على هذا. وليذكر القارئ أي أحد كان ذلك الاحد. فمنذ أسبوع فقط احرقوا هتلر، ومنذ أربعة أيام سقطت برلين، والحرب العالمية الثانية ما تزال مستمرة شكلياً.

ولقد كانت لدى الاميركيين حجة في عدم وقف السيارات — وانها لحجة مفهومة. فقد كانوا، حتى فيما بعد، يعيقون نقل أبناء بلدنا الى المنطقة الروسية. ولكن ليس هذا ما كان يدهشني. كان ثمة أمر مدهش آخر: ان أبناء بلدنا، وبينهم بولونيون حاملون أعلامهم الوطنية، وتشيكيون. وبلغاريون ورمانيون، واقفين جميعاً على حافة الطريق، يؤلفون جداراً حياً من الناس يمتد مسافة كيلومترات عديدة.

ان المرء ليفكر عفواً، متسائلاً: كم من الناس اذن ساق النازيون الى العبودية، اذا كان قد تجمع في هذا المكان وحده، على طول هذا الدرب وحده، في ساعة أو اثنتين، ألوف وألوف من الرجال والنساء يتطلعون بامل وحب صوب الشرق، الى ما وراء الب.

في حياة كل انسان لحظات يعتبرها من أكثر لحظات حياته اشراقاً واصالة وندرة. وبعد مرور سنوات عديدة، اذ كنت أتذكر ذلك الدرب الالماني الطويل الصقيل كالمرآة، وحشود الناس ممتدة على طوله، يحيون محرريهم، ودموع الفرحة في عيونهم، وذلك المطر الربيعي الدافئ الخفيف، الذي كان يلطم وجوهنا بشدة

متزايدة، الا اننا ماكنا نكترث لهذا ونحن في غمرة من الانفعال البهيج الشامل ـ كنت ما أزال في كل مرة أحس قلبي يخفق من جديد خفقاً شديداً، شأنه في تلك الساعة، قبيل المساء على الدرب الى الب.

واليك المشهد القصير الختامي، مشهد الوداع على ضفة النهر. كان نظام التعتيم ما يزال سارياً على الب. فحين خرجنا من السيارات، ووقفنا على ضفة النهر بالقرب من الماء مباشرة، كانت الظلمة سائدة من حولنا، فلا بصيص نور، وليس غير النجوم في أطراف السماء النيرة، كان يخيل للمرء أنها أنوار قرى نائية.

وراح الضباط الحلفاء يودعون . وبدافع من المشاعر الودية راحوا يتبادلون الاشارات التذكارية ـ فكان رجالنا ينزعون عن طاقياتهم النجوم الصغيرة الحمراء، والاميركيون ينزعون الحرفين المتلاحمين « US» ـ الولايات المتحدة.

واقتربت الزوارق البخارية من الشاطئ. ولكن الوداع الصاخب كان ما يزال مستمراً. مصافحات قوية، ابتسامات، تبادل السجائر الروسية والاميركية، السحبات الاخيرة من الدخان.

كانت الزوارق المسطحة القعر قد اجتازت منتصف النهر، الحدود المائية على الب، أما مرافقونا فكانوا ما يزالون واقفين على الضفة يلوحون بأيديهم.

كان يبدو للكثيرين في تلك الايام أن رفقة السلاح، المتولدة من الكراهية للفاشستية ومن النضال المشترك، ستظل وقتاً طويلاً تجذب قلوب الجنود. الا أن ما جرى كان على خلاف ذلك. ولكن

لا ذنب في ذلك على أولئك الناس البسطاء اللابسين البدلات العسكرية، الذين كانوا يشدون على الايدي متصافحين في تلك الساعة المتأخرة من مساء يوم السادس من أيار (مايو) على الضفة الغربية من الب.

انذار ليلي

بدأ اطلاق النار، فجأة، قرابة منتصف الليل وفي مكان ما، غير بعيد، انفجر صاروخ وعلق فوق الغابة مثل زهرة منفتحة حمراء، ثم احترق ممطراً قطرات نارية ضخمة.

وعلى الفور، وكأنما كان ذلك بايعاز، اشتد اطلاق النار، وراحت دفعات الرشاشات تلعلع تارة من يمين سيارتنا، المتوقفة في درب الغابة، وتارة من يسارها، وحيناً من أمامها.

وكنا ذاهبين الى شتراوسبرغ، الى مركز الاتصال المباشر بموسكو، لكي نبعث، كالعادة، بتسجيلاتنا، عند الفجر.

وكان أغرب وأرهب شيء بدا لنا أن طلقات النار لم تكن تلعلع في اتجاه واحد، بل كانت تجول في جميع أرجاء الغابة، كأنما كانوا يطلقون النار من حولنا في كل مكان.

أطفأ سائقنا كوربوسنوف المحرك، ونزلنا من صندوق السيارة، لنتطلع الى ما حولنا. وكان الظلام دامساً في كل مكان، والليلة كانت غير مقمرة، الا أن الدرب كان مع ذلك متميزاً بعض الشيء عن جدار الاشجار الاسود، فقد كان يتلامع نوعاً ما، لان الطريق المشقوق في الغابة كان يكشف عن سماء صافية تشع فيها النجوم.

ومضت دقيقة ودقيقة ثانية ، وما خف اطلاق النار. وكانت تتداخل مع قرع الرشاشات لعلعة البنادق الاوتوماتيكية، وفي مكان ما بعيد هدر مدفع منفرد كأنه يتنهد، وأما في السماء فكانت تشتعل خطوط منقطعة من الطلقات الكاشفة الحمراء.

وكانت هذه الطلقات تتشابك، وتتصالب، وتنكفئ معاً، وتعلق في الفضاء فوق الدرب كحبال من النار تطفئها أغوار الليل السحيقة.

كان من الممكن أن يبدو هذا كله جميلاً ، ولكن ليس في نظرنا ، ولا في تلك اللحظة ، فقد كنا نخشى المجهول وما كنا ندرك لماذا تطلق النار وفي اي اتجاه ، وكان يمكن أن نتوقع ، آخر الأمر ، أن تنقض على سيارتنا جماعة ما من قطاع الطرق رجال الحرس الهتلري الخاص اليائسين الشرسين الذين كانوا في تلك الايام ما يزالون يتجولون في ضواحي برلين.

وقد جهدنا لعدم لفت الانظار الى انفسنا بالضجة او بنور مصباحي سيارتنا ورحنا نحسب امكانياتنا القتالية واسلحتنا: فقد كان لدينا بضعة مسدسات وبندقية أوتوماتيكية واحدة. وما هذا بكاف للقتال!

ولاعترف بأننا ماكنا في تلك اللحظة لنشعر بكثير من المرح. ففي مثل هذه الحالات يكون ثقيلاً على النفس دائماً لا الرعب أو توقع قتال غير متكافئ، بل يثقل عليها أكثر من كل شيء المجهول، المجهول المؤلم.

فما الذي كان يجري في تلك الغابة الكبيرة؟ يبدو أن النار تطلق الآن من وراء كل شجرة صنوبر تقريباً. فماذا علينا أن نعمل:

أن نمضي قدماً أم نظل واقفين، أن ننتظر العدو أونسير لمواجهته؟

ولكن طلقات الرصاص تلعلع بشدة متزايدة بين الاشجار، وفوق السيارة، وفوق الرؤوس. فمن قبل من تنطلق: أمن قبل جماعتنا، أم من العدو؟

انه لوضع كريه جد كريه أن يقع المرء ليلاً في الغابة تحت نيرا ن منطلقة على العمياء من الرشاشات ومن البنادق الاوتوماتيكية! ومن عانى هذا يعرف أية قشعريرة تعتري الجسد في مثل هذه الحال المشوّشة حين لا أنت ترى شيئاً، ولا يراك أنت أحد، حين يمكن لاية طلقة نار طائشة أن تقتلك، أو تكون أنت القاتل لجارك على غير ارادة منك.

ومضت قرا بة عشر دقائق، وكنا نحن ما نزا ل جالسين قرب سيارتنا، والمسدسات في أيدينا، في حيرة أليمة، الى أن اعتزمنا اخيراً أن نبعث بـ«رجال الاستطلاع» نحو بصيص نار ثابت يشع في أعماق الغابة، كان أشبه بضوء في نافذة بيت صغير.

وسرنا قدماً أنا وسائقنا كوربوسنوف. عبرنا الدرب المشقوق في الغابة زحفا على البطن، وأما في الغابة فكنا نتحرك على حذر، قافزين من شجرة الى شجرة، مختفين خلف كل جذع.

ــ عصابة كبيرة من الضباط تعبث في الغابة، فلا أحد غيرهم يمكن أن يطلق النار، هذا هو الصحيح!

همس كوربوسنوف بهذا في اذني، اذ تصادم كتفانا وراء جذع شجرة صنوبر كبيرة. فسألته بصوت خافت:

ــ ولماذا يطلقون النار في جميع الارجاء، هناك وهنا؟

ــ انهم رجالنا يطوقونهم.

ــ ويمكن أن تكون العصابة هي التي تطوِّق؟

ــ من؟

ــ اف، نحن مثلاً.

فقال كوروبوسنوف شاتماً:

ــ الاوباش لم يتم استئصالهم. لم يشبعوا من اطلاق النار وقت الحرب. فاذا اصيب محركي برصاص فلمن اتوجه؟

ــ للعفريت فقط.

ــ أي عفريت يا ترى؟

ــ ايوه، شيطان الغابة. لمن أيضاً!

ــ ايوه، الحشرات لم تستأصل. الا لو يمسوا سيارتي فقط! ــ تمتم كوربوسنوف، ونظر عدة مرات الى وراء، حيث كانت تقف سيارتنا على الدرب المكشوف للنار.

وزحفنا ببطء صوب نافذة البيت الصغير المضاءة، وما كنا بخالين من الرعب الذي يشل حركة القلب ويبعث الخدر في الساعدين والساقين. وانبطحنا هنا في ظلام الغابة الكثيف نتسمع الى ذلك الهمس المبهم الذي كان يصل الى آذاننا من خلال الباب المفتوح قليلاً. وكان من الممكن أن يكون في هذا البيت رجالنا، كما كان يمكن أن يكون فيه هتلريون.

ــ أتسمع، يثرثرون بلغتهم. ــ قال كوربوسنوف هامساً.

ــ كلا، جماعتنا ــ قلت له وأنا على غير كثير من اليقين.

ــ أما في رأيي فهم فريتزات!

ــ جماعتنا، يا ميخائيل ايفانوفيتش، جماعتنا!

ـ أذن فأنظر، المرء لا يموت مرتين ولا مفر من الموت مرة واحدة. سألقي بنفسي الى أمام ـ قال كوربوسنوف ناهضاً من فوق العشب، وما كنت قد تمكنت من الامساك بكتفه لأوقفه حتى كان باب البيت في تلك اللحظة قد انفتح على سعته وظهر رجل في المستطيل المضاء. وكان ذلك واحداً من جنودنا، شاباً لا طاقية على رأسه، يلبس قميصاً منفتحاً فتحة عريضة على صدره، وفي يده بندقية أوتوماتيكية. وكانت الرياح تعبث بشعر الجندي الاصهب أو هكذا بدا لنا في ذلك الضوء.

وجمد كوربوسنوف في مكانه، الا أن الجندي كان ينظر من جانب النور، فما كان يراه. أما نحن فكنا نرى جيداً كيف كان يبتسم ابتسامة عريضة، كاشفاً عن لثتيه، مفكراً، كأنما لنفسه، مثلما يبتسم الناس لخواطرهم حين لا يكون أحد يراهم.

رفع الجندي بندقيته الاوتوماتيكية، فارتمى كوربوسنوف بكل جسده على العشب. وارتفعت فوهة البندقية أعلى فأعلى، دون أن يعير الجندي انتباها للضجة، وشقت رشة مضيئة طريقها الوهاج الى أعالي السماء ثم تجمعت في عقدة عريضة متساقطة فوق قمة رؤوس الصنوبرات فوقنا.

وأطلق الجندي رشّة ثانية. كان يطلق الرصاص في السماء فقط. وما كنا، ونحن مشدوهين، لنستطيع فهم شيء.

ـ يا لك من شيطان! ـ صاح كوربوسنوف وتسلل الى البيت الصغير.

وتبعته أنا في الحال. فرأينا غرفة صغيرة وجماعة من الجنود جالسين حول طاولة، وفي الزاوية كراريات رجال الاشارة وجهاز

هاتف صغير. فسأل كوربوسنوف وهو يتنفس بصعوبة ويمسح العرق عن جبينه:

ـ لماذا، يا شباب، تطلق النار هكذا في الغابة؟ نحن، يعني، واقفون مع السيارة هناك على الدرب. النار تطلق بشدة!

ـ النار تطلق! شيء عال! لانه، يا عسكري، الاستسلام!

قال ذلك جندي الاشارة نفسه الذي كان يطلق النار في المدخل، وقد دخل البيت الآن مع كوربوسنوف. ثم اضاف قائلاً:

ـ كلهم يطلقون النار في الفضاء. حتى المدفعية تطلق ذخائر فارغة فرحاً فما العمل بالخراطيش الآن؟ انها اسهم نارية، يا اخوان، اسهم نارية!

وابتسم جندي الاشارة ابتسامة مستبشرة باسطاً يده لكوربوسنوف.

ولكننا انطلقنا في الحال نعدو بكل سرعة نحو سيارتنا، نحو رفاقنا، الذين كانوا ما يزالون هناك على أحر من الجمر بانتظار المجهول، يتوقعون انقضاض عصابة من الهتلريين. وأما اطلاق النار، فكان ما يزال مستمراً. وقد ظهر لنا الآن أن النار تطلق لا في غابة شتراوسبرغ وحسب، بل أبعد أيضاً، من جميع الجهات على بعد عشرات الكيلومترات، في جميع القرى، وفي كل حي من أحياء برلين.

ـ ايوه، ماذا، عصابة؟

سألني أحدهم بصوت خافت، وهو مستلق تحت صندوق السيارة.

ـ أية عصابة هذه، لقد انتهت الحرب. جنود الاشارة في البيت الصغير يقولون انه الاستسلام!

ورحنا نضحك على خوفنا، ونصيح، ونغني، بل لقد أوشكنا أن نبكي ابتهاجاً حين أشعل سائقنا كوربوسنوف مصباحي السيارة بكامل قوتهما ومضى في الطريق الى شتراوسبرغ عبر الغابة.

... وفي صباح اليوم التالي، عرفنا أن قد جرى في ريمس يوم السابع من أيار (مايو) التوقيع على البروتوكول التمهيدي بشأن استسلام الالمان، ويجري الآن الاستعداد لمراسم التوقيع على الوثيقة العامة بشأن الاستسلام التام بدون قيد أو شرط.

وقد ابلغ الحلفاء عن هذا في ساعة متأخرة من المساء بتوجيه برقية مكشوفة. والتقط لاسلكيونا النبأ، فانتشر بسرعة البرق في جميع القطعات، واثار في ليلة الثامن من أيار (مايو) اطلاق النار في ألمانيا الشرقية كلها على ذلك النحو العفوي تعبيراً عن ابتهاج الجنود بحلول السلام .

الاستسلام

عرفنا بيوم التوقيع الاحتفالي على الاستسلام في الثامن من أيار (مايو) ونحن في الطريق من رفاق درب أميركيين. وقد كانت الطرقات الى الشرق من الب ملأى بالجيش البولوني المتحرك. وكان السيل الصاخب المتلون العاصف من الناس والسيارات يتدفق حرفياً بين حافتي الجادات الرئيسية العريضة. وكان الجنود الراكبون صناديق الناقلات المصفحة، وعلى دروع الدبابات، وعلى مقدمات ذخائر المدافع، يرددون من حين لآخر أغاني لا يكاد يميزها السمع وسط جلبة دواليب السيارات والجنازير. الا أن الرياح كانت توصل أحياناً الى الآذان نغمات هذه الاغاني المديدة الحزينة المعبرة

عن حنين الجنود الدائم الى بيوتهم. وقد كان الجيش البولوني ذاهباً الى بلده، تاركاً الدروب الالمانية.

وكانت سيارة «ويليس» أميركية صغيرة تشق لنفسها الطريق بجهد عبر أرتال عسكرية تسير ببطء، وفيها يقف أربعة ضباط أميركيين، طوال، معروقين، لابسين بزاتهم العسكرية العريضة الشبيهة بالثياب الرياضية. وهؤلاء هم الذين أبلغونا الانباء الاخيرة.

لقد أبلغ الالمان عن استسلام جميع قواتهم المسلحة. والجيش الذي يخدم فيه هؤلاء الضباط، وهو مرابط وراء الب، سيذهب الى المحيط الهادئ. وقد حصل الضباط على اذن بزيارة برلين.

وكان كل منهم يحمل آلة تصوير، أو اثنتين. فقد كان الاميركيون حريصين على التقاط الصور في العاصمة المستسلمة.

وعدنا نحن أيضاً الى برلين على جناح السرعة.

... كان يشرق على المدينة، يوم الثامن من أيار (مايو)، صباح شامس وضيء، هو الصباح السلمي السادس في برلين. وكان يسود الشوارع هدوء لم يألفه بعد لا جنودنا ولا البرلينيون أنفسهم، هدوء يدهش فيه شيء واحد هو أنه «كثير» — في حي واحد، وفي آخر، وفي جميع ارجاء المدينة الضخمة.

في ذلك اليوم أصبح مركزاً للمدينة حي كارلخورست الشرقي، حيث كان ينبغي على الجنرالات الالمان أن يوقعوا، في مبنى متواضع أبيض الجدران، ذي أعمدة مضلعة في مدخله الامامي، على الوثيقة بشأن استسلامهم التام غير المشروط.

بدأت الاستعدادات للمراسم منذ الصباح، حين بدأت تدخل فناء مدرسة الهندسة العسكرية الالمانية السابقة سيارات الجنرالات، قادة الجيوش والفيالق، وعدد كبير من المراسلين والمصورين السينمائيين العسكريين.

أوقفنا «دبابتنا الراديو» الخضراء وراء البيت، في ظل الاشجار، ملقين على العشب الطري ملفاً سميكا من الاسلاك ألكهربائية. وقد مُد هذا السلك الى تلك القاعة من البناية التي كان يأكل فيها منذ وقت قريب تلامذة المدرسة الهتلرية، وهكذا كانت أجهزتنا معدّة لتسجيل الحادث الجلل، الذي كللت به، في هذه القاعة المتواضعة، النهاية الظافرة للحرب.

واني لاحس الآن أيضاً كأنما أبصر أمامي تلك القاعة من الطابق الثاني، ذات الشرفة على الجانب الايمن، حيث كانت تجلس اوركسترا عسكرية. ومقابل الباب كانت تنير القاعة نوافذ مستطيلة ضخمة عليها سجوف بنية ثقيلة. وكانت انعكاسات الشمس تترامى على الارض الخشبية، وعلى الجوخ الاخضر الذي كان يغطي الطاولات الضيقة الطويلة.

وكانت احدى هذه الطاولات، قرب النافذة، مخصصة للصحافة، والثانية للجنرالات السوفييتيين، والطاولة الثالثة، الموضوعة عموديا تجاه هاتين، لممثلي قيادة الحلفاء العليا. وأخيراً، طاولة أخرى، هي الاصغر حجماً، لثلاثة أشخاص، كانت موضوعة عند الباب. وكانت هذه الطاولة للالمان.

وكان بضعة ضباط سوفييتيين يرتبون على الطاولات محابر وأوراقاً، وريشاً بسيطة كتلك التي يكتب بها التلامذة.

لعل المساعد من سرية الادارة التابعة لاركان الجبهة لم يجد خيراً منها في المدينة المهدّمة، كما كانت على الطاولات محابر مدرسية فارغة وعلب من لفائف التبغ السوفييتية «بيلومور – كانال».

كان كل شيء هنا يبدو متواضعاً عليه بساطة الجبهة. وكان يدخل الى القاعة من حين الى آخر جنرالات قادمون من مختلف أطراف الجبهة ليلقوا نظرة على الطاولات وعلى الجدران المزينة بنسخ مطبوعة من صور زيتية في أطارات. واني لاتذكر كيف كان أحد الضباط، ويبدو عليه أنه المسؤول عن النظام في القاعة، يمشي بين الطاولات، ويرتب عدة مرات موضع الكراسي من جديد. وفي زوايا القاعة كان المصورون السينمائيون يحركون أجهزتهم ويضجون بها.

ولقد كان يصعب على المرء، وهو ينظر الى الوجوه المهمومة المتعبة من الرواح والاياب، وجوه الجنرالات، والمراسلين، والمساعد المدفعي الذي علق بسلك أخذه منا علماً فرنسياً فوق طاولة قيادة الحلفاء، أن يتصور أن في هذا المكان بالذات، وفي هذا اليوم بالذات، في مطعم سابق لمدرسة عسكرية ألمانية، في القاعة التي كان يوجد فيها بالامس جنود الهندسة، في هذه الدار غير المتميزة بشيء، يجري حادث سيكون نقطة انعطاف في تاريخ الشعوب.

في ساعة مبكرة من صباح الثامن من ايار (مايو) حطت في الساحة الباطونية لمطار تمبلغوف طائرات تحمل ممثلي قيادة الحلفاء، مع صحفيين أميركيين وانكليز وفرنسيين. وقد سار موكب السيارات من المطار رأساً الى كارلخورست، عبر شوارع برلين

حيث كان الجنود منظمو المرور السوفييتيون يقفون على مبعدة خمسين متراً الواحد من الآخر، حاملين الاعلام الصغيرة.

وكذلك جاء بطريق الجو القادة العسكريون الالمان: الفيلدمارشال كايتل، والجنرال الكولونيل شتومبف، والاميرال فريديبورغ. جاؤوا هم أيضاً الى كارلخورست، الا انى لم تتح لي رؤيتهم صباحاً. وقد نزل الجنرالات الهتلريون في البيوت التي خصصت لهم وظلوا نصف يوم في غرفهم حتى حل الظلام.

وقد راجت في أوساط الصحافيين شائعة تقول ان الالمان «ما يزالون يفكرون»، ويتباحثون فيما بينهم بشأن شروط الاستسلام، مع أن البروتوكول التمهيدي كان بالامس قد وقع عليه في ريمس.

واستمر الانتظار المضجر لبداية المراسم قرابة أربع وعشرين ساعة. وقد كنا، ونحن محرومون من المعلومات المضبوطة، نضع مختلف التخمينات. وتمضية للوقت، كنا تارةً نشتغل بجهازنا، وتارةً نتمشى للنزهة في فناء المدرسة، قرب مدخل الدار الرئيسي، حيث كان يقف اثنان من الحرس حاملين بندقيتين أوتوماتيكيتين.

وقبيل المساء، حين كانت الشمس الغاربة تذهّب سطح مدرسة الهندسة المصفح، وهو من السطوح القليلة في برلين، التي لم تخترقها شظايا القنابل والقذائف، راجت شائعة تقول أن المراسم ستبدأ عما قريب.

وهنا شاع في فناء الدار انتعاش ملحوظ. وأقبل على مجموعة الصحافيين السوفييتيين ذلك الضابط الذي كان يرتب الطاولات في القاعة.

وقد كان ما قاله للصحافيين غريب الوقع اذ ذاك، ان لم أقل مجافياً للصواب. ولكن أي يوم كان، في الحق، ذلك اليوم! وجو الانتظار بالذات، والانفعال العميق الذي كان مستولياً على الجميع، من الجنود حاملي البنادق الاوتوماتيكية حتى المارشالات، وجلبة الاستعدادات للمراسم الجليلة الشأن ـ كل هذا كان يخلق حالة نفسية خارقة للعادة ولا مثيل لها حقاً.

لعل الضابط قد بدا له أنه قد اهمل أونسي شيئاً ولم يعدّ كل شيء للاجتماع. كان يعرف ان بروتوكولات ستوقع.

ـ لا بد ان تكون لديكم، ايها الرفاق الصحافيون، أقلام حبر جيدة ـ قال لنا وهو يرمق بعينيه الجيوب العليا لقمصاننا ثم سأل فجأة:

ـ الا يعطي أحدكم قلماً جميلاً لكايتل، ليوقع على وثيقة الاستسلام؟

وحل صمت. وقد بدا لي أن الضابط نفسه كان مذهولاً بسؤاله. فلست أدري لماذا قرر ان كايتل لن يوجد معه قلم مناسب؟ وتبين، بالطبع، أن قلمه معه.

اعطاء قلم لكايتل؟ هكذا ببساطة! اعطاء قلم سيوقع به على الاستسلام باسم المانيا المغلوبة!

اني لأتذكر كيف كان الضابط المتعب ينظر الى الصحافيين في ترقّب، والصحافيون ينظرون اليه في تعجب.

ـ وهل سيردّه هو؟

ـ ماذا؟ ـ سأل الضابط غير فاهم

ـ هل سيرد القلم؟

ـ اوه، اعتقد أن لن يكون من اللائق طلب ذلك... وربما، لا ـأجاب الضابط وهو غير موقن. وفجأة ابتسم هو نفسه.

فقال واحد من جماعتنا:

ـ واذن، فليوقع بقلمه.

ما من أحد من الصحفيين، وهم الناس الاسخياء المعتادين، كالجنود وقت القتال، على مشاطرة رفاقهم كل شيء، كانت لديه رغبة في أن يهدي قلمه للفيلدمارشل كايتل.

... ومضت بضع ساعات اخرى في الانتظار. وبعد قليل حلت الظلمة الكاملة.

وأخيراً، وفي الساعة الثالثة والعشرين والدقيقة الخمسين بتوقيت موسكو، بدأ يدخل قاعة الاجتماع ممثلو قيادة الحلفاء، والدبلوماسيون، وعدد كبير من المراسلين والمصورين السينمائيين، الذين جاؤوا بطريق الجو من الولايات المتحدة، وانكلترا، وفرنسا. وعلى طول الجدار وقف مصورونا الصحافيون والسينمائيون، كما كانوا يشغلون أماكن في الممرات بين الطاولات.

وفي منتصف الليل بالضبط اشتعلت جميع الثريات في القاعة. وبخطوات صارمة دخل القاعة على غير استعجال المارشال جوكوف، وعلى بعد أربع خطوات منه تقريباً كان يسير مارشال الجو الاعلى ارتور تيدر، والجنرال كارل سباتس، والاميرال بيرّو، وممثل فرنسا الجنرال دولاتر دي تاسيني.

وأثناء الاجتماع كله، الذي استمر من الساعة الرابعة والعشرين من يوم الثامن أيار (مايو) حتى الواحدة الا ربعاً من يوم التاسع منه، كنت جالساً غير بعيد عن طاولة الرئاسة انقل على صفحة من الورق دقيقة فدقيقة تسجيل مراسم التوقيع على الاستسلام.

ومن المؤسف أني فيما بعد قد أضعت هذه الورقة، ولكن الشيء الرئيسي والجوهري قد رسخ في ذاكرتي.

كانت هذه هي العبارة الاولى التي نطق بها رئيس الجلسة مخاطباً جميع الحاضرين عن طريق المترجمين:

«أيها السادة، لقد اجتمعنا هنا لنعرض على ممثلي القيادة الالمانية العليا توقيع وثيقة الاستسلام التام بدون قيد أو شرط...»

وأضاف بضع كلمات أخرى، موضحاً الغاية من الاجتماع. كان خطابه قصيراً للغاية. فما كان ثمة من حاجة للاسهاب في تبيان الاهمية التاريخية لهذا الحفل التاريخي.

وبعد ذلك، صدر الامر باحضار الالمان الى القاعة. وعلى الفور حل سكون بات المرء يسمع معه أنفاس جاره. وشخصت الابصار كلها الى باب القاعة المفتوح. ومن خلفه كانت ترى بضعة أمتار من الممشى.

وانبعث ذلك الصوت أول الامر كأنه بعيد المصدر. انه لصوت رتيب غريب. ولأعترف بأني ما حزرت أول الامر ما هو. واشتدت الطرقات. ومضت دقيقة أخرى. وبات واضحاً أن هؤلاء هم الجنرالات الالمان، يقبلون نحو باب القاعة، خابطين ارض الممشى الخشبية بخطوات بروسية منتظمة.

وها هم قد ظهروا على الباب، يتقدمهم كايتل، عليه بزة رسمية لونها رمادي مشرق، متقلداً جميع الاوسمة، وعلى صدره صليب حديدي. وما كاد يجتاز العتبة حتى بسط الى أمام يدا نصف محنية عند الكوع تحمل عصا قصيرة. فكانت حركة مسرحية زائفة. وقد كانت حركة العصا تعني تحية الفيلدمارشال العسكرية.

فيما بعد كنت اشاهد الفيلم الوثائقي عن محاكمة نورمبرغ. كان كايتل جالساً في قفص الاتهام مع غيره من رؤساء العصابة الهتلرية. كان جالساً هناك محني الظهر، معروق الوجه، غائر العينين. فسرعان ما فقد ما كان له من غطرسة الديك!

ولكن الجالس أمامنا في تلك الليلة كان غير هذا الكايتل. انه جنرال جسيم، ذو وجه ممتلىء متورد، وطلعة بارزة الشموخ، يلوح بعصاه متنفخاً في غطرسة بروسية.

لعله في تلك اللحظة لم يكن بعد يرى أمامه مشنقة نورمبرغ. لعله كان، مع الجنرالات الفاشست الآخرين، ما يزال يأمل بالخروج طاهر الذيل، والبقاء على قيد الحياة لكي يخدم النازية من جديد.

وبحركة من الرأس ذات ابهة، تشير الى أنه يقبل الدعوة، أزاح كايتل كرسيه بعناية، وعلى أثره الاميرال فريديبورغ والجنرال ـ الكولونيل شتومبف، وجلسوا الى الطاولة. وفي الوقت نفسه وقف من خلفهم ثلاثة مرافقين.

وبدأ الاجتماع. وقال رئيس الجلسة للمترجم، غير ناظر الى كايتل ومرافقيه بل الى مكان ما فوق رؤوسهم:

ـ اسأل المفوضين الالمان هل هم مطلعون على نص الوثيقة بشأن الاستسلام التام بدون قيد أو شرط؟

وكرر المترجم الرائد السؤال بالالمانية، وقد بدا عليه الانفعال، وهو واقف وقفة جانبية من كايتل.

كانت ميكروفونات آلات التسجيل، المنصوبة على قوائم معدنية عالية، موضوعة أمام القسم الاوسط من طاولة الرئاسة. وما كانت موجودة لدى طاولة الالمان الصغيرة. وفيما كان كايتل ينهض

عن كرسيه متمهلاً، حاول عاملنا الفني سباسكي الاقتراب بالميكروفون من الالمان. الا أن قدميه عثرتا بالاسلاك الممدودة على الارض، وكاد أن يقع.

وجلبت هذه الحادثة الصغيرة المضحكة انتباه القاعة كلها لحظة ما. فقد كانت اعصاب الجميع متوترة. وكانت مئات العيون تلاحق كايتل. واذا به ينطق باقتضاب بصوت جهوري بعض الشيء لكي يصل الى الميكروفون الموضوع على طاولة الرئاسة:

— يافول! *

وما كاد كايتل يجلس على كرسيه حتى طلب رئيس الجلسة ترجمة السؤال الثاني:

«هل ممثلو القيادة الالمانية العليا موافقون على التوقيع على الوثيقة بشأن الاستسلام التام بدون قيد أو شرط؟»

ومن جديد، وكأنما حزر كايتل من تعابير وجه جوكوف أي سؤال يوجه اليه، قال بصوت جهوري غير منتظر أن ينتهي المترجم من نقل عبارته على عجل:

— يافول!

لقد نطق كايتل بـ «نعم!» مرتين. كلمتان، لا غير! وذلك في مدة الاجتماع الذي استمر خمساً واربعين دقيقة. ولعل الفيلدمارشال، شأنه شأن غيره من الجنرالات الفاشست، كان من قبل أكثر ثرثرة حين كان يجعجع بانتصارات الدولة الهتلرية!

كنت في تلك اللحظة على انفعال شديد، ولكني مع ذلك كنت

---

* كلمة ألمانية تعني: نعم.

افكر بأنه ربما لم يسبق لكلمتين مقتضبتين أن كان لهما من الوزن ومن استنفاد الغرض ما كان لهاتين الـ «يافول» الاثنتين اللتين نطق بهما كايتل معترفاً بهما أمام العالم كله بالهزيمة التامة والدمار للجيوش الفاشستية وللنظام الفاشستي كله.

وبعد جواب كايتل حل صمت قصير الامد. ولعله لم يكن من أحد في القاعة ما كان يشعر بمهابة هذه الدقائق وبعدها عن المألوف. وما من احد الا واحس بنفحة حارة تهب على قلبه. وجمّدت مهابة اللحظة الافكار وخنقتها، وأسكرتها فرحا.

وفي اعتقادي أن هذا الشعور كان يشاطر فيه الجميع في ذلك اليوم: الروس والانكليز والفرنسيون والاميركيون، الجنرالات والمصورون السينمائيون، الكتاب وجنود الحرس.

وراح الجالسون الى طاولة الرئاسة يتكلمون فيما بينهم. كان ينبغي اذ ذاك البدء بمراسم التوقيع نفسها على البروتوكولات المعدّة بأربع لغات. وكان بضعة دبلوماسيين سوفييتيين، حاملين اضبارات ضخمة، قد توجهوا الى طاولة الوفد الالماني الصغيرة. ولكن وقع اذ ذاك حادث صغير، قليل الاهمية.

قال أحد دبلوماسيينا شيئاً ما لرئيس الجلسة بصوت غير مرتفع، وهو منحن عليه. وواضح انه اشار بتعديل ترتيب التوقيع على الوثائق. كان ينبغي أن يكون الالمان أول الموقعين. وكان كايتل قد أخرج من جيب سترته العليا ريشة ذات غطاء مذهّب. ولكن رئيس الجلسة أوقف اذ ذاك دبلوماسيينا بحركة من يده. وقال:

– اقترح على الممثلين الالمان أن يأتوا الى طاولتنا ويوقعوا هنا على وثيقة الاستسلام.



٨ ايار (مايو) ١٩٤٥. كايتل يوقع على وثيقة الاستسلام بدون قيد او شرط .

وسمع كايتل المترجم. فتوترت عضلات وجهه. وتملكته العصبية.

ولاعترف، بأني لم أفهم الامر على الفور. ولكن ما كاد كايتل يقترب من طاولة الرئاسة، خابطا الارض بخطواته خبطات قاسية، وينجرّ على أثره فريديبورغ وشتومبف، والمرافقون، حتى بات كل شيء واضحاً.

فلو أن الجنرالات الالمان كانوا قد ظلوا على طاولتهم، لكانوا وقعوا البروتوكولات جالسين أو متربعين بهدوء على كراسيهم الوثيرة يحيط بهم المرافقون الواقفون وقفة «الانتباه». ولكن على الطرف الايسر من طاولة الرئاسة، ما كان يمكن أن يوضع غير كرسي واحد، هو الكرسي الذي جلس عليه كايتل ووقف

الجنرالان الآخران من خلفه، منتظرين دورهما للتوقيع على البروتوكولات. ووراء ظهريهما تجمع المرافقون.

لقد اقتضت العدالة التاريخية أن يشعر هنا الجنرالات الفاشست، الذين أغرقوا العالم بالدماء، بكل ما تكنّ لهم الشعوب من الكراهية والاحتقار العميق.

ومن جديد كان كايتل أول من سحب ريشته... وهنا حدث ما كان جديرا توقعه في تلك اللحظة. فقد كان في القاعة كثير من المصورين الصحافيين والسينمائيين، منا ومن الحلفاء. لقد وقع كايتل على البروتوكول . وفي العالم بأسره، كان الناس ينتظرون أفلاماً سينمائية خاصة عن الاستسلام في برلين حيث لم تكن توجد في تلك الايام ــ ولنقل ذلك بالمناسبة ــ غير القوات السوفييتية.

وكانت جرائد جميع الاقطار تبقى على اعمدتها الاولى مكاناً لانباء وصور غير عادية... وبدأ «الهجوم» الربيعي، ولعله الاخير، في برلين، هجوم المصورين الصحافيين والسينمائيين العاصف على طاولة الرئاسة.

كان كايتل يوقع على صفحات الوثيقة، الواحدة إثر الاخرى. وعلى نحو رتيب، كان في كل مرة يضع ريشته جانبا، ويخلع المونوكل عن عينه اليمنى بحركة من جفنه. وكان المونوكل يعلق بالسلسلة الرفيعة، واما كايتل فكان يرفع رأسه وينظر الى الجنرالات السوفييت والحلفاء نظرات تعبر عن المعنى ذاته من الاستعداد والانتباه.

ومن حين لآخر كان رأس كايتل الضخم ذو الشعر القصير المفروق من الاوسط فرقاً دقيقاً، يلتفت صوب موظف وزارة

خارجية الاتحاد السوفييتي، الذي كان يجمع عن الطاولة البروتوكولات التي تم التوقيع عليها ويضع غيرها. ولدى امعان النظر بشدة فقط، كان يمكن للمرء أن يلاحظ كيف كانت يدا كايتل المكتنزتان، ذات الاصابع المكسوة بالشعر الاشقر، ترتعدان قليلاً، كأنما بفعل البرداء، لدى ملامسة وثائق الاستسلام.

واخذت المصورين الحماسة، فسارعوا الى طاولة الرئاسة.

واستولت الحمى بوجه خاص على المصورين الاميركيين، المزودين بآلات تصوير كانت تلعلع بشدة وبصوت عال، كانها الرشاشات. بل لقد كانوا في بعض الاحيان، وهم في غفلة عما يفعلون، يصدمون جنرالاتنا بأكواعهم، ويحجبون الرؤية عنهم.

وتراجع المراسلون السوفييتيون بضع خطوات، أما الاجانب فما كانوا يفهمون او ما كانوا راغبين في أن يفهموا، فظلوا يواصلون «الانقضاض» على طاولة الرئاسة. وبعد ذلك، في وجل اول الامر، ثم في همة أكثر، انضم اليهم المراسلون المصورون السوفييتيون أيضاً.

كان العالم باسره متعطشاً لرؤية الصور الملتقطة في قاعة الاستسلام. وفي تلك الدقائق العشرين الى الثلاثين، بات المراسلون المهاجمون، المتصايحون بعضهم مع بعض بأربع لغات، أصحاب البيت في مدرسة كارلخورست.

وفيما كان الجنرالات الالمان يوقعون على البروتوكولات، كان كثيرون في القاعة يوجهون أنظارهم الى المرافق، الواقف خلف ظهر كايتل. كان ضابطاً شابا على صدره صليب حديدي. وقد كان لا يحوّل عن الجنرالات السوفييت نظراته الثابتة المتأججة حرفياً بالكراهية.

وقد قال لي احدهم، بصوت خافت، وكان واقفاً الى جانبي:

«كيف ينظر هذا الشاب! جرو ذئب!»

وبعد بضعة ايام كنت افكر، وأنا أستعرض في ذاكرتي كل اجراءات الاستسلام: ان السلوك العصبي ـ المتغطرس الذي سلكه كايتل، واللامبالاة المدهشة التي ابداها جنرالاتنا نحو الالمان، انما يفسرهما واقع ان الالمان كانوا يرون امامهم الظافرين «الغامضين» على «الريخ الثالث»، في الوقت الذي كان فيه قادتنا العسكريون ينظرون الى المفوضين الهتلريين كحربجية مقهورين لم يعد لهم أي شأن في نظر الجميع في هذه الدقائق الاخيرة من الحرب.

وبعد الهتلريين، وقع الحلفاء على البروتوكولات. واذ ذاك كانت طاولة الرئاسة موضع هجوم المراسلين المصورين.

وعاد الجنرالات الالمان الى طاولتهم الصغيرة الموضوعة عند الباب. ولكنهم ما كادوا يجلسون على كراسيهم حتى سمعوا أمرا يقول:

ـ في وسع الوفد الالماني مغادرة القاعة.

ومن جديد رفع كايتل عصا المارشالية الى أمام بحركة متوترة مفتعلة. ودار الجنرالات نحو المخرج يطقطقون بكعابهم. ومن جديد كان قرع الجزمات المنسق، ومن جديد كانت الخطوات البروسية. وفي تلك اللحظة رأينا ظهور الالمان، وسرعان ما ابتعدوا في أعماق الممشى.

وكأنما هبت على القاعة نسمة انفراج بهيج. وأشرقت الوجوه المتعبة. وخطر لاحدهم أن يشعل ثريا أخرى.

وراح الجنرالات والصحافيون يتحادثون فيما بينهم بصوت خافت كأنما هم يخشون تعكير السكون الذي ساد القاعة. ووقف المارشال جوكوف وراء الطاولة فالقى خطبة جد مقتضبة هنأ بها جميع الجالسين في تلك القاعة بحلول النصر.

وهكذا بدأ في برلين اليوم الاول من أيام السلم. وفرغت قاعة المدرسة العسكرية سريعاً. ومضى الجميع الى المماشي. وفي احدى القاعات كان يتلامع جهاز هاتف على منضدة سوداء. وكان المراسلون الحربيون للجرائد السوفييتية المركزية يحيطون به في حلقة متراصة.

كان الهاتف موصولاً بموسكو، ومراسل «البرافدا» يتحدث مع هيئة التحرير، مستوضحاً عما اذا كانت المواد عن الاستسلام ستنشر في الجرائد الصادرة صباح الغد. فاجابوه بانها ستنشر. وبالتالي كان لا بد من الجلوس الآن بالذات، بلا ابطاء، في كارلخورست، وكتابة المقالات والتعليقات الصغيرة الاولى عن هذا الحدث، عن آخر ليلة حرب في أوروبا.

وخرج الجنرالات المتعبون بعد المراسم من البناية الى الهواء الطلق، وراحوا يعبون منه ملء رئاتهم، مستنشقين بعمق، ثم ركبوا سياراتهم ومضوا الى قطعاتهم. وعلى الطريق، بعد قليل، «انسد» الدرب، فخرقت أبواق السيارات سكون الليل.

وفجأة، وفي مكان ما، لا بد انه جد بعيد، انطلق انفجار. إما أن يكون هذا مدفع أطلق ذخيرة فارغة، أو لغم وضعه الهتلريون قد انفجر. وهدأ صوت الانفجار، ثم حل من جديد سكون بدا أكثر امتاعاً للنفس وأشد بعداً عن المألوف.

وكان على فريقنا أيضاً أن يذهب في الحال الى شتراوسبرغ

لكي يصل في الوقت اللازم الى مركز اتصالنا المباشر بموسكو. فاسرعنا الى سياراتنا.

كان فناء البناية مظلماً، الا أن السماء كانت تبدو نيّرة لان النجوم كانت ساطعة. وكان السواقون قرب السيارات يدخنون وهم ما يزالون على مألوف عادتهم يخفون بصيص اللفائف في أكمام معاطفهم وقمصانهم.

ولأعترف بأننا جميعاً، أثناء دقائق الانتظار المزعجة تلك، قد استولى علينا جوع شديد، فقررنا أن نتناول بعض الطعام على الطائر قبل أن نسلك طريق السفر. وها قد أخرجت من السيارات الخبز ولحم مقدد، وقنينة نبيذ خفيف.

فأكلنا واقفين، متناولين جرعات النبيذ مباشرة من فوهة القنينة التي كانت تنتقل من يد الى يد. وفي الحق اني لا أذكر عشاء كان اشهى من ذلك العشاء في الهواء الطلق، قرب السيارات. كنا نأكل ونتحادث في وقت معاً، ونضحك احياناً بلا سبب، لمجرد اننا كنا في غمرة من البهجة والفرح.

تعشينا في عشر دقائق تقريباً، وفجأة حدث ما لم يكن متوقعاً البتة. فقد راحت الاركسترا، القائمة على شرفة الطابق الثاني، وقد نسينا وجودها تماماً، تعزف مارشاً. وكانت رناتها الحماسية تملأ فناء المدرسة العسكرية والريح تمضي بها كأنما هي تحملها ابعد فأبعد فوق أحياء المدينة كلها.

وفي الحال، أزاح أحدهم الستر المخملية الثقيلة عن النوافذ، وتدفق النور على الساحة الصغيرة أمام البيت. واذ ذاك أبصرت بأولى النوافذ غير المعتّمة في برلين.

لقد مضى على ذلك اكثر من عشرين عاماً، ولكني ما ازال حتى الآن أرى بجلاء الفناء حول البناية وخيوطاً طويلة من الضياء منبثقة من مستطيلات النوافذ ترسم على الاسفلت ما يشبه رقعة الشطرنج، وتنير وجوه رجالنا المتهيجة المنفعلة، كما تكون الحال بعد القتال.

ومن حول بناية مدرسة الهندسة، كانت تترامى برلين المعتّمة، كأنما هي مترامية حول جزيرة صغيرة وحيدة من نور. وكأنما كان الليل للمرة الاخيرة يلقى بوشاحه الفاحم على البيوت المدمرة بالقنابل، وعلى الشوارع، وعلى الاحياء الشبيهة بالحصون المهدمة.

ولعلنا في تلك اللحظة بالذات، حين رحنا نتطلع الى برلين المغلوبة الهادئة في الليل، والى نوافذ مدرسة الهندسة المضيئة، قد شعرنا فجأة بما حدث أعمق واملأ شعور، وبخفقة واحدة من قلوبنا المندهشة. لقد تم حادث عظيم يبدل الحياة كلها. ان الحرب التي خاض الناس غمارها وذاقوا مصاعبها خلال أربع سنوات، قد انتهت!

طريق الى قفص الاتهام

قبيل التاسع من ايار (مايو)، حين نزل الى الشوارع الملايين من الناس المبتهجين في العالم اجمع، للاحتفال بانتهاء الحرب العالمية الثانية، لم يكن قد مات غير اثنين من العصابة النازية الرئيسية، هما هتلر وغوبلز. واما الباقون؟ لقد غيروا ملابسهم، وموهوا وجوههم، وحملوا هويات غير هوياتهم، واستقروا في مدن ألمانيا

الغربية، وفي قرى جبال الالب في بافاريا، وفي منطقتي همبورغ في الشمال وبرختسغادن في الجنوب.

وهناك كان يبحث عنهم رجال استخبارات الحلفاء العسكرية وضباط وجنود القطعات المرابطة في تلك المناطق. وفي الكثير من الثكنات العسكرية علقت صور زعماء الدولة الفاشستية للتعرف عليها.

وكيف كان أصحاب «الريخ الثالث» السابقون هؤلاء يتصرفون بعد تحطيم النازية؟ ماذا كانوا يفعلون وهم ما يزالون في الايام الاخيرة مطلقي السراح، الا أنهم في الطريق الى مشنقة نورمبرغ التي كانت بانتظارهم؟

في هذا الفصل سيتناول الحديث القاء القبض على من كان يشغل المكان الاول الى اليمين على كرسي الاتهام في المحكمة الدولية.

صباح التاسع من ايار (مايو)، اقبل على أحد مخافر الجيش الاميركي السابع، المرابطة في الاوتوستر ادات والطرقات الرئيسية من المانيا الجنوبية، رجل يرتدي الثياب المدنية وسمى نفسه بالعقيد الالماني بيرند فون براوختش.

وفي تلك الايام كان العقداء الالمانيون يستسلمون للاسر بالعشرات، فلم يحدث اعلان الالماني تأثيراً خاصاً على الجنود. ولكن حين صرح براوختش بأنه ممثل مارشال الريخ السابق غورنغ، ادرك الجنود الاميركيون أن سيكون في وسعهم اصطياد «سمكة ضخمة»، وفي الحال استدعوا الضباط. فوضعوا براوختش في سيارة ومضوا به الى مقر أركان الفرقة الاميركية السادسة والثلاثين. وهنا كرر العقيد الالماني من جديد أنه يمثل غورنغ، الذي يود لو يسلم نفسه لحماية القيادة العسكرية الاميركية وتحت تصرفها.

ولم يطل الاميركيون التفكير، فانطلق بعد قليل من مقر أركان الفرقة موكب من سيارات الجيب. وكان براوختش يجلس في السيارة الاولى قرب الجنرال ستيك.

وبسرعة قصوى مضت السيارات صوب مدينة رادشتات. فهناك، على حد قول براوختش، كان مارشال الريخ السابق ينتظر الاميركيين.

حين وجه غورنغ برقية الى هتلر من برختسغادن، في السادس والعشرين من نيسان (أبريل)، يطالب فيها بتسليمه السلطة، وصلته البرقية الجوابية بعد اثنتين وعشرين ساعة. وقد كان فيها امر باعتقاله. وفيما بعد أمر هتلر الغستابو باعدام غورنغ رميا بالرصاص.

وقد ألقى رجال الحرس الهتلري الخاص القبض على غورنغ في برختسغادن، الا انهم، لأمر ما، لم يعتزموا اعدامه رمياً بالرصاص على الفور. ولم يتركوه في برختسغادن بل حملوه بالطيارة مع زوجته وابنته وخادمه وطباخه الخاص، ونقلوه الى مدينة ماوترندورف النمساوية.

الا ان غورنغ فلت هناك من رقابة الغستابو. فقد كان في تلك المدينة كثير من الطيارين النازيين، وهؤلاء هم الذين اختطفوا غورنغ من بين أيدي رجال الحرس الهتلري الخاص.

واصبح مقرّه الجديد قصر من قصور الصيد قائم على مقربة من المدينة. وهناك راح غورنغ ينتظر تطور الاحداث اللاحق.

وفي تلك الايام كان يبدو لحاشيته معتدا بنفسه وراضيا عنها، كما هي حاله دائما، الا أن هذا لم يكن أكثر من وضع اعتاد عليه، ولعبة رخيصة.

وفي حقيقة الامر، كان غورنغ يعيش في هلع مخفي، منتظراً في كل يوم وكل ساعة رجال الحرس الهتلري الخاص، الذين كان يمكن أن يخترقوا طوق الحراسة التي تحميه. اما فيما يتعلق بالمستقبل فما كانت لديه أية أوهام. فقد كان هرمان غورنغ على الخصوص يعرف جيداً يد فوهرره القاسية وروحه الانتقامية!

لقد كان الرعب من الغستابو ينخر عظام غورنغ، فارغمه أخيراً على البحث عن ملاذ يحميه لدى الاميركيين.

وذات مرة، أتيح لاحد رجال حرسه، المساعد كونلي، وقد كان أحيانا يدخل غرف غورنغ، ان رأى المشهد التالي: كان غورنغ يتكلم معه، فابتعد عن الطاولة، فاذا هو فجأة يقع على الارض. وبكثير من المشقة رفع كونلي جسم رئيسه الثقيل المترهل الثخين، وسحبه الى الاريكة.

وبعد بضع دقائق عاد غورنغ الى وعيه. فراح في الحال يشكو لكونلي، في نوبة من المكاشفة، من أن رجال الغستابو قد استلبوا منه دواء هو في أشد الحاجة اليه.

وقد حزر كونلي، وهو العارف بعض الشيء بعادات مارشال الريخ، أن هذا الدواء انما هو المورفين الذي كان المدمن عليه غورنغ لا يستطيع البقاء بدونه طويلاً.

هكذا كان غورنغ يمضي ايامه حتى ذلك الوقت الذي ذهب فيه بسيارته «المرسيديس» لمقابلة الجنرال الاميركي ستيك.

وقد جرت هذه المقابلة الطريفة الى مدى بعيد يوم التاسع من ايار (مايو) في شارع قليل المارة من البلدة الالمانية الصغيرة. توقفت السيارتان الماضيتان لمواجهة احداهما الاخرى. ورأى ستيك

غورنغ، فنزل من سيارة الجيب، أما غورنغ ففتح باب سيارته على سعته. واذا بالضباط الاميركيين والمارة القليلين يرون وسط الجادة شخصاً جسيما في بزة مارشال. وانتصب غورنغ، كأنما هو جاهز للاستعراض، وأدى حركة تحية بعصاه.

وبعد ذلك أقبل على الاميركيين، متمهلاً، ملوحاً بالعصا في الهواء، وعلى وجهه المتشحّم ابتسامة وقحة. وقد كان السائر ذاك الذي بأمره احيلت الى رماد وانمحت من على وجه الارض الالوف من المدن، ونهبت بلدان بكاملها، وقتل الملايين من النساء والاطفال.

واقترب الجنرال ستيك من غورنغ، ووسط دهشة جميع الضباط المحيطين به، ادى التحية العسكرية رافعاً اصابعه الى طرف عمرته. فابتسم له غورنغ، ابتسامة الند للند، وبسط لستيك يده. ومن جديد ادهش الجنرال الاميركي مرافقيه بمصافحته يد السفاح والمجرم.

صحيح أن الجنرال ستيك قد بذل فيما بعد الكثير من القول والجهد لكي يفسر هذه المصافحة بطريقة ما. ولكن عبثا تذرع بالارتباك الذي استولى عليه فجأة، وبما ليس يُدرى من التقاليد العسكرية، وبالموقف غير الاعتيادي.

فلا شيء يمكن ان يفسر هذا ولا أن يبرره. وهل ترى كانت الحرب على الفاشستية مجرد لعبة حربية يمكن اختتامها بالمصافحة؟

ولعل هذه المقابلة الغريبة قد بعثت في نفس غورنغ بعضا من الآمال. فقد طلب ايصاله باقصى السرعة الى مقر أركان الفرقة. وقد صرح غورنغ لستيك، وهو ما يزال في السيارة، بانه ينوي اجراء

مفاوضات مع الاميركيين بوصفه خليفة لهتلر، وكممثل مطلق الصلاحية للدولة والجيش، غير مرتبك كبير ارتباك من أنه لم يعد بعد من وجود لا للجيش النازي ولا للدولة الهتلرية.

وكأنما كان الجنرال ستيلك قد أصيب بخدر التنويم المغناطيسي من جراء مصافحته يد المجرم، فاستمر يصغي في السيارة الى ثرثرته المنفلتة.

وفي مقر اركان الفرقة استقر غورنغ في مكتب الجنرال دالكفيست. وبدأ بتقديم لمحات قصيرة عن مساعدي هتلر المقربين. فقال:

ـ كان هتلر رجلاً ضيق الافق، وهيس شاذاً، وريبنتروب مجرد مختلس.

وما كان غورنغ ـ على حد قوله ـ يستطيع قط أن يفهم لماذا كان ريبنتروب وزيراً للخارجية. ولقد كان هو، غورنغ، الفتى النموذجي دائماً، وكان على الحلفاء ان يجروا معه بالذات جميع المفاوضات.

وبعد ذلك سأل غورنغ هل سيأخذونه سريعاً الى مقر اركان حرب أيزنهاور؟

فتهرب دالكفيست من الجواب.

فلم يربك هذا غورنغ، واستمر يتكلم. وراح يتبجح متفاخراً بجبروت الاسطول الجوي، الذي ما كان له في تلك الايام من وجود الا في أوهام غورنغ وحده، ومضى يشتم حاشية هتلر ويطنب أيما إطناب بمواهبه وامكانياته. وبكلمة، لقد كان يزيد من سعره في نظر الاميركيين.

يصعب على المرء أن يقول أي شيء كان أدعى للاستغراب والاستنكار في سلوك غورنغ – أهي الوقاحة التي لا حد لها أم العمى المطبق لدى مارشال الريخ السابق، الذي لم يكن يبصر من حوله شيئاً؟!

ويجلس غورنغ في مقر أركان الفرقة الاميركية. انه عملياً معتقل. الا أنه يبدو عليه كأنما لا يلاحظ ذلك. وبفراغ صبر، يسأل مرة أخرى:

– متى سأقابل أيزنهاور؟

– سنرى – أجاب دالكفيست متهرباً.

انه لحديث غريب، جد غريب! ان كون غورنغ النذل ما يزال يبدو له أن الاميركيين يمكن أن يغفروا له وانه سيخرج طاهر الذيل، أمر يمكن تفسيره بما يتصف به المجرمون جميعاً من نذالة: انهم يبنون حساباتهم على أساس ما يتسم به القلب البشري من استعداد للنسيان. ولكن ما السبب يا ترى في أن الجنرال الاميركي لا يعلن لغورنغ على الفور أنه معتقل بوصفه مجرم حرب؟

وهكذا استمر الحديث ساعتين كاملتين، والمارشال السابق بعصاه، ولكن بدون جيش، ولا شرف، ولا صلاحيات، الذي حرمه فوهرره السفاح نفسه من جميع وظائفه، يواصل هنا، في مقر أركان الاميركيين، التبجح والادعاء بأنه شخصية ذات شأن. وبعد الحديث مع دالكفيست، طلب غورنغ طعاماً لعشائه. فاوصى على دجاجة، وبوريه بطاطا، وباقلاء. والتهم كل هذا بشهية ادهشت الضباط الاميركيين الموجودين في الغرفة، اذ أنه قد أضاف الى هذا العشاء صحناً كبيراً من سلطة الفواكه أيضاً.

وهكذا ملأ بطنه بنشاط قبل السفر، كأنما هو معتزم الذهاب الى مقر الاركان العامة للاميركيين. ولكنهم اخذوا غورنغ الى جهة أخرى، الى بيت خصوصي لكي يبقى موقتاً تحت الاقامة الجبرية، مع أن زنزانة السجن كانت بانتظاره، طبعاً، منذ وقت بعيد.

أجلسوا غورنغ في سيارة جيب مكشوفة، وجلس بقربه ثلاثة جنود يحملون البنادق الاوتوماتيكية. وأثناء الطريق، قال لهم غورنغ مبتسماً:

ـ احترسوا مني جيداً فقط!

كان لا يزال يعتقد بامكان المزاح مع الذين كان يأمر بقتلهم لا في ساحة الحرب وحسب، بل كذلك وهم أسرى وجرحى وفي معسكرات الاعتقال.

وخلافاً لجنرالاتهم المفرطين في «اللباقة والكياسة»، ما كان الجنود الاميركيون بميالين اطلاقاً لتبادل المزاح مع غورنغ. فقد كانوا يرون في هذا السفيه ما هو بالفعل. كانوا ينقلون تحت الحراسة قاتلاً في بزة مارشال، مجرماً تنصب عليه اللعنات من ملايين الناس.

وما أراد أحد منهم مصافحة يده. وجواباً على ابتسامة غورنغ دفعه احد الجنود بعقب البندقية الاوتوماتيكية على جنبه المكتنز شحماً، وأما الآخر فقد بصق على الدرب، واجابه باقتضاب، ولكن بكلمات تعتبر في لغات جميع الشعوب مما لا يسمح بنشره...

مصادفة في الجبال

بعد أسبوعين من اعتقال غورنغ، كانت سيارة جيب عليها أربعة طيارين أميركيين، تسير في طريق جميلة الجانبين في تلك المنطقة ذاتها، غير بعيد عن برختسغادن.

كان يوم رائع من أيام أيار. الشمس تنشر دفئها في الجو، وأشجار الصنوبر الممتدة على طول الطريق تستحم باشعتها، وجذوعها كأنها بلون الكهرمان. ومن الجبال كانت تهب الرياح حاملة من أعماق الوهاد والشعاب، المغطاة بمخمل الغابات الاخضر، عبير الارض والازاهير.

رفع الرائد هنري بليت، الجالس قرب السائق، عمرته عن رأسه وسمح للرياح بأن تعبث على هواها بشعره الفاحم، وتهب على وجهه وصدره. كان يحلم على نحو مسموع قائلاً كم كان يكون جميلاً أن يجيء المرء الى هذه الزاوية الهادئة من الجبال لقضاء عطلة هنا في الحياة السلمية مع زوجته وأولاده. وقد قال مشيراً الى بيت صغير ذي طابق واحد على مقربة من الطريق، ذي شرفة زجاجية صغيرة:

– الا لو قدر لى أن أسكن هذا العش الصغير لعشت فيه بغبطة وسرور.

فقال النقيب هوت روبرتسون:

– وما أنا بمخالف لك.

وكان الجندي هاوارد هانلي يبتسم ابتسامة خفيفة وهو يستمع الى الرفيقين، أما عيناه فكانتا تقولان أن البيت الريفي السلمى الصغير، اللاطي في ظل أشجار الصنوبر العالية، قد ذكره هو أيضاً بشيء ما لطيف ممتع.

وحين وصلت سيارة الجيب الى مقربة من البيت، رأى الطيارون على مدخله شيخاً نحيلاً حاسر الرأس. كان ينظر مفكراً الى مكان ما بعيد، ممسداً لحيته القصيرة الشائبة.

قال بليت ملاحظاً:

ـ يا له من هواء جبلي صاف هنا! أغلب ظني أن الشيوخ يستطيعون العيش هنا مئة عام.

وأضاف روبرتسون قائلاً:

ـ وان هذا ليحلم أيضاً، وسوف يعيش أكثر.

وكان هو أول من سمع رنين الاجراس الميلودي في رقبة البقرة السارحة بين الاشجار خلف البيت.

فود بليت لو يشرب حليباً طازجاً. ودخل الطيارون البيت، حيث قابلوا ربة البيت العجوز، فجاءتهم باكواز من الحليب الشهي، من القبو رأساً. وكان حليباً بارداً لطيف الوقع على الاسنان.

كان الرائد بليت في حالة نفسية ممتازة. فراح يتحدث بالانكليزية بصوت جهوري، وكان في بعض الاحيان يمزج كلامه ببعض العبارات العبرية. فقد لاحظ أنهم كانوا يفهمونه في ألمانيا حين كان يتكلم بالعبرية.

ودخل الغرفة على أثر الطيارين ذلك الشيخ نفسه الذي كان جالساً في المدخل. ورغبة في التحبب لارباب البيت سأل بليت الفلاح بمرح:

ـ كيف الحال، يا عم؟

ـ عال، عال ـ أجاب الشيخ بسرعة دون أن ينظر الى وجه بليت.

ـ أنت فلاح؟ ـ سأل الرائد.

ـ كلا، لست رب البيت، أنا رسام فقط، وقد جئت الى هنا لاشتغل على الطبيعة.

ــ اوه، هكذا! أنك لست كثير الشبه بالرسام. ولكنها فكرة رائعة، فيا لهذه الامكنة هنا! ــ قال بليت وهو ما يزال يلقي على وجه الشيخ المتعب نظرات تنطوي على الكثير من فضول متزايد. وكان يرتدي لباسا بسيطا جدا بالنسبة للرسام ومهملا جدا كما يبدو بالنسبة للفلاح.

ــ وكم لك من العمر؟ ــ سأله بليت مستفسراً.

ــ تسعة وخمسون ــ اجاب الشيخ متمتما.

فقال الرا ئد في نفسه: «انه ليبدو أكبر سنا»، وفي الحال طرح على الرسام السؤال الذي اعتاد طرحه على جميع الالمان الذين اتيح له التحدث اليهم ولو قليلاً في أوقات الفراغ:

ــ ما موقفكم من النازيين؟

فاجاب الشيخ:

ــ أنا فنان، وفنان فقط. لست أفهم شيئاً في السياسة.

ــ وكيف يمكن هذا؟ فنان، وما كنت ترى ما يجرى حولك؟ ــ قال بليت في دهشة واستغراب. انه حتى الآن ما كان يستطيع أن يهضم فكرة أن الفاشست كان في وسعهم تخدير الناس الشرفاء المفكرين الذين لقي منهم في ألمانيا العدد غير القليل.

وفجأة قال بليت، وقد اعتزم أن يهزل قليلا مع الفنان العبوس:

ــ ولكن اتعلم؟ انك كثير الشبه بيوليوس شترايخر.

وكانت هذه نكتة، نكتة ليس الا. ولكن حدث اذ ذاك ما لا أغرب ولا أعجب. فقد أسبل الشيخ عينيه، بحيث أثار دهشة بليت. وتحجر وجهه. وسأل بصوت خافت:

ـ من أين تعرفني؟

فشده بليت. لقد أخذ الشيخ نكتته مأخذ الجد. كان الرائد الاميركي يرى في مقر قطعته صورة مجرم الحرب شترايخر، وكان ذلك «الفنان» اشبه فعلاً بالنازي الضاري. ولكن هل كان في وسع بليت أن يتصور أن أمامه شترايخر الحقيقي؟

ـ اذن أنت شترايخر؟! ـ قال بليت وانفاسه تكاد تنحبس من الانفعال.

ـ كلا، كلا، اسمي سايلر ـ سارع الشيخ الى القول، وكان واضحاً أنه يحاول تصحيح زلة لسانه. ولكن الانفعال الذي لم يكن في وسعه التغلب عليه، فضح أمره.

فأعلن بليت قائلاً:

ـ أنت موقوف.

وتشنج وجه «الفنان» بتكشيرة وحش كاسر. فابتعد عن بليت وارتمى على المقعد.

وراح بليت، وهو ما يزال غير مؤمن بأنه قد اعتقل شترايخر، يتطلع بعينين محملقتين الى هذا الشخص اللابس قميصاً مقلماً بسيطاً، وبنطالاً قطنياً، وحذاء غليظاً مهترئاً. ولعل بليت كان يعترف لنفسه بأنه ما كان ليشتبه قط هو نفسه في أن يكون هذا الشخص واحداً من أقطاب النازية الفكريين، نائب هتلر الدموي في فرنسا، وصاحب جريدة «در شتيورمر» القذرة المعادية للسامية.

فلماذا سلم هذا الفنان المزعوم نفسه بهذه البساطة، فاوقعته نكتة خفيفة؟ لم يكن في وسع بليت تفسير هذا الا بأن شترايخر،

شأنه شأن رؤساء العصابة النازية الآخرين، وقد انتحل شخصية رسام واستقر في تلك الزاوية الهادئة، ما كان في وسعه مع ذلك أن يتخلص مما يعاني من هلع دائم. فما كان الضمير المرهق بالجرائم النكراء المرتكبة هو الذي يلاحق شترايخر، انما كان يلاحقه الهلع الحيواني بالذات. فكان في كل ساعة، وكل دقيقة، يخشى أن يكشف أمره فيُعرف.

ومن جديد، كرر بليت قائلاً:

ـ أنت موقوف. فعجل بالاستعداد.

فقال شترايخر، رافعاً رأسه:

ـ أريد لبس حذاء آخر.

وفي تلك اللحظة لم يعرف بليت وجه «الفنان» الشيخ، الهادئ، المتعب. كانت عينا شترايخر تتأججان بالكراهية.

ومن الغرفة المجاورة، خرجت امرأة صبية جميلة، وخرت على ركبتيها أمام شترايخر، فنزعت من قدميه الحذاء العتيق، والبسته حذاء جديداً. ثم انصرفت دون أن تنبس ببنت شفة. وما عرف الطيارون الاميركيون من كانت تلك المرأة.

وبعد حوالى عشر دقائق، غادر شترايخر البيت الصغير المريح في الجبال، تحت الحراسة. واقترب من السيارة، بخطوات ثقيلة.

واجلسوا مجرم الحرب، الذي كانت المحكمة الدولية تبحث عنه منذ وقت بعيد، على المقعد الخلفي من سيارة الجيب، بين النقيب هوت روبرتسون والجندي هاوارد هانلي. وابتعدت السيارة عن البيت.

وانطلقت تجري من جديد في الطريق الرائعة المنظر، مثيرة سحباً من الغبار، متسلقة حيناً سفوحاً شديدة الانحدار، وهابطة حيناً في اندفاع الى الوديان، دائرة حول حلقات عريضة من منعطفات الجبال المغطاة بالاحراج.

موت هملر

في الوقت الذي كان فيه الطيارون الاميركيون يسوقون يوليوس شترايخر الى السجن، وكان كلب فاشستي آخر، هو جلاد بولونيا هانس فرانك، يستلقي على سرير مستشفى معسكر الاعتقال في مدينة برختسغادن، بعد محاولة انتحار فاشلة، أيام كان «الفيلسوف» النازي وزير الريخ في الاقاليم الشرقية المحتلة، روزنبرغ، قد عثر عليه هو أيضاً في مستشفى فلنسبورغ الالماني، كان هنريخ هملر، أفظع سفاح في «الريخ الثالث» ما يزال حراً طليقاً. ان هذا الذي أحرق في حجرات الغاز ما لا يقل عن عشرة ملايين انسان، كان ما يزال يتنزه بحرية، في ضواحي فلنسبورغ، ويمضي الامسيات مع اثنين من مرافقيه، هما غروتمان وماخير، ويقضي الليالي في شقة احدى عشيقاته.

وفي العشرين من أيار (مايو) عرف احد رجال الحرس الهتلري الخاص هملر في شارع من المدينة التي كانت توجد فيها اذ ذاك ما تسمى بـ «حكومة دينيتز». ولكن يبدو أن هملر قد بدا له لسبب ما أن الاقامة في فلنسبورغ ليست مأمونة العاقبة، واذا هو في اليوم التالي، في ٢١ أيار (مايو)، يصل الى مركز الرقابة الانكليزية في ماينشتيت، قرب بريمندورف.

وهنا كان يجري التحقق من هويات جميع الذين يسيرون في الطرقات الى الغرب والى الشرق، وكما هي العادة، كان يحتشد في مركز الرقابة كثير من الناس.

وكان هملر ومرافقاه المتخفيان يقفون في صف انتظار طويل مؤلف من جنود ألمان سابقين، يحلمون بالعودة الى بيوتهم، وضباط، وموظفين، ومعتقلين خارجين من المعتقلات، ومجرد لاجئين.

كان زعيم الحرس الهتلري الخاص يقف متضعاً في هذا الحشد من منتظري التحقيق، متقدما في الدور ببطء خطوة فخطوة. وكان يجهد لان يكون موضع أدنى ما يمكن من الانتباه.

وكان هملر يرتدي لباساً نصف عسكري، نصف مدني، مؤلف من بنطال رسمي، وجزمة، وجاكيت. ولكن الجاكيت المدني ما كان يتوقع أن يبدل مظهره الخارجي، بمقدار الشاربين الحليقين والضماد الاسود الموضوع على العين اليسرى.

وهكذا كان هملر يبدو في هيئة قاطع طريق مسرحي، في هيئة أبله أفرط في قراءة الروايات البوليسية. ولكن هذه الحلة السخيفة بدت لهملر نفسه، على ما يظهر، تمويهاً يركن اليه. وقد كان زعيم الغستابو السابق يضع في جيب جاكيته هوية باسم هاينريخ خيتزنغر، الموظف في الشرطة العسكرية الالمانية السرية.

وحين وصل الشخص ذو الضمادة السوداء على عينه الى قرب الجندي الانكليزي، أشار هذا اليه بيده بأن يحيد عن الدرب ويقف جانباً.

وقد أوقفت الدورية لا هملر، بل شخصاً ما اسمه خيتزنغر، يحمل هوية تثير جدتها الشبهة والارتياب. وما كان هملر يعرف اذ ذاك أن الجندي كان لديه أمر بايقاف جميع موظفي الشرطة العسكرية، كما هي الحال بالنسبة لرجال الغستابو أيضاً. ألوف من الناس كانوا في تلك الايام يجتازون مراكز الرقابة. وكان كثيرون منهم لا يحملون أية هوية. ولو أن هملر كان قد جاء الى هناك، حاملاً على ظهره كيساً وسخاً، وأعلن أنه لاجئ بائس ضاعت جميع أوراقه، لكان من الممكن أن تسمح له الدورية الانكليزية بالمرور.

ولكن هملر كان قد رتب لنفسه وثيقة هوية جديدة. فالطاغية النازي، الذي تصعب تسميته انساناً، دون ان يمس هذا من كرامة الانسانية، كان يجمع في نفسه الوحشية التي لا حد لها وبلاهة الشرطي. ان الثقة محض البوليسية بان الشخص المزود بوثائق الهوية هو وحده البعيد عن الشبهة، قد أدت هذه المرة الى جعل هملر مشتبهاً به، برغم كل ما كان يموه به شخصه.

وقد سيق هملر، وهو بعد غير معروف، وما يزال يدعى خيتزنغر، الى معتقل من معتقلات الموقوفين، ثم الى آخر. وفيما هو مسجون مع سائر الحثالة الفاشستية، كانت «واقعة خيتزنغر» موضع الاهتمام في مقر أركان الجيش الانكليزي الثاني.

وفي الحال أرسل الى المعتقل، القائم قرب مدينة فيسترتيمكي، بضعة ضباط كانوا يبحثون عن هملر منذ وقت بعيد. ففي أيام الاستسلام اختفت آثاره فجأة. وحتى يوم الواحد والعشرين من أيار (مايو)، ما كان أحد يعرف أين اختفى.

وفيما بعد تحدث الكونت فولكي برنادوت، نائب رئيس الصليب الاحمر السويدي، الذي حاول هملر استخدامه لاقامة اتصالات مع قيادة القوات الانكليزية والاميركية، ــ تحدث عن مقابلاته لهملر في أيام معارك برلين *.

كان هملر، أثناء مقابلاته لبرنادوت، يبعث في نفسه الرعب بمجرد سترة رجال الحرس الهتلرى الخاص الحضراء التي يرتديها، وعينيه اللاذعتين، اللامعتين بعصبية من خلف زجاج نظارتيه المتشبثتين بانفه. ولفتت أنظار برنادوت يدا هملر الصغيرتان جداً، الشبيهتان بايدي النساء، المصبوغتا الاظافر بالمانيكور. وقد ارتعد برنادوت لمجرد التفكير بأن هذه الاصابع المنعمة ذات المانيكور كانت تمسك بالقلم حين كان هملر يوقع على أحكام الاعدام، وهو يبعث بضحاياه الى المعتقلات، والسجون، والمحارق التي كان وقودها الاجساد البشرية الحية.

واذ خاف هملر من مسرى الاحداث، وشعر بوشك هلاكه، راح يسعى الى اقامة اتصالات سرية بأيزنهاور ومونتغومري. وكان على استعداد لاستمالة برنادوت بالوعد بالافراج عن المعتقلين السكاندنافيين الذين كانوا ما يزالون يلقون العذاب في المعتقلات الالمانية.

انه في تلك الايام يتحايل، ويتهرب، ولا يقر له قرار نتيجة للتخبط والتشوش. وكل ما يعمله انما هو بدافع الهلع واليأس حيال العقاب الذي لا مفر منه، حيال قضاء الشعوب، واذ كان هتلر على

* وردت شهاداته في كتاب «محاكمة نورمبرغ» ليويه خايديكر ويوهانيس لييف، الصادر في ألمانيا الغربية.

قيد الحياة، كان هو في هلع أيضاً من الكشف عن لعبه على الحبلين وخيانته للفوهرر.

ولذلك فان هملر على استعداد لأن ينتزع هو نفسه السلطة من يد هتلر، الا أنه لا يدري كيف السبيل الى ذلك.

ومن الطريف أن هذا «الصديق المتفاني للفوهرر» لا يرى ضرورة حتى لاخفاء نواياه عن برنادوت. فكثيرا ما أخذ، في حضوره، يتناقش مع مساعده والتر شيلنبرغ حول امكانية ازاحة هتلر.

وقد تبين أن هملر كان قد استدعى طبيبين من قسم الامراض العصبية بمستشفى برلين، هما: البروفسور ماكس كرينيس والدكتور ليونارد كونتي. وهما يشتبهان باصابة هتلر بمرض باركنسون، ومن مظاهره الخارجية جمود الوجه وارتعاش جميع الاعضاء.

وطول الوقت كان هملر نفسه ينوه للمقربين منه بمنظر هتلر العليل. وقد قال لبرنادوت:

«لست مؤمنا بأننا ستتمكن من العمل مع الفوهرر. انه لم يعد يتناسب ووظيفته».

اما حين يقترح شيلنبرغ على هملر الذهاب الى دار المستشارية وارغام هتلر على التخلي عن السلطة، فان زعيم الحرس الهتلري الخاص يرفع يده في خوف، ويقول في ذعر:

ــ قد تثور ثائرة الفوهرر، فيعدمني في مكاني رمياً بالرصاص!

يجري هذا الحوار قبل وقت غير بعيد من بداية هجوم القوات السوفييتية الاخير على الاودر. وحين تقابل برنادوت مع هملر من

جديد ليلة الواحد والعشرين من نيسان (أبريل)، كان هذا يبدو مصعوقاً كل الانصعاق بسرعة تطور الاحداث على الجبهة الشرقية.

ويتذكر برنادوت أن هملر بدا له شاحب الوجه، عاجزا عن الاستقرار في مكانه بهدوء، فهو يذرع الغرفة من صوب الى صوب. اما وقت الحديث فكان ينقر على اسنانه باظافره. وقد قال لبرنادوت، راجياً من جديد تدبير مقابلة له مع أيزنهاور:

– ان الوضع العسكري خطير جداً، جداً!

ولكن برنادوت كان على شك من أن هذه المقابلة ممكنة التحقيق في الظروف الراهنة.

الا أن هملر، بناء على قوله، غير فاقد الامل بعد. وانه لعجيب أن هذا الطاغية الرهيب لا يزال تحت سيطرة الاوهام.

وشأن غورنغ فيما بعد، يعتبر هملر نفسه وريثاً لهتلر ولدولته التي لم يعد لها وجود بالفعل. ومثل غورنغ أيضاً، ما يزال يأمل جدياً بأن الحلفاء سيحسبون له حساباً، بل ربما يعرضون عليه منصباً رفيعاً في الدولة. وهو، مثل غورنغ ايضاً، يطعن بفوهرره بجميع الصور. وكجميع زعماء العصابة الفاشستية تماماً، لا يشعر هملر باي تبكيت ضمير، اذا كان في الوسع على العموم التحدث عن ضمير لدى هملر وغورنغ.

وبعد هذه المحادثة بقليل اختفى هملر من برلين. وللمرة الاخيرة تقابل مع برنادوت في مبنى السفارة السويدية في ليوبيك، ليلة الرابع والعشرين من نيسان (أبريل).

وحوالى منتصف الليل تبدأ صفارات الانذار من الغارات الجوية بالزعيق هناك، فيهرع برنادوت وهملر الى الملجأ. وهناك

على الرفوف الخشبية للنوم، وعلى المقاعد، وعلى الارض، وفي كل مكان من القبو، ينام سويديون وألمان - رجالاً ونساءً. وما هم الآن بمهتمين بهملر، وما من أحد يلتفت اليه، ولا يعرفونه.

وفي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل تطلق الصفارات اشارة انتهاء الانذار، فيغادر الجميع الاقبية، ويستمر الحديث بين برنادوت وهملر في احدى غرف السفارة. وقد عطلت شبكة الكهرباء منذ وقت بعيد في البناية، فكانت على الطاولة شموع، وزوايا الغرفة غارقة في ظلام بدا لبرنادوت موحشاً.

انه يصغي لهملر. وما كان زعيم الحرس الهتلري الخاص قد تخلى عن فكرة مقابلة أيزنهاور. بل كان يبدو أن هملر مصمم على مفاوضة الحلفاء الغربيين على الرغم من هتلر وخلافاً لارادته. وأنه وهو موجود في ليوبيك، محاطاً باتباعه من رجال الحرس الهتلري الخاص، قد بات اقل خوفاً من غضب الفوهرر.

وانه ليقول ملاحظاً في استخفاف:

- اغلب الظن أن هتلر قد مات ، واذا كان هذا لم يحدث الآن، فانه سيحدث في وقت قريب. لقد كان يمسك بي حتى الآن يمين الاخلاص، أما الآن فقد تغير الوضع. ان المانيا قد غلبت على أمرها.

وبلهجة متواقرة، وبعد أن يعترف بما قد بات واضحاً للجميع منذ وقت بعيد، يضيف هملر بأنه الآن «حر في أن يفعل ما يشاء!».

وماذا يشاء؟ طبعاً، الاستسلام على الجبهة الغربية، ومواصلة المقاومة في الجبهة الشرقية، بجميع القوى، حتى الجندى الاخير.

فان كراهية هملر الوحشية للاتحاد السوفييتي، لجيشه المحرِّر، قد ازدادت ضراماً في تلك الايام.

وفيما كان برنادوت يسجل اقتراح هملر ويعد بارساله بالطريق الدبلوماسي الى ستوكهولم، كان هملر يسمح لنفسه بـ «الذهاب مع التخيلات» قليلاً. ولقد راح يتصور جهاراً مشهد مقابلته مع أيزنهاور.

ثمة سؤال واحد فقط كان يقض مضاجعه: كيف ينبغي أن يكون مسلكه؟ اعليه ان ينحني فقط، أم يبسط يده لايزنهاور؟ وينبئ هملر انه قد بحث هذا الامر مع شيلنبرغ.

وهيهات، طبعاً، أن يكون في وسعه اذ ذاك الافتراض بأن غورنغ سيتمكن، يوم التاسع من أيار (مايو)، من مسك راحة الجنرال الاميركي المندهش ستيك. وعلى كل حال، فان هملر يسلم بفكرة أن القائد الاعلى الاميركي سيبسط اليه يده.

مد اليد! عجيب كم يتمنون هذا جميعاً: دينيتز وغوبلز، غورنغ وهملر، يودون مد اليد ومصافحة أيدي الجنرالات الغربيين، متمثلين أنفسهم في دور الطرف الند في المفاوضات. وذلك بعد كون ما ارتكبوا من جرائم لا نهاية لها قد عزل رؤساء العصابة الفاشستية هؤلاء عن سائر البشرية.

وسأل برنادوت:

ــ وماذا ستفعل اذا ما لقي اقتراحك الرفض في الغرب؟

فرفع هملر كتفيه. فهو على ما يبدو ما كان يسلم جدياً بهذه الفكرة.

ـ اذ ذاك سأخذ كتيبة من الجنود في الجبهة الشرقية وأهلك في القتال! ـ اجاب هملر متنفخاً، ملقياً على برنادوت نظرات وخازة من وراء زجاج نظارتيه المتشبثتين بأنفه.

وانتهت المحادثة بينهما، وخرج برنادوت الى الشارع مودعاً هملر.

ـ ساذهب الآن الى الجبهة الشرقية ـ كرر قائلاً، ثم أضاف بعد دقيقة: ـ فما هي ببعيدة جداً.

ان ما حدث بعد دقيقة من تصريح هملر هذا كان اشبه بتهريج مسرحي في اقصى حد من الرمزية، وكأنما هو قد مثّل خصيصاً على مرأى من الدبلوماسيين السويديين.

فان هملر، اذ توجه صوب الجبهة الشرقية خلف مقود سيارته الليموزين المصفحة السوداء، لم يجتز عشرة امتار حتى طرأ عطل على محرك سيارته. وخرج من تحت غطاء المحرك دخان كثيف. وبدا أن السيارة ستنفجر بهملر. الا أنها حادت عن الطريق فقط ولا بد ان هملر المرتعب قد غاص بسيارته في السياج القريب.

وبعد ذلك قضى رجال الحرس وقتاً طويلاً وعانوا جهداً كبيراً في انتشال السيارة المصفحة من تحت السياج المتهدم.

ومعلوم أن هملر لم يأخذ كتيبة ولم يذهب للقتال على الجبهة الشرقية. فقد فضل شيئاً آخر، فحاول على وجه التخصيص «الخدمة» فيما يسمى بـ «حكومة دينيتز». ففي الاول من أيار (مايو)، ليلاً، اجتمع هملر بالاميرال دينيتز سراً، وعلى انفراد.

كان على «الرئيس» الطازج دينيتز، الذي عينه هتلر بالامر نفسه الذي طرد به هملر من الحزب النازي، ان يجتمع بزعيم الحرس

الهتلري الخاص السابق. وما كان هملر يعلم بعد ان هتلر قد حرمه من جميع الالقاب والرتب «لخيانته». ولكن دينيتز كان على علم بهذا، وقد كان اذ ذاك على استعداد لاحاطة «الرجل الثاني» السابق في الدولة علماً بذلك.

فكيف كان على استعداد لذلك؟ لقد كانت شخصية هملر الرهيبة ورجال الحرس الهتلري الخاص الشرسون التابعون له يبعثون الرعب في نفوس الجنرالات الهتلريين حتى في تلك الايام. ولذلك فقد اتخذ دينيتز تدابير احترازية. فاقام حول بيته وفي الحديقة مراكز حراسة مشددة، وحشد على مقربة من ذلك رجالاً من بحارة الغواصات الخاضعين لقيادته.

وبالاضافة الى ذلك، وضع دينيتز مسدس براوننغ يركن اليه تحت كومة من الورق على طاولته. وهكذا كان كل شيء جاهزا لتلاقي «رفيقي السلاح».

فيا له من مشهد طريف بديع! الدولة الهتلرية لم يعد لها وجود، والذئاب الهتلريون ما يزالون على استعداد للتناحر على السلطة. وهم يخشون بعضهم بعضاً، لانهم يعرفون جيداً ان الطرف الآخر في مثل هذه المفاوضات يمكن ان يشهر مسدس براوننغ ويطلق النار دعماً لرأيه.

وقد ظل هؤلاء الاوباش الافذاذ حقاً سنوات كثيرة على دفة الحكم! وها هم اثنان منهم يتقابلان. قدم دينيتز الامر لهملر لقراءته. فمر زعيم الحرس الهتلري الخاص السابق بعينيه سريعاً على سطور الامر، وامتقع وجهه. وكذلك امتقع وجه دينيتز ولكن من الخوف، منتظراً ماذا سيفعل هملر؟ وحل صمت ثقيل...

راح هملر يفكر في صمت. وبعد ذلك مد يده الى دينيتز تعبيراً عن الرضوخ.

— اسمح لي والحالة هذه ان اكون في ظلك الرجل الثاني في الدولة — قال هملر، مقترحاً في اصرار، أكثر منه طالباً السماح. أجل، لقد عرض خدماته على دينيتز. وأشد ما يدعو الى العجب هنا أن هملر كان واثقاً من موافقة دينيتز.

ولكن «الرئيس» الجديد ما كان راغباً البتة في الارتباط بهملر.

— ان لك سيرة حياة سياسية مثقلة —قال دينيتز معبراً عن رفضه بهذه الصيغة اللطيفة جداً.

الا أن جلاد أوروبا الدامي ما كان موافقاً على هذا. وقد أعرب عن «وجهة نظر» أخرى. كان في اعتقاده ان سيرة حياته السياسية ليست جد مثقلة الى هذا الحد ولا هي غارقة في الدم الى هذا الحد. وبكلمة، انه يمكن ان يكون على وجه التمام الرجل الثاني في حكومة دينيتز.

واستمرت المساومة بينهما وقتاً طويلاً.

وكان الفجر قد لاح حين بارح هملر دار «الرئيس». انه لم يستلم «وظيفة»، ومع ذلك فقد ظل اسبوعاً كاملا على علاقة مع دينيتز أملا بأن يعيد هذا النظر في موقفه.

وفي السادس من أيار (مايو)، قبل يومين من الاستسلام، قرر دينيتز أن يقطع الصلة نهائياً مع هملر، وعزله رسميا من جميع مناصبه السابقة. وقد باتت بالفعل غير موجودة. واذ ذاك توارى هملر عن الانظار. فغاص في أغوار ألمانيا المنهارة، وما ظهر على السطح الا

يوم الواحد والعشرين من أيار (مايو)، في مركز الرقابة الانكليزي، قرب بريمندورف.

...كانت الساعة حوالى التاسعة مساء، حين جاء ضباط المخابرات العسكرية الانكليزية الى فيسترتيمكي لرؤية الموقوف بأنفسهم. ولكن الشخص، الذي كان يسمي نفسه خيتزنغر، كان قد طاب، قبل مجيئهم بساعة، أن يؤخذ الى مكتب حاكم المعتقل، النقيب سيلفرست.

ـ ايوه، ما تريد؟ ـ سأل سيلفرست بخشونة لدى رؤيته الموقوف.

واذ ذاك رفع الرجل الوا قف امامه عصابته السوداء بحذر عن عينه وبحركة مألوفة لديه وضع نظارتين على انفه.

ـ انا هاينريخ هملر.

ـ فعلاً! ـ صاح سيلفرست، وقد كان يعرف هملر من صوره. وشرق بريقه من المفاجأة وظل يسعل طويلاً، وهو يحس بدبيب نمل بارد على ظهره.

ـ بودي أن اتحدث مع الفيلدمارشال مونتغومري. ـ أعلن هملر بابهة.

ـ مونتغومري؟ ـ سأل الضابط، وقد تمالك نفسه شيئاً فشيئاً.

ـ نعم ـ قال هملر هازا برأسه.

ـ سنرى فيما بعد! اما الآن، فانا ممثل للجيش هنا! ـ أجاب سيلفرست بلهجة قاطعة. وبعث بالموقوف من جديد الى قاووش المعتقل. وبعد قليل من الوقت اجلس الضباط القادمون هملر في سيارتهم، واستاقوه الى مدينة ليونيبورغ.

بعد أن أقدم أدولف هتلر على قتل نفسه قتل الجبان الرعديد، فراراً من قضاء الشعوب، كان هاينريخ هملر، الواقع في قبضة الانكليز، المجرم رقم واحد، ما في ذلك شك. فما كان يجوز، باية حال، السماح لقاتل الملايين هذا، بالتهرب من قفص الاتهام.

بيد أن الضباط الانكليز، الذين كانوا يتولون حراسة هملر، قد سمحوا بوقوع هفوة لا تغتفر.

لقد استاقوا هملر الى ليونيبورغ، ووضعوه في فيلاً، احتجزوه في غرفة منها على حدة. وجاء الى هناك اطباء عسكريون، وفحصوا ثياب هملر وجسده، بحثاً عن امبولة سم.

وقد اكتشفت، فعلاً، في جيب جاكيت هملر المدني، أمبولة تحتوي على سيانور البوتاسيوم، طولها قرابة اثني عشر ملمتراً، وأرفع بقليل من السيكارة. وبعد ذلك البس المعتقل بزة عسكرية انكليزية نزعت منها الكتافيات.

وفي مساء ذلك اليوم، قرر العقيد مورفي، القادم من مقر أركان مونتغومري، استجواب هملر. وقد سأل ضباط الحراسة هل وجدوا مع هملر سماً.

فاجابوه بانهم صادروا أمبولة. واذ ذاك استفسر مورفي عما اذا كان قد جرى التفتيش في جوف فم هملر. فاجاب الطبيب الانكليزي ويلز بالنفي.

ــ فالاجدر اذن ان نذهب الى الفيلا فورا ــ قال العقيد آمراً. واعرب في الحال عن تخمينه بان هملر ما وضع امبولة السم في جيب جاكيته الا لصرف الابصار. ويمكن ان تكون لديه امبولة ثانية مخفية بمهارة.

وحين دخل الضباط غرفة هملر، أمره الطبيب ويلز بأن يفتح فمه. فتوتر وجه هملر، وتقلصت عيناه وتحولتا الى ثغرتين ضيقتين. لم يصدر عنه أي جواب، بل القى فقط على ويلز نظرة زاخرة بالحقد والشر.

ولكن ما كاد الدكتور ويلز يكرر أمره حتى سمع صوت انكسار زجاج. فقد كسر هملر بأسنانه الامبولة المحتوية على السم. وفي الحال، أنهار جسده على الارض.

وانحنى الدكتور سريعاً على هملر، محاولاً اخراج بقايا الامبولة من فمه. وعلى الفور حقنوا معدة هملر بمضاد السم. الا أن ذلك لم يكن بذي جدوى...

... وفي صباح السادس والعشرين من أيار (مايو) بارحت ليونيبورغ سيارة شحن عسكرية رمادية. وكان يجلس في صندوقها رائد انكليزي ومساعدان، وخمسة جنود. وعلى ارض السيارة، عند اقدامهم، جثة مطروحة ملفوفة بالخيش. وكان على الجثة سروال عسكري بريطاني، وقميص مفتوح، وجوارب ألمانية رمادية.

وتوقفت سيارة الشحن في مكان من الغابة ناء منعزل. وكان قد ظهر هناك قبر محفور حديثاً. ورفع مساعدان الجثة، وأرجحاها فألقيا بها في الحفرة. واذ ذاك قال أحدهما بصوت عال، وقد بصق على القبر:

– فلتذهب الدودة الى الديدان!

وشرعت المجارف بالعمل. وراح الجنود يقومون بعملهم. بيد انه ما كان احد منهم يعرف بعد في تلك اللحظة أن الاميركيين سيجدون بعد بضعة ايام في اطلال ضواحي برختسغادن كنوز هملر

الشخصية المخفية، البالغة قيمتها قرابة مليون دولار. فقد كانت مطمورة هناك مجوهرات، وذهب، وعلب من الليرات الانكليزية، والفرنكات الفرنسية، والدولارات الاميركية، والجنيهات المصرية، والنقود النروجية، والاسبانية، بل ونقود فلسطينية ايضاً.

فقد كان هملر مستعدا للفرار الى اي بلد، والتواري في أي مكان سري، شريطة ان يتهرب من تقديم الحساب على كل ما ارتكبه رجال الغستابو، وقوات الحرس الخاص، والشرطة.

ولكنه لم يهرب، هذا الوحش النازي الذي سيظل اسمه يلفظ مصحوباً باللعنة على الفاشستية.

لقد غمر الجنود الانكليز الحفرة بالتراب بعناية، وغطوها بالعشب، غير مبقين في الغابة أية علائم، لكي لا يتمكن احد من الاهتداء الى هذا المكان ابداً.

وذهبت الدودة الى الديدان!

«الرئيس بالراديو» وآخرون

مضت ايام ايار (مايو) وتم في المانيا تدريجياً القبض على مجرمي الحرب الرئيسيين. وكان الكثيرون منهم قد باتوا في المعتقلات والسجون. ولكن الامر الغريب هو أن ما تسمى بـ «حكومة دينيتز» ظلت قائمة في مدينة فلنسبورغ بتغاض جلي من الحلفاء الغربيين.

كان يطلق على الاميرال دينيتز في تلك الايام اسم «الرئيس بالراديو». ذلك أنه كان قد عيّن رئيساً للحكومة عن طريق الراديو، ببرقية من هتلر اول الامر، ثم ببرقية موقعة من غوبلز وبورمان.

الا أن هذا لم يمنع الرئيس الطازج دينيتز من أن يصدر في الحال الامر باعتقال من قلداه السلطة التي لم تعد موجودة في الدولة التي لم تعد موجودة. فقد امر دينيتز باعتقال غوبلز وبورمان اذا هما ظهرا في مقره الرئيسي.

وماذا يمكن ان يضاف ايضاً الى هذه الوا قعة؟ بوفاة هتلر انتهت المأساة النازية الدامية، واما بهذه المهزلة فقد بدأت المأساة ـ المهزلة القصيرة لوجود «وزارة دينيتز».

«وزارة»، وإن تكن على الورق، الا انها كانت مع ذلك موجودة. وفيها كان يودل يحل محل كايتل المعتقل في منصب القائد الاعلى للجيش، وأوكلت للنازي البرخت شبير العناية بالاغذية للسكان وبالصناعة، مع أن هذه وتلك كانتا موجودتين في قبضة الادارة الحليفة.

وفيما كانت الحرب ما تزال مستمرة، كان دينيتز يصدر الاوامر للجنود بالصمود العنيد على الجبهة الشرقية. وهكذا كان يواصل السير على «خط» هتلر.

وفي الثالث والعشرين من أيار (مايو) جاء الى فلنسبورغ ثلاثة جنرالات ـ سوفييتي، وأميركي، وانكليزي ـ فاستدعوا الى لجنة الرقابة دينيتز ويودل والجنرال فريديبورغ، ذلك الجنرال بالذات الذي وقع مع كايتل على وثيقة الاستسلام في كارلهورست. وقال لهم الجنرال الاميركي روكس:

ـ لديّ، أيها السادة، تعليمات تقضي بابلاغكم أن الحكومة الالمانية القائمة محلولة منذ الآن. ومنذ هذه اللحظة يجب أن يعتبر كل منكم نفسه أسير حرب.

أصغى الالمان الى هذا الامر صامتين. وكانت الكأبة تبدو على يودل بوجه خاص. كان هذا الهتلري المتعطش للحرب جالساً على الكرسي كأنه بالع عصا. وقد أصبح وجهه الاصفر، المتطاول، المهزول، مغطى ببقع حمراء.

ـ هل لديكم ما تقولون لنا؟ ـ سأل روكس.

ولبث الالمان صامتين. واضح أنهم كانوا يتوقعون حل «حكومتهم»، ولكن بودهم أيضاً أن يحزروا أمراً آخر، هو مصيرهم. ولقد كان هذا المصير يبعث الرعب في قلوبهم. وبانتظار ذلك كان الجنرالات الهتلريون يسلكون سلوك جنود انضباطيين أغبياء.

ـ كل كلمة الآن ربما تكون غير ذات جدوى! ـ قال دينيتز مقلقلا بكلماته.

ـ وماذا يمكن أن تقولوا؟ ـ وجه هذا السؤال بالذات الى يودل.

فكرر القول حرفياً، كأنما هي عبارة محفوظة:

ـ كل كلمة ستكون غير ذات جدوى. فقيل للالمان:

ـ ضعوا اذن أوراق هوياتكم على الطاولة.

فلم يتخل يودل المتعجرف عن وضع مسرحي. فاخرج بطاقة هويته من جيبه والقى بها بعنف على الطاولة.

ـ خلص ـ قال روكس لدينيتز ـ الى اللقاء.

ولقد كان حرياً به أن يضيف: «الى اللقاء في المحكمة الدولية». ولكن الاميركي لم يقل هذا. ولقد جاءه الجنرالات الالمان وهو يتناول طعام الصباح، وكان مزاجه رائعاً طيباً. فسمح لاعضاء «وزارة دينيتز» بالذهاب الى بيوتهم لتناول طعام الغداء وترتيب أمورهم.

وقد فعلوا ذلك. وبعد ذلك اعتقل الحرس الاميركي «الرئيس بالراديو» وجميع رجال حاشيته من الجنرالات...

... وعلى هذه الصورة، كان قد «التأم شمل» جميع من بقوا على قيد الحياة من رؤساء العصابة النازية، وما كان ينقص غير ريبنتروب.

ومضى أيار (مايو) ونصف حزيران (يونيو)، دون أن يسمع شيء عن وزير الخارجية السابق لـ «الريخ الثالث». وبدا كأن ريبنتروب قد انمحى من الوجود. وفي أثناء ذلك كان يعيش بأمان في هامبورغ. وعلى مرأى من رجال الادارة الانكليزية، كان يتنزه في شوارع المدينة، لابساً معطفاً رمادياً أنيقاً، وقبعة معتمة اللون، ونظارتين سوداوين.

كان هملر يضع على عينه ضمادة، وريبنتروب يضع نظارتين! ان القادة السابقين لالمانيا الهتلرية هؤلاء، ما كانوا يزعجون أنفسهم كثيراً في التمويه. فعلى أي شيء كانوا يعلقون الآمال؟ ان يبقوا وقتاً طويلاً غير معروفين بل ربما متسامحاً معهم، اذا هم ظلوا يسلكون مسلكاً هادئاً، غير متدخلين في السياسة ومشتغلين على العموم بحرفة ما؟

على كل حال، لقد كان ريبنتروب، وهو يتجول في أرجاء المدينة، يزور أصحاب الدكاكين الذين كان على علاقة بهم أيام كان ممثلاً لشركة الشمبانيا.

وهكذا ذهب الى بيت أحد تجار الخمور وعرض على رب البيت الخائف، مسمياً نفسه رايزر، أن يخفيه عنده الى أن تجيء أيام أحسن.

ـ المسألة تتعلق بمستقبل ألمانيا! ـ همس رايزر المزعوم في أذن التاجر.

فانعقد لسان هذا من الرعب. فقد عرف ريبنتروب على الفور. وفيماكان التاجر يفكر فيما ينبغي له ان يعمل، ظهر ابنه على حظ اوفر من الجرأة. فما أن سمع اعتراف أبيه حتى مضى الى الشرطة.

وفي الرابع عشر من حزيران (يونيو) وقع اخيراً ضباط الاستخبارات الانكليز على آثار السيد الغامض ذي القبعة القاتمة والنظارتين السوداوين. فوجدوا البيت الذي كان يقطنه رايزر ــ ريبنتروب، وصعدوا الى الشقة القائمة في الطابق الخامس. قرعوا الباب، ثم راحوا يلطمونه بايديهم ويلبطونه بأرجلهم، ولكن ما من مجيب.

واخيراً، وبعد ان اطلق احد المساعدين الانكليز صفيراً يصم الآذان، انشق الباب قليلاً. ومن خلال الشق الضيق ابصر الجنود بامرأة نصف عارية، مرخية الشعر، ملمعة الوجه بالكريم.

ـ تفتيش! ـ صاح بها ملازم انكليزي.

وفي الحال اقتحم الجنود الشقة، وراحوا يركضون باندفاع بين الغرف، مخافة أن يتمكن ريبنتروب، وقد سمع خطواتهم، من تجرع السم، على شاكلة هملر.

وهكذا اقتحموا غرفة كان فيها سرير غير مرتب. كان ثمة شخص ما نائماً فيه. وسارع الجنود الى رفع اللحاف... وكان من غريب الامور ان الرجل النائم فيه، لم يستيقظ. ما سمع القرع على الباب، ولا خبط جزمات الجنود على الارض الخشبية.

ما سمع، أم تراه ما كان يريد أن يسمع؟

وهز الملازم النائم من كتفه، وظل طويلاً يهزه، واذ ذاك فقط فتح هذا عينيه. فراح يسأل في خوف:

ـ ماذا جرى؟ ماذا جرى؟

ـ لا شيء يدعو للاستغراب، انك موقوف! ـ قال له الملازم، وتناول بيجامة مقلمة بخطوط بيضاء ووردية، معلقة على رأس السرير. ـ البس! وأنزل الشخص العاري قدميه من السرير.

ـ من أنت يا هذا؟ ـ سأله الضابط، لمجرد الاطمئنان. فما كان لديه شك في الشخص الذي يراه أمامه.

ـ أنكم تعرفون جيداً من أنا! ـ أعلن ريبنتروب بغطرسة استيقظت فيه فجأة. وأضاف قائلاً: اني أهنئكم!

فقال الملازم:

ـ في هذه الحال، البس سريعاً، أيها السيد ريبنتروب.

وقبل مغادرة الشقة التي يختفي فيها لدى عشيقته، قضى ريبنتروب وقتا طويلاً في ترتيب هندامه، وحلق ذقنه، ومشط شعره بعناية أمام المرآة. وقد كان يفعل هذا على مرأى من الجنود المنتظرين الصابرين، حتى لقد كان يمكن أن يتصور المرء أن ريبنتروب معتزم الذهاب لا الى السجن، بل الى حفلة استقبال دبلوماسية، حيث سيلقي على مألوف عادته خطابا ديماغوجياً ويعطي تأكيدات كاذبة.

وهل ترى كان على العموم يفكر في تلك اللحظة بأنه ذاهب الى السجن؟

ولدى مبارحة شقته السرية، أخذ ريبنتروب معه كيس أمتعة، وجد فيه بعد قليل مبلغ ضخم من المال، هو بضع مئات الالوف من الماركات.

وعند الاستجواب صرح قائلاً:
– كنت أود الاختفاء الى أن يهدأ الرأي العام.
فسألوه:
– ولهذا أخذت كل هذا المبلغ من المال؟
– نعم – قال ريبنتروب.
– وكم كنت تحسب أن تعيش بهذا المبلغ؟
فهز ريبنتروب كتفيه على نحو مبهم. لم يعين مهلة محددة، ولكن الابتسامة الخبيثة الخفيفة التي انزلقت على شفتيه كان فيها ما يعبر عن أن وزير هتلر السابق ما كان يعتزم البقاء طويلاً طي الخفاء.

بهذه القحة التي لا توازيها في الحق الا الصفاقة التي لا حد لها، أفهم ريبنتروب الضباط الذين كانوا يستجوبونه أن عاصفة استنكار الرأي العام ستخمد في رأيه سريعاً، واذ ذاك سيكون في وسع النازيين أن يتمتعوا بالحرية من جديد.
وسأله أحد الضباط الانكليز بصراحة:
– وهل كنت معتزماً الظهور من جديد؟
– نعم، بالطبع – أجاب ريبنتروب هازاً برأسه في غطرسة.
ان تاجر الشمبانيا السابق هذا، ان الدبلوماسي الهتلري السابق هذا، المسؤول عن موت الملايين من الناس، بدرجة مسؤولية هتلر وهملر وغورنغ، كان معتزما «الظهور» من جديد على سطح الحياة.
وقبل ارسال ريبنتروب الى أحد المعتقلات الاوروبية، فتشوه من جديد تفتيشاً دقيقاً، متذكرين الخطيئة التي ارتكبت بالنسبة لهملر. وأثناء ذلك عثر في جيب جاكيت ريبنتروب على ثلاث رسائل موجهة

الى مونتغومري، وايدن، وتشرشل. وفي هذه الرسائل كان ريبنتروب يعرض «خدماته» على الانكليز.

وهكذا قبض على فرد آخر من أفراد عصابة مجرمي الحرب الرئيسيين، الذي شغل فيما بعد مكاناً في قفص الاتهام الى جانب هيس، وكايتل، ودينيتز، وشترايخر، ويودل، وغورنغ.

لقد وقع في القفص اشرس الذئاب الفاشست. وحين أعلن عن هذا، شعر الناس كأن الجو في ألمانيا قد ازداد نقاءً.

وفي تلك الايام كان اعتقال مجرمي الحرب الرئيسيين يبعث لدى الناس في جميع البلدان الامل بان أي اجرام ضد الانسانية والدمقراطية لن يظل بعد اليوم بدون عقاب، وأن الجزاء الصارم ينتظر جميع اعداء السلام.

فراو منتزل تبقى في بيتها

بدا التوقيع على الاستسلام في كارلهورست كانما قد بعث نشاطا جديدا لدى البرلينيين. فقد توطد السلام. وكان هذا ملحوظاً في كل مكان. ولكن لعله كان أبرز ما يكون في ضواحي المدن، التي عانت القليل من المعارك، كأولنغورست، مثلاً، التي كنا نقطن فيها.

قبل أسبوع كانت شوارع أولنغورست تكاد تكون مقفرة من الناس. أما الآن فانها تمتلئ من الصباح بالرجال والنساء المسرعين بالذهاب الى أعمال اعادة البناء. والاطفال، الذين سبقوا الجميع في التآلف مع المدينة بعد الحرب، كانوا يتراكضون في الشوارع

متصايحين، ويلعبون، ويمرحون، شأنهم في ذلك شأن أطفال العالم جميعاً، وقليلاً ما كانوا يعيرون التفاتاً للدبابات، والسيارات، والمدافع، التي كانوا قد ألفوا رؤيتها، والتي كانت تجتاز الضاحية.

وربات للبيوت يذهبن الى المخازن، حاملات في أيديهن سلالاً كبيرة لشراء المواد الغذائية، أو يجتمعن للتحادث في الشارع، واذ ذاك كانت تسمع أصواتهن العالية من بعيد.

ووسط هذه الجماعات أصبحت تتلامح اكثر فاكثر وجوه صبايا وفتيات جميلات، وقد لبسن بدل المناديل القاتمة مناديل زاهية الالوان وبيريات. وفي شارعنا علق الخياط كراوس لافتة على السياج الحديدي المزخرف القائم امام بيته، فسرعان ما جاءته التوصيات من سكان أولنغورست، الذين لم تبق الحرب على جلدهم ما يلبسون.

وذهبت أنا نفسي ذات مرة الى الخياط في مشغله، فرأيت رجلاً ممتلئ الجسم، ضخم الرأس، متزلف الوجه، عليه قميص مكعّب، وشيالات صفراء متصالبة، ومن على طرفي رقبته يتدلى متر القياس.

قتل لكراوس ابن في الحرب، فهو الآن يلعن هتلر.

وقد كان كراوس في استقباله لزبائنه، وعلى الاخص الضباط الروس، لا يبدو لطيفاً خدوماً وحسب، بل أكاد أقول، ذا نشاط احتفالي. ففي هيئته، وحركاته، وابتسامته، تعبير عن رغبة واحدة: هذا الساعد المشمّر سيشتغل اخيراً. ان أية نازلة ثقيلة تصيب النفس، يذهب بها شيئاً فشيئاً العمل الذي هو موضع الهواية.

وغير بعيد عن مشغل الخياط كراوس، افتتح في تلك الايام أيضاً أول صالون للحلاقة في الضاحية. مشوه كسيح الساق، ورجلان

شابان طويلا القامة عليهما مئزران أبيضان، كانوا يستقبلون الزبائن ويجلسونهم بلطف على الكراسي.

وكان يتوارد على هذا الصالون سكان أولنغورست وضباطنا. كانوا بجتازون باهتمام عتبة الصالون النظيف ويمعنون النظر الى وجهي الحلاقين: فقد كانت رشاقة قواميهما ودخولهما سن الخدمة العسكرية يحملان على الافتراض بانهما كانا في سنوات الحرب مسلحين لا باموا س الحلاقة والمقصات وحسب.

كان يرتسم على وجهي الحلاقين الالمانيين قليل من التلطف المرتبك، وكان ضباطنا ايضاً يبتسمون وينظرون اليهما باستغراب بعض الشيء حين ينقدونهما الاجرة.

وفي الحق، من كان في وسعه أن يراهن على أن الحلاق وزبونه اليوم لم يكونا لعشرة ايام خلت يتبادلان اطلاق الرصاص في شوارع برلين... وها ان احدهما الآن واقف، وفي يده موسى الحلاقة، والآخر مسلّم ذقنه ورقبته بأمان لهذه الموسى.

ولقد ذهبت أنا نفسي ذات مرة الى صالون الحلاقة، وجلست على الكرسي مسلماً وجهي لسلطة يد الحلاق وانا اشعر بشيء من الارتياب والقلق المخامر للنفس.

وبعد ذلك اتفق لي مراراً أن ذهبت الى صالونات الحلاقة في برلين. ولكني أتذكر الزيارة الاولى بوجه خاص، وما ذلك فقط لان تمسيد خدي برغوة الصابون لا بفرشاة الحلاقة، على النحو الذي اعتدناه، بل بأصابع مرنة ماهرة، ولكن الذي ترك كل هذا الاثر في نفسي انما هو بالدرجة الاولى الشعور بحدة هذا الوضع غير المألوف.

بعد الاستسلام انتقلت ربة بيتنا فراو منتزل من القبو الى الطابق الاول، مع أننا كنا نعرض عليها ذلك منذ وقت بعيد. وبعد قليل جاءت الى البيت بابنتها، وهي فتاة صغيرة نحيلة، شاحبة الوجه، ذات شعر اشقر اجعد.

وكان هذا من جانب فراو منتزل، كما فهمنا، تعبيراً عن الثقة المتوطدة بالضباط السوفييتيين. فقد كانت حتى ذلك الوقت تخفي ابنتها في مكان ما لدى أقاربها، بدافع من مخاوف غير مفهومة لدينا البتة.

أذكر بالمناسبة أن فراو منتزل كانت تتخلص من مخاوفها، الناجمة عن دعاية غوبلز، بالسرعة التي كانت تنمو بها في نفسها الثقة بحقوقها كربة بيت، وهي حقوق ما كان ينازعها فيها أحد.

وبات المرء الآن يشعر في كل زوايا البيت بوجود يدي صاحبته. فقد كانت تقرقع بالطناجر في المطبخ قرقعة صارمة، وتسهر بيقظة على النظافة في الغرف، وكثيراً ما كانت تصدر عنها ملاحظات موجهة الى ضيوفنا، اذا ما حاد أحدهم عن ممشى الاسفلت في الحديقة وسار عفواً على العشب الاخضر.

وكانت ربة بيتنا تشتغل اذ ذاك في مؤسسة من مؤسسات النقل، وتتناول بطاقات تموينية جيدة. وكنا، كعهدنا في السابق، نهبها من جراياتنا ما كنا في العادة لا نأكله، اذ كنا طول الوقت تقريباً في برلين.

أجل، لقد بات من الصعب اذ ذاك معرفة فراو منتزل! بل لقد أصبحت تبدو أطول قامة وأكثر صبا، اذ هي لم تعد محنية الظهر، وقد أخذت ترتدي ثياباً أزهى ألواناً.



الامر الاول الصادر عن حاكم برلين الجنرال برزارين.

وقد اكتشفنا ذات مرة، بعد أن كنا اعتدنا على كلامها المهموس، أن في وسع فراو منتزل رفع صوتها على نحو فيه الكفاية من الحدة والسطوة.

صحيح أن ربة بيتنا لم تعبر عن الاستياء لاضطرارنا للسكنى في بيتها، الا أنها كانت بادية الانشراح حين علمت اننا سننتقل الى ضاحية أخرى من ضواحي برلين، هي كارولينغوف.

ولدى وداعنا فراو منتزل، تمنينا لها ولابنتها ولجميع جيرانها كل خير وسعادة. فاعربت عن الشكر، وهي تبتسم.

ولكن حين تم تحميل سيارتنا واعتزمنا مغادرة البيت الصغير في أولنغورست، وقع حادث تافه تماماً، أخر السفر بضع دقائق فقط.

كان كوربوسنوف قد أخذ من فناء البيت صندوقاً خشبياً عتيقا، لحاجة من حاجاته، ناسياً أن يخبر ربة البيت عن ذلك. ولكن فراو منتزل رأت هذا الصندوق مع السائق، وهو يخطو بهدوء الى السيارة، فتشبثت به بيديها الاثنتين.

وتوقف كوربوسنوف حائراً. التمس أول الامر أن يأخذ الصندوق من ربة البيت، ثم عرض عليها شراءه نقداً، الا أن فراو منتزل ظلت على عنادها.

وانهالت على كوربوسنوف المرتبك بوا بل من الشتائم، وراحت تخبط الارض بقدميها، وقد اصفرّ وجهها من الغيظ، حتى لكأنها مستعدة لأن تموت ولا تتنازل عن هذا الصندوق السيىء الطالع الذي يسوى ثلاثة كوبيكات.

لقد تذكرت هيئة فراو منتزل الحقيرة المرتعدة من الهلع حين رأيتها للمرة الاولى في المطبخ. وفي الحق، لقد كان هذا الانتقال من النظرات المستكينة المستخذية الى هذه الشرارات الشرسة التي تقدح الآن من عينيها، يبعث العجب لدى أي كان!

وكان أشد ما أثار عجبنا ودهشتنا أن فراو منتزل كان تصرخ في وجه صديقها كوربوسنوف الذي كان يقاسمها على الدوام المواد الغذائية، كما كان يشتغل في حديقتها الى حين مجيئها الى البيت.

لست أدري بم كان يفكر كوربوسنوف في تلك اللحظة. كان في وسعه أن يتذكر أشياء كثيرة: الحرب، ومدننا وقرانا المهدمة، وجحافل الجنود الفاشست، التي عاثت في أرضنا فساداً وخراباً. وكان في وسعه أن يتذكر أيضاً زوج فراو منتزل، الذي جاء بلادنا

حاملاً السلاح. وكان في وسعه أن يتذكر الدخان والرماد من الحرائق المنتشرة ألوف الكيلومترات على دروب الحرب في روسيا.

ونظر كوربوسنوف الى الصندوق الذي كان ما يزال ممسكاً به بين يديه، وألقى به عند قدمي فراو منتزل، ومضى الى السيارة بهدوء، غير ملتفت الى ما حوله.

وأما فراو منتزل، فقد حملت صندوقها المستعاد، وتوجهت الى بيتها الذي حرسناه لها في أولنغورست، دون أن تلقي نظرة على سيارتنا، ولا على السائق كوربوسنوف، الجالس وراء المقود بوجه عبوس حزين...

في حاكمية المركز

بضع ساعات في حاكمية منطقة ميتي، وبضع ساعات قرب الطاولة في غرفة كبيرة يؤدي بابها الزجاجي الى الشارع مباشرة. وما يكاد الزائرون يتجاوزون العتبة حتى يروا رأساً قد حل به الصلع قليلاً، منكباً على الاوراق، وجبيناً عريضاً، وحاجبين كثيفين. انه المقدم أوغريوموف، نائب الحاكم العسكري للشؤون السياسية.

كان أوغريوموف في ذلك اليوم يستقبل من الساعة الثامنة صباحاً. وحتى منتصف النهار كانت طاولته ملأى بأوراق وطلبات، وشكاوى، تتطلب النظر السريع.

كنت جالساً قرب الطاولة، حاملاً دفتر ملحوظات مفتوحاً. وما كان ينقطع سيل الزائرين. بعضهم كان يحيط بأوغريوموف، وآخرون يحتلون الكراسي الموضوعة على طول الجدران، وغيرهم أيضاً

واقفون في الشارع تحت النافذة. وما أكثر القضايا التي أتت بهم الى مقر الحاكم العسكرى السوفييتي في تلك الايام الاولى بعد الاستسلام!

صاحب ورشة تصليح دراجات يلتمس السماح له بمباشرة العمل.

فقال له أوغريوموف مبتسماً:

ـ بطيبة خاطر، أيها السيد شولتز! أول الامر نرتب وسائل النقل بالدراجات، بوصفها أيسر شيء، وبعد ذلك السيارات، ثم الميترو. بالاختصار: حسن جداً!

وصاحب صالون حلاقة يود لو يحصل على الادوات الضرورية له، ولكن من اين؟ الا يساعد الهر الحاكم العسكري السوفييتي في ذلك وينصح بشيء ما؟ ولكن «الهر الحاكم العسكري» ما كان يستطيع غير توجيه النصح بالبحث النشيط عن هذه الادوات الى السيد الحلاق نفسه، والتأكيد له بان برلين في حاجة الى صالونات حلاقة، وورشات للخياطة، ومخازن. ويستفسر صاحب مؤسسة نقل، كان النازيون قد صادروا سياراته كلها، عما اذا كان سيستطيع الحصول على قرض من الادارة السوفييتية.

وكانت هذه مسألة أكثر تعقيداً، فما كان يمكن أن تحل من قبل الحاكم العسكري للمنطقة. وتناول أوغريوموف السماعة، فتلفن لحاكم برلين العسكري الجنرال بيرزارين:

وسأل صاحب المؤسسة:

ـ هل في وسعي اعتبار نفسي مالكاً؟

ـ وكيف لا؟ لقد حررناك من الفاشست، لا من ملكيتك الخاصة.

ـ ثم أوضح أوغريوموف قائلاً: أود أن أقول ان هذه المسائل لا يمكن أن يحلها أحد غير الحكومة الدمقراطية للشعب الالماني نفسه حسب ارادتها.

فاذا بهذا الرجل البدين، المكتنز الخدين، كخدي الطفل، يمسح العرق عن جبينه ـ فلا بد انه قد انفعل ـ ويمضي، كما بدا لي، معبراً بنظراته عن شكر رقيق كان يصطرع مع الحيرة البلهاء.

وجاءت بعده امرأة في خريف العمر، قلقة على زوجها. لقد كان في قطعات التعبئة العامة، فاين هو الآن: أهو في الاسر، أم مطلق السراح؟

ـ قد يكون حيث كان يحاول أن يبعث بالجنود الروس: في الدار الآخرة! ـ قال أوغريوموف بقسوة مفاجئة، وقد صدمته وقاحة المرأة : لقد حسبت الحاكمية العسكرية السوفييتية مقر أركان لفوج هتلري محطم.

وجاء عامل، فأبلغ عن عنوان رجل متخف من رجال الغستابو في ذمته مئات القتلى.

فاستدعى أوغريوموف مساعدا، و ما هي الا خمس دقائق حتى انطلقت مفرزة من حملة البنادق الاوتوماتيكية بصحبة العامل الذي شد المقدم على يده مودعا بحرارة.

وسرق أحدهم حقيبة من احدى ربات البيوت، فجاءت تقدم شكواها. والتمست جارتها من «الهر الحاكم العسكري» أن يجد لها ابنها الصغير. فهو يتشرد في مكان ما في الليالي.

ـ في الليالي؟ في الليالي ما تزال تطلق النار في برلين. اما كان ابنك داخلا في «الشبيبة الهتلرية»؟

ـ كان داخلا أيها الهر الحاكم العسكري، الا أنه طفل سليم العقل.

فهز أوغريوموف كتفيه:

وجاء فريق من النساء اللاجئات. كن قد غادرن برلين وقت المعارك. وقد عدن الآن. ولكن البيت منهدم. فما العمل؟

ـ ازحمن الجيران ذوي البيوت السليمة.

ـ واذا كانوا لا يسمحون بالدخول؟

ـ كيف؟ أبناء بلد واحد؟ ينبغي أن يغيث الناس بعضهم بعضا في المحنة!

وبعث أوغريوموف برقيب مع النساء.

وفي بعض الاحيان كان تعبير وجه الجندي الروسي الصارم يسهم تماما في ايقاظ المشاعر النبيلة، حتى اذا هو لم ينطق أثناء ذلك بكلمة. فكان الاسكان يجرى بسرعة. وكان الناس الذين يجدون ملجأ لهم يشكرون «الهر الحاكم العسكري».

... وبخطوات متئدة، اجتاز عتبة الغرفة رجل شائب، عليه قلنسوة أكاديمية، فقدم نفسه بوصفه استاذا للرياضيات. فسأله اوغريوموف عمّ يريد؟

فقال البروفسور:

ـ الرياضيات لا حزب لها. وبودي أن أبدأ بتدريس الطلبة.

فسأله أوغريوموف:

ـ الرياضيات لا حزب لها، ولكن أعضاء الحزب النازي نسفوا بالديناميت قسما من الجامعة على شارع أنتر دين ليندن، فهل أنت على علم بذلك؟

ـ كلا. ولكني أريد أن تسجل كنيتي: زورغي. اني مستعد للعمل.

فقال أوغريوموف:

ـ حسنا! سأنقل هذا الى موظفي الدكتور فيرنير، محافظ برلين العام.

وما كاد البروفسور ينصرف حتى وقف لدى طاولة المقدم زوجان شابان. هو تشيكي وهي ألمانية. وقد تعارفا منذ وقت غير بعيد، حين أطلق سراح الشاب من المعتقل. وهو الآن يريد أن يأخذ زوجته الى براغ. ولكن الحدود كانت قد أغلقت. فلا بد من جوازات. ان ثمة صعوبات شكلية.

ـ ساستفسر. ـ قال أوغريوموف، ورفع سماعة الهاتف.

ثمة آخران في وضع مماثل، الا أن الرجل ألماني والمرأة بلغارية. وهما يريدان أن يتكللا فوراً. ولكن الخطيبة لا بد لها من تبديل جنسيتها، وما هذا بالامر البسيط. والآمال كلها معلقة على «الهر الحاكم العسكري».

وابتسم أوغريوموف. فما هو بخوري، ولا هو يمارس وظيفة مدير دائرة الأحوال المدنية. على انه قد ظل وقتا طويلا لا يستطيع أن يشرح لجليسيه بشكل مفهوم ما هي دائرة الاحوال المدنية هذه. وأخيرا سألهما: «أأنتما متحابان؟»، ونظر الى الشابين بعينين منهكتين، متورمتين من سهر الليالي.

ـ اوه، طبعا!

ـ انتما شابان.

ـ اوه، نعم ايها الهر الحاكم العسكري!

ونهض اوغريوموف، وراح يتمشى في الغرفة، محنيا جذعه قليلا الى أمام والى وراء، محركا خصره المتعب بعد ساعات كثيرة من الجلوس وراء الطاولة. ثم قال:

ـ أهنئكما. أحبا أحدكما الآخر حبا شديدا. وأما ما تبقى: جواز السفر، والجنسية، والشكليات، فهل تراها تؤلف عوائق في طريق الحب الناشئ في الايام الاولى من السلام؟ مع الزمن ستتم تسوية كل شيء.

وارتسمت ابتسامة على وجهي الشابين، ومضيا القهقرى نحو الباب دون أن يديرا ظهريهما، ودون أن ينقطعا عن الشكر.

ومن جديد جاء زائرون: ممثلون راغبون بمباشرة العمل، وبأقصى ما يمكن من السرعة، ومعلمون يستفسرون عما اذا كانت المدارس ستفتح قريبا، ومتقاعدون يراجعون بصدد بطاقات التموين، وأصحاب مخازن، وبينهم من لا بد له من الذهاب الى المناطق المحتلة من قبل الحلفاء لجلب البضائع.

ـ سنفكر بالامر ـ قال لهم أوغريوموف، وسجل في دفتر ملاحظاته: ينبغي الاستفسار عما اذا لم يكن ثمة بين التجار مجرمو حرب يحاولون ببساطة الفرار الى ألمانيا الغربية.

عشرات القضايا كل يوم، وعشرات المراجعين! فما كان يمكن، طبعا، لنائب الحاكم العسكري للشؤون السياسية، أن يتبين على الفور الوجه السياسي لكل من كان يجتاز عتبة غرفة استقباله. ولكن كان أكثر معرفة بهم أولئك الذين ظلوا سالمين في السجون والمعتقلات من الالمان المعادين للفاشستية، والعمال، والشيوعيين الالمان.

ومن هؤلاء، ومنذ الايام الاولى، تألفت نواة العاملين النشطاء لدى الحاكم العسكري.

وقد شكا أوغريوموف مما في العمل في منطقة ميتي من مصاعب خاصة. فسألته:

ـ ولماذا؟

ـ يا لها من منطقة! انها المركز الجغرافي لبرلين! ـ قال أغريوموف بصوت لم يكن يخلو من رنة اعتزاز ـ انها منطقة الدوائر الحكومية المركزية السابقة. ومنذا الذي كان يعيش هنا؟ رؤساء العصابة النازية، كبار الموظفين، وهم لم يهربوا جميعا الى الغرب. وهنا دار الاوبرا، والجامعة، وبالتالي رجال الفن، والعلماء. ولا بد من تربية المثقفين الذين كانوا لوقت قريب يعملون في خدمة هتلر. واخيرا ـ اضاف أوغريوموف ـ ما من منطقة في برلين قصفت من الجو كل هذا الوقت وبكل تلك الشدة من طيرا ننا وطيران الحلفاء. وحين أسير في منطقتي يخيل الي أن زلزالا هائلا ظل يعصف هنا شهورا، منحدرا الى هذا الجانب حينا، والى ذلك الجانب حينا آخر، مكتسحا في طريقه كل شيء!

... لو أن أحداً قال لى سابقاً أني سالتقي في مقر الحاكمية العسكرية لمركز برلين، في أيار (مايو) من عام ١٩٤٥، رجلا كنت أعيش معه قبل الحرب في دار واحدة في شارع تشيستي برودي في موسكو، في مدخل واحد، وفي شقة مجاورة، لكنت على الارجح اعتبرت هذا الاحتمال من فصيلة تلك المصادفات التي تزخر بها الافلام السينمائية القليلة الحظ من الاقناع.

ولكن اللقاءات العجيبة التي يقال عنها: «كما في السينما تماما»، يتفق أن تحدث في الحياة أيضاً.

فقد جئت الى مقر الحاكمية العسكرية في المنطقة، وكان أول من رأيته ألكسندر ليونتييفيتش أوغريوموف، الذي كنت أعرفه قبل الحرب أستاذاً للمادية الدياليكتيكية.

كان رجلاً هادئاً، وفي نظرى فاتراً بعض الشيء، ذا وجه مدوّر ممتلئ. ملامح لطيفة نديّة تحمل المرء على افتراض وجود طباع في مثل هذا اللطف والندى.

ما كنت أتصور جاري في بزة ضابط. فقد كان يبدو لى رجلاً مدنياً الى مدى عميق.

ولكن، كما قال احد أصدقائي: «الضباط العاملون نراهم غالباً في الاستعراضات، أما حين تجيء الحرب فيزحف في الخنادق الخراطون، والصيادلة، والحجارون والاساتذة».

ذهب أوغريوموف الى الجبهة في أولى أيام الحرب، وكان يخدم في القطعات ضابطاً في القسم السياسي وهو الآن ينظم الحياة الجديدة في الاحياء المتاخمة من الريخستاغ ودار المستشارية، تيرغارتن، وأنتردين ليندن... على كل حال، لقد بدا لى هذا خارقاً للعادة!

وماذا يفعل الناس في مثل هذا التلاقي؟ يظلان، بالطبع، قرابة دقيقة، ينظر أحدهما الى الآخر، غير مصدق عينيه، ثم يتصافحان، وبالطبع يروحان يتذكران في الحال حياة ما قبل الحرب، تماماً كما تذكرنا نحن بولفار تشيستوبرودني، ومرآة البحيرة المتطاولة الخضراء، كأنما هي نائمة بين طريقين صاخبتين.

وتذكرنا المقاهي الصيفية الصغيرة الخفيفة الخضراء، والدروب الصغيرة الصفراء، الملأى بالاطفال، والمقاعد في ممرات الحدائق التي يختلي عليها العشاق، وكل ما كان عزيزاً علينا، وما كان يشيع الدفء في القلب ويبدو في الوقت نفسه بعيداً الى ما لا حد له.

قليلاً ما كنت ألقى في الجبهة ذوي لسان زرب أو مهذارين حتى بين الصحفيين. فقد خبت الكلمات في الحرب. وبالاصح،

ماكانت الكلمات المألوفة في الحياة العادية تستوعب تلك المشاعر القوية التي كان يزخر بها القلب.

كان الكثير من المشاعر يكمن وراء الكمات، كما يقول النقاد الآن. فقد كان يمكن لرجلين لم ير أحدهما الآخر منذ خمس سنوات وهما في انفعال عميق باللقاء في برلين، أن يكتفيا في البداية بثلاث دقائق من الحوار المؤلف بصورة رئيسية من أسئلة قصيرة عاطفية النبرة.

ـ أنت هنا؟ باية صورة؟ ـ سأل أوغريوموف.

فحكيت الحكاية.

ـ آه، هكذا! حسن جدا!

ـ وأنت الحاكم العسكري في ميتي؟ رائع!

ـ مجرد نائب في القسم السياسي. كيف الماما؟

ـ طبيبة في مستشفى. وأملك؟

ـ في موسكو. اسمع، يا شيخ! اسكن معي. هنا طريف جدا. ستراقب. كل شيء فريد في بابه.

ـ معك حق. سأبقى ليوم أو يومين ولكن قل كيف أنت في هذه الوظيفة؟ مع أنك، بالطبع، فيلسوف، واختصاصي في المادية الدياليكتيكية. يمكن القول ان عملك بالذات هو اعادة تنظيم الحياة ديالكتيكياً.

ـ هكذا بالضبط. يا له من خليط هنا. كل شيء انقلب رأساً على عقب! ولكننا سنتدبر الامر. تعال معي ـ قال أوغريوموف.

واخذني الى شقته التي كان قليلاً ما يجيء اليها حتى ليلاً. وألقيت جرابي قرب أريكة انيقة، ومجموعة من الكومودينات، والتواليتات والخزائن.

كانت الغرفة أشبه بمتحف أثاث مختلف الطراز. ولا بد أنهم قد جاؤوا بها الى هنا، الى أحد البيوت السليمة القليلة لمجرد المحافظة عليها. كان نصف الجدار مشغولاً بالكتب. وهي وحدها التي جمعها أوغريوموف في برلين، وكان يتصفحها في لحظات الفراغ النادرة.

وبعد قليل نزلنا من جديد الى مبنى الحاكمية العسكرية. وذهبت مع أوغريوموف الى حي كانت تجري فيه اعادة بناء البيوت، ثم الى ورش ميكانيكية، فالى مطبعة، فالى مستشفى، ومن هناك الى المخازن التي كان يجري فيها توزيع المواد الغذائية، ابتداء من الخامس عشر من أيار (مايو) على أساس حصص تموينية جديدة.

ان مدينة برلين ذات الملايين الثلاثة من السكان، قد تنفست الصعداء حين علمت ورأت بام عينها أن القيادة السوفييتية تقوم بكل ما في وسعها من أجل أن لا ينتشر الجوع في المدينة المهدمة، ولا تنشأ الاوبئة، وأعمال السلب والنهب، والاخلال بالنظام، ومن أجل أن يشعر البرلينيون على الفور بكل الخيرات المنعشة، خيرات السلام والحرية.

وقبيل المساء، دعاني أوغريوموف لحضور افتتاح مسرح المتنوعات الغنائي، الاول في منطقة ميتي، وفي برلين كلها.

وقد ذهبنا الى هناك على سيارة «دودج» مكشوفة ذات اربعة مقاعد: أوغريوموف، وأنا، واثنان من حملة البنادق الاوتوماتيكية، جيء بهما تحسباً للطوارئ. وكان أوغريوموف يقول لي، وهو يتطلع الى الجانبين، الى البيوت المتهدمة، الى الجدران وقد انفغرت فيها الحفر، الى كل مشهد الخراب هذا، الذي ينقبض له القلب:

ـ انك تتصور الآن ماذا يعني بالنسبة للسكان مسرح المتنوعات الاول، وأن يكن صغيرا. ماذا يعني واقع افتتاحه بالذات، هنا بالضبط، في مركز برلين؟

ذلك ان الناس كانوا يعيشون هنا في السنة الاخيرة عيشة انسان الكهوف البدائي، واغلين في أعماق الاقبية، والملاجئ المبنية بالباطون. في كل ليلة تقريباً، وفي الاسابيع الاخيرة، خلال النهار، غارات جوية! لا ماء لا نور، ومجارير المياه معطلة. وفوق ذلك، لا لحم، ولاخبز! وفي الليل فقط، كانوا يخرجون زاحفين من الاقبية لتنشق الهواء الطلق.

وفي الثالث من شباط (فبراير) اشتغلت هنا على الخصوص «القلاع الطائرة». فكانت الارض تهتز في حلقة تبلغ بضعة كيلومترات. كانت قاذفات القنابل تحرث المنطقة كلها حرثاً. وكان الاهلون يجلسون في الاقبية، اتقاءً للقنابل. ولكنهم كانوا يحلمون أيضاً باتقاء رجال الحرس الهتلر ي الخاص الذين كانوا يجوبون في كل مكان بحثاً عن امدادات لقطعات التعبئة العامة ولحفر الخنادق.

ومن هم هؤلاء الناس؟ ـ سأل أوغريوموف كأنما هو يتحدث مع نفسه. ـ أنهم جميعاً من الواقعين تحت تهويل الدعاية النازية الزا عمة بأن السكان بأجمعهم تقريباً ينتظرهم عقاب رهيب. هكذا كان يكذب الهتلريون... وفجأة، تفضل فأنظر ما حدث! افتتح مسرح المتنوعات، والناس لم يساقوا الى سيبيريا، بل يدعون بعضهم للجلوس حول الموائد، وشرب البيرة، والتسلي...

كان أوغريوموف متحمسا في حديثه، وكنت أفهمه: فهو في الوا قع معتز بعمله.

ـ هذا، يا صديقي العزيز، أمر ينبغي أن يشعر به المرء، ان يشعر به هنا بالذات، في قلب برلين !

توقفت سيارتنا قرب الرصيف. كانت السماء صافية الاديم، والنهار شامساً حاراً. فقد كنا في أواسط أيار (مايو)! كان الاسفلت يشع في ضوء الشمس، حتى أن الخرائب ما كانت تبدو في نورها على كثير من القتامة. كان مبنى مسرح المتنوعات قائماً داخل فناء. وهو مبنى بيضوي شبيه بمبنى السيرك. وقد كانت الدار سليمة. فما احتاج صاحبها الا للبحث عن طاولات صغيرة وكراس. وكان قد سرقها الشطار من الجيران في الحي.

استقبلنا رب الدار على الباب. اماكنيته فلم أسأل عنها. ولكني اتذكر جيداً قامته المديدة المتثنية بمرونة. فقد كان يسير أمام «الهر الحاكم العسكري» الا أن وجهه كان طول الوقت ملتفتاً اليه. وكانت تعابير وجهه المتزلفة مندمجة على نحو غريب الى حد ما بما في عينيه من اعتزاز. وهل الامر بسيط؟ لقد افتتح أول مسرح للمتنوعات بعد الحرب في برلين.

لم ألحظ وجود نوافذ في الصالة الدائرية التي كانت جدرانها البيضوية ممتدة في انحنائها حتى خشبة المسرح. وفي العتمة الخفيفة (كانت الكهرباء ضعيفة النور) كان يروح ويجيء بين الموائد مستخدمون يرتدون ملابس قاتمة. كانوا يجيئون بأقداح بيرة ضخمة من الزجاج الاخضر، على نحو احتفالي، كأنها مصابيح يمكن أن تنار بها تلك القاعة انارة أكثر سطوعاً.

وكان البرلينيون جالسين برزانة حول موائد من المرمر المعتم اللون، ذات قوائم معدنية.

كانت الصالة باردة بعض الشيء، لا سيما بعد حرارة الشارع، وكانت تعبق رائحة البيرة، والارض المغسولة حديثاً، ورائحة حلوة من الخبز الساخن التي أمرت الحاكمية العسكرية بجلبه الى هنا في يوم افتتاح مسرح المتنوعات.

وقد بدا لي أن الصالة تتوفر فيها أسباب الراحة. والراحة، بصورة عامة، مفهوم نسبي. فلا بد هنا من التذكير بان من كان يجتاز عتبة مسرح المتنوعات كان ما يزال يرى أمامه مشهد المدينة المتهدمة.

وكانوا قد ابقوا للحاكم العسكري مائدة ملاصقة لخشبة المسرح. وصعد عريف الحفلة الى المسرح، فكان أول ما فعله الانحناء لاوغريوموف.

ـ أتسمحون، أيها الهر الحاكم العسكري، ببدء البرنامج؟

ـ ليس هذا بحاجة الى سماح مني. فوجه خطابك، من فضلك، الى الجمهور.

ـ سمعاً وطاعة ـ قال عريف الحفلة، ومع ذلك فقد انحنى لجهتنا مرة أخرى ثم ألقى خطبة مقتضبة قال فيها أن مسرح المتنوعات يفتتح باذن من الحاكمية العسكرية، وفي وسع سكان المنطقة أن يرتاحوا فيه في الامسيات ويتسلوا. وسيؤخذ بالحسبان في وضع البرامج أن لا يكون فيها ما يذكر بالنازيين. وستكون جميع اجزاء البرنامج خالية من الايديولوجية الهتلرية.

واشار عريف الحفلة الى أن هذا اليوم تاريخي من نوعه، وكان يجدر على سبيل الذكرى لهذا الحادث أن تلصق لوحة على

باب مسرح المتنوعات يكتب عليها «أول ما افتتح في برلين بعد الحرب». الا أن مثل هذا الاعلان لا يمكن الا أن يبعث على الغيرة.

فصفق الحضور جميعاً. كانوا يتطلعون الى المسرح ويتجرعون البيرة، قارعين الاقداح بهدوء على الموائد المرمرية. وفي بعض الاحيان كان الهمس الخافت في القاعة ينفجر أصواتاً حادة منتشرة رنانة. ولكن همس التحذير كان يدوّي، فيعود الهدوء من جديد.

وجاء المستخدم بالبيرة الى مائدتنا. وكانت تبدو طازجة وشهية.

وقال أوغريوموف أن مصنع البيرة قد بدأ العمل، وكذلك ورشة كومبينة اللحم. ومن هنا كانت النقانق في صحننا الى جانب الخبز المقلي المملح.

وبدأ البرنامج: في البداية ألعاب بهلوانية، ثم عزف منفرد على القيثارة، فرقص ايقاعي، فغناء. وقد غنت حسناء ترتدي فستانا أبيض أغاني شعبية.

فصفق لها الحاضرون جميعاً واستعادوها مراراً. ما كان يبدو لي أنها تجيد الغناء. الا ان ملابسها كانت تنطوي على شيء ما من الربيع وبهجة العيد والمرح. وقد أدركت أن الفنانة، مجرد بظهورها على المسرح، كانت تذكر البرلينيين بالماضي الطيب البعيد، حين لم تكن تسقط القنابل هنا في قلب برلين، ولا تلعلع طلقات الرصاص، بل كانت تعرض فنهن على المسارح حسناوات أنيقات الملابس.

ثم كان مشهد تضمن صفيراً فنياً، فتهريجاً، فرقصاً ايقاعياً مزدوجاً من جديد، فعزفاً منفرداً على القيثارة.

وراح البرنامج يتكرر مع أقداح البيرة الجديدة. وكان جلياً أن عريف الحفلة لم تكن لديه وفرة من المشاهد الخالية من الايديولوجية الهتلرية» .

كنت أتلفت، فأرى على الموائد من الوراء ومن الجانبين وجوها باسمة قد صبغتها البيرة بالحمرة.

وكان عريف الحفلة يرمق اوغريوموف متسائلاً اترى كل شيء على مايرام؟ فيعبر هذا بعينيه عن الاستحسان.

وفجأة، لعلعت في الشارع طلقات نارية. فهب الجميع واقفين في خوف. وانشق الباب، وظهر رأس جندينا حامل البندقية الاوتوماتيكية واضطرب عريف الحفلة على المسرح. وتوقف الكونسرتو على الفور.

ـ بهدوء! ـ قال أوغريوموف اذ ذاك، وسحب مسدسه، وانطلق الى المخرج...

وبعد دقيقة اتضح كل شيء... لقد كان حملة البنادق الاوتوماتيكية يطاردون أحد رجال الحرس الهتلري الخاص مع رجال الشرطة الشعبية الالمانية التي كانت قد تشكلت منذ فترة وجيزة. وقد بدا لهم أن المجرم قد توارى في مبنى مسرح المتنوعات.

وما كان هذا الحادث الصغير غير تذكرة للجميع بالمكان والزمان الذي تجري فيه الحفلة، وبأن مسرح المتنوعات موجود في قلب المدينة حيث لم يمض غير أسبوع على توقيع على استسلام ألمانيا الفاشستية.

وشيئاً فشيئاً هدأ روع الالمان، وجلس الجميع من جديد الى موائدهم. وجاء المستخدمون بأقداح جديدة من البيرة. ويبدو أن

مغنية الاغاني الشعبية قد خرجت على المسرح للمرة الثالثة، فانحنت للضباط الروس أول الامر، ثم للجمهور... واستمرت الحفلة.

وفي صباح اليوم التالي بعثت الى موسكو بنبأ موجز عما جرى في منطقة ميتي. وهنا تجدر الاشارة مرة أخرى الى أن ذلك كان في تلك الايام التي لم تكن برلين قد قسمت الى قطاعات، وكانت كلها داخلة في ميدان رقابة الادارة العسكرية السوفييتية. وما كان في المدينة بعد جندي واحد من جنود الحلفاء. وقد ظهروا في برلين مع المراسلين الاجانب بعد شهر تقريباً .

وفي قارات العالم الخمس ما كان الناس يعرفون عما يجري في برلين الا من الجرائد الروسية، وعن طريق الاذاعة.

ويبدو لي أن هذا الوضع الاستثنائي كان يتوافق ودلالته الرمزية على أن القوات السوفييتية هي وحدها التي خاضت غمار القتال في برلين.

الا كيف تبدل نطاق الانباء وطابعها ومدلولها في طرفة عين! منطقة ميتي ـ قلب برلين! منذ وقت جد قريب، على ما قد يبدو، كان القراء في العالم أجمع يبحثون في الرسائل عن تفاصيل المعارك الدامية للاستيلاء على الريخستاغ ودار المستشارية، وأما الآن فالحديث لهم يدور حول افتتاح المخازن، والحمامات، والمدارس، والمستشفيات وعن أمزجة البرلينيين، وعن آمالهم، وأحلامهم.

وأي حادث هو، بالنسبة لمدينة ضخمة، افتتاح مسرح صغير للمتنوعات؟ شيء تافه؟ طبعاً. ولكن ليس بالنسبة لبرلين تلك الايام!

كان فريقنا يعيش اذ ذاك في كارولينينغوف، وهي ضاحية

ذات مناظر طبيعية رائعة، على مقربة من بحيرة. وكانت توجد هناك فيلات لاناس أوفر ثراء مما في أولنغورست.

وكان صاحب بيتنا ميولر، وهو رجل في حدود الخمسين من العمر، قد الم برأسه الصلع، واصابه العرج منذ الحرب العالمية الاولى، يتاجر بالصابون في برلين الى أن هدمت القنابل مخازنه ومستودعه. وفي الشهر الاول بعد نهاية الحرب كان ميولر يتربص، ويتأمل، ويجلس في بيته، ويعمل في حديقته وحاكورته، ويبدو مستغرقاً في تسوية العشب الاخضر، وحفر أحواض الخضروات وسقاية الازهر.

انه رجل لطيف، خدوم، ثرثار. ولكنه، برغم رغبته في أن يروق لنا، ما كان يبعث لدى أحد التطلع الى حديث صريح، لمجرد أنه كان يبدو لنا غريبا. والآلام التي كان يعانيها التاجر الذي حل به الخراب، والذي كان يصب اللعنات على هتلر عبثاً، بعد فوات الأوان، ما كانت لتمس القلب، ولو لأنه كان من الصعب على المرء أن يحدد المقياس الصحيح لصدق السيد ميولر.

وقد كنا نرى أن قد تبقّى له فيلا وافرة الغنى وقطعة من الارض، فكان في وضع يفضل وضع الكثيرين من أهالي برلين، ولعل هذا ما كان يعطي صوته تلك النبرة من الزهو حين كان يتحادث مع جيرانه القادمين اليه.

وكثيراً ما كان في أحاديثه معنا يؤكد أنه اشتراكي المعتقد، الامر الذي كان على الموضة في تلك الايام، وبصورة رئيسية، ما كان يصمد للتحقيق الفوري، وهو، في اعتقادي، ما كان يبني عليه ميولر أيضاً حساباته.

وبكلمة، ما كان يوحي للنفس بالشعور العدائي الحاد، ولا الاستلطاف أيضاً. فقد كان وجه ميولر السياسي يبدو لنا اذ ذاك غير قابل للتحديد اطلاقاً. ولكنه حين طلب مني الاذن بالاستماع الى راديو موسكو، ما كان في وسعي، طبعاً، أن أرفض له هذا الطلب.

كان ذلك في اليوم التالي بعد مغادرتي بيت أوغريوموف. صعد ميولر الى غرفتي في الساعة الثانية عشرة نهاراً، وكنا نستمع في اذاعة «الانباء الاخيرة» من موسكو الى نبأ عن عمل حاكميتنا العسكرية في منطقة ميتي، وفي نهايته بضع كلمات عن افتتاح مسرح المتنوعات الاول.

ــ اوغو، زير غوت* ! ــ قال ميولر بارتياح. فقد كان يفهم الروسية ويتكلم بها قليلاً.

ــ هاك، أنظر، لقد باتت موسكو تذيع عن الحياة الثقافية في برلين. انها، في الحق، بداية متواضعة ولكنها عزيزة لانها البداية! ــ قلت له.

ــ أجل! ــ قال ميولر موافقاً. ثم أضاف: ــ اذا كان الالماني يشرب البيرة فذلك يعني أنه على مزاج حسن.

وكان من عادتنا، أنا وسباسكي، التقاط اذاعة لندن في الساعة الرابعة بعد الظهر. وقد اذاعت اليوم في انبائها حديثي عن منطقة ميتي.

وفي المساء جاءنا هذا النبأ من وراء المحيط حين التقطنا محطة اذاعة نيويورك. فللمرة الثالثة، وبناء على أنباء محطتي موسكو ولندن، اذاع المذيع الاميركي تفاصيل موجزة عن افتتاح مسرح المتنوعات في برلين.

* تعبير ألماني يعني: اوه، حسن جداً! ــ المعرب.

وهكذا فان النبأ الذي كنت اتلوه على الهاتف «ف. تش.» من برلين، عند الفجر، بصوت متعب ناعس، كان يجوب العالم كله على اجنحة الاثير قبيل المساء.

كان يمكن للمرء أن يضع نقطة هنا، منهياً الحديث عن يوم من أيام عمل الحاكمية العسكرية السوفييتية في منطقة ميتي.

ولكني لا أكون قد قلت كل شيء اذا أنا لزمت الصمت عن واقع أني كنت في ذلك اليوم أستمع الى موسكو، ولندن، ونيويورك بشعور من الاعتزاز المهني العالي لصحفي اذاعي، كنت أستمع بفرح كان يمتليء به القلب، كنت أستمع وأفكر بأننا، نحن أهل الادب في برلين، قد شاء لنا القدر الآن أن نظهر على قمة التاريخ ولذلك فقط كانت كل كلمة من كلماتنا تطير بمثل هذه السرعة على جناح الاثير.

وقد كان في هذا، بالطبع، الفضل القليل القليل لنا شخصياً، والفضل الكبير الكبير للشعب الذي تلقى بصدره اعصار الفاشستية الاسود، والفضل الكبير الكبير للجيش الذي حمل الى برلين رايات النصر والسلام والدمقراطية.

للتاريخ

كنا مسافرين من تسيربست. وما كانت هذه البلدة الصغيرة، المحاطة بالحدائق العامة والغابات، تسترعي اهتمامنا الا بكون هذه العاصمة السابقة لامارة أنهالت — تسيربست السابقة تحتوي على قصر يتصل باسم الامبراطورة الروسية كاترين الثانية، من القرن الثامن عشر.

ومع أننا قد قرأنا على جدار القصر لوحة تذكارية تفيد بأن هذا المبنى قد ولدت فيه «كاترين دي غروسي»، ومع ان هذا مكتوب عنه في الدلائل الالمانية، فان أهالي تسيربست قد رأوا من الضروري، لامر ما، بعد الاستسلام، أن يزينوا واجهات مخازن المدينة بصور كاترين، فهم في الواقع ضحوا بالدقة التاريخية حباً بالاعلان الصارخ. وكان هذا يجلب السواح الى البلدة الصغيرة.

والواقع أن ابنة كريستيان أوغوست أمير انهالت ــ تسيربست صوفيا أوغوستا لم تلد في تسيربست بل في شتيتن، حيث كان أبوها في عام ١٧٢٩ محافظ المدينة.

صحيح أن كاترين، كما أصبح اسمها فيما بعد، قد عاشت فيما بعد في قصر تسيربست، ومن هناك ذهبت الى روسيا وهي فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، وهي بصحبة أمها، الى بلاط اليزابيت.

ومنذ ذلك الحين والى سنوات عديدة، أصبح قصر تسيربست الطرفة الرئيسية في المدينة.

ولكن الطيارين الاميركيين، المرابطين في مطار قريب، لم يكترثوا بهذا الاثر التاريخي للمدينة، فدمروه بالقنابل مع الحديقة دون أن تكون لذلك أية ضرورة عسكرية، اذ لم تحدث في منطقة المدينة ولو معارك تافهة.

تجولنا قرابة نصف ساعة حول اطلال القصر. وقد كانت تبدو هنا، في قلب المدينة، غريبة بعض الشيء، كأنها الديكور على المسرح يصور منظر الخراب. فقد كانت تمتد حولها أحياء لم تعان البتة من قصف القنابل الدقيق.

ولأعترف بأني لم أحتفظ في ذاكرتي بصورة تلك الاطلال.

فقليلاً ما كان في هذا ما يبعث الاعجاب في نفوسنا! الا أني أتذكر جيداً الاوتوستراد، ذلك النهر العريض الهادئ الاملس من الاسفلت، الذي كان يجري من برلين الى الغرب ماراً بمدن شبيهة بتسيربست لم تصبها الحرب باذى.

وقد بقي في ذاكرتي من تسيربست الاحساس بالنظافة والراحة، وانها لنظافة فائقة الحد، حين تشع الجادات في ضوء الشمس كأنها بلاط الغرف الخشبي لدى ربة بيت نشيطة.

الشوارع هنا اشبه بمماشي حديقة تمتد على طولها صفوف من أشجار الحور والبتولا والزيزفون، تلقي اغصانها المتشابكة ظلالاً متماسكة على أسفلت الارصفة.

وجلي أن هذه النظافة، في الايام الاولى بعد الحرب، كانت الطرفة الثانية لبلدة تسيربست، فاننا لم نكتشف سواهما عندما تجولنا في المدينة بسيارتنا وبعد ذلك استلقينا قليلا على العشب الاخضر في حديقة صغيرة قرب بيت ما مبني بكتل من الغرانيت والاحجار الضخمة، على الطراز الغوطي العديم الذوق.

لم أقم في تسيربست بأية تسجيلات على جهازنا. وكنا قد اعددنا في ذلك اليوم للارسال الى موسكو كمية كبيرة من الاسطوانات التي كان يمكن أن تذاع على الاثير من جديد أو ترسل للحفظ في الارشيف الصوتي لسنوات عديدة.

فما كان عامل التسجيل براغب، بالطبع، في أن يفتح الصندوق الذي كانت موضوعة فيه اسطوانات ملفوفة بالقطن بحرص وعناية، تفصل بينها نشارة الخشب الناعمة، وهذه الاسطوانات تحفظ في خطوطها أصوات معارك برلين.

يضاف الى ذلك أن تسيربست النظيفة، مع قصر كاترين هذا، مع السكون والازدهار الظاهري، قد بعثت في نفوسنا على نحو مفاجئ تماماً حنينا شديداً الى الوطن جعلنا نتوق لمبارحة المدينة على الفور لنسير في الدرب أينما كان، ولو الى الغابة.

وفيما بعد، اذ كنت اتذكر هذا الشعور الذي كاد أن يكون موجعاً جسدياً، وجدت له تفسيراً في الحالة النفسية التي كنا عليها في ذلك الحين.

كان على وشك الانتهاء الشهر الرابع من اقامتنا في ألمانيا، وهي مدة كنا قد عانينا خلالها الحرب على الاودر، وشبرى، والب، ورأينا سقوط برلين، وبدا لنا، وهذا أمر طبيعي، أن ما هو أشد سطوعاً، وأكثر اصالة تاريخية، وأعظم اثارة للنفوس قد بات طي الماضي.

وشعر المرء بالاعياء. وبات الآن كل يوم يبعدنا عن الاستسلام يشدد الحنين الى موسكو، الى البيت، الى الوطن. كنا نذهب باسطواناتنا الى الطائرة التابعة لادارة تحريرنا، ورحت أنظر بعين الحسد الى الميكانيكي الطيار بافل ايغوروف الذي سيتاح له بعد اربع وعشرين ساعة أن يحط قدميه على أرض المطار القائم في ضاحية موسكو.

في الطريق الى المطار الصغير، القائم في ضاحية برلين، مررنا بكارولينينغوف. وكان قد مضى علينا وقت بعيد لم نسمع فيه أصوات اطلاق النار لا في برلين، ولا في ضواحيها. ففي كل مكان كان يسود الهدوء والسكون، وان تكن فلول القطعات الهتلرية، والجماعات المسلحة من رجال الحرس الهتلري الخاص، التي كانت تخترق الب متسللة الى الغرب، ما تزال، على ما يسمع، ترود هنا وهناك.

وهل ترى كان في وسعنا الافتراض بأن كوربوسنوف وايغوروف، اللذين ذهبا بدوني الى المطار، سيلتقيان في ذلك اليوم باحدى هذه العصابات؟

ذهب كوربوسنوف من كارولينينغوف حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر. وفي الساعة السادسة جاء هاتف من المطار يقول ان السيارة حاملة الاسطوانات لم تصل بعد.

وأراد قائد طائرتنا الذهاب للتفتيش بنفسه، الا أنه تلقى أمراً بالبقاء في مكانه وبدافع من القلق على مصير «دبابتنا الراديو»، وأكثر من ذلك على صيانة التسجيلات التي لا يوجد منها غير نسخة واحدة، انطلقنا نحن أنفسنا على سيارة صغيرة في طريق المطار.

وكانت الغابة في الطريق شبيهة بغابة شتراوسبرغ من حيث ضخامتها وكثافتها لا تشقها غير بضعة دروب عميقة. وحل الغسق. فرحنا نسير في بطء، ملقين بأبصارنا في العتمة الكثيفة بين الاشجار. والتقى بنا فريق من الجنود، فابلغونا أنهم سمعوا في الغابة تبادل اطلاق رصاص، ولكنهم لم يكترثوا لذلك. فثمة كثيرون يمكن أن يطلقوا الرصاص! وهم ذاهبون على عجل في مهمتهم.

وكنا قد قطعنا بضعة كيلومترات حين لمحنا في منحاة عن الدرب شبحاً فاحماً جسيماً. وكانت هذه سيارتنا. وكانت طلقات الرصاص قد اخترقت اطارات «الدبابة الراديو» وأصابت الرادياتور. وكان واضحاً أن كوربوسنوف قد حاول الفرار من الالمان بالسيارة عبر الغابة مباشرة، الا أن «الدودج» انحشرت بين شجرتي صنوبر وعلقت بهما أطراف صندوقها.

وكان كوربوسنوف على مقعده في السيارة، وقد أصابته

رصاصتان في ساقه، يئن أنيناً خافتاً. ووجدنا ايغوروف مستلقياً تحت صندوق «الدودج» ــ ممسكاً ببندقيته الاتوماتيكية. وعلى هذا فقد كان يمكن أن يعود المغيرون على السيارة.

وفي تلك اللحظة ما كان الوقت يتسع لنا قط للاستفسار عن تفاصيل المعركة. ومع أن ايغوروف كان قد ضمد رجل كوربوسنوف بضماده على جناح السرعة، فان الضماد كان قد تبلل. فما كان بمكننا الابطاء. فلا بد أن كوربوسنوف قد نزف الكثير من دمه.

حملناه بعناية، وهو ما يزال يئن انينه الخافت، ومضينا به الى السيارة الصغيرة الواقفة على الدرب. وكان علينا اذ ذاك البحث عن مستشفى ميدان قريب.

وأثناء الطريق راح الميكانيكي الطيار يروي لنا ما حدث: لقد التقيا في الغابة بجماعة من الالمان المسلحين بالبنادق الاتوماتيكية. وكان هؤلاء سائرين في الطريق، مشمرين عن سواعدهم، يتحادثون بأصوات عالية.

ولعل الالمان أنفسهم خافوا أول الامر فسارعوا للتنحي جانباً. ولكن محرك السيارة انطفأ، لسوء الحظ، وفيما كان كوربوسنوف يضغط بعصبية على مطلق المحرك، فلا يشتغل ابداً، اطلق الهتلريون النار فاصابوا اطارات الدواليب.

واذ ذاك راحوا يطوقون السيارة. وهيهات أن يكونوا في حاجة الى السيارة، انما كانوا في حاجة للمواد الغذائية، التي كان يمكن أن تكون في صندوقها المغلق. وما كان من نار البنادق الاوتوماتيكية التي كان يصوبها اليهم كوربوسنوف وايغوروف الا أن زادت الالمان اصراراً على الاستيلاء على السيارة.

وأغلب الظن أنهم كانوا يقولون في أنفسهم: ما داموا يدافعون عنها هكذا، فذلك يعني أن ثمة ما ينبغي حمايته!

وكان كوربوسنوف قد شغل المحرك أخيراً، فاندفع بالسيارة الى قلب الغابة، أملاً بأن سيكون من الممكن هناك اطلاق النار من وراء الاشجار. ولكن الالمان أيضاً تواروا وراء أشجار الصنوبر.

واستمر تبادل اطلاق النار ما بين خمس عشرة وعشرين دقيقة. لا يذكر ايغوروف بالضبط. وتراجع الاشقياء، ثم ظهروا من جديد من وراء الادغال، وقاموا بعدة هجمات. كانوا قرابة عشرة رجال مقابل اثنين. وكان يمكن، طبعاً، أن ينسحب كوربوسنوف وايغوروف الى أعماق الغابة، ولكن ماذا كان يحدث اذ ذاك للاسطوانات؟

طول الوقت كان كوربوسنوف يكرر مخاطباً ايغوروف:

– بافل، تذكر! لا ينبغي ترك الصندوق فهناك التاريخ!

وأصيب بجرح في ساقه. فزحف اذ ذاك الى تحت صندوق السيارة، ومن هناك راح يطلق النار. وصاح بايغوروف قائلا:

– لن أترك السيارة. فليقتلوني، ولكنني لن أسلم السيارة!

وقال ايغوروف انه ما كان يخشى غير أمر واحد: ما العمل حين تنتهي الذخيرة؟

ولكن الهتلريين اختفوا فجأة كما ظهروا. وأغلب الظن أنهم قد خافوا من أن يسترعي الانتباه طول مدة تبادل اطلاق النار. فقد كانت القطعات السوفييتية مرابطة قرب برلين . أو لعل ذخيرتهم قد نفدت قبل ان تنفد ذخيرة كوربوسنوف وايغوروف.

...ولقد سأل كوربوسنوف حين حملناه الى السيارة هل سلم الصندوق مع الاسطوانات؟ فطمأنته قائلاً:

ـ كل شيء على ما يرام. والصندوق سيطير الى موسكو.
فقال وهو يتنهد:
ـ يا للاوباش ، وقت السلم يطلقون النار!
ثم اضاف بصوت هادئ:
ـ ما كنت انقل قط مثل هذه الحمولة. اسطوانات!
ـ انها اصوات التاريخ. ـ قلت له.
ـ لا شك أن أولئك الحمقى الاشقياء كانوا يظنون على ما يبدو أن في الصندوق سجقات!
وابتسم كوربوسنوف بعض الشيء، بعينيه فقط.
ـ كنت طول الوقت أخاف أن لا نصمد. أماهم، أولئك الجبناء، فقد راحوا كأبناء آوى يتلفتون حولهم باستمرار. لم يعد لديهم ذلك الاندفاع. لقد ضعف الفاشست!
ورفعت اصبعي الى فمي مشيراً الى أنه لا ينبغي له الآن أن يكثر من الكلام.
ـ الا تؤلمك رجلك؟
ـ اني أحتمل ـ أجاب كوربوسنوف بهدوء.
كان يحتمل الالم برجولة، فلم تنطلق منه ولا صرخة، حين حملناه من السيارة الى بوابة المستشفى حيث كان الممرضون بانتظارنا مع النقالة.
وكان هذا هو مستشفى شتراوسبرغ نفسه الذي كنت فيه أيام معارك برلين.
ـ انها لضيعة أعرفها، وها أنا قد وقعت فيها ـ قال كوربوسنوف وهو يتطلع من فوق النقالة الى الحديقة والناس المتنزهين في المماشي

بملابس المرضى وأعرب بصوب مسموع عن أسفه من أنه لن يعود يسوق «دبابتنا الراديو» في شوارع برلين.

ـ بلى سنسلم السيارة عما قريب ـ قلت ملاحظاً بغية ادخال ولو بعض العزاء الى قلب كوربوسنوف.

فقال متنهداً بألم:

ـ أعرف، يا صديقي، أعرف! ولكنك تصدق أن بودي لو أسوق السيارة أيضاً، واتجول في برلين. وهذا ما لن يتكرر أبدا أعرف هذا بالضبط فيما يختص بي أنا.

ـ وما الذي لن يتكرر، يا ميخائيل ايفانوفيتش؟

ـ هذا بالذات . برلين لن يستولى عليها مرتين في عمر واحد.

ـ قال بصوت غير مرتفع ولكن بلهجة كان لها من المهابة وعميق الدلالة ما جعل قلبي يرتجف.

ـ هذا نعم.

كنت أسير الى جانب النقالة وأسندها مع الممرضين.

انك على حق، أيها الرفيق العزيز كوربوسنوف، يا سائقنا الطيب! مثل هذا لا يتفق أن يحدث في الحياة مرتين. فكل جيل يجتاز في الحصة المقدرة له من السنين تجارب تنيرها أسطع أنوار العصر.

واذا ما نشبت حروب أخرى على الارض فلسوف نواجهها على غير ما نحن الآن. وأما الشباب الذي لن يعود ونضج جيلنا فقد وهبا لهذا الصراع مع الفاشستية.

ورحت أفكر أيضاً بأن علينا جميعاً أن نكون في امتنان للاقدار التي شاءت ان نحظى نحن بالذات برؤية نهاية الحرب في برلين. وأية حرب!

وقلت هذا لكوربوسنوف.

ـ صحيح! هذا حظ كبير! ـ قال موافقاً. ثم تذكر الحديث الهاتفي مع زوجته، فقال: ـ هاك أنظر ما جرى. لا ينبغي للمرء ان يتنبأ في الحرب الى بعيد. لقد وعدت زوجتي بأننا سنلتقي عما قريب. وأما الآن، فاني سأعانق المخدة!

ـ ستتعافى فور أن يجري التسريح.

ـ ومع ذلك، فاستدعوا زوجتي كاتيا، وقولوا لها بالهاتف ان زوجلها ميخائيل ايفانوفيتش قد تأخر في الطريق، ولكن المسؤولية ليست عليه!

فسألته:

ـ وهل يحسن بنا ان نقلقها؟

ـ كلا، فلتعلم. ان لها في جسدها لروحا صامدة. وقد تحملت ما هو اشد من هذا. ولا شيء أسوأ من الكذب.

فوعدته بأن أتلفن غداً لموسكو. فقال:

ـ ايوه، وعلى هذا مع السلامة.

وتبادلنا القبلات الحارة. ورفع كوربوسنوف رأسه عن المخدة وراح يلوّح بيده. واغرورقت الدموع في عينيه.

...وبعد ساعة كنا في المطار، فسلمنا صندوق الاسطوانات لقائد طائرتنا «ش ـ ٢». وقليل الآن من يتذكرون وجود هذا الطراز من طائرات النقل العسكرية ذات الاجنحة العريضة، والمظهر المهيب، ولكنها في الحقيقة قليلة الطاقة، بطيئة الطيران، انها، بالاختصار، سلاحف الجو ليس الا.

فبالكاد كان المحركان الصغيران يدفعان الطائرة التي صممها شرباكوف بسرعة مئة الى مئة وعشرين كيلومترا في الساعة. وكانت الحجرة الفسيحة مخصصة لنقل المظليين. فكانوا يفتحون الباب على مصراعيه ويقفزون من الطائرة . وكان هذا الطراز سرعان ما بات عتيقاً بالنسبة للطيران العسكري، الا أنه ظل «في ملاك» أسطول الطيران المدني.

وعلى هذه الطائرة الثقيلة الحركة بالذات، الشبيهة في الجو بسمكة ضخمة طيارة، قد أقلعنا في بداية شهر شباط (فبراير) من ساحة مطار بيكوف المغطاة بالثلج في ضواحي موسكو، فوصلنا مينسك بعد أن قضينا سبع ساعات «معلقين في الجو».

وهناك استعاضت طائرتنا الزلاجات عن الدواليب. وبعد ان انتظرنا مرور عاصفة ثلجية استمرت يومين، تابعنا طريقنا. ان هذا ليبدو الآن غريباً، ولكننا من جراء رداءة الطقس وتقلبه، لبثنا في المطارات أكثر مما طرنا، وما وصلنا بولونيا الا في اليوم العاشر.

ومع ذلك فان طائرتنا كانت تؤدي خدمتها الجوية القتالية بالضبط والدقة، وقد طارت بضع مرات من موسكو الى الجبهة. وكانت أول الامر تحط في بوزنان، وبعد ذلك على المطارات الالمانية، مقتربة أكثر فأكثر من برلين، الى أن راحت، اخيرا، تتدحرج بدواليبها الصغيرة فوق المهبط الباطوني لمطار تمبلغوف، ميناء العاصمة الالمانية الجوي المشهور، القائم في قلب المدينة.

والآن تستعد طائرتنا للطيران مجدداً الى موسكو من أحد المطارات القريبة من برلين.

– كونتاكت! – صاح الميكانيكي الطيار ايغوروف بمرح،

وهو مبتهج بطيرانه المقبل الى البيت. وأدار المروحة العسيرة التحريك.

ـ حاضر كونتاكت! ـ أجاب الطيار من حجرته.

وراح المحرك يعطس، وشخر مرتين، كانما هو يتنفس بعمق، ثم أطلق بقوة دخانا أزرق، وراح يقعقع قعقعات متلاحقة وينفخ، وفجأة انطلق يزمجر زمجرة شديدة.

وجرت الطائرة على الارض جرياً غير متزن، هازّة جناحيها، متحولة نحو ساحة الاقلاع...

...ان طائرتنا العتيقة ذات الجدارة قد باتت الآن، طبعاً، في عداد الحطام، ولم يعد طرازها الا من قبيل المعروضات القديمة، وذكرانا العزيزة عنها باتت ملكاً لتاريخ الطيران، كما باتت تسجيلاتنا على الاسطوانات ملكا لتاريخ معارك برلين.

باسم السلام

جئنا الى افتتاح القسم الاول المعاد بناؤه من الميترو في برلين، عائدين من القطعة العسكرية بعد عرض عسكري غير عادي. وكان ذلك عرضا لفيلق رجال الدبابات الذين كانوا يحتفلون بالذكرى السنوية الرابعة لوجود هذا الفيلق الذي تألف في أيار (مايو) ١٩٤١، وتكلل بعد سنة بالغار في معارك ستالينغراد، واختتم دربه بعد ثلاث سنوات على أبواب برلين.

ولقد كان لدى جنود الحرس ما يتذكرون في ذلك اليوم من أيام أيار (مايو)!

هو ذا أمامنا مرج واسع من العشب اليانع الخضرة الذي تمتد تموجات سطحه الى ذرى غابة متعرجة الاعالي.وعن اليمين وعن اليسار كانت تبدو المباني الحجرية لقرية ألمانية صغيرة.

كنا واقفين قرب منصة أقيمت على عجل للجنرالات الذين يشهدون العرض. وكانت ثمة أركسترا عسكرية تعزف، ومن أمام المنصة كانت افواج الدبابات تمر الواحد اثر الآخر تخفق في مقدمتها الاعلام.

كان جنود الدبابات يسيرون بخطوات محكمة، الا أن الارض الطرية والعشب كانا يطمسان وقع الاقدام الحاد المعتاد في الاستعراضات، ولعل الاوسمة والمداليات التي كانت تزين كل صدر تقريباً في الصفوف الطويلة المتناسقة كانت اشد رنينا من وقع الاقدام.

وعلى بعد من المنصة، بحيث لا يطمس عزف الاركسترا بالآلات النحاسية صوت المعلق الاذاعي، كان يقف الموظف في اذاعة موسكو مندلسون، الذي انضم الينا بعد الاستسلام، ومن مكان الاستعراض مباشرة كان يبث على الاثير ريبورتاجاً للمستمعين الانكليز والاميركيين.

وكان كلامه الانكليزي يختلط بكلامي الروسي، وموسكو ولندن تعيدان في وقت واحد اذاعة هذا الحديث عن فيلق الدبابات الذي حمل راياته من الفولغا الى الب، وعن هؤلاء الرجال الذين كانوا في تلك اللحظة يمرون في الاستعراض على المرج المستطيل، في توتر مهيب، لابسين القمصان وخوذ رجال الدبابات.

وبعد الاستعراض بدأت حفلة موسيقية مسائية ومأدبة عشاء. وعلى الموائد الطويلة الممدودة قرب خيام بيض في ظلال الاشجار،

جلس الى جانب رجال الدبابات ضيوفهم، فنانو الفيلارمونيا، القادمون بطريق الجو من موسكو.

واني لاتذكر الانوار التي كانت تضيء تلك الساحة، والظلام الكثيف وراء الاشجار، ومن فوقنا قبة السماء الصافية المرصعة بنجوم الربيع الساطعة.

الاصوات الروسية، والاغاني الروسية، وموسيقى تشايكوفسكي ورحمانينوف، وتلك المصابيح الصغيرة المعلقة على أغصان أشجار بتولا ذات جذوع بيضاء تحسبها روسية — كل هذا كان يوحي الشعور بأن ثمة زاوية صغيرة من مخيم عسكري صيفي، تذكر تذكيراً حاداً شديداً بروسيا، وبالبيت، وبواقع أن رجالنا قد جاؤوا الى ألمانيا لاداء واجبهم في الدفاع عن السلام.

ولعله سيكون جد عسير عليّ التعبير عن الترابط بين الاحساسات التي تولدت في ذلك الوقت وبين ذلك المزاج النفسي الذي كنا فيه. ولكني حين رأيت في اليوم التالي، عند محطة ميترو جيرمانبلاتس في منطقة نويكلن، الضباط والجنود الروس، وهم يساعدون الالمان في العمل، جمعت بين هاتين الصورتين في صورة واحدة: صورة العرض الذي جرى لرجال الدبابات المظفرين في برلين، وكدح جنود الهندسة المظفرين في اعادة بناء قسم من خط الميترو في العاصمة.

لقد اتيحت لي من جديد زيارة الميترو بعد الاستسلام. في أيام المعارك، كان هذا المكان زاخرا بكتل الباطون. وكانت الجثث مطروحة. وأما الآن فأرى أمامي ساحة عريضة رمادية معتمة من الباطون على جانبيها طريقان للميترو، وسقفا واطئاً بيضوياً

نفسحة الميترو. ومع أنه كان يبدو قاتماً، فقد كان مع ذلك نظيفاً، ومرمماً، وجاهزاً لاستقبال الركاب.

وقد جاء الجنرال بيرزارين الى نيبكلن لحضور الاحتفال بتسيير القطار الاول. وبصحبة مدير الجمعية البرلينية لوسائل النقل سار متمهلاً على رصيف المحطة وتفرج على الفسحة.

وبعد ذلك توقفا قرب باب العربة المفتوح: بيرزارين والمدير، وهو رجل متين البنية يرتدي طقماً ممتازاً مائل الزرقة الى السواد، محني الرأس في تأدب ولطف.

– ايوه، ممتاز – قال له بيرزارين – لقد تحققت المبادرة. والآن ينبغي لنا ان نقوم معكم بتشغيل ميترو برلين بجميع أقسامه. فمتى سيكون ذلك؟

لم أسمع ما أجاب المدير. الا أني أبصرت على وجهه ذلك التعبير المفرط الحلاوة والمتزلف الذي كان على ما هو جلي يؤكد استعداد المدير لفعل كل المستطاع.

– أهنئكم – قال بيرزارين للمدير.

– شكراً – اجاب هذا بالروسية، وهو يرمق المصورين الصحافيين الذين كانوا يصورونه الى جانب الجنرال.

– أرجوكم الدخول الى العربة – اقترح بيرزارين.

– أنا أرجوكم ذلك – قال المدير وهو يحني قامته.

وهكذا راحا، وهما يتباريان في مجال اللطف والتأدب، يتنازلان كل منهما للآخر عن حق الاولية في تخطي عتبة العربة. وأخيراً دخل بيرزارين الاول وهو يبتسم ابتسامته الناعمة المألوفة، المعبرة عن الخلق الكريم الصلب، وجلس على الاريكة.



ملامح ايام السلم. فتاة روسية تنظم السير على مفرق الطرق في برلين.

لست أستطيع التأكيد، طبعاً ، ولكن يبدو لي أن الجنرال وضباطنا ما كان يمكن الا ان يكونوا قد تمثلوا اذ ذاك — ولو للحظة — صورة القتال في هذه المحطة: طلقات النار، والصيحات في الظلام، والمدافع التي هبطت الى النفق، والمدافع على القضبان نفسها التي تلمع الآن لمعانا معدنيا تحت اشعة بروجكتور العربة الامامية ذات المحرك.

— ايوه! اذا كنتم جميعاً مستعدين، أيها الرفاق والسادة، فلنمض الى أمام — نحو المستقبل المجيد لمدينة برلين! — قال بيرزارين مبتسما، ورفع عمرته، فمسح بالمنديل جبينه العريض وفوديه الشائبين

— حاضر! — قال المدير.

– فيرتيغ*! – صرخ مناوب محطة جرمانبلاتس من وراء نوافذ العربة، ومضى في سفرته الاولى أول قطار في اول قسم من الميترو أعاد الالمان والروس بناءه بعد مرور اثني عشر يوما على استسلام برلين.

ولعل هذا الحادث قد رسخ في ذاكرتي لأن منظر ميترو برلين ونوافذ القطار المضاءة، وهي تبتعد في أعماق النفق المعتمة، كانت تبدو لوحة عميقة الرمزية، وتستدعي في ذلك اليوم وبعد سنوات الكثير من الذكريات المؤثرة عن كل ما قدر لنا أن نرى ونعاني في أيام الاستيلاء على برلين.

ولقد كان يمكن التوقف في الحديث عند هذا لولم يتفق لنا أن نعلم فيما بعد أنه في أيام أيار (مايو) بالذات من عام ١٩٤٥، حين كان الروس بكل قلوبهم وبنزاهة عظمى يساعدون الالمان على بناء حياة جديدة، كان في ألمانيا أشخاص بدأوا منذ ذلك الحين برسم مخططات لحرب عالمية جديدة.

ففي الوقت الذي لم يكن قد تم فيه رفع الانقاض من جميع شوارع برلين وردم الحفر الناجمة عن القنابل، وضعت في مقر ما يسمى بـ«حكومة دينيتز» مذكرة مؤرخة في العشرين من أيار (مايو) الهدف منها رسم طريق جديدة للعسكرية الالمانية نحو الاستعدادات الحربية.

وقد عثرعلى هذه المذكرة فيما بعد بين وثائق «حكومة دينيتز»، وظهر ان واضعها هو هلموت شتيلريخت، لواء الحرس الهتلري الخاص سابقاً، وأحد قادة فصائل الانقضاض الفاشستية،

* فيرتيغ بالالمانية يعني: مستعد.

والموجه الاديولوجي لاتحاد «الشبيبة الهتلرية»، وأحد أفراد النخبة النازية.

يبدأ شتيلريخت بالاعتراف بأن «حرب ألمانيا على جبهتين كانت دائماً تعني انهيار الريخ»، ويقترح الآن «بناء على المشاعر الالمانية الارتباط بالغرب».

وكان يدعو الى «اعتبار الدولتين الانكلوسكسونيتين ... جرمانيتين من حيث الاساس»، وفي حدود هذه «الوحدة الجرمانية»، كان شتيلريخت يرى «امكانية لاعادة التسلح» من أجل أن تتحول مع الزمن «الى عنصر قوة من الدرجة الاولى في القارة الاوروبية!».

أفلا يبدو فظيعاً مجرد هذا الواقع، وهو أنهم في مقر أركان دينيتز، وبعد احد عشر يوما فقط من استسلام ألمانيا، كانوا يبحثون في «شروط الاستيلاء على قسم معين من التركة الروسية»! وذلك في حال ما اذا «أخذت أميركا تعتقد بأن لا مفر لها من الاصطدام الحاسم بروسيا في الصراع من اجل مصالحها العالمية، وستكون لها حتما مصلحة في قدرة ألمانيا المغلوبة لاستخدامها في صراعها ضد روسيا».

لقد انقضت عشرون عاماً على اعتقال «حكومة دينيتز»، وتقديم أعضائها الى المحاكمة كمجرمي حرب. ولكن زعماء بون الحاليين لم ينسوا نصيحة الفاشستي شتيلريخت، فهم قد اجتازوا حسب توصيته لهم «الطريق التاكتيكي» القائم على التقارب مع الغرب. وما فعلوا غير الاستعاضة عن شعار شتيلريخت بشأن «الوحدة الجرمانية» المشبع برائحة النازية، بشعار «الحلف الاوروبي».

ان فكرة «المذكرة السرية» التي وضعها شتيلريخت تتردد

الآن في مذكرة الجنرالين في الجيش الالماني الغربي شتراوس وخويزنغر اللذين يطالبان بصورة واضحة لالمانيا الغربية بالقنابل الذرية والخدمة العسكرية الاجبارية الشاملة وتعزيز حلف شمالي الاطلسي.

وفي الوقت الحاضر وجدت فكرة شتيلريخت الفاشستي «بشأن ابتلاع البلدان الاوروبية بدون سفك دماء» مجرد صيغة مموهة لـ«التدابير الدفاعية» المزعومة وتأليف قوات ترس التغطية للجمهورية الاتحادية الالمانية، وبتعبير آخر اقامة الجيش الالماني الغربي المدجج بالصواريخ والاسلحة الذرية.

وهكذا يغدو ملموساً تعاقب مخططات هتلر، وامثال شتيلريخت وشتراوس وخويزنغر، المشبعة بروح واحدة الا انها مموهة فقط بالفاظ مختلفة.

وهكذا يغدو مفهوماً لماذا يحاول النازيون الجدد الحاليون في ألمانيا الغربية بعث مذهب هتلر، ولماذا تم قبول ضباط الحرس الهتلري الخاص الآن في القوات المسلحة لحلف شمالي الاطلسي، وكبار الموظفين السابقين في الحزب النازي يشغلون مناصب عالية في جهاز الدولة للجمهورية الاتحادية الالمانية.

ولم يعد يثير الدهشة في الوقت الحاضر هذا السيل العكر من المطبوعات النازية والعدد الكبير من المجلات التي تعمل في ألمانيا الغربية على تزوير التاريخ، وان واجهات المخازن تزخر بالكتب «حول مآثر رجال الحرس الهتلري الخاص»، وتلمع هناك أغلفة عليها صور الفوهرر بكمية يخيل اليك معها أن «سيرة حياة أدولف هتلر» يراد لها أن تصبح الكتاب المرجع لدى الالمان الغربيين.

ولم يعد يثير الدهشة لدى أحد الآن أن الكثيرين من مساعدي هتلر قد تخلصوا من عقاب القضاء العادل واستطاعوا الفرار الى مجاهل الاوجرة الفاشستية السرية.

فالجنرال ـ الليوتنان السابق في الحرس الهتلري الخاص والتر شيلنبرغ، وهو من مساعدي هملر المقربين، عبر البلطيق بسلامة الى السويد بجواز دبلوماسي مزور.

كما اختفى موقتا الجنرال رانهارت غيلن الذي كان في أيام هتلر يمسك بيده جميع خيوط الاستخبارات النازية. وهو قد حفظ، بفراره، قوائم الكثير من العملاء الالمان في مختلف بلدان اوروبا وآسيا. وقد ظهر أن بين يديه مفاتيح الشبكة الجاسوسية التي ألفها كاناريس وهملر وشيلنبرغ.

كما يعيش بسلامة ولهلم خيتل، «المؤرخ» النازي، وأحد رجال الغستابو، الذي بدأ عمله مرافقاً لكالتربرونر وانهى خدمته في فيينا رئيساً للشرطة السرية.

وبين الضواري من رجال الحرس الهتلري الخاص، كشيلنبرغ مثلا، من يكتبون «مذكرات» ويجدون من ينشرها لهم. فقد أصدر شيلنبرغ كتابه في لندن. وهو يورد فيه جملة من الشهادات تفضح أمر غيلن ومنظمته الجاسوسية في دورها الجديد الذي تقوم به في الخدمة لدى حكومة بون.

كما يشهد شيلنبرغ على أن الجنرال غيلن قد وضع منذ عام ١٩٤٤ خطة للنضال الفاشستي السري التي يجب تنفيذها في مرحلة ما بعد الحرب.

فهو، الرئيس السابق لمصلحة الاستخبارات النازية السرية، الجنرال ـ الليوتنان غيلن، الذي ساعد على أن يشغل منصب القيادة في بون، مع الهتلريين الآخرين، الجنرال ـ الليوتنان النازي خويزنغر أيضاً الذي ترقى في سنة ١٩٤٤ بثمن خيانته للضباط الذين تآمروا على حياة هتلر.

ان شخصية الجنرال غيلن الشرسة تبسط جناحيها المشؤوم كأنهما جناحا بومة، على ألمانيا الغربية. وليس عليها فقط. فمن أقوال الصحافة الاميركية يتبين أن ثمة ما يقرب من أربعة آلاف عميل لغيلن يعملون في أوروبا، وقد كان الكثيرون منهم جواسيس المانيا منذ أيام الحرب العالمية الثانية.

وقد ظلت واشنطن وقتاً طويلاً تمول نشاط منظمة غيلن الجاسوسية. والآن وقد ترسخ جواسيس غيلن واستقروا في الشرطة السرية لالمانيا الغربية، واذ أصبحت هذه المنظمة تحمل الاسم المتواضع، اسم دائرة المحافظة على الدستور، ما تزال دائرة غيلن المشؤومة مصدراً هاماً للحصول على المعلومات حتى بالنسبة للولايات المتحدة.

ويخدم جواسيس غيلن من يسمون بالشركاء في حلف شمالي الاطلسي العدواني.

ان جذور «الصداقة» بين الجنرال غيلن ودوائر الاستخبارات الاميركية تمتد ـ على ما في ذلك من الفظاعة ـ الى مدى عميق في تاريخ ما وراء الكواليس للحرب العالمية الثانية. ففي عام ١٩٤٣، ذهب الى سويسرا بجواز يحمل غير اسمه ولهلم خيتل هذا ايضاً، وهو وكيل هملر وكالتنبرونر، وصديق ايخمان، حيث اجرى

مفاوضات سرية مع أحد موظفي بعثة الولايات المتحدة الدبلوماسية في برن. وما كان هذا «الدبلوماسي» غير آلن دالس.

ان الفاشست لم يتمكنوا من احراق جميع وثائقهم في الوقت المناسب، ولا هم تمكنوا من اغراق جميع اوراقهم السرية المشحونة الى صناديق خاصة في أعماق البحيرات الجبلية. فلا بد للسر أن ينجلي في وقت من الاوقات. وقد أقيم الدليل الآن على الصلة بين استخبارات واشنطن وبرلين.

وما كان من قبيل المصادفة أن خيتل نفسه قد سارع بعد انهيار المانيا الى الاختفاء في معتقل اميركي. وما كان حباً بسواد عينيه أن قام آلن دالس نفسه بزيارة ودية له في هذا المعتقل، وهو الجاسوس الهتلري ومن رجال الغستابو.

وقد توصل دالس هذا للحيلولة دون محاكمة خيتل، وكثير من كبار النازيين، لا في ألمانيا ولا في البلدان الاخرى، التي عانت من الغزو الفاشستي.

ان غيلن وخيتل يواصلان عمل هملر وكالتنبرونر. لقد تغير السادة ولكن الاساليب والاهداف ظلت كما كانت في السابق. وقد ساعد آلن دالس خيتل على أن يتولى رئاسة دائرة الاستخبارات في النمسا، وكان الجنرال غيلن في ألمانيا يتلقى تعليمات في تنظيم شبكة الجاسوسية من هملر الاميركي، رئيس الاستخبارات المركزية الاميركية هوفر. واذا بهذين الحليفين السريين في زمن الكفاح ضد الهتلرية، قد اصبحا شريكين علنيين تقريباً في مكافحة قوى الدمقراطية والسلام.

ومنذ بضع سنوات خلت قام الجنرال غيلن بزيارة مقر أرشيف دائرة الاستخبارات المركزية الاميركية، وفتحت له ابواب «برج الوثائق» السري جداً الموجود في اراضي جامعة ستنفورد بولاية كاليفورنيا. وبعد ذلك قابل غيلن آلن دالس.

فعمّ دار الحديث بينهما؟ لقد اهتم الجنرال النازي السابق بالاساليب والوسائل الأميركية الجديدة في مجال الجاسوسية. واكد لاسياده ان نشاطه الرئيسي موجه ضد البلدان الاشتراكية. ولكن كم كانت دهشة آلن دالس وهوفر حين علما ان منظمة غيلن قد بدأت تتجسس بنشاط وعلى... شركائها في حلف شمالي الاطلسي.

ان اقطاب استخبارات المانيا الغربية، وهم تلاميذ هملر وكالتنبرونر، يريدون التجسس على العالم كله. على الاميركيين، وعلى الانكليز، وعلى الفرنسيين. فقد باتت معلومة في فرنسا أوامر غيلن السرية التي كان يطلب فيها التوصل الى الوثائق الانكليزية بشأن طبيعة العمل في احد مراكز البحوث العلمية، ومعلومات عن تجارب مختلف الصواريخ.

فلا الزمن، ولا الاوضاع، ولا المعاهدات والعلاقات الجديدة، تبدل من الطبيعة الوحشية للفاشستية وجوهرها القذر. ولسوف يتجرع الحلفاء الحاليون للجنرالات الهتلريين السابقين كل مرارة كأس غدر النازيين. واما الذين حاربوا الهتلريين في الحرب الماضية ويعرفون العسكريين الحاليين في ألمانيا الغربية، فليس يدهشهم شيء.

وهل من داع الآن للاستغراب من أن الجمعيات العسكرية تنمو في كل مكان، بدعم من حكومة بون، وهي من أمثال الجمعيات التي كانت في عهد هتلر أولى

تشكيلات الحرس الهتلري الخاص، وان سفاحي هتلر السابقين يتناولون رواتب تقاعدية ضخمة، وأن الاميرال دينيتز نفسه، وقد اطلق سراحه من سجن شباندو بعد أن بقي مسجوناً عشر سنوات، «يمنح» راتباً تقاعديا قدره ١٣٠٠ مارك.

وهل من حاجة للبرهنة على أن الفاشست السابقين والجدد، السافرين منهم والمستترين موقتاً، الساعين للاستيلاء خلسة على السلطة في ألمانيا الغربية، كلهم قبل كل شيء اعداء الداء للسلام بين الشعوب.

ولكن الناس ذوي النوايا الطيبة في العالم لن يسمحوا قط بالاجرام الفاشستي، ولن ينسى معاصرونا والاجيال المقبلة المآثر الجليلة لاولئك الذين قهروا القطعان الفاشستية وانقذوا مستقبل البشرية، ورفعوا رايات النصر على برلين.

...ولقد رأينا من جديد هذه الرايات خفاقة فوق الريخستاغ، في اليوم الذي كنا ذاهبين فيه الى المطار، بعد قرابة شهر من استسلام المانيا، للعودة الى بيوتنا.

ولكن «دبابتنا الراديو» كانت من قبل قد سارت للمرة الاخيرة في شوارع المدينة، في انتردين ليندن. وكان الالمان ينصبون هنا اشجار زيزفون جديدة بدلاً من المحترقة. وأما واجهة مبنى الجامعة فكان يتأرجح عليها الدهانون على لوحات خشبية معلقة فوق الجدران تأرجحاً خفيفاً، يجصصون الثغرات ويدهنون الجدران بلون ازرق زاه. وفي كل مكان من المدينة كان عمل اعادة البناء جارياً على قدم وساق، وفي كل مكان كانت ترى صقالات البناء، واذا ما حملت الرياح فجأة من احد الاحياء سحائب كثيفة من الغبار

فما كانت تلك من فعل قنابل تنفجر، انما كان ذلك تراباً جففته الشمس ترفعه في الفضاء دواليب الشاحنات الثقيلة وجرارات البناء.

وما كان الفراغ الا حول المبنى الكالح لدار مستشارية هتلر الجديدة. فما من احد بعد قد أقدم على ترميم الانقاض التي كانت أشبه برمز لانهيار الدولة النازية وموتها. ولقد بدا لي، علاوة على ذلك، أن البرلينيين كانوا يجهدون لتحاشي المرور بهذا الحي لكي لا يوقظوا في أنفسهم الذكريات عما عانوه في الامس القريب الدامي.

ودعنا برلين في الضاحية الشرقية منها. ومن هنا اقتحمت القوات السوفييتية المدينة للمرة الاولى. وهنا تم التوقيع على الاستسلام. ومع أننا كنا ذاهبين على عجل الى المطار، فقد قمنا بزيارة خاطفة لفناء مدرسة الهندسة العسكرية في كارلغورست.

وفي ذلك اليوم الاخير من أيام الحرب كان مبنى المدرسة يبدو لنا على قسط غير كاف من الابهة والجلال، وعلى حظ كثير جداً من الضآلة والتواضع بالنسبة لذلك الحدث التاريخي العالمي العظيم.

ولكن ما العمل؟ ففي بعض الاحيان لا يتفق ابداً لجنود التاريخ، السائرين في درب العصر، المكان اللائق المريح لالقاء عصا الترحال. وها هم في هذه المرة قد القوا عصا الترحال في مطعم سابق لمدرسة الهندسة لكي يعلنوا من هناك للعالم أجمع نهاية الحرب! وقد لاحظنا أن الدار كانت مقفرة. فحوالي ذلك الوقت كانت القطعات العسكرية السوفييتية قد رابطت وراء حدود المدينة، ولعل الالمان لم يكونوا قد قرروا بعد اية مؤسسة ذات شأن سيكون لها شرف الاستقرار في المبنى الشهير.

واذ ذاك لم نلاحظ عند باب المدخل الرئيسي وجود رقعة تذكارية. لم يكن ثمة حول أعمدة المدخل غير أطفال برلينيين بسراويل قصيرة يلعبون، على ما يبدو، لعبة الحرب. وأما على افريز الدار فزوج من الحمام البري يطيران في الفضاء حينا قلقاً من صياح الناس، ويحطان حيناً في حذر، ويخطوان مبربرين فوق الحاجز الحديدي.

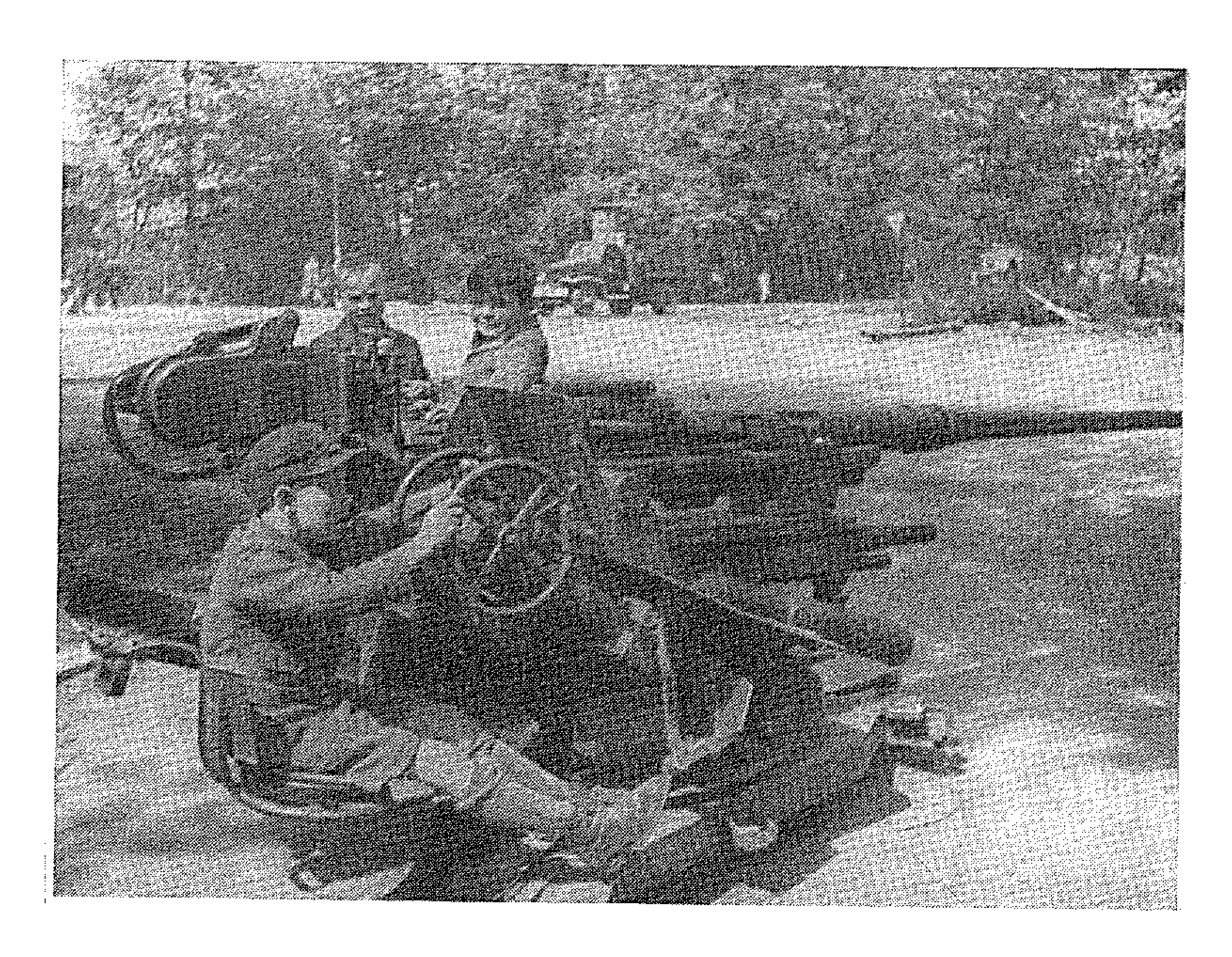
وقد كان فناء مدرسة كارلغورست يتميز اذ ذاك بأنه كان خالياً من أي شيء يميزه. ولكن هذا بالذات كان مثيراً للنفس.

لست أتذكر ماذا كنا نأمل ان نرى هنا من خاص؟ أجل، لعلنا لم نكن نأمل أن نرى شيئاً. كل ما في الامر أن نداء الذاكرة الحثيث كان يجذبنا الى كارلغورست لنلقي مرة أخرى النظر على الدار التي قرر لها أن تغدو بالنسبة للاجيال المقبلة أحد الاماكن التذكارية للنضال الشديد المديد القاسي في سبيل السلام.

وها نحن في المطار من جديد، في المطار نفسه الذي أقلعت منه طائرتنا منذ أسبوعين. ولكن هذا كان اذ ذاك ما يزال ساحة فارغة عليها أبنية متهدمة. اما الآن، وقد دخلت ساحة تمبلغوف في المنطقة الاميركية، فقد أصبح هذا المطار الميناء الجوي السوفييتي الرئيسي. وكان لا يمكن للمرء أن يعرفه.

ما كان يصمت فوق ساحة المطار هدير الطائرات الهابطة والمقلعة. وعلى الدروب المحيطة بساحة الاقلاع تثير الغبار ناقلات البنزين. وفي البيت الخشبي الصغير للقسم النقليات، كان الركاب يتقدمون بمطالبهم لعقيد كهل طويل القامة قاسي الكلام من الاعياء.

كانت الطائرات تقلع مزدحمة، والاماكن ناقصة. وليس



الاطفال هم الاطفال... حتى سلاح الموت حولوه الى ألعوبة.

في الامر ما يدعو الى الدهشة. فقد كان يجيء الى برلين بطريق الجو الاختصاصيون من الميكانيكيين، والبنائين، والاطباء، ورجال التموين، يأتون ومعهم حمولات، بعضهم بملابس عسكرية خيطت على عجل، وبعضهم بثياب مدنية.

وموظفو الادارة العسكرية، والضباط يذهبون على عجل الى موسكو بمهمات تتعلق بالوظيفة، وبما لا يقل عجلة الى الاجازات. وكانوا جميعاً يقدمون تفويضاتهم الى العقيد الجالس وراء الطاولة.

وكنا نحن ايضاً، ونفوسنا لا تخلو من الوجل، واقفين في صف الانتظار الطويل ذاك، آملين مع ذلك بأن الرسالة الشخصية القصيرة من حاكم برلين العسكري ستحمل العقيد على

الوقوف من شخصياتنا المتواضعة موقف الاحترام. وما كنا على خطأ.

ـ بيرزارين نفسه يلتمس! ايوه، لا بد من التنفيذ! ـ وبسط العقيد ساعديه ـ انكم ترون كيف تجري الامور؟ ان الركاب أكثر بخمس مرات من الاماكن في الطائرات. وفي كل يوم يزداد عدد الطائرات. ومع ذلك! اف كم لدينا من اعمال!

ـ ولكن الجسر الجوي بين موسكو وبرلين قائم. وهو جسر عريض! ـ قلت للعقيد وانا أشير بعيني الى ساحة المطار، حيث كانت تحط ثلاث سفن جوية، الواحدة اثر أخرى.

ـ جسر! ـ كرر العقيد ـ ولكننا في حاجة لطريق جوية بعرض نصف السماء. هكذا! ولكنكم ستطيرون قريبا. واتركوا عندي فقط رسالة الحاكم العسكري.

ـ بصفة وثيقة للمراجعة؟ ـ سألته.

ـ سنرى فيما بعد. ـ أجاب العقيد بجفاف. وخبأ الرسالة في الطاولة.

وكان صف الانتظار يضج من وراء ظهورنا بفراغ صبر. فاشار العقيد الينا برأسه لنبتعد. وفي الحق، لقد ظهر لي أن هذا الطيار القاسي الطبع يود أن يحتفظ لنفسه للذكرى بورقة حاكمية برلين العسكرية وبتوقيع الجنرال بيرزارين.

وطرنا في اليوم نفسه. ورسمت الطائرة فوق برلين دائرة وداع رحبة. والتصق الركاب متعطشين بنوافذ طائرتنا الصغيرة نصف الشاحنة التي خلت من أسباب الراحة .

ومن هم الذين كانوا يطيرون الى موسكو في هذه الساعة؟



برلين. تربتوف – بارك. النصب التذكاري «المحارب السوفييتي الظافر».

ضباط يحملون في أيديهم حقائب صغيرة، وجنرال ـ ماجور ومرافقه، وثلاث نساء هن طبيبات عسكريات، وزوجة موظف في الحاكمية العسكرية السوفييتية. وكانت هذه الاخيرة قد جاءت بطريق الجو مع طفلها الى زوجها، وهي الآن عائدة الى تيومين النائية.

وكان في الطائرة ايضاً اختصاصيان في تركيب المصانع، ومهندس، عمل على اعادة بناء محطة اذاعة برلين. كان يطير اولئك الذين أدوا الخدمة العسكرية في برلين أو كانوا يعملون في تجميل وتحسين أسباب الراحة في العاصمة الالمانية.

ولاعترف بأني لا أتذكر برلين من الجو. ربما كان ذلك لأنها كانت في ذلك اليوم أشبه بأطلال بوزنان، وبجحيم وارسو الحجري الذي رأيته من الطائرة ونحن قادمون بطريق الجو الى ألمانيا في مطلع هذا الربيع العظيم.

وقد يكون لهذا سبب آخر: حين ودعنا برلين كنا قد بتنا نرى بعيون بصائرنا موسكو العزيزة.

وقد وعد قائد السفينة الجوية بأن يكون طيراننا لمدة ست ساعات بدون هبوط، ثم نهبط في المطار المركزي لعاصمتنا. ومنذ الدقيقة الاولى التي اقلعت بها الطائرة راح الركاب يتطلعون الى الساعات.

وبودي أن أختم الكتاب بهذه اللوحة الصغيرة. اني لارى بجلاء حتى الآن حجرة الطائرة مضاءة بأشعة الشمس الساطعة غير المحجوبة بالغيوم المفروشة من تحتنا. والركاب الذين لم تكن الابتسامات تفارق وجوههم، في الطائرة الذاهبة من برلين الى موسكو، يتابعون الزمن الجاري، وعيونهم تطرف من الشمس.

ودون أن يدركهم الاعياء، ودون ان يخشى احدهم ازعاج

الآخر، كانوا على الدوام يتحققون من الوقت المضبوط، ويديرون عقارب ساعاتهم، ويحسبون ما تبقى من الدقائق لبلوغ ارض موسكو، بعضهم بصوت مسموع، وبعضهم في صمت.

اني لم أر قط أناساً يتتبعون عقارب الدقائق والثواني بكل هذا الانفعال، وبكل هذه البهجة المشعة في العيون! وأنا الآن أعتقد أن هذا انما كان يجري لمجرد ان السرعة تعطي الزمن وزنا خاصا، لا سيما في الطائرة، الذاهبة بالمرء الى بيته، فان ذلك يكون، بالطبع، من جراء واقع أن الساعة تسجل اذ ذاك زمناً جديداً مدهشاً رائعاً، هو زمن الآمال الكبار والاماني السعيدة، زمن السلام الجديد.

فهرست

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم اليها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب وترجمته، وشكل عرضه، وطباعته، واعربتم لها عن رغباتكم. العنوان: زوبوفسكى بولفار، ٢١
موسكو — الاتحاد السوفييتى

А. МЕДНИКОВ

БЕРЛИНСКАЯ ТЕТРАДЬ

На арабском языке



